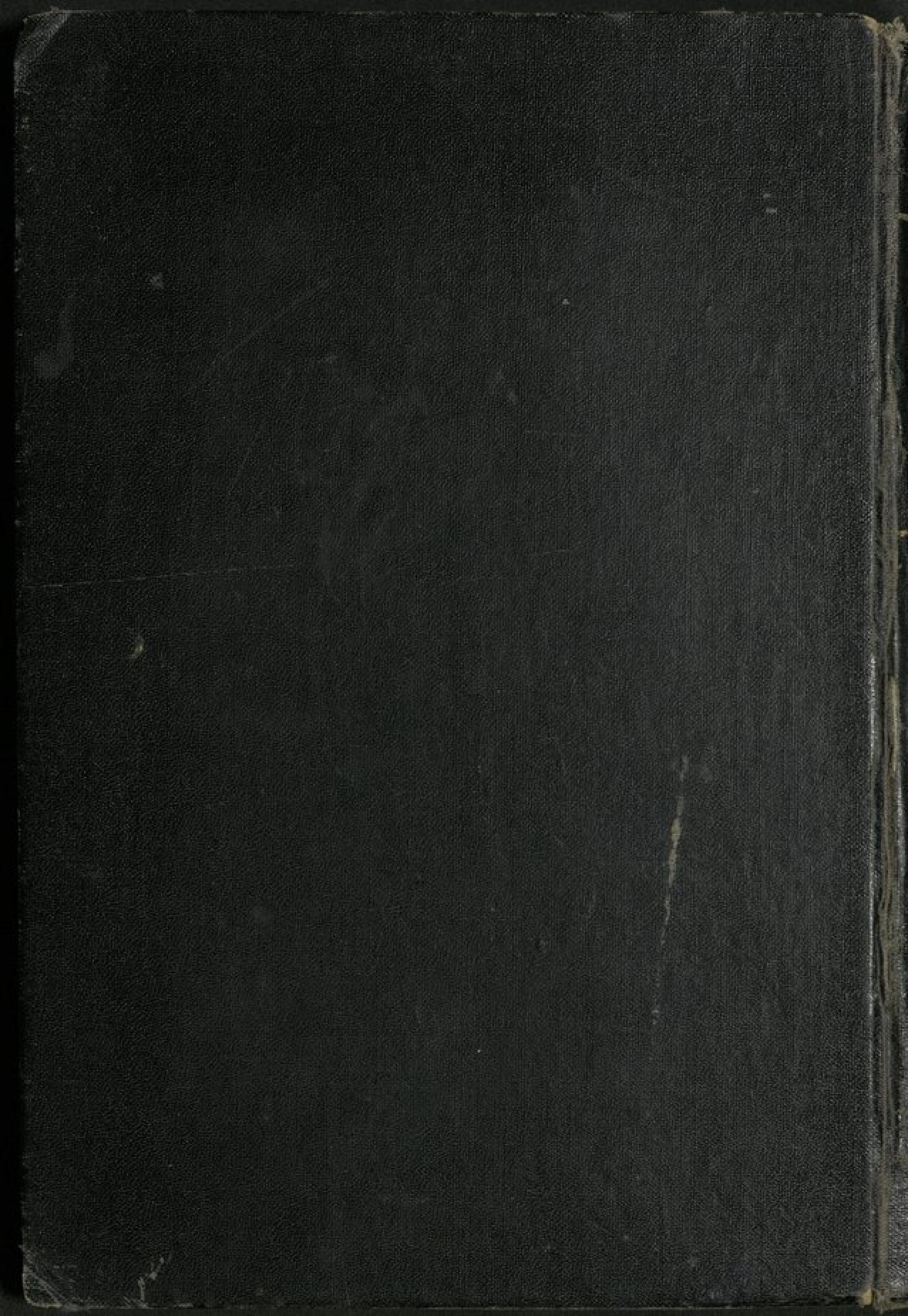
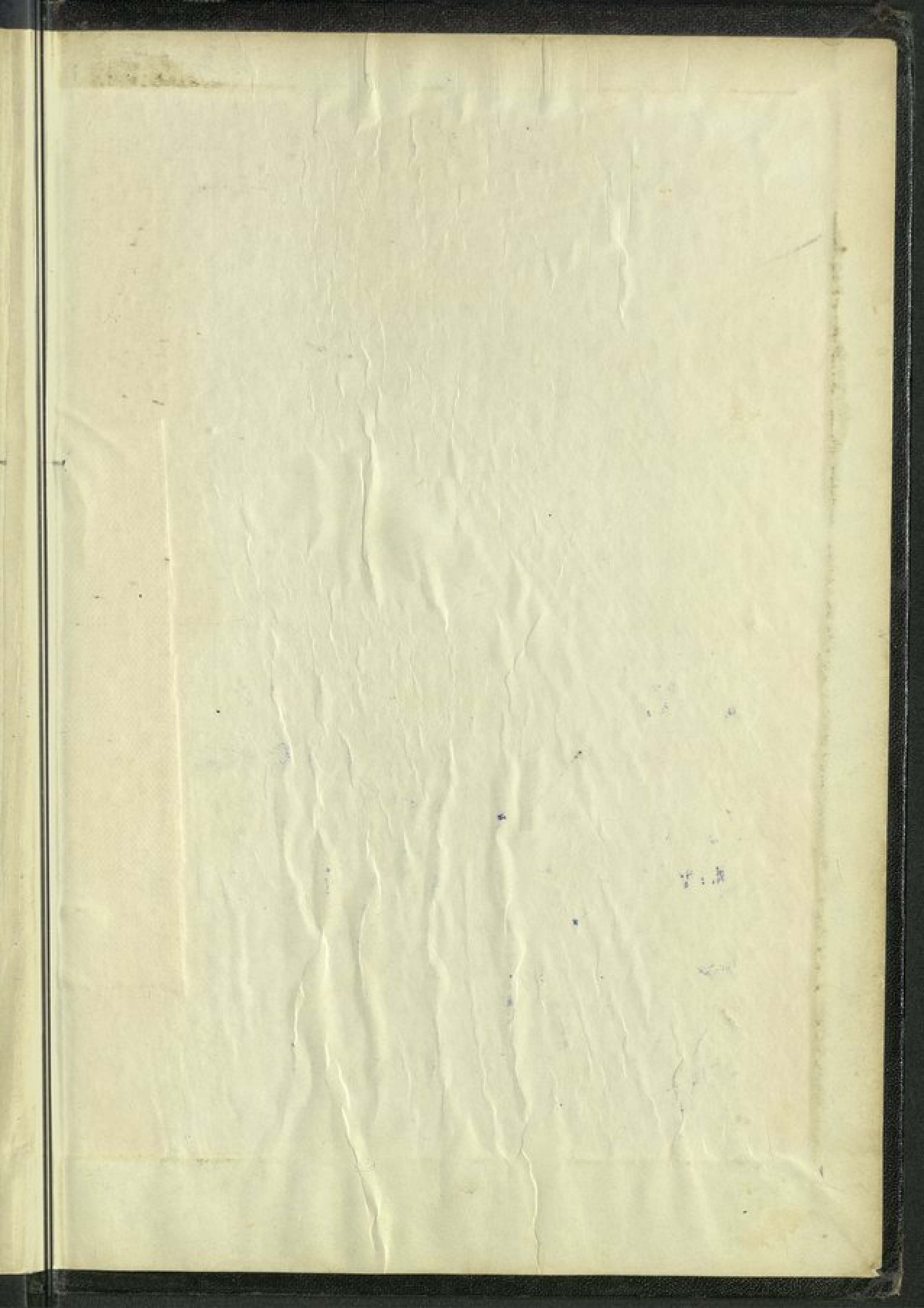
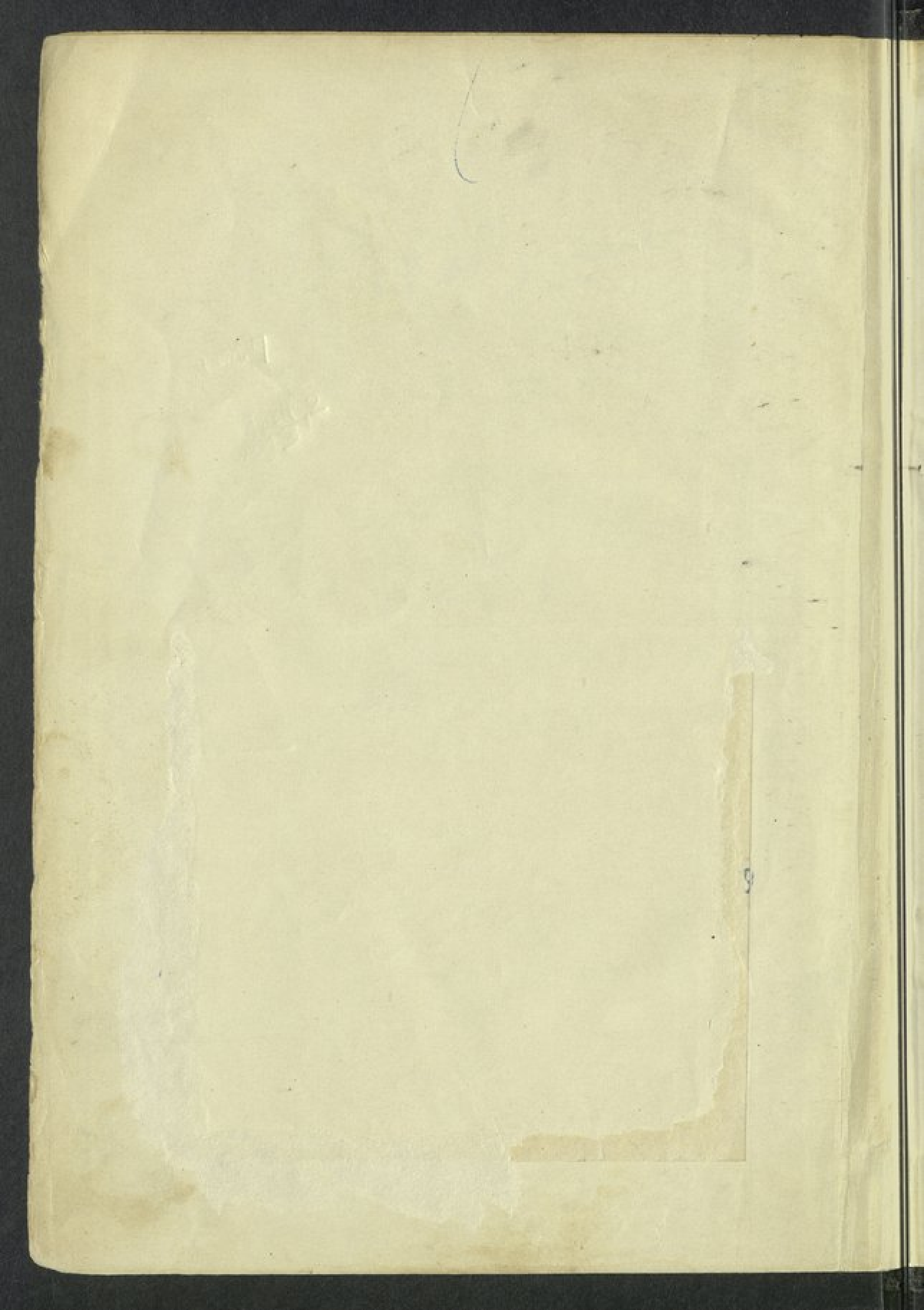
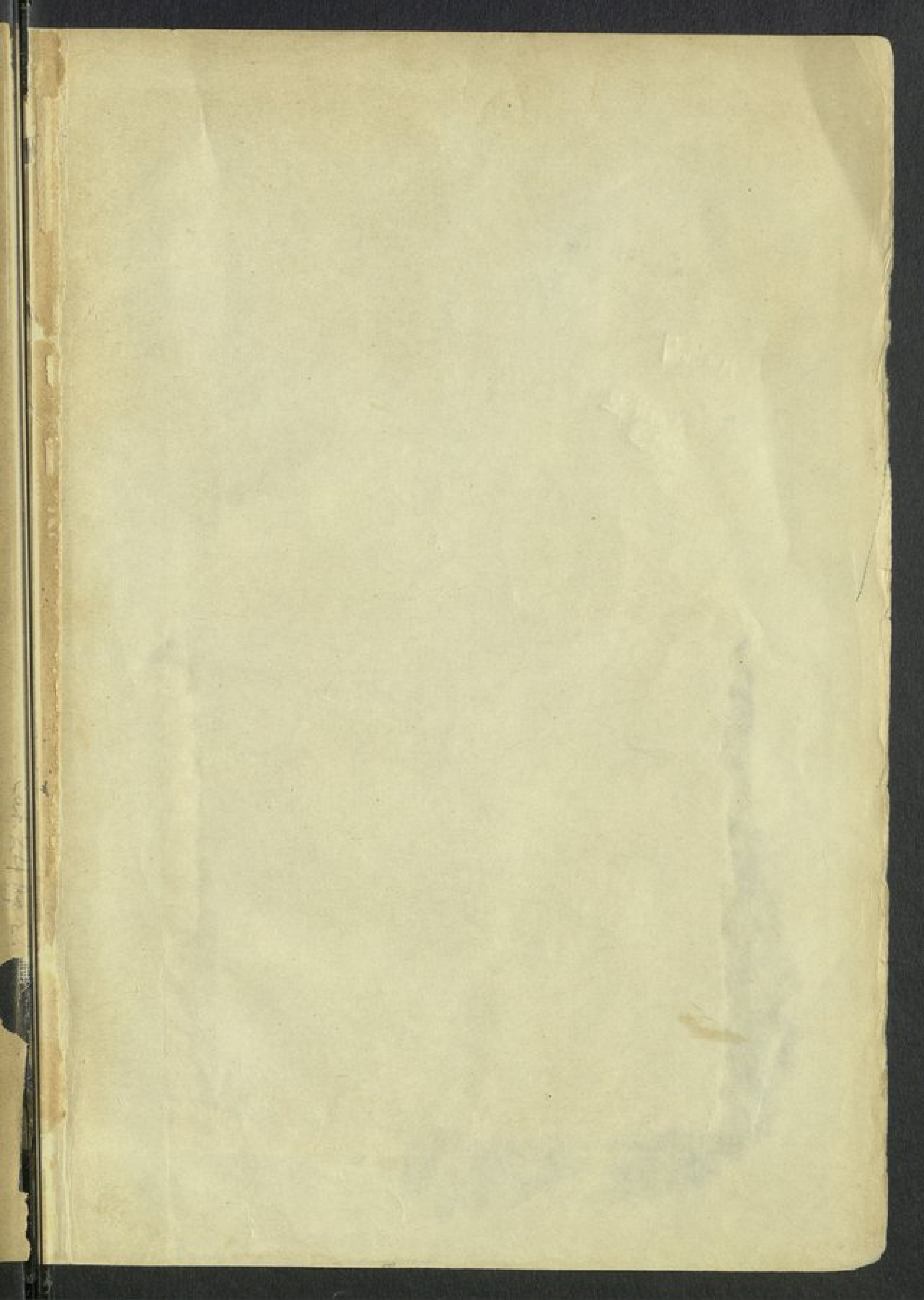








المعبود الذى هوى

دراسات فى الشيوعيـــة

نقلها إلى العربية

عباس حافظ بك

دار النيل للطباعة

١٩٥١

نقل هذا الكتاب

عن

ستة كتاب أعلام

آرثر كوستلر — اينازيو سيلوني

أندريه جيد — ريتشارد رايت

لويس فيشر — ستيفن سبندر

كلمة الناقل

لست للشيوعيـة نصيراً ، وما أنا لها بخصم ؛ ولـكنى أقرأ ، وأبحث ، وأتدبر ملياً ، فان أعجبنى شىء نقلته ، وإن لم يرقنى قرأته لنفسى وكتمته ، ولم أكن به حفياً ...

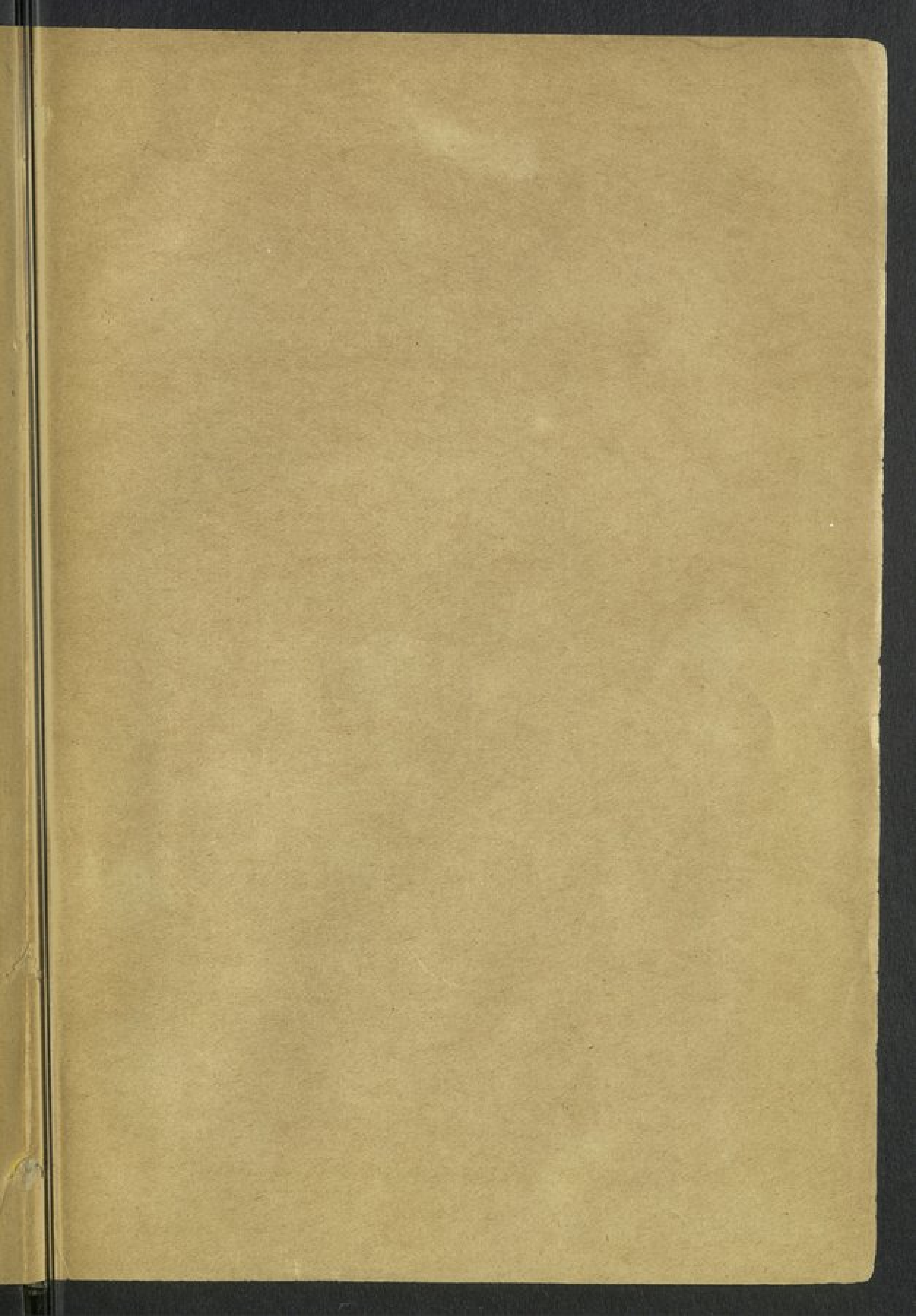
وقد وقع لى هذا الـكتاب نصيحة من ناصح قرأه فأعجبه ، لأنه لم يأت دعاية على الشيوعية أو مجرد تشهير ومَثْلَبة ، فخففت إلى نقله ، متأنيا له ، حريصاً على معانيه وجملة أساليبه ، وأرجو أن أكون قد وفقت فيه ناقلاً وفياً .

ولست أحسبه لمعاشر المتحمسين للديمقراطية مُرْضياً ، لأنه لم يبرئها براءة كاملة ، ولا أظنه لمعاشر المولعين بالشيوعية مقبولا ، لأنه قد شوه لديهم حلماً ذهبياً .

ولـكن أقدار الأمم لا تعتمد على الأحلام ، وإنما تنهض على أثبت الأسس ، وكل تفـكير يأتى عن سـخط ، ويختمر عن تبرم ، يخرج فاسداً ، أو حامضاً ، وقد يُسَوَّى عليه فى نار الألم ، فلا تزيده النار إلا كراهة طعم ، فى حلوق الطاعمين ...

وأخشى أن يكون الذين استخفتهم الشيوعية من الشباب ماضين فى اثر فتنة ؛ والفتنة تتملك العاطفة قبل العقل ؛ وكل ميل إلى العاطفة ، يحجب البحث ، ويُرقد الفـكر ، ويَرِينُ على البصر ، ويأبى إلا أن يكون منفرداً عصياً .

ورجائى إلى هؤلاء الذين فُتنوا أن يقرأوا هذا الـكتاب ، على مُكْث ، ويتجردوا فى قراءته من النزوع فان الذين نقلت منهم فيه ، كانوا من قبلهم مفتونين ، فلما جربوا ، عرفوا ، وحين خبروا ، اهتدوا واكتشفوا ، ولا ينبئك مثل خبير . . .



المقـــدمة

بقلم ريتشارد كروسمان
النائب البريطانى

ولدت فكرة هذا الكتاب فى استعار نقاش ، وحرارة جدل ؛ فقد كنت مقيما مع « آرثر كوستلر » Arthur Koestler فى شمال ويلز . وفى ذات مساء بلغ بنا النقاش السياسى الذى قامت عليه صداقتنا ، حداً وقف عنده البحث ، ونقطة جمود ، لامتقدم عنها ولامتأخر ، فانثنى صاحبى يقول : « إما أنك لاتستطيع أن تفهم ، وإما أنك تأبى أن تفهم ، وهذا هو شأنكم جميعاً معاشر الأنجلوسكسونيين المستريحين الناعمين ، المحصورين فى جزائركم ، المناهضين للشيوعية والشيوعيين . فأنتم تكرهون منا صيحاتنا المنذرة ، وتنفرون منا كحلفاء ، ولكننا معاشر الشيوعيين المرتدين — بعد كل ما يمكن أن يقال لنا أو علينا — لا نزال فى الجانب الذى يعرف كل شىء ، ويعلم الخافية ، ويدرك الحقيقة ... » .

وعندئذ انعطف بنـــا الحديث عن فلان ، وفلان ، وفلان ، وكيف انقلبوا شيوعيين ، ولماذا خرجوا على الحزب أو بقوا فيه . ومضيت أقول ، حين عادت المناقشة تستحمى ، ومراجل الجدل تغلى : « على رسلك ... وتعال قل لى أنت عما جرى حين انضممت إلى الحزب ، لا من ناحية شعورك الآن ، بل من ناحية شعورك فى ذلك الحين ... » .

وهكذا بدأ كوستلر يقص قصـــته العجب ، وبروى كيف كان لقاؤه بالهر « شنيلر » فى مصنع « شنيدمول » للورق ، وإذا بى فجأة أقطع عليه الحديث قائلا : « هذا يصح أن يكون كتابا ... » .

وبدأنا نسترجع من الذاكرة أسماء المرتدين الذين فى وسعهم أن يرووا للناس قصتهم ، ويحدثوهم عن أنفسهم أحاديث الحقيقة كاملة .

واتسع فى البداية نطاق اختيارنا ، وتعددت الأسماء أمامنا ، وترامت الأمثلة لدينا ؛ ولكننا قبل أن ينتهى مجلسنا فى تلك الليلة ، أجمعنا النية على ألا تتجاوز الأسماء ستة من الكتاب والصحفيين ، ولم نعن مطلقاً فى وضع هذا الكتاب بتضخيم الدعاية ضد الشيوعية ، ولا نظرنا فيه إلى تهيئة الفرصة لبسط الشفائع ، وسرد المعاذير ؛ بل ألقينا بالنا فيه إلى شىء واحد ، وهو دراسة نفسية الشخص الذى اعتنق الشيوعية وحالته العقلية عند اعتناقه لها ، والجو الذى كان محيطاً به ، فى الفترة بين عامى ١٩١٧ و ١٩٣٩ حين شاع الاعتناق ، وكثرت أفواج المعتنقين .

واقتضى تحقيق هذا الهدف ألا يحاول كاتب من هؤلاء الذين حشدنا أحاديثهم فى هذا الكتاب أن « يعيش » مرة أخرى فى الماضى ، فإن ذلك أمر مستحيل ، بل أن « يعيد خلقه » بالخيال ، وينشئه من جديد بالتحليل النفسى ، على الرغم من الحاضر وعلمه به ، وما توافر من المعرفة والإحساس فيه .

ولست أجهل أن رواية المرء عن نفسه على هذا النحو ، تكاد تكون ضرباً من المستحيل على السياسى العملى ، لأن كرامته ستأبى إلا تصوير الماضى بروح الحاضر وتفكيره .

ولست أنكر أيضاً أن مايسمونه « التحليل العلمى » مضلل هو كذلك ، ومبعد بنا عن الحق والواقع ، لأن تقطيع الشخصية وتجزئتها إلى مجموعة من العلل النفسية والأسباب والمؤثرات الاجتماعية ، من شأنه أن يذهب « بالانفعالات » التى أردنا وصفها ، ويفقد الحديث الدوافع العاطفية التى رمينا إلى حشدها بين دفتى هذا الكتاب ؛ فلا عجب إذا نحن توخينا « الموضوعية » البحتة منه ، وهى أن يتمكن كل كاتب من « استجاع » الماضى ، إن لم يكن فى هدوء تام ، فعلى الأقل فى تجرد من الهوى ، وتنزه عن الغرض ، وهى مقدرة قلما تتوافر لغير الكاتب الذى أوتى ملكة الخيال .

وقد حدث فى السنوات التى انقضت بين بداية الثورة البلشفية فى أكتوبر، وميثاق التحالف بين هتلر وستالين، أن فتن بالشيوعية خلق لا عداد لهم من الكتاب والأدباء فى أوربا وأمريكا، ولكن هؤلاء لم يكونوا فى الواقع من قبيل المعتنقين المألوفين، أو كسائر الذين تحولوا إلى الشيوعية ودخلوا فى غمارها، بل كانوا فى الحقيقة أشد الشيوعيين الجدد شذوذاً، وأغرب المتحولين أمراً، لفرط ما بهم من حساسية، وتناهى ما فى نفوسهم من سرعة تأثر، مثلهم فى ذلك كمثل الكاثوليكى الأديب، إذا قورن بعامة الكثالكة؛ فقد كانوا أسمى من سواهم إدراكاً لروح العصر وأشد فطانة من الآخرين، لوجوه فشلها، ونواحى الأمل والرجاء فيها، فكان تحولهم إليها معبراً بصورة بالغة، أو هستيرية أحياناً، عن أحاسيس يشاركهم فيها، على نحو مبهم، وبمعنى غير واضح، ملايين بكم لم يؤتوا القدرة على التعبير، ممن أحسوا أن روسيا «فى صف العمال والكادحين». ولا يخفى أن الشخص «المستنير» فى السياسة هو أبداً غير «متزن» فى تقدير زملائه، لأنه إنما يتمشى حول المنعطف المثالى، أو يطل على المفترق، أما هم فلا تفارق أعينهم النظر إلى الطريق؛ وهو إنما يجازف بإيمانه على أفكار وتصورات لم تتحقق، ولا يأخذ بالحكمة والحرص فيقتصر على الولاء المألوف. وهو على هذا النحو «متقدم» أو فى هذا المعنى «متطرف». فإن جاءت الأيام مصدقة لما كان يقول به، فنعمت العاقبة، وحسناً فعل؛ وأما إذا اتخذت الأيام منعطفاً آخر، فإما أن يتقدم ويواصل المسير إلى النهاية المحتومة، وإما أن يرضى لنفسه المهانة فيقفل راجعاً وينقض أفكاراً وآراء أصبحت جزءاً من نفسه وبضعة من شخصيته.

وفى هذا الكتاب انبرى ستة «مستنيرين» لوصف رحلتهم إلى الشيوعية ومآبهم منها، بعد أن رأوها فى مبدأ الأمر من طريق طويل، ومكان قصى، كما رأى أسلافهم منذ مائة وثلاثين عاماً الثورة الفرنسية، كملكوت الله على الأرض، وراحوا — كما فعل الشاعران وردسورث Wordsworth وشيللى Shelley —

يكرسون مواهبهم للعمل فى تواضع وخشوع على مجيئها، والتعجيل بمقدمها ، ولم تثنهم صدمات الثوريين المحترفين لهم ، ولا سخريات خصومهم ، بل ظلوا ماضين فى طريقهم ، حتى بدت لهم الفجوة بين ملكوت الله الذى تصوروه ، وبين حقيقة الدولة الشيوعية — وعندئذ بلغ الصراع بينهم و بين ضمائرهم حدود الانفجار .

وقليل هم الذين يحق لهم أن يقولوا إنهم ألموا حقا على المنعطف ، ووقفوا عند المفترق ؛ فقد استطاع برتراند رسل Bertrand Russell أن يعيد طبع الكتاب الذى نشره فى عام ١٩٢٠ وهو «البلشفية نظرية وتطبيقاً» دون أن يغير فيه حرفاً واحداً ؛ ولكن أكثر أولئك الذين رشدوا اليوم بعد غى ، وسخروا من بعد يقين ، ونفروا من بعد رضى ، كانوا إما عمياناً ، كما كان إدموند بيرك فى أيامه أعمى ، فلم يدركوا معنى الثورة الروسية ، وإما أنهم تراوحوا مع « البندول » فذموا ثم مدحوا ، ثم عادوا فذموا ، تبعاً لإملاء السياسة العامة ومقتضياتها .

إن هذه الروايات الست التى يرويها أصحابها عما وقع لهم فى حياتهم حرية على الأقل بأن تكشف للناس عن مخاطر هذه المناهضة الهينة اللينة للشيوعية ، بل هذه المناهضة التى تدفع إليها الظروف والضرورات ، كما تكشف فتنة الشيوعية كأسلوب من أساليب الحياة لب رجل مسيحى فى أعماقه كسيلونى Silone بضع سنين ، وينم استيلاؤها على شخصيات بارزة كشخصيتى أندريه جيد André Gide وكوستلر Koestler عن نقص بالغ فى الديموقراطية الغربية ، وعيب كبير . وإن انتقال كاتب زنجى مناضل فى شيكاغو كريتشارد رايت Richard Wright إلى صفوف الحزب الشيوعى ، بلا تردد ، ولا إحجام ، لهو فى حد ذاته اتهام موجه إلى أسلوب الحياة عند الأمريكيين ؛ وأما لويس فيشر Louis Fisher فيمثل ذلك الفريق الممتاز من المراسلين البريطانيين والأمريكيين الذين وضعوا إيمانهم فى روسيا ، لا عن احترام للشيوعية قدر ما هو عن زوال أوهامهم بسبيل الديموقراطية الغربية وانقشاع الغشاوة عن أبصارهم ؛ ونفورهم بعد ذلك من محاولات تسكين ثائرة المتسخطين ،

وتهدئة خواطر المستنكرين والمنددين . وهذا هو الدافع ذاته الذى دفع ستيفن سبندر Stephen Spender الشاعر الإنجليزى إلى ناحية الشيوعية ، فقد بدت له الحرب الأهلية فى إسبانيا ، كما بدت لجميع معاصريه ، محك السياسات العالمية . وهى سبب رحلته القصيرة إلى الشيوعية ، وسر انتقاضه عليها فيما بعد .

وليس بين هذه الشخصيات الست المتباينة من رابطة غير شىء واحد ، وهو أنهم جميعاً ، بعد صراع أليم مع ضمائرهم ، اختاروا الشيوعية ، لأنهم فقدوا إيمانهم بالديموقراطية ، وارتضوا التضحية بما فى « البورجوازية » من حقوق أو « حريات » ، لكى يدحروا « الفاشية » .

فقد كان تحولهم إلى الشيوعية فى الواقع عن يأس من قيم الحضارة الغربية وأقدارها ، ومن السهل على المرء أن يستشف بالتأمل فى الماضى ذلك اليأس الذى كان يعتمل فى نفوسهم ، و يرى أنه كان يأساً « عصبياً » أو « هستيرياً » ، و إن كانت « الفاشية » قد « اندحرت » بغير تسليم فى تلك « الحريات » كما كانت الشيوعية مقتضيتهم . ولكن كيف كان « سيلونى » مستطيعاً أن يتنبأ بهزيمة الفاشية فى عام ١٩٢٠ ، حين كانت الديموقراطيات تداعب موسولينى وتجامله ، ولم ينهض لتنظيم حركة مقاومة خطيرة حيالها غير الشيوعيين فى إيطاليا دون سواهم . وهل كان « جيد » و « كوستلر » على ضلال مبين ، حين أصبحا شيوعيين ، فى شعورهما بأن الديموقراطية الألمانية والفرنسية فاسدة ، و إحساسهما بأنها ستستسلم غداً للفاشية صاغرة ؟

إن بعض فضل هذا الكتاب أنه يهز ذاكرتنا هزة عنيفة ، و يذكرنا بتلك الوحشة الأليمة التى عاناها خصوم الفاشية قبل الأوان . وهم أولئك الذين فهموها على حقيقتها وحاولوا أن يحاربوها قبل أن تصبح محاربتها جديرة بالتقدير ، حرية بالإكبار ؛ فإن تلك الوحشة هى التى جعلت عقولهم تستجيب للشيوعية وتستمع إلى ندائها الجديد .

وقد كانت الاستجابة لها قوية على الأخص فى نفوس الذين كانوا من الإخلاص لفطرتهم بحيث لا يرتضون الاشتراك فى الإيمان العام بقيام نهضة تقدمية اعتباطاً، ورأسمالية متزايدة نامية على الأيام، والقضاء على سياسة القوة فى هذا العالم.

وتبين لهم أن «الكولوجية»(١) فى أمريكا، و« البلدوينية والمكدونالدية »(٢) فى بريطانيا، والسلامة الجماعية(٣) فى عصبة الأمم، كانت مجرد « بهارج » بليدة مموهة أعمت أبصارنا، معاشر الديموقراطيين الفطنين الحريصين، عن رؤية الهوة السحيقة التى كنا مندفعين نحوها اندفاعاً. وقد كان هؤلاء يشعرون فى أعماق نفوسهم بنذير تلك الهوة، فمضوا يبحثون لهم عن فلسفة يستطيعون تحليلها والتغلب عليها، فوجد كثير منهم فى الماركسية طلبتهم، ووقعوا منها على ما كانوا ينشدون.

وكان سر فتنة « الماركسية » لعقول المستنيرين أنها قضت على نظريات الأحرار وسفسطاتهم وأثبتت حقيقة مرة، وهى أن « التقدم » لا يأتى « اعتباطاً »، وأن الرواج والكساد أمران ملازمان للرأسمالية، وأن الظلم الاجتماعى، والتعصب العنصرى، لا يعالجان بمر الزمن وحده، وأن سياسة القوة هيهات أن تلغى، بل ستستخدم للشر والخير على السواء، ولم يكن فى إمكان رجل مستنير بعد عام ١٩١٧ إذا هو خير بين فلسفتين ماديتين أن يختار فكرة « التقدم الاعتباطى » التى رأينا فريقاً كبيراً من أهل النفوذ، يعدونها الأساس الأوحد للديموقراطية؛ وكان الاختيار يومئذ بين أقصى « اليمين » واعتزامه استخدام القوة لتدمير الحرية البشرية، وبين « اليسار » الذى كان يومئذ يلوح فى لهفة على استخدامها لتحرير البشر. ولم تعد الديموقراطية الغربية اليوم، قليلة الخبرة، مادية متناهية فى المادة كما كانت فى تلك الفترة الموحشة، فترة الهدنة بين الحربين الماضيتين، ولكنها لم تبدأ تفهم أن مهمتها هى ألا تسمح « للتقدم »

---

(١) نسبة إلى كوليج رئيس الولايات المتحدة مرتين بين عامى ١٩٢٣ و ١٩٢٩.

(٢) نسبة إلى بلدوين وماكدونالد وهما معروفان.

(٣) يشير إلى جهود عصبة الأمم فى سبيل صون السلام الدولى.

بأن يؤدى عنها عملها ، و يتولى عنها واجبها ، بل تتكفل بإيجاد بديل من الثورة العالمية من طريق التعاون بين الشعوب الحرة . نعم ، لم تبدأ تفهم مهمتها هذه إلا بعد حربين عالميتين ، وثورتين دكتاتوريتين ..!

و إذا كان اليأس والدهشة هما الدافعين الكبيرين إلى اعتناق الشيوعية ، فقد وجدا نصيراً قوياً لهما فى الضمير المسيحى ، وظهيراً بالغاً . فإن الرجل المستنير شعر بوخز المسيحية الأرثوذكسية ، و إن كان قد تنحى عنها ، وهجر عباداتها وشعائرها ، بل لقد كان شعوره بهذا الوخز أشد وقعاً فى نفسه منه فى نفوس خلق كثير من جيرانه الذين ألفوا الذهاب إلى الكنيسة ، ولم يؤتوا القدرة التى أوتيها على التفكير فى الدين ، والبحث فى جوهره وصميمه ، لأنه أدرك على الأقل مبلغ الظلم الذى يقترن بالمركز الذى يحتله فى المجتمع والامتيازات التى يستمتع بها ، سواء ما كان منها بحكم العنصر أو الطبقة أو التعليم . ولعل سر استجابة العاطفة لدعوة الشيوعية وفتونها فى تلك التضحيات المادية والمعنوية التى تطلبها من المعتنق لمبادئها. ولك أن تسمى هذه الاستجابة رضى بالألم [1] ، أو تصفها بأنها رغبة صادقة فى خدمة البشرية؛ ولكن أيا ماتدعوها، فلا تزال فكرة قيام « رفقة » أو « زمالة » عملية فى النضال ، زمالة تقتضى التضحية الشخصية و إلغاء الفوارق بين الأجناس والطبقات ، قوية الأثر فى كل ديموقراطية غربية ؛ ولايخفى أن مبلغ فتنة الحزب السياسى العادى رهن بمدى مايقدمه إلى أعضائه ، فلا عجب إذا كان مبلغ فتنة الشيوعية أنها لا تقدم شيئاً ، بل تقتضى كل شىء حتى التسليم فى الحرية الروحية والرضوخ [2] بكل معانيها ومطالبها .

وفى هذا تعليل لظاهرة طالما أحارت المفكرين ، وأعجزت الباحثين ، وهى كيف ارتضى هؤلاء المستنيرون نظريات ستالين وتعسفاته ؟؟ والجواب ستجده متناثراً فى

(١) فى الأصل ماسوكيزم أى رضى بالعذاب عن اختلال فى الحاسة الجنسية أو نحوها .
(٢) رضخ بالشىء أعطاه وسلم فيه .

الصفحات التالية ، فإن المناعم المادية فى نظر الرجل المستنير لا تهم ، وإنما أكثر اهتمامه منصرف إلى الحرية الروحية ، وكانت قوة الكنيسة الكاثوليكية وسلطانها الدائم أنها تقتضى التضحية بتلك الحرية بلا رفق ، والتخلى عنها بلا هوادة ، وحكمها على الكبرياء بأنها ذنب عظيم ، وإثم لا يغتفر؛ وقد كان الشيوعى الجديد فى إخضاع روحه لقانون الكرملين يشعر بشىء من تلك الراحة النفسية ذاتها التى توحي بها « الكثلكة » إلى نفس الرجل المستنير الذى يستشعر الألم الواخز من استمتاعه بامتيازات دون الكافة ، وحريات دون الآخرين .

ويوم يرتضى المستنير التخلى عن حريته الروحية ، لا يلبث ذهنه أن يصبح بكليته فى خدمة هدف لا يخالجه الشك فى سلامته ، وغاية لا يساوره الريب فى صدقها بدلا من أن يفكر طليقاً ، ويتأمل حراً من كل قيد أو سلطان ؛ بل إن إنكار الحقيقة يصبح خدمة تؤدى ، وعملا حسناً . وهذا هو بلا شك السبب فى أن مناقشة شيوعى ما فى أية ناحية من نواحى السياسة عقيمة لا جدوى منها ، وكل اتصال ذهنى صادق به ينطوى على تحد لإيمانه ، واصطدام بيقينه ، وإثارة بالغة لروحه. ولهذا كان تقديم الكبرياء على مذبح الثورة الشيوعية أسهل كثيراً من انتزاعها منه واستردادها .

وقد يكون هذا سبباً من الأسباب التى جعلت الشيوعية أكثر نجاحاً فى الأقطار الكاثوليكية منها فى الدول البروتستانتية ؛ لأن البروتستانتى، فى الأصل على الأقل ، يأبى عليه ضميره أن يرتضى الرضوخ بالروح لأية سلطة مستأثرة ، ويعتقد أنه يعلم الشر والخير ، ويدرك الحق والباطل ، بنور قلبه ، وضياء روحه ، وأن الديموقراطية عنده ليست مجرد شكل مريح أو عادل من أشكال الحكم ، بل ضرورة تقتضيها الكرامة الإنسانية . مثله فى ذلك كمثل « بروميسيوس[1] » الذى سرق النار من السماء واستقر إلى الأبد على جبل القوقاز ينقر النسر كبده ، لأنه أبى التسليم فى حق

(١) «بروميسيوس» فى أساطير اليونان هو نصف إله صنع الإنسان من صلصال وسرق النار من جبل أوليمب . وعلم الإنسان استخدامها فعاقبه « زفس» رب الأرباب بقيده فى الأغلال .

معاونة بنى البشر بالعقل والهدى . وإنى لأسائل نفسى أحياناً ما بالى يوم كنت فتى حدثاً أقيم مع ويلى منزنبرج Willy Munzinberg الزعيم الشيوعى فى برلين لم أقبل إغراءه إياى بقبول الدعوة إلى الذهاب معه إلى روسيا ، وإن كانت شخصيته الرائعة قد أسرتنى ، تلك الشخصية التى وصفها آرثر كوستلر فى هذا الكتاب . وكانت الماركسية تبدو لعينى الجزء المكمل للفلسفة الأفلاطونية ، وهى يومئذ موضوع بحثى وجوهر دراستى . وكنت فى صيف عام ١٩٣١ على يقين يخالطه زهو بأن الديموقراطية الاشتراكية فى ألمانيا سوف تتداعى أمام النازية ، وأن نشوب الحرب أمر لا مفر منه حين يستولى هتلر على مقاليد السلطان .

فليت شعرى إذن ما الذى جعلنى فى أعماق لا أستجيب لنداء الشيوعية وفتونها ؟؟ والجواب أن مرجع ذلك فى ملتى واعتقادى إلى « العناد » ، أو إن شئت قل إلى « الكبرياء » . فلست أرى علىّ سلطاناً لأحد ، كائناً من كان ، يستوى فى ذلك الروحى والزمنى . وهذا هو بعينه الباعث الذى يستطيع المرء أن يجده فى شأن « ستيفن سبندر » فقد رأيناه عقب انضمامه إلى الحزب الشيوعى ينشر فى جريدة « الديلى وركر » مقالا سداه ولحمته « الانحراف » عن الشيوعية ، لمجرد التصلب والعناد . وأميل إلى الاعتقاد بأن تجاربه فى الشيوعية كانت متسمة فى الواقع بالطابع « البريطانى » . أشبه شىء بما كان من أمر « الرفيق » الذى وصفه لنا « سيلونى » فى روايته التى يحدثنا فيها عن نفسه ؛ فإن تأثره الساذج بأكذوبة متعمدة أثارت الضحك فى جميع أرجاء « الكرملين » . فنحن البريطانيين نُخرِج من الزنادقة — أو الهراطقة — أكثر مما ينبغى ، وهم عندنا كثر متوافرون ، لما ركب فى نفوسنا من النفور الشديد من فكرة « العصمة » من الذنوب . ولكن لا تنس أن هنرى الثامن كان فى زمانه مثال المؤمن « بالتيتوية » [1] ... !

(١) نسبة إلى المارشال تيتو الذى يصر على أن الشيوعية التى يؤمن بها هى الشيوعية الصحيحة الصادقة ، وإن كان فى الوقت ذاته قد انصرف عن روسيا وشيوعية ستالين . وكذلك كان هنرى الثامن يصر على أنه ما فتىء مسيحياً كاثوليكياً صميماً ، وإن كان فى سلوكه وتصرفاته يبدو من المسيحية بعيداً .

ولكن لنعد إلى أوربا .

إن من أعجب الأسرار التى كشفت عنها هذه الروايات الست التى سنوردها فى هذا الكتاب موقف الشيوعيين « المحترفين » من المستنير الذى تحول إلى الشيوعية . فهم لا ينفرون منه ولا يستريبون به فحسب ، بل الظاهر أيضاً أنهم يعرضونه لتعذيب بالغ ، و إيلام شديد ، واضطهاد عقلى مقصود . وكانت هذه المعاملة فى بداية الأمر لا تزيده إلا إيماناً . بل كانت فى الواقع تنمى فيه الشعور بالذلة والضعة حيال العامل الكادح الصادق فى شيوعيته ، الأصيل فى عقيدته . وكان يرى من المتعين عليه أن يحقق بالتدريب النفسى الصفات التى كان يصورالخيال له ، من فرط الإعجاب ، أن العامل إنما أوتيها بالسليقة ، واكتسبها بالفطرة . ولكن من الجلى أن هذا الشعور لا يلبث أن يتغير ، وسرعان مايفطن إلى حقيقة الأحوال فى روسيا . وعندئذ تستحيل الذلة الأولى التى كان يستشعرها ، والتى رأينا « سيلونى » فى روايته يجيد وصفها ، إلى ذلك الإيمان الذى أوحى به ماركس، على الرغم من سخريته البالغة من الصقالبة Slavs ، وهو أنه من المتعين على الغرب « تنوير » الشرق ، وعلى الطبقة الوسطى تنوير الطبقة الكادحة .

وكان هذا الاعتقاد بداية انقشاع الأوهام التى كانت مسيطرة على أذهان الذين اعتنقوا الشيوعية ثم ارتدوا ، بل بداية التشفع والاعتذار عن البقاء فى حزبها . أما انقشاع الأوهام فلأن الدافع الأكبر إلى اعتناقها هو اليأس من الحضارة الغربية بعد أن تبين لأولئك المستنيرين أنها تحوى قيماً توجب الاتجاه إلى الشيوعية الروسية . وأما الاعتذار فلأن الحجة التى يتيسر لهم التذرع بها هى أن القسوة الشرقية من شأنها ، إذا توارى النفوذ الغربى ، أن تحيل الدفاع عن الحرية الإنسانية إلى طغيان مقيت ، وسلطة غاشمة .

وهنا يبدو الصراع الرهيب فى أعماق الضمير . ذلك الصراع الذى وصفه « أندريه جيد » فى عرض قضية الغرب القديمة ضد الشيوعية الروسية [١] .

ولولا الحرب الأهلية فى إسبانيا، والسياسة التى اتبعها الغرب حيالها، وهى الامتناع عن التدخل فيها ، لارتد بعد أندريه جيد فى عام ١٩٣٠ ألوف من « المستنيرين » . فإن مأساة الحرب الإسبانية ، والحملة المنظمة لإقامة جبهة شعبية حيال « الفاشية » ، ساقتا بجيل كامل من الشباب الغربيين إلى معسكر الشيوعية ، أو إلى الاتصال الوثيق به ، واحتجزت خلقاً كثيراً آخرين عن « الردة » إلى الديموقراطية ؛ وإن كانوا قد اشمأزوا مما شاهدوه ، وانقلبوا مما عانوه ساخطين .

أما قصة ريتشارد رايت ، فلها شأن خاص ، وخطر قائم بذاته ، لأنها تدخل على المسرح الأمريكى مشاهد « الروح الاستعمارية» Imperialism ونتائجها ومعقباتها ، ومناظر « العنصرية » Race ومساويها وموبقاتها ؛ فقد شعر ، وهو زنجى يعيش فى أكواخ شيكاغو وأعشاشها ، بما لم يشعر بمثله أحد من المستنيرين الغربيين ، شعر بسلطان عقيدة جديدة تبدو كفيلة برد حاسم كامل على مشاكل المظالم الاجتماعية والعصبيات العنصرية . وبينما نرى الكتاب الآخرين فى أحاديثهم التى يجمعها هذا الكتاب قد ضحوا طواعية بمراكزهم الشخصية وحرياتهم الخاصة بقبولهم « النظام الشيوعى »، نجد « رايت » يعد هذا النظام سراحاً رائعاً لقوة مكبوتة و إطلاقاً بديعاً لمواهب وملكات محتبسة ، ونتبين أنه إنما «ضحى» حين غادر صفوف الشيوعيين .

فقد مضى فى قصته يقول « لقد كنت أحس فى أعماق قلبى أننى لن أستطيع

---

(١) وذلك أن أندريه جيد أبدى استعداده للمساهمة فى هذا الكتاب قبل إعداده ، ثم تبين له بعد ذلك أن حالته الصحية لا تسمح له بتأدية هذه المهمة ، فأسفت لهذا أشد الأسف ، ولم أشأ أن أخسر هذا العنصر الخطير من عناصر هذه الدراسات . ولقد سرنى أن أعهد إلى الدكتورة إنيد ستاركى بتنسيق ما كتبه أندريه جيد وإعداده للنشر ، فعكفت على العمل ، واستشارته فيه ، وقد أقر ما كتبته فى النهاية وأذن به ، وهكذا جاء النص من عملها ، ولكنها بنته على فقرات بأعيانها من رسالتين كتبهما عقب رجعته من روسيا ، كما استأنست بما ورد فى « مذكراته » ومناظرة جرت فى دار « البحث عن الحقيقة » فى باريس عام ١٩٣٥ . وأحب هنا أن أقدم إلى الدكتورة ستاركى شكرى وشكر الناشر على إجادتها هذه المهمة الشاقة ، وعلى عنوان الكتاب ، لأنها هى التى اقترحته علينا .

بعد اليوم أن أكتب بذلك الأسلوب الذى كنت أكتب به ، ولن أشعر بذلك الشعور الحاد المرهف الذى كنت أستشعره ، ولن أعبر بعد الآن عن الأمل الوثاب الغلاب فى النفس ، التعبير الحماسى البليغ الذى كنت أعبره من قبل ، ولن أعود أسلم بالإيمان تسليما ... » .

إن هذا الاعتراف المحزن إنما هو تذكرة بأن الشيوعية ، مهما طاشت سهامها فى الغرب ، فلا تزال القوة « المنقــــذة » و « العامل المحرر » بين الشعوب الملونة Coloured Peoples التى تؤلف الأكثرية الكبرى من البشر ، وإن « رايت » كزنجى أمريكى إنما ينتمى إلى تلك الأكثرية ، وفى الوقت ذاته لاينتمى للديموقراطية الغربية . فقد رأيناه ككاتب أمريكى ، أشربت نفسه معانى الكرامة الإنسانية كما يؤمن الغرب بها ، وتأثرت مشاعره بالقيم الغنية فيه ، يصطدم بالجهاز الشيوعى . ولكنه كزنجى راح يبعث من أعماقه تلك الصيحة المحزنة ، ويرسل من صدره تلك العبارة الحرّى عقب انصرافه عن الحزب الشيوعى . وهى قوله « سأكون لهم ، حتى وإن لم يكونوا لى . I'll be for them, even if they are not for me » ولكن ملايين من أفراد الشعوب الملونة لايستهدفون لهذا الصراع النفسى الذى استهدف له ريتشارد رايت ؛ فلا تزال الديموقراطية الغربية فى اعتقادهم « رفعة البيض » وسموهم على السود أو الصفر ، ولا تزال الشيوعية خارج حدود القارة الهندية حيث تحققت المساواة بفضل براعة الساسة الغربيين ، رسول الخلاص بين الشعوب الملونة . وفى وسع « المستنير » من أهل الصين أو أفريقا أن يقبلها على هذا المعنى ذاته دون أن يدمر شيئاً من شخصيته .

ولعل هذا هو سر الخلاف المشاهد بين الروس و بين الجهاز الحزبى فى مسلكه إزاء « المستنيرين » الغربيين . ولعل الكرملين تحسب أن نفوذ هذه الطبقة المخلصة الموثوق بها سيتلاشى أو يصبح شيئاً لايكاد يذكر ، إذا جاءت الحرب القادمة ، فإذا هى يومئذ صراع بين الشعوب الكادحة وبين خصومها ، لا بين طبقة وأخرى داخل الشعب ذاته .

ومهما يكن من الأمر فلا نزاع فى أن معاملة الجهاز الشيوعى للمستنير الغربى وحشية قاسية ؛ ولو أن الكومنترن Commintern أظهر شيئاً من الاحترام والتقدير له من الحين إلى الحين خلال الثلاثين عاما الماضية، لظفر بتأييد أكبر فريق من معاشر التقدميين فى مختلف أرجاء العالم الغربى و بقاعه ؛ ولكن الظاهر أن الكومنترن إنما قبل من بداية الأمر ذلك التأييد متكرها ، ومضى يحاول جاهداً استنفارهم ، ويعمل على إقصائهم ؛ حتى لقد رأينا أن أحداً من هؤلاء الكتاب الذين سقنا فى هذا الكتاب أحاديثهم لم يخرج على الشيوعية طائعاً راضياً ، ولا غادر صفوفها مستريح الضمير . ولم يكن أحدهم ليتردد فى العودة إليها خلال مرحلة الانسحاب التى وصفها فى قصته لو أن الحزب الشيوعى أولاه نظرة فهم ، ولمحة إدراك ، لما كان يؤمن به من الحرية البشرية والكرامة الإنسانية .

ولكنه لم يفعل ، بل ذهب الجهاز الشيوعى عن عمد لا هوادة فيه ، وتدبير مقصود لايداخله تردد ، يغربل الحَب ، ولايبقى من الثقافة الغربية إلا التبن والقش .

وماذا يحدث للشخص الذى يتحول إلى الشيوعية حين يتنحى عنها و ينفصل من صفوفها ؟؟

إن لويس فيشر وستيفن سبندر وأندريه جيد لم يعملوا يوما مع اللجنة الداخلية فى الحزب ، ولا اشتغلوا عن كثب من ساداته وأهل السلطان فيه ، بل إن فيشر فى الواقع لم ينضم إلى الحزب فى وقت ما ، و إنما كانوا جميعاً ، إخوان سفر ، ورفقة فى القافلة ، فلم تفرغ شخصياتهم فى قوالب الشيوعية ، ولم يندمجوا بهافى صميم حياتها، ولهذا لم يكن ارتدادهم ، على مافيه من ألم بالغ ، وعذاب شديد ، مفسداً لطبائعهم ، أو مشوهاً على الدهر لفطرهم وسليقاتهم .

أما سيلونى و كوستلر وريتشارد رايت فلن يفلتوا يوماً من الشيوعية و برائنها ، بل سيقضون حياتهم إلى النهاية فى إسارها ، متأثرين آخر الدهر بمنطقها وكلامها ،

وستكون المعركة بينهم وبين الاتحاد السوفييتى صورة ماثلة لصراع نفسى رهيب فى حنايا نفوسهم .

والواقع أن المتمرد الصادق لن يسترد شخصيته كما كانت أول مرة ، وقد رأينا كيف أصبح هذا الصراع عند رجل مثل كوستلر منبع إنشائه ، ومصدر جهده ، ومنبثق تفكيره وتأملاته . وحسبه أنه فى بعض قصصه ، وهى « اليوغى » و « القوميسار » يصف كيف نظر اليوغى فى المرآة ، فرأى نفسه « قوميساراً » فحطم المرآة حنقاً وغضباً . وليس ما يكتبه اليوم « تطهراً » يجلب السكينة ، وينزل على النفس برداً وسلاما ، ولكنه استجواب قاس لها ، وبحث فى الحركات العالمية التى تنعكس عنها ؛ استجواب نفس أخرى غير مبالية بألم ، ولا مكترثة بتعذيب .

وقد استطاع « سيلونى » باستدارته دورة كاملة فى الأوبة إلى تعاليم المسيحية التى تركها أن يحقق توازناً نفسيا جعله « بمنأى » عن الصراع ، ومبعدة عن العراك الناشب فى أعماق النفس وأغوارها ، وأمسى اعتقاده الأساسى ، تقديس كل محاولة من النفس فى التفوق على ذاتها ، وتقدير كل ما يتصل بأسباب قلقه الدائم ، وثورته الأبدية .

وجملة القول أن دراسة هذه المحن التى خاضها أولئك الكتاب الستة تسفر عن شىء واحد ، لا يداخله ريب ، وهو ما عناه « سيلونى » بقوله لتولياتى مازحا : « إن المعركة الحاسمة ستكون بين الشيوعيين ، والمرتدين عن الشيوعية . ولكن لن يستطيع أحد أن يفهم حقاً قيم الديموقراطية الغربية ، إذا هو لم يسبق له صراع مع الشيوعية كفلسفة ، ولا مع الشيوعيين كخصوم سياسيين » .

لقد كان إبليس يوما مقيما فى الجنة ، ولا أحسب الذين لم يلتقوا يوما به قادرين على تمييزه « كملاك » إذا هم رأوه ... !

معلومات موجزة

عن الرواة فى هذا الكتاب

آرثر كوستلر

ولد فى بودابست يوم ٥ سبتمبر عام ١٩٠٥ من أب مجرى، وأم نمسوية من أهل فيينا، وتلقى التعليم فيها، ولبث عامين كاملين يطوف أرجاء الشرق الأدنى، ثم عين فيه «مراسلاً» لمجموعة صحف أولشتاين Ulstein فى برلين، وهى صحف الأحرار، وانضم إلى الحزب الشيوعى فى ٣١ ديسمبر عام ١٩٣١، وخرج منه فى ربيع عام ١٩٣٨ بعد أن زجت به السلطات الإسبانية على عهد فرانكو فى غيابة السجن خلال الحرب الأهلية التى وصفها فى جريدة «العهد».

وسجنته الحكومة الفرنسية مرة أخرى فى عام ١٩٣٩ ولكنه فر إلى بريطانيا لينخرط فى الجيش البريطانى عام ١٩٤٠.

وتشمل تواليفه «الظلام فى الظهيرة Darkness at Noon» و«الطغام» — أو «حثالة الأرض Scum of the Earth» و«القدوم والرحيل» و«لصوص الليل» و«اليوغى والقوميسار» و«البصيرة والبصر Insight and Outlook» و«الوعد والتنفيذ Promise and Fulfilment».

اجنازيو سيلونى

ولد فى أول مايو عام ١٩٠٠ فى بسكينا دل مارسى إحدى القرى القائمة فى جبال «الأبينايں» فى سفوح «أبروزى» Abruzzi. وكان أبوه من صغار المالكين، وأمه نساجة Weaver. وفى الحرب العالمية الأولى عين وهو يومئذ يناهز السابعة

عشرة « سكرتيراً » لجماعة العمال الزراعيين فى ولاية « أبروزى » ، وسيق به إلى المحاكمة بتهمة تنظيم مظاهرة عنيفة احتجاجاً على دخول الحرب . وفى عام ١٩٢١ ساهم فى تأسيس الحزب الشيوعى الإيطالى ، وتولى تحرير مجلة أسبوعية تدعى « الطليعة » فى روما ، وجريدة يومية تدعى « لافوراتورى » فى تريستا ، وظل مقيما فى إيطاليا حتى بعد تنفيذ القوانين الخاصة التى اشترعت ضد خصوم « الفاشية » وإصدار صحف غير مشروعة .

وفى عام ١٩٣٠ بعد أن سجن وأبعد من عدة دول أوربية استقر به المقام فى سويسرا حيث لبث إلى عام ١٩٤٤ ، وكان خروجه من الحزب الشيوعى فى عام ١٩٣٠ ، وبعد عشرة أعوام من ذلك التاريخ قبل الاضطلاع بإدارة القسم الأجنبى فى الحزب الاشتراكى الإيطالى ، وهو الذى تولى تنظيم الحركة التى جعلت تنادى بقيام « جبهة ثالثة » .

مؤلفاته — رواية « فونتمارا » Fontmara فى عام ١٩٣٠ — « الخبز والنبيذ » فى عام ١٩٣٧ — « مدرسة الطغاة » — « محاورات » ١٩٣٨ — « البذرة تحت الجليد » ١٩٤٠ ، وأخيراً مسرحية « وقد أخفى نفسه » And He did hide himself.

ريتشارد رايت

ولد فى ٤ سبتمبر عام ١٩٠٨ فى مزرعة تبعد مسيرة خمسة وعشرين ميلا من ناتشز Natchez فى ولاية مسيسبى ، من أبوين زنجيين فقيرين ، وقد تخلى عنه أبوه فكفلته أمه ، وكانت تشتغل « غسالة » ، ولكنه أصيب فى طفولته بالشلل فتولته جدته وأرسلته إلى مدرسة خيرية . وفى الخامسة عشرة ترك الدار ، وخلف العشيرة ، واشتغل عامين فى مدينة « ممفيس » ، وقرأ يومئذ كتاب « مقدمات » لمنكن Mencken Prefaces ، فلم يلبث أن اعتزم أن يصبح كاتباً ، ونزح إلى شيكاغو وهو يحمل مائة وخمسين ريالا فى جيبه ، ومضى يكسب قوته بمختلف الحرف ومنوع

الأعمال حتى اضطره الكساد إلى ترك العمل والتبطل فانضم إلى الحزب الشيوعى من طريق نادى جون ريد John Reed Club .

مؤلفاته : — «أبناء العم توم» Uncle Tom's Children وهى مجموعة قصص وقصة « كيف ولد بيجر » و « الابن الوطنى » و « الغلام الأسود » Black Boy .

أندريه جيد

ولد فى باريس خلال شهر نوفمبر عام ١٨٦٩ ، وتلقى العلم فى البيت ثم ذهب إلى المدرسة الإلزامية فى باريس ، وكان طيلة حياته رجلا صاحب موارد ، فلم يحتج يوما إلى كسب الرزق بالانخراط فى مهنة ما أو صناعة معينة ؛ وقد أغناه صلاح أمره عن الكدح ، فطارت فى أفق الأدب شهرته ، ووضع وهو فى العشرين من العمر « الأغذية الأرضية » Nourritures Terrestres وهو الكتاب الذى قيض له أن يحدث أثراً بالغاً فى نفسية الجيل الذى تلا الحرب العالمية الأولى ، ومن بين كتبه « الباب الضيق » و « السيمفونية القروية » و « أوديب » و « تيزيه » Thésé .

ولكن لعل « يومياته » هى أبلغ ما كتب وأنسب ما تكون لعبقريته الفذة ومواهبه الملهمة ، لأنه يتجلى فيها الكاتب الأخلاقى الناسج على منوال القدامى .
وأكبرالظن أن نبالة اتجاهاته، ورفعة آرائه ، ونقاوة أسلوبه تضعه فى مصاف السادات والأعلام فى الأدب الفرنسى ؛ وقد منحته جامعة أكسفورد فى شهر يونية عام ١٩٤٧ الدكتوراه الفخرية فى الفلسفة ، وكان ذلك أول شرف ناله فى حياته ، وإن كان يومئذ قد أسند إلى الثامنة والسبعين ، كما ظفر بجائزة «نوبل» فى الأدب قبيل نهاية ذلك العام .

ولم يكن أندريه جيد يوماً عضواً فى الحزب الشيوعى ولكنه كان معنيا بمتابعة سير التجربة الشيوعية فى روسيا ، ويرى أن فى نجاحها الوسيلة الوحيدة لإنقاذ البشرية مما تعانيه . وقد زار روسيا فى شهر يونية عام ١٩٣٠ تلبية لدعوة من « جمعية

المؤلفين » الروس ، ولكنه عاد متبرماً مستنكراً ، وأدرك أنه كان واهماً ، ورجع ينادي بما كان به منادياً ، ونعني به مبادئ « الفردية » ، ومذاهب الأحرار . ولم ينشر بعد «تيزيه» منذ عام ١٩٤٦ شيئاً جديداً ، ولكنه راح يتوفر على جمع تواليفه واستكمال « يومياته » .

الناقل : — وكانت وفاته فى شهر فبراير من العام الحالى — ١٩٥١ .

إينيد ستاركى

ولدت فى كيلنى بولاية « دبلن » فى أرلندة ، وكان والدها المرحوم الرايت أونورابل و . ج . م . ستاركى من العلماء الإخصائيين فى الفلسفة الإغريقية القديمة ، ومندوبا سامياً للتعليم فى أرلندة على عهـد الحكم البريطانى . وقد تلقت تعليمها فى كلية اليكسندرة بدبلن وكلية سومرستفيل فى أوكسفورد والسوربون فى باريس ، وتوفرت على دراسة الأدب الفرنسى ، وأحرزت إجازة الامتياز من الدرجة الأولى من أكسفورد ، والدكتوراه من جامعة باريس ودكتوراه فى الآداب من أكسفورد ومنحت وسام « فرقة الشرف » — اللجيون دونير — لمساهمتها فى الآداب الفرنسية .

وتشمل مؤلفاتها فى الإنجليزية بحوثاً ودراسات عن مؤلفات ريمبو Rimbaud و بودلير وغيرهما من الكتاب ، وقد توجت بعض كتبها بإقرار من المجمع الفرنسى — الأكاديمية — وهى الآن تشغل منصب « محاضرة » فى الأدب الفرنسى بجامعة أوكسفورد ، و « زميل » Fellow فى كلية سومرفيل .

لويس فيشر

ولد فى ٢٩ فبراير عام ١٨٩٦ فى فيلادلفيا وقضى بضع سنين يشتغل بالتدريس ، ثم ساهم فى الصحافة ، وأوفد إلى برلين فى عام ١٩٢١ من قبل صحيفة « نيو يورك بوست » ولبث خمسة وعشرين عاماً يطوف أوربا وآسيا .

ولم ينخرط يوما فى سلك حزب سياسى ، ولكنه كان نصيراً لروسيا ثم مؤيداً للجمهورية الإسبانية ، وظل طيلة الحرب الأهلية فى إسبانيا يوافى العالم بأنبائها .

تواليفه : — السوفييت ومكانهم من الشئون العالمية — الرجال والسياسة — التحدى الأكبر — غاندى وستالين — الثلاثة عشر الذين هربوا .

وهو الآن يضع دراسة وافية عن حياة غاندى .

ستيفن سبندر

شاعر وناقد أدبى ، وابن الكاتب الحر المعروف ، ادورد هارولد سبندر ، وكان مولده فى عام ١٩٠٩وتلقى بعض علومه فى سويسرا وبعضها الآخر فى جامعة اكسفورد وبدأ ينظم الشعر فيها مع داى لويس Day Lewis وأودن Auden .

واندمج فى دنيا السياسة عام ١٩٣٠ فوضع كتابه « خطوة أخرى بعد مذهب الأحرار » عام ١٩٣٧ . ولم يلبث أن انضم إلى الحزب الشيوعى ولكنه لم يقض فيه إلا أمداً قصيراً .

وفى عام ١٩٤٦ عكف على دراسة النازية وأثرها فى نفسية الشباب الألمان ، لتقديم تقارير عنها إلى قلم المخابرات السياسية بوزارة الخارجية البريطانية .

ونشرت بواكير قصائده عام ١٩٣٣ ، ونقداته الأدبية « العنصر الهدام » عام ١٩٣٥ ، وكتابه « شاهد من الغرب » عام ١٩٤٦ . وهو الآن يجمع ديوانه .

ريتشارد كروسمان

كان مولده فى ١٥ ديسمبر عام ١٩٠٧ من أب كان يشتغل أولا بالمحاماة ثم انتقل إلى القضاء . وقد تلقى علومه فى كلية ونشستر فى جامعة أكسفورد حيث برز فى الأدب والفلسفة ، وظل فى الجامعة « زميلا » ثمانية أعوام يدرس للطلبة فلسفة أفلاطون والعلوم السياسية . وفى الفترة ذاتها بدأ حياته السياسية كاشتراكى فى مجلس

المدينة ، ورشح نفسه فى عام ١٩٣٧ للانتخاب عن حزب العمال عن دائرة كوفنترى وفاز بالمقعد فى انتخابات عام ١٩٤٥ .

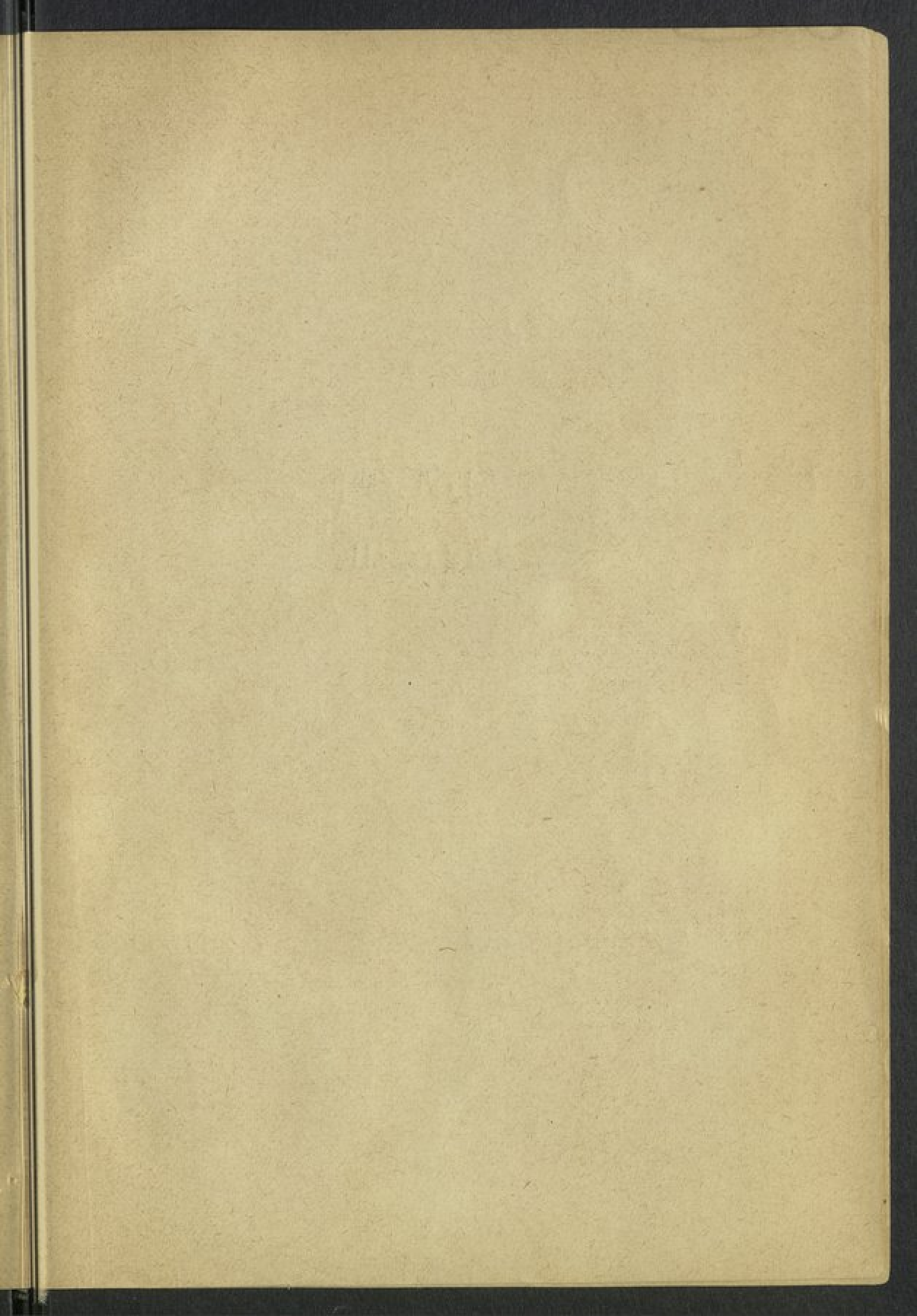
وفى عام ١٩٣٧ عين مساعد رئيس تحرير لجريدة « نيو ستيتسمان ونيشن » ، وهو لا يزال محتفظاً بهذا المنصب ، واشتغل خلال الحرب الأخيرة فى وزارة الخارجية البريطانية أولا ثم انضم إلى هيئة أركان حرب الجنرال أيزنهاور كخبير بالألمانية ليتولى الدعاية بها .

وفى عام ١٩٤٦ اشتغل مع اللجنة البريطانية الأمريكية التى عهد إليها البحث فى مسألة فلسطين . وقد انتهى الأمر به إلى الوقوف فى طليعة المعارضين لسياسة بيفن إزاءها .

تواليفه : — أفلاطون اليوم — الحكومة والمحكومون — لجنة فلسطين .

القسم الأول

«المبتــدئون»



أرثر كوستلر

- ١ -

لا يكتسب الإيمان بالحجة والمنطق . والمرء لا يقع فى حب امرأة ، أو يدين بمذهب ، أو يعتنق ملة ، نتيجة إقناع ، أو وليد منطق . وقد تدافع الحجة عن فعل من أفعال الإيمان، ولكن ذلك إنما يأتى بعد انتهاء الفعل ، وارتباط الفاعل به ؛ وقد يكون للحث أو الحض أو الإقناع أثر فى تحويل المرء من اعتقاد إلى اعتقاد ، وانتقاله من مذهب إلى مذهب ، ولكن دور الحث أو الإقناع لا يتعدى مجرد الوصول بعملية نفسية ظلت دهراً طويلا تختلج وتستوى وتنضج فى ناحية لا ينفذ إليها الحث ، أو يخترقها الإقناع ، إلى ذروتها الكاملة ، وأقصى حدود الإحساس بها واليقين .

الإيمان لا يكتسب ، وإنما ينمو نمو الشجر . وإن رأسه ليذهب فى السماء ، وقمته لتمضى مصعدة فى الأفق ؛ أما جذوره فتغيب فى أعماق الماضى ، وتغتذى من عصارة تربة الأجداد ، ونشأة السلالة ، وتنقل الأجيال فى التاريخ .

وليس ثمة فارق كبير ، فى رأى علماء النفس ، بين عقيدة جديدة ، وعقيدة قديمة ، أو بين مذهب ثورى وآخر تقليدى . وكل إيمان صادق لا يعرف التراوح ، ولا يطيق المهاودة ، لأنه إيمان أصيل نقى . ومن هنا نرى الحريص الحق على القديم ، متحمساً ثائراً فى نضاله وصراعه حيال « الفريسيين » Pharisees أو « الملاحدة » أو معاشر الفاترين المفسدين للعقيدة والعابثين بالدين ، والعكس بالعكس، فإن الإيمان « بالأمثلة العليا » فى العصر الحديث ، هذا الإيمان الذى يلوح فى الظاهر رمزاً للتمرد التام على الماضى وتحطيم كل ارتباط به ، إنما يتشكل طبقاً لصورة من الفردوس المفقود ، أو ترتسم معالمه على غرار عصر ذهبى قديم ، أو عهد كان صالحاً فى ماضى الأحقاب وسالف القرون .

ولم يكن ماركس وأنجلز Engels يرميان من قيام مجتمع شيوعى لا فوارق فيه ولا طبقات ، إلا إلى تجديد الجماعة الشيوعية البدائية ، التى كانت قائمة عند نشأة العالم الإنسانى وبداية تكوينه ، بعد أن ينتهى البحث فى الشيوعيــة والدرس ، والأخذ والرد بين علماء الكلام ومناطيقه .

وكذلك كل إيمان صحيح ينطوى فى ذاته على تمرد وســخط وتبرم بالبيئة الاجتماعية الراهنة ، والتقدم إلى المستقبل بفكرة جديدة ، أو مثل عليا ، مستمدة من الماضى البعيد . وكل المثل العليا ، ومطالب الكمال ، أو «الطوبوية »[1] إنما تتغذى من أساطير الأولين . وليست تصميمات المهندس الجديد فى بناء صروح المبادئ الاجتماعية، ولا أوراقه الشفافة الزرقاء اللون ، إلا طبعات منقحة من النصوص الغابرة .

إن التفانى فى مثل عليا نقية ، والتمرد على مجتمع فاسد ملوث ، هما إذن القطبان اللذان تنهض عليهما قوة جميع العقائد المجاهدة . وما سؤالك : أيهما يمد التيار الحاضر ويثير الأمواج المتقاذفة : أهو الفتون بالعقيدة الجديدة ، أم النفور من البيئة الحالية ؟

— إلا ترديد للسؤال القديم ، حول الدجاجة والبيضة . ومن رأى علماء النفس أن كلا من اللهفة على المثل العليا والسخط على « الوضع الحاضر » هو بعض أعراض الاختلال الاجتماعى وعلاماته . ولكن المصلحين الاجتماعيين يرون فيهما العكس ، ويعتقدون أنهما من المظاهر الاجتماعية السليمة ، والاستعداد الحسن للاصلاح والتنظيم . وقد ينسى علماء النفس أو يتناسون أن الإصلاح اللين الرفيق لمجتمع مشوه لا يخلق إلا أفراداً مشنوئين[2] مشوهين مثله . كما قد ينسى المصلحون الاجتماعيون أن الكراهية ، ولو لشىء كريه فى ذاته ، لا يمكن أن تثمر المبرة والعدالة اللتين ينبغى أن يقوم عليهما كل مجتمع صالح .

---

(١) Utopia لعلها من « طوبى » على وزن فعلى فيقال لك « طوبى لك » وطوباك أيضــاً . وطوبى اسم شجرة فى الجنة .

(٢) مشنوئين أى قباحاً مشوهين .

ومن هنا يصح لى أن أستخلص أن كلتا الوجهتين : رأى العالم النفسى ، ونظرة العالم الاجتماعى — تصور نصف الحقيقة ، ولا ترسم الحقيقة كاملة .

ولست أنكر أن تاريخ جمهرة الثوريين والمصلحين يكشف لنا عن صراع عصبى بينهم و بين الأسرة ، أو المجتمع ؛ ولكن هذا ليس إلا دليلا — كما يقول ماركس — على أن المجتمع المريض لا يخرج غير « لحادين » مرضى يحفرون له قبره .

ولست أنكر أيضاً أن الموقف المشرف الأوحد فى وجه كل ظالم صارخ ، هو التمرد عليه ، وترك البحث والدرس والتأمل إلى وقت أفضل ، وفرص أسنح وأصلح ؛ ولكن إذا نحن عدنا إلى التاريخ ، وقارنا بين الأهداف العالية التى قامت الثورات باسمها ، و بين الخواتيم السيئة التى انتهت إليها — تبين لنا ، فى أكثر من شاهد ، كيف لوثت الحضارة المدنسة ثمارها ، ودنست ذراريها ، وأخرجت أسوأ البنين .

أما إذا جمعنا بين نظرة العلماء النفسيين ، ونظرة العلماء الاجتماعيين ، وكلتاهما نصف الحقيقة ، أدركنا أنه إذا كان فرط التأثر بالظلم الاجتماعى والتلهف الملح على المبادئ المثلى هما علامة اختلال عصبى ، فإن المجتمع قد يصل مع ذلك إلى حال من الانحلال يصبح فيها الثائر المختل الأعصاب أهون ذنباً عند الله وأخف جرماً من العاقل السليم الذى يأمر بإلقاء الخراف [1] فى اليم مغرقة على أعين قوم جياع ساغبين ... !

كذلك كانت حالة حضارتنا ، فى شهر ديسمبر عام ١٩٣١ ، حين انضممت إلى الحزب الشيوعى فى ألمانيا ، وأنا يومئذ فى السادسة والعشرين ...

***

وقد تحولت إلى الشيوعية لأنى كنت يومئذ قد نضجت لهذا التحول وتأهبت نفسى له ، فقد كنت أعيش فى مجتمع ممزق الأوصال متلهف على الإيمان ظمآن لموارده ، ولكن اليوم الذى تسلمت فيه بطاقة العضوية لم يكن سوى الذروة التى انتهت إليها نفسيتى بعد تطور بدأ قبل أن أقرأ عن « الخراف » المغرقة على أبصار

---

(١) فى الأصل « الخنازير » ، وهى كلمة مأخوذة من الإنجيل .

الجياع ، وقبل أن أسمع باسمى ماركس ولينين ، بعهد طويل ؛ بل لقد كانت تلك الحالة النفسية متأصلة الجذور فى حداثتى ، غائبة الأصول فى أعماق طفولتى .

ولئن كان تحول كل فرد منا نحن رفاق العهد الباكر قبل الشيوعية أو رفاق الفترة الوردية[1] Pink Decade يرجع إلى أسباب وعوامل وجـذور مختلفة ، فقد كنا جميعاً أو كانت كثرتنا ، ثمرات جيل واحد ، ونتاج بيئة ثقافية بذاتها . وهذه الوحدة التى جمعتنا ، على اختلاف أسبابنا وعواملنا ، هى التى تحدونى إلى الأمل فى أن تكون قصتى هذه خليقة بأن تقص ، وحديثى هذا حرياً بأن يروى ..

ولدت عام ١٩٠٥ فى بودابست حيث أقمنا حتى عام ١٩١٩ ثم نزحنا منها إلى فينا . وكنا فى حال حسنة إلى نشوب الحرب العالمية الأولى ، مثال الأسرة الأوربية التى تمثل « الطبقة الوسطى » فى الغرب . فقد كان أبى « مجريا » يشتغل مندوباً لبعض مصانع النسيج البريطانية والألمانية القديمة العهد ، ولـكن هذا الأسلوب من العيش انتهى كغيره وعدة من أشباهه فى شهر سبتمبر عام ١٩١٤ إلى خاتمة فجائية . فلم يستطع أبى من ذلك العهد أن يقف على ساقيه أو يسترد فى يوم من الأيام مكانه . وقد لجأ إلى عدة أعمال والتمس الرزق من وجوه مختلفة . ولـكن كلما فقد الثقة بالنفس فى عالم متغير ، ودنيا متقلبة ، كان التجاؤه أعجب وأغرب ، و إقدامه على المحاولة وهماً ومفارقة . فقد فتح مصنعاً للصابون الإشعاعى ومضى يمول عدة مخترعات صغيرة كالثريات الـكهربائية التى لا يتطرق إليها الفساد والطوب المستخدم فى تدفئة سرر المرضى وما إليها. ولـكنه فى النهاية خسر البقية الباقية من رأس ماله فى فترة التضخم النقدى الذى طرأ على النمسا فى عام ١٩٢٠ ، ففارقت أبوى وأنا يومئذ فى الحادية والعشرين . ومن ذلك الحين أصبحت المعين الوحيد لهما ، القائم بأودهما .

وقد أدركت فجأة وأنا فى التاسعة ، حين انهار كيان الطبقة الوسطى ، جملة الحقائق الاقتصادية فى الحياة ، وكنت وحيد أبوى فظلا يدللانى ، ولـكنى كنت بعسرتهما

---

(١) هى السنوات العشر الأولى التى كانت النفوس فيها سكرى بالنشوة الجديدة ، ولذلك سميت « الوردية » أو « القرنفلية » Pink Decade أى فترة التمهيد أو تورد الزهرة قبل احمرارها .

عليا ، وعلى أبى مشفقاً ، فقد كان كريماً سخياً ، وأخا طبيعة ساذجة نقية ؛ فلا عجب إذا أنا مضيت أشعر بوخز أليم ، واستنكاف موجع ، كلما ابتاعا لى كتباً أو اقتنيا لى ألاعيب . ولبث هذا الإحساس يخالجنى حين شببت عن الطوق : كلما اشتريت لنفسى ثوبا ، أدركت أن شراءه سيضطرنى إلى الإقلال من المال الذى سأرسله إليهما ، وأحسست عندئذ كراهية بالغة للأغنياء والمترفين ، لا لأنهم مستطيعون أن يشتروا ما هم مشتهوه — فإن للحسد فى المعترك الاجتماعى أثراً أقل كثيراً مما يظن الناس عامة — ولكن لمقدرتهم على الشراء ، دون تحرج أو وخز ضمير .

وهكذا أدخلت العامل الشخصى فى كيان المجتمع عامة ، وكان ذلك بلا شك طريقاً ملتويا لاكتساب وعى اجتماعى . وقد أصبح الاعتقاد الذى أخذ يومئذ ينمو فى نفسى ، بسبب هذا العنصر الشخصى الدقيق فيما يتصل بحياتى ، جزءاً من كيانى ، وقطعة وثيقة من شعورى ووجدانى ؛ ولكنه ظل بضعة أعوام لايستحيل عندى إلى عقيدة سياسية . وإنما أخذ فى بداية الأمر صورة تأفف واشمئزاز . فكان أى احتكاك بأناس أشد فاقة منى أليما لا يطاق . فالطالب الذى لا يملك قفازاً لتدفئة يديه حتى ليلوح « القشف » على أنامله ، والبائع الجوال الذى كان من قبل فى خدمة أبى ، أصبح لا يجد طعاماً ، وأكثر وجباته تطفلا ، أو وغولا على موائد الناس ، كان بؤسهما يزيد فى وخز ضميرى ، وتأثمى وحرج صدرى . وأحسب العالم النفسى لايجد مشقة فى التدليل على أن هذه العقدة النفسية التى لازمتنى ترجع إلى عوامل أخرى أعمق جذوراً من مجرد إعسار أهلى ، وفاقة عشيرتى . بل لو أنه أطال التنقيب وأوغل فى البحث ، ونفذ إلى صميم الأمر وسائر ألفافه وأغشيته وطبقاته ، لوصل إلى العوامل الأصيلة ذاتها التى أدت إلى قيام ملايين من الحالات المشابهة لحالتى ، والتى يجمعها القول المأثور « ويل للذين يغنون على صوت العود ، ويدهنون بالأدهان النفيسة ، ولا يكتئبون لانكسار يوسف ... »[1] .

(١) لعلها من كلمات المسيح عليه السلام .

وكذلك هيأنى فرط التأثر بحالتى الخاصة وشدة الإحساس بسوء عيشى ، للشعور بصدمة أليمة حين عرفت أن القمح أتلف ، والفاكهة أفسدت ، والخراف ألقيت فى اليم وأغرقت ، فى أعوام الكساد — لحفظ الأسعار وتمكين الرأسماليين السمان من الغناء على أنغام الأوتار ، بينما راحت أوربا ترعش من الجوع ، وترجف من السغب ؛ ومضى أبى يخفى كم ثوبه الناصل[1] تحت المائدة .

ولم تلبث الأكمام الناصلة الممزقة والخراف المغرقة أن اندمجت فأحدثت انفجاراً عاطفياً بمجرد لمس «الفتيل» العام : فقد رحنا يومئذ ننشد لحن « الدولية » ، ولكن كان أولى أن تكون كلمات ذلك اللحن هى بذاتها الكلمات القديمة « ويل للرعاة الذين يأكلون هم ، ولا يُؤكلون قطيعهم .. »[2] .

وأحسب قصتى أقرب مثلا إلى قصص الآخرين وأشد شبهاً بها من وجوه أخرى . فقد دمر التضخم النقدى الذى عرا العالم فى عام ١٩٢٠ نسبة كبيرة من الطبقات المتوسطة التى كانت تشبهنا فى أوربا الوسطى . وكان ذلك بداية تدهور أوربا وأفول نجمها ؛ فقد أدى هذا التمزيق فى أوصال الطبقة الوسطى إلى قيام عملية رهيبة قاضية ، وهى عملية « الاستقطاب »[3] التى لا تزال إلى اليوم قائمة . وأصبحت البورجوازية التى هوت إلى الفاقة والعوز متمردة : فريق منها إلى اليمين ، وفريق إلى اليسار ؛ وإذا بكل من « شيكلجروبر »[4] — أى هتلر — و « جوجا شفيلى »[5] — أى ستالين — ينتفعان بفوائد هذا الانتقال الاجتماعى . وأما الذين أبوا الاعتراف بأنهم أمسوا بلا طبقة ينتمون إليها ، وأصروا على الاستمتاع بلقب الطبقة ومظاهرها الفارغة ؛ واسمها الأجوف الفارغ ، فقد انضموا إلى « النازية » ،

---

(١) الثوب الناصل الذى نحل وبره وذهب لونه .
(٢) فى النص : ويل للرعاة الذين يهلكون ويبددون غنم رعيتهم .
(٣) الاستقطاب فى علم الطبيعة أى « التحويل الإرغامى أو التمسق » .
(٤) اسم هتلر فى الأصل .
(٥) اسم ستالين فى الأصل .

ووجدوا العزاء فى إلقاء تبعة ما أصابهم على مؤتمر « فرساى » واليهود . ولكن فريقاً كبيراً منهم لم يجدوا حتى هذا العزاء يتأسون به ، فعاشوا هيماً ضالين ، على غير هدى ، أشبه بجماعات من ذباب الشتاء المكدود ، تتسلل على نوافذ أوربا القاتمة ، بل أمسوا أفراداً فى طبقة مشردة فى التاريخ .

أما الفريق الآخر فقد ولى وجهه شطر اليسار ، محققاً بذلك نبوءة « البيان الشيوعى »[1] فى قوله « إن فئات بأكملها من الطبقات الحاكمة ... هوت إلى مصاف الطبقة الكادحة[2] أو أصبحت على الأقل مهددة فى أحوال عيشها ... وهى تمد الطبقة الكادحة بعناصر جديدة من « التنوير والتقدم » .

ولشد ما سرنى أن اكتشفت أن ذلك « العنصر الجديد » من التنور، هو أنا ، فقد عددت نفسى — مادمت قد اقتربت من حدود الجوع والمسغبة — أحد الذرارى المشردة إلى حين من أفراد البورجوازية وأفراخها الناشئة .

وفى عام ١٩٣١ ، حين استطعت بعد خاتمة المطاف أن أصيب دخلا حسناً ، لم ألبث أن أدركت أنه قد حان لى أن أنضم إلى صفوف « الكادحين » ، ولكن سخرية هذا الحدث لم تقع لى إلا فيما بعد ، حين عدت أفكر فى الماضى وألقى البصر كرة إليه ...

— ٣ —

« وستتوارى الأسرة البورجوازية قطعاً بتوارى الرأسمال ... وكلما رثت[3] روابط الأسرة ووشائجها بين الكادحين ، كانت الشقشقة البورجوازية وكثرة كلامها عن الأسرة والتعليم ، والروابط بين الأبوين والأبناء ، أدعى إلى السخرية والاشمئزاز بسبب النهضة الصناعية الحديثة » .

---

(١) المانيفستو .

(٢) الكادحة : أى البروليتاريا .

(٣) رثت : أى تقطعت ووهنت .

هذه فقرة جاءت فى البيان الشيوعى ، وقد راحت كل صفحة أقرأها لماركس وإنجلز ، تكشف لعينى عن جديد ، وتدخل على نفسى فرحاً ذهنياً بالغاً لم أجربه إلا مرة واحدة من قبل ، حين بدأت أقرأ « فرويد »[1] .

وأحسب أن اقتطاع هذه الفقرة من أصل البيان ونصوصه يجعلها تبدو سخيفة مضحكة . ولكن إيضاح الفوارق والروابط التاريخية ، بين القوانين الموضوعة للأسرة ، والطبقة ، والوطنية ، والأخلاق ، وأسرار العلاقة الجنسية وخفاياها ، وبين أمثلتها العليا ، وما يراد أن تسمو إليه كجزء من نظام واضح المعالم ، يجعل الفلسفة الاجتماعية تتخذ قالباً عاماً ، وشكلا شاملاً واضحاً — جاء يومئذ كنشوة بديعة أشبه بتأثير التحرر الفجائى من الأصفاد والأغلال الصدئة التى كانت تقيد عقول الأحداث فى الطبقات الوسطى قبل عام ١٩١٤ ، وتحطم أذهانهم تحطيما .

ولكن اليوم قد هوت فلسفة ماركس إلى درك السفسطاء البيزنطية ، وتحولت كل فقرة فى برنامجها من حيث المعنى إلى نقيضها . فلم يعد من السهل استعادة تلك الحماسة القديمة التى كانت لها ، والحمية الأولى التى كان المرء يشعر بها ، واللذة الذهنية التى كان يحسها .

لقد كنت مهيأ للتحول إلى الشيوعية كنتيجة لتاريخ حالتى الشخصية ، كما تهيأ له ألوف آخرون غيرى من الشباب « المثقف المستنير » فى الطبقة الوسطى ، ذلك الشباب الذى يتألف منه الجيل الذى نشأت فيه ، نتيجة لتواريخ حالاته الخاصة ؛ إذ مهما تباينت تلك الحالات فى ذاتها ، فقد كان يجمعها عامل مشترك عقب الحرب العالمية الأولى ، وهو التدهور السريع فى القيم الأخلاقية ، وأساليب العيش التى كانت قائمة قبل عام ١٩١٤ فى أوربا ، كما كانت تجمعها الفتنة المستحوذة على الألباب التى اقترنت بها العقيدة الجديدة القادمة من الشرق[2] .

---

(١) العلامة فرويد Freud الذى توفر فى كتبه وبحوثه على دراسة الحماسة الجنسية من جميع جهاتها ، وله فيها نظريات فريدة ، وتخريجات عجيبة .

(٢) يعنى الشيوعية الروسية ، تشبيهاً لها بالمسيحية عند ظهورها بمولد عيسى فى بيت لحم .

وانضممت فى عام ١٩٣١ إلى الحزب . ونحن لا نزال إلى اليوم نقول «الحزب» بأداة التعريف كلما تحدثنا عنه نحن معاشر الذين كنا منتمين إليه . وكان انضمامى فى بداية تلك الفترة القصيرة التى سادها التفاؤل ، واستفاض فيها الانتعاش الروحى إلى حين . تلك الفترة التى عرفت فيما بعد « بالفترة الوردية »[1] . وكانت الأنجم الزهر التى طلعت فى ذلك الفجر الكاذب تتألف يومئذ من باربوس ، ورومان رولان ، وأندريه جيد ، ومالريه فى فرنسا ؛ ومن بيسكاتور ، وبيخر ، ورن ، و برخت ، و إيسلر ، وسيغرز فى ألمانيا ؛ ومن أودن ، وايشر ، وود ، وسبندر فى انجلترا ؛ ومن دوس باسوس ، وأبتون سنكلر ، وستانيسك فى أمريكا . وكان الجو الثقافى مشبعاً بمؤتمرات الكتاب التقدميين ومعاهد التجارب ، ولجان السلام ومقاومة «الفاشية» ، وقيام الجمعيات العاملة على الاتصال الثقافى بروسيا السوفيتية . كما كان يغشى ذلك الأفق أفلام روسية ، ومجلات توطن للمبادئ الجديدة ؛ وخيل للمرء يومئذ أن العالم الغربى الذى اضطرب فى عقابيل الحرب ، واختلت أعصابه ، واصطلحت عليه عوامل التضخم النقدى ، والكساد التجارى ، والبطالة ، والخلاء من عقيدة يحيا الناس من أجلها ، و إيمان يعيشون فى سبيله — قد أوشك أخيراً أن يزيل من الرءوس جملة الأفكار السخيفة ، وكتلة الهراء التى استقرت فيها ، « ويجمع شتات قوى الإرادة المضمحلة الواهنة — على حد قول « أودن » — وإطلاق سراحها فى الأرض ، حتى تغمرها وتقيم فى النهاية أساس عدالة بشرية » .

لقد بزغ كوكب « بيت لحم » الجديد فى الشرق ، واستعد الحارس أن يأذن لك لقاء قليل من المال فى الاستمتاع بلمحة قصيرة ، أونظرة عاجلة ، إلى أرض الميعاد .

وكنت أقيم يومئذ فى برلين، وقد قضيت خمسة أعوام أعمل فى مجموعة صحف «أولشتاين» Ullestein ، بادئاً كمراسل لها فى فلسطين والشرق الأوسط . ثم انتقلت بعد ذلك إلى باريس ، وانضممت فى عام ١٩٣٠ إلى هيئة التحرير فى دارها الكبرى

ببرلين. وأجد لزاماً علىّ، فى سبيل معاونة القارئ على فهم ما سيلى من هذا الحديث، أن أحدثه قليلا عن دار « أولشتاين » التى تعد رمزاً لجمهورية فيمر [1].

كانت دار « أولشتاين » مجموعة ضخمة من شركات متضامنة Trusts وأكبر هيئة من نوعها فى أوربا، وعلى الأرجح فى العالم كله؛ فقد كانت تصدر خمس صحف يومية فى برلين وحدها، ومن بينها صحيفة فوسيش زيتونج Vossische Zeitung الكبيرة المكانة التى أنشئت فى القرن الثامن عشر، وصحيفة الب. ز. آم ميتاج Am Mittag، وهى مسائية ضربت الرقم القياسى فى كثرة التوزيع وسرعة الإصدار. وكانت دار أولشتاين تصدر إلى جانب هذه الصحف أكثر من اثنتى عشرة مجلة بين أسبوعية وشهرية، وتتولى بذاتها جمع الأنباء من مظانها. ولها وسائل نقلها الخاصة. وهى يومئذ أيضاً من أكبر دور نشر الكتب وطبع المؤلفات، وكان يملكها إخوان أولشتاين، وهم خمسة أشقاء، كشأن إخوان روتشلد، وكانوا يهوداً أيضاً مثلهم، وكانت سياستهم حرة ديموقراطية، وفى المسائل الثقافية «تقدمية» إلى حد «الطليعية» [2]. وكان هؤلاء الإخوة يناهضون «العسكرية» أو «الميليتاريزم»، ويكرهون النعرات الوطنية [3] Anti-Chauvinistic. وإلى نفوذهم فى الرأى العام يرجع أكثر الفضل فى انتشار فكرة التقريب بين ألمانيا وفرنسا. وهى الخطة التى سعى فى تحقيقها بريان وسترسمان، وتداولها بين معاشر « التقدميين » فى الشعب الألمانى. ولم تكن دار أولشتاين قوة سياسية فى ألمانيا فحسب، بل كانت أيضاً رمز كل حركة تقدمية أو عالمية « كوزوموبوليتانية» فى جمهورية فيمر. حتى لقد كان جو الدار فى شارع كوخ Koch Strasse يلوح أدنى إلى جو « وزارة » منه إلى جو إدارة تحرير وصحافة.

---

(١) أى الجمهورية الألمانية الأولى التى أنشئت بعد الانتخاب الذى تم فى « فيمر » عام ١٩١٩ ووضع بعدئذ الدستور وانتخب « إيبرت » للرياسة، وذلك قبل عهد النازيين.

(٢) الطليعية ـ نسبة إلى الطليعة وهى Avant-Guardism أى الحركة التى تتقدم الصفوف.

(٣) أى التهوس الوطنى أو الغلو فى « الوطنية ».

وكان سبب انتقالى من مكتب باريس إلى الدار الكبرى فى برلين مقالا كتبته بمناسبة منح جائزة نوبل فى العلوم الطبيعية إلى البرنس دى بروجلى فقد أجمع رؤسائى عقب صدور المقال على أنى قد أوتيت ملكة تبسيط العلوم وتقريبها إلى أذهان العامة — وقد كنت طالب علوم فى فيينا — ففرضوا علىّ العمل كرئيس تحرير القسم العلمى فى جريدة «الفوسيش» ومستشار فى المسائل العلمية لجميع صحف أولشتاين ومطبوعاتها الدورية .

ووصلت إلى برلين فى ذلك اليوم المشئوم ، يوم ١٤ سبتمبر عام ١٩٣٠ — يوم الانتخابات لعضوية الريشتاغ ، وهى الانتخابات التى وثب فيها الحزب الاشتراكى الوطنى وثبته الكبرى ، فارتفع عدد نوابه من أربعة إلى ١٠٧ كما ظفر الشيوعيون فيه بكسب كبير ، واندحرت الأحزاب الديموقراطية فى الوسط ، وكان بداية النهاية فى حياة « فيمر » ، وتجلى الموقف على حقيقته فى عنوان الكتاب الذى أخرجه يومئذ نيكربوكر . ووجد أشد الرواج ، وظفر بأعظم الإقبال ، وكان عنوانه « ألمانيا — أنازية هى أم شيوعية ؟؟ » . والظاهر أنه لم يكن ثمة شىء ثالث .

وعكفت على عملى ، فجعلت أكتب عن «الالكترونات» والجزيئيات والسفن النيزكية والإنسان النيندرتالى[1] والسديم الحلزونى والعلوم الكونية عامة . ولكن لم يلبث ضغط الحوادث أن اشتد ، فقد أصبح ثلث مجموع العمال فى ألمانيا بلا عمل ، حتى كادت البلاد تعيش فى حالة حرب أهلية كامنة ، وأصبح محتما على المرء أن يتخذ جانبا معينا أو يختار له موقفا ما ، إذا لم يشأ أن تكتسحه الأعاصير القادمة ، ويذهب ضحية مغمورة لا شأن لها ولا خطر . وكان حزب سترزمان قد قضى نحبه ، وانقرض ، وأخذ الاشتراكيون ينتهجون سياسة النفعية وانتهاز الفرص ، وبدا الشيوعيون يومئذ القوة الوحيدة التى تستطيع مقاومة سيل النازية الجارف وشارة

---

(١) نسبة إلى نيندرتال وهو واد فى أوربا الوسطى ومعناه الإنسان الأول الذى كان يعيش قبل عصر الجليد .

صليبها المعقوف ، حتى ولو بعملية استئصال محض مادام الاتحاد السوفييتى الضخم من ورائهم . ولكنى لم أصبح شيوعيا بعملية استئصال محض ، وإنما كرهت نفسى الكهيربات ، وعافت البحث فى الجزيئيات ، والأمواج والتيارات ، فانثنيت لأول مرة أقرأ كارل ماركس وانجلز ولينين قراءة ممعن مدقق . ولم أكد أنتهى من قراءة « فيرباخ » و « الدولة » و « الثورة » حتى أحسست أنيناً فى أعماق خاطرى هزنى هزاً كأنه انفجار ذهنى شديد . وما قول المرء فى تصوير ذلك الإحساس إنه « قد أبصر الضياء » إلا وصف ضعيف لتلك اللذة التى لا يعرفها إلا المعتنق الجديد لأية عقيدة ، والمتحول إلى أية ملة أو إيمان . فكأنما راح الضياء الجديد يتدفق من كل مكان ، ويغمر الرأس من كل ناحية ، فتتجمع أجزاء الكون كله كما تتجمع القطع المتناثرة من لعبة لغز ، بحركة سحرية واحدة ، وقد تراءى لى عندئذ الجواب عن كل سؤال ، والرد على كل إشكال ، والحل لكل عقدة ؛ وتوارت الشكوك والهواجس التى كانت تنتابنى فيما مضى من الدهر ، أو تلك الحقبة التى كنت فيها أعيش فى جهل مطبق ، أو فى عالم خلىّ من الذوق واللون ، عالم الجهل والخلاء من المعرفة . فلم يعد ثمة شىء بعد اليوم يمكن أن يزعج سكينتى أو يبدد هدوء نفسى ، خلا الخوف أحيانا من فقدان الإيمان مرة أخرى ، بل فقدان كل ما يجعل الحياة جديرة بأن تُحيا ، والخشية من العودة إلى الظلام ، حيث يتعالى الصياح وتكشرُ الأنياب فى كل مكان .

ولعل هذا هو السر فى أن الشيوعية التى أوتيت عيونا بها تبصر ، وعقولاً بها تفكر ، لا تزال مستطيعة أن تعمل بنيات سليمة من جانب أشخاصها وأفرادها حتى الساعة . ولم يخل عهد من العهود ، ولا عقيدة من العقائد ، ولا دين من الأديان من أقلية عابثة تستوجب الحَرْم[1] والبتر ، وتنتحر على الطريقة اليابانية ـ الهارا كيرى ـ باسم العقيدة ذاتها ، والحق فى صميمه وجوهره .

(١) الحرم — أو الفصل من عضوية الكنيسة .

ومن السهل أن أتذكر التاريخ الذى قدمت فيه طلباً للانضمام إلى الحزب الشيوعى فى ألمانيا ، فقد كان ذلك فى الحادى والثلاثين من شهر ديسمبر عام ١٩٣١ ، كأنما قدر لى أن أبدأ الحياة الجديدة مع استهلال العام الجديد ، وكان طلبى فى صورة كتاب وجهته إلى اللجنة المركزية ، وأرفقت به منهاجاً قصيراً بينت فيه استعدادى لخدمة القضية بأية صفة يقررها الحزب .

ولم تجر العادة بأن تقدم طلبات العضوية إلى اللجنة المركزية ولكنى فعلت ذلك عملا بنصيحة أصدقاء وصحاب على صلة وثيقة بالحزب ، وإنما كان الإجراء المألوف أن ينضم المرء إلى إحدى الخلايا ، وهى الوحدات الأساسية التى تتألف منها هيئة الحزب ويقوم على شبكتها نظامه . وكانت الخلايا نوعين : خلايا « الورش » التى تضم الأعضاء الذين يشتغلون فى مصنع أو معمل أو « ورشة » أو مكتب أو ما إليها ، وخلايا « الشوارع » ، وهى خلايا منظمة بحسب العمارات والأبنية والمناطق والأحياء . وكان أكثر العمال والأجراء ينتمون لكلتا الخليتين ، خلية المصنع الذى يعملون فيه ، وخلية الشارع الذى يسكنونه ، وكان هذا النظام عاما فى جميع الأمصار والبلدان التى يستمتع فيها الحزب الشيوعى بوجود مشروع . وكانت القاعدة العامة التى لا مفر من اتباعها أن ينتمى العضو مهما يكن شأنه فى الحزب أو خطره إلى خلية ما ، حتى لقد قيل لنا إن هناك خلية من خلايا الورش فى الكرملين ذاتها ، حيث يجتمع أعضاء المكتب السياسى ، والحراس والبوابون والغسالات فى صعيد واحد للمناقشة فى سياسة الحزب معاً فى ديموقراطية أخوية ، وكانت الاجتماعات تنعقد عادة فى كل أسبوع مرة ، وكان ستالين يمنع من حضورها إذا هو نسى أن يدفع اشتراكه .

ولكن صديقى « ن » الذى اضطلع بدور حاسم فى مسألة انضمامى ، نصح لى ألا أنضم إلى إحدى الخلايا على النحو المألوف ؛ وأنا أرمز له بالحرف « ن » لأنه ترك الحزب منذ سنين ويقيم الآن فى بلد إذا عرف فيه عن المرء أن له ماضياً فى الشيوعية

حتى و إن كان قد تنحى عنها ، ودفن الماضى بيديه ، استهدف لخطب كبير ، وتعرض لمتاعب جمة . وكان « ن » هذا يشتغل من قبل صبى « سباك » ، فما زال بالدراسة فى الفرق والفصول الليلية ، والإكباب على المطالعة ، حتى تخرج وأصبح كاتباً سياسياً معروفاً ، وكان يحفظ كتب ماركس ولينين استظهاراً ؛ وقد أوتى ذلك الإيمان المطلق الهادئ الذى يفعل فعل التنويم المغناطيسى فى عقول الناس ونفوسهم ؛ فقد مضى يقول لى « لا تكن أحمق » ، لأنك إذا انضممت إلى خلية وعرف عنك أنك أصبحت عضواً فى الحزب ، فقدت عملك فى دار أولشتاين ، وهو عمل يهم الحزب كثيراً » .

ولا يفوتنى هنا أن أقول إننى عينت إلى جانب شغلتى العلمية فى صحيفة « فوسيش » رئيس تحرير القسم الأجنبى فى صحيفة « أم ميتاج » ، وهو مركز يكسب شاغله شيئاً من النفوذ و يمكنه من الظفر بأدق المعلومات السياسية و بواطن الأمور الجارية .

وعملا بنصيحة صديق « ن » لتبت رأساً إلى اللجنة المركزية ، وجاءنى الرد بعد أسبوع أو قرابته فى صورة كتاب محيرّ ، فقد جاء مكتوبا بالأداة الكاتبة ، على ورقة بيضاء ، بلا عنوان ، وكان نصه فيما يلى :

سيدى العزيز

بالإشارة إلى كتابكم المرقوم ٣١ ديسمبر يسرنا أن تتكرموا بمقابلة مندو بنا الهر شنيلر فى إدارة مصنع شنيدمول للورق بشارع .... فى التاسعة من مساء الاثنين القادم .

المخلص

« الإمضاء غير مقروءة »

وكانت مصانع شنيدمول معروفة فى ألمانيا ولكن لم يخطر يوما ببالى أن لها صلة أو شأنا باللجنة المركزية للحزب الشيوعى . ولست أدرى العلاقة بينهما تماما . ولكن الواقع أن مكاتبها فى برلين كانت ملتقى لاجتماعات سرية ، ومقابلات تجرى فى الخفاء . ولم أستطع أن أفهم السر فى هذا التكتم المتناهى ، ولكنى وجدت هزة لها

فى مشاعرى ، وقلقاً بالغاً فى نفسى ، فلم يحن الموعد المضروب حتى كنت فى مصانع شنيدمول أطلب لقاء الهر شنيلر .

ونظرت الفتاة الجالسة قبالة منصة الاستعلامات نحوى نظرة « متفحصة » كما ألفنا أن نقول فى وصفها ، وإن كان الأصح أن ندعوها « حملقـة » من عين سمكة أو « تحازراً »[1] . وقد لقيت هذه النظرة ذاتها مراراً من ذلك الحين فى مواقف مماثلة . وقد ألف الناس كلما اصطدمت الرغبة فى المؤاخاة بالتخوف والريبة أن يتبادلوا نظرات غير نافذة ولا متفحصة ، بل نظرات بليدة كالسمك .

وانثنت الفتاة تسألنى : هل أتيت على ميعاد مع إرنست ؟؟

قلت : كلا . . بل مع الهر شنيلر .

وبدا لى أن هـذه العبارة أقنعتها نوعا ما بسلامة نيتى ، فقالت إن الهر إرنست شنيلر لم يصل بعد وسألتنى أن أجلس وأنتظر ؛ فجلست وانتظرت أكثر من نصف ساعة ، وكان ذلك أول عهدى باستخفاف الطبقة العليا من الحزب الشيوعى بالمواعيد ولا عجب ، فان الروس ، وهم أشباه شرقيين ، غير حريصين بطبعهم على المواعيد ، وكان كل بيروقراطى فى الحزب يحاول عامداً أو غير عامد أن يعيش على الأسلوب الروسى ، فلم تلبث عادة الاستخفاف بالمواعيد أن انتقلت شيئاً فشيئاً من كبار الشيوعيين إلى كل شيوعى فى أوربا .

وأخيرا وصل الهر شنيلر ، وراح يعرفنى بنفسه على الطريقة المألوفة فى القارة الأوربية ، صائحا « شنيلر » ، فصحت بدورى « كوستلر » ، وتصافحنا ، وبعد اعتذار « صورى » عن « التأخير قليلا » دعانى إلى الجلوس فى مقهى مقابل للدار فى الشارع ذاته .

وكان شنيلر ناحلا معروقاً بادى العظام فى نحو الخامسة والثلاثين ، ذا وجه ضيق ، بادى الأشداق ، مشدود البشرة ، وابتسامة نابية ، كحركته وطريقته . وكان يلوح

---

(١) تحازر بعينيه أى ضيقهما ليحدد النظر .

أبدا مضطربا قلقا، وحسبته يومئذ عضواً صغير الشأن فى بيروقراطية الحزب ومكاتبه . وعلمت فيما بعد أن اسمه فى الحقيقة إرنست شنيلر ، أو هو « شنيلر » العضو فى اللجنة المركزية ورئيس إدارة التحريض والدعاية المعروفة باسم أجيتبروب Agit Prop [١] ثم علمت بعد هـذا أيضاً أنه رئيس « الابارات ن » وهى أحد أقلام «المخابرات» الأربعة أو الخمسة المستقلة بعملها و إدارتها ، والتى يديرها الحزب الشيوعى الألمانى ويتولى الأوجبو [٢] تنظيم بعضها رأساً . ولست أعرف إلى اليوم العمل الذى كان « القلم » الذى يرأسه شنيلر يؤديه : هل كان عملا من أعمال « المخابرات » العسكرية أو مجرد جاسوسية صناعية بريئة ؟ وقد حكم النازيون عليه بالسجن ست سنوات مع الأشغال الشاقة وقضى نحبه أو قتل فى السجن .

ولم أكن بالطبع أعرف من ذلك كله شيئا حين التقيت بذلك الرجل الأعجف الرث المعروق البدن فى تلك المكاتب « الرثيثة » [٣] التابعة لمصانع شنيدمول ، عند أول عهدى بالحزب وأهـله . ولا أذكر من حديثنا فى ذلك المقهى الصـغير غير أنه نبأنى أنه رجل « نباتى » لا يعيش إلا على الخضر النيئة والفاكهة ، ولعل ذلك سر وجهه المعروق ، وفمه المشدوق ، و بشرته الجافة الناشفة .

وأذكر أيضاً أننى سألته هل قرأ مقالا معيناً ذكرته له فى إحدى الصحف السيارة ؟ فكان جوابه أنه لا يقرأ الصحف البورجوازية فى حياته ، وأنه إنمـا يقرأ جريدة « روت فاهن » Rote Fahn لسان حال الحزب دون سواها .

فأدركت أن اللجنة المركزية أوفدت للقائى رجلا بيروقراطياً ضيق الفكر حزبياً استبدت به حزبيته ، إذ لم أتبين السخف الذى ينطوى عليه اختيار مخلوق لا يقرأ إلا جريدة حزبه ليتولى إدارة الدعاية له إلا حين علمت فيما بعد بخافية أمر شـنيلر وحقيقة عمله ومركزه .

---

(١) كلمة مركبة تركيباً مزجيا من اللفظتين (التحريض والدعاية) .
(٢) « الأوجبو » الروسية كالجستابو الألمانية أى فرق البوليس السياسى .
(٣) الرث والرثيث أى « المدهول » أو « المبهدل » .

ولم يوجه لى أسئلة كثيرة ، ولكنه سألنى تفصيلا عن طبيعة عملى وحقيقة مركزى فى دار أولشتاين ، فأبلغته رغبتى فى ترك عملى والتفرغ لخدمة الحزب كداعية ، أو أفضل من ذلك ، كسائق جرارة فى الاتحاد السوفييتى . وكان ذلك العهد عهد الزراعة الجماعية والصحف الروسية يومئذ تنادى بالحاجة الملحة إلى سائقى جرارات .

وكان صديقى « ن » من قبل قد حذرنى من هذه الفكرة وكان يسميها « خيالا بورجوازيا تافها » ويقول إننى إذا تحدثت بها إلى موظف فى الحزب ، انكشفت وعرضت نفسى للسخرية والتهانف[1] ، ولكنى لم أستمع لتحذيره وحسبته الهازل الماجن، لأننى لم أكن أجد أى بأس أوضير فى العمل ولو عاما واحدا كسائق جرارات أو عامين ما دامت جبهة الإنشاء والتعمير بحاجة ملحة إلى السائقين .

ولكن شنيلر راح فى رفق وتؤدة يبين لى أن الواجب الأول المفروض على كل شيوعى هو العمل فى سبيل الثورة داخل بلاده ، وفى عقر موطنه ، وأن السماح بدخوله فى الاتحاد السوفييتى حيث توالى النصر للثورة امتياز نادر لا يصيبه غير القدامى فى الحركة والراسخى القدم ، وأن من الخطأ أيضاً أن أترك وظيفتى ، إذ يتيسر لى أن أكون أنفع للحزب وأكثر إفادة إذا بقيت فيها ، ولزمت الصمت فى أمر معتقداتى السياسية وآرائى .

قلت : وما وجه النفع والإفادة ؟ وأنا لا أستطيع أن أحيل الجريدة التى أشتغل فيها ، وهى « أم تاج » إلى صحيفة شيوعية ؟ أو أحدث تغييراً فى سياسة دار أولشتاين .

قال : إنك وضعت السؤال فى قالب « سوقى » . ولكن هناك وجوهاً عدة تستطيع منها أن تؤثر فى سياسة الصحيفة من طريق « الرتوش » والتحسين فى الأسلوب، كإبراز الأخطار التى تهدد السلام العالمى مثلا من العدوان اليابانى على الصين[2] .

---

(١) التهانف أى الاستهزاء والزراية .

(٢) كانت روسيا يومئذ تخشى هجوما عليها من اليابان .

وقال : إننى أستطيع إذا شئت أن أقابله مرة فى الأسبوع للبحث فى هذه المسائل ونحوها ، ولـكنه يفضل أن ينتدب من هو أقل مشاغل منه ليكون تحت تصرفى فى كل وقت لتوجيهى و إرشادى ، وأنه فى إمكانى من طريق هذا الصديق أن أقدم إلى الحزب أية معلومات ذات أهمية خاصة تقع لى ، فإن الحزب على الأرجح سيضطر وشيكا إلى العمل سراً ، والجهاد فى الخفاء ، فإذا حدث ذلك كان أمثالى من الذين يشغلون مراكز محترمة ، لا تشوبها من الريب شائبة ، أنفع وأجدى على الحزب فى معركة الحياة والموت التى ستنشب بينه وبين الفاشية والعدوان الاستعمارى .

وبدا لى ذلك كله معقولا وجيهاً فلم يلبث نفورى الأول من شنيلر أن استحال إلى احترام لطريقته الصريحة فى البحث والنقاش ، واتفقنا على اللقاء بعد أسبوع لتعريفى بمرشدى السياسى الجديد .

قلت : ومن تراه سيكون ؟

قال : رفيق يدعى إدجار .

وبعد أن ودعتـه خطر لى فجأة أننا لم نتحـدث إطلاقاً عن موضوع قبولى فى عضوية الحزب ، بل تركناه معلقاً ولم نتناوله بقول ، ولا قطعنا برأى فيما إذا كنت قد أصبحت شيوعياً فعلا أم لا .

فعدوت فى إثره ووجهت إليه هذا السؤال .

فابتسم ابتسامته الغريبة وقال : إذا كنت مصراً جعلناك عضواً ، بشرط أن تبقى عضويتك سراً مجهولا ، فلن تلحق بأية خلية ، بل ستعرف فى الحزب باسم منتحل .

فارتضيت ذلك متكرهاً ، لأننى لن أستطيع ، إذا أنا حرمت من الالتحاق بخلية ما ، أن أدخل فى صميم حياة الحزب وجوه ووسطه ورفقته .

وانثنى شنيلر يقول : نبئنى أى اسم منتحل تختـاره لـكى آتيك ببطاقتك حين نلتقى فى المرة التالية ؟؟

وكان الاسم الذى خطر لى بعد لحظة السرحان المألوفة هو « إيفان ستانيبرج ».

أما إيفان فلأنه اسم له رنين أسماء الروس ، وأما ستانيبرج فقد كان اسم صديق من المعنيين بالتحليل النفسى فى « تل أبيب » ، وقد مضت عدة أعوام لم أره ولم أسمع به ، وكان يحاول جهده حتى على إتمام دراستى فى جامعة فيينا بعد انقطاعى عنها قائلا : إذا أنت لم تستكمل دراستك ولم تتخرج فسوف تظل متشرداً وسوف يكشف الناس تشردك ، مهما يكن المركز الذى تصل إليه .

واجتمعت بشنيلر مرة أخرى بعد أسبوع فى الموضع ذاته ، فاذا به يصطحب فتاة بدلا من « إدجار » الذى تحدث عنه ، وقد عرفنى بها قائلا : إنها الرفيقة « بولا » وإنها تعمل وتتعاون مع إدجار .

ورأيت حيالى فتاة سمراء ذات حَوَل خفيف تناهز الخامسة والعشرين .

وذهبنا مرة أخرى إلى ذلك المقهى الصغير .

وطفق شنيلر يحدثنى عن الفتاة قائلا إنها ستشتغل معى كحلقة اتصال بينى و بين إدجار ، لأنه « صعب المنال » وليس من السهل الاتصال به فى أى وقت . أما هى فنى إمكانى أن أتحدث إليها فى التليفون متى شئت ، وهى تستطيع الاتصال بى متى شاءت ، أو بمعنى آخر أننى لن أعرف شخصية إدجار هذا ولا مقامه وعنوانه .

ولا يفوتنى هنا أن أقول إن الحزب الشيوعى كان فى ذلك العهد — يناير عام ١٩٣١ — مشروعا فى ألمانيا ومعترفا به ، وله نواب فى الريشتاغ ، ومنهم شنيلر هذا ، وصحفه تنادى جهاراً فى كل صبح بوجوب النضال والثورة ، واجتماعاته العامة تنعقد تحت حماية البوليس ، وهيئته شبه العسكرية وأعنى بها « الروترفرونتكمفربند » أى رابطة الجنود الحمر القدامى — وهى أحد أربعة جيوش خاصة فى ألمانيا — معترف رسمياً بها . أما الثلاثة الأُخر فهى جنود العاصفة النازيون .S. A والستاهلهلم الوطنى والرايشباند التابع للديموقراطيين الاشتراكيين [1] .

---

(١) ويعرف بالأحرف الأولى وهى ر . ف . ب .R.F.B ، بينما تعرف جنود العاصفة بالأستورم .

ولـكن الحزب كان فى الوقت ذاته يعد العدة للجهاد السرى ، وكانت مظاهر نشاطه ، إلى جانب هذا الجيش العلنى الظاهر ، سرية فى الغالب ، وغير مشروعة ، أو مخالفة للقانون ، فلا يلبث العضو الجديد فيه أن يجد نفسه هابطاً عالماً جديداً ، ودنيا ليس له بمثلها عهد ، كأنما قد دخل بركة أسماك عميقة ، حوت أشكالا وأشباحا فوسفورية مضيئة مارقة سريعة الحركة ، مفلتة هاربة ، عالماً آهلا بقوم ليست لهم غير أسماء بلا ألقاب ، من أمثال إدجار ، و بولا ، و إيفان ، وما إليها ، ولا نعرف لهم مقارّ ولا عناوين ، ولم يكن هذا مقصوراً على أفراد الشبكات[1] المختلفة ، و إن كانت لجمهرة أعضاء الحزب صلة مباشرة بشبكة منها ، بل كان يتعداهم إلى أفراد الخلايا أنفسهم أيضاً . فلاعجب إذا كان الجو مشبعاً بالمتناقضات ، أو مزيجاً من رفقة أخوية ، وريبة متبادلة ؛ كأن شعاره « أحبب رفيقك ، ولـكن لا تأمن قيد شبر إليه ، فإن ذلك فى مصلحتكما معاً . أما أنه فى مصلحتك فلأنه قد يخونك ، ويكشفك ؛ وأما أنه فى مصـلحته فلأنه كلما كان أقل بالخيـانة إغراء ، كان ذلك خيراً له وأجدى » . وكذلك هو شـأن كل حركة سرية ، وكان ذلك أمراً مسلماً به فى الحزب إلى حد جعـل القوم لا يدركون مدى التحول الذى يطرأ حتما على أخلاق المرء ونفسـيته وشخصيته ، و يعترى بالضرورة العلاقات بين الناس ، من أثر البقاء طويلا فى الحزب والاندماج فيه .

وكان لقائى الثانى بشنيلر هو الأخير ، فقد ذهبنا مرة أخرى إلى المقهى ، حيث كتبت عندى رقم تليفون « بولا » واتفقت معها على الاجتماع بها فى « شقتى » بعد يومين .

وأخرج شنيلر عندئذ بطاقة عضويتى ، وقد كتب عليها اسمى المنحول « إيفان ستانيبرج » وتصافحنا مصافحة غريبة ، وراحت بولا تحدجنى تلك الحدجة المتخازرة « السمكية » التى رأيتها فى عينى الفتاة التى لقيتها فى ردهة الاستقبال من قبل .

---

(١) الابارات Aparat أو الشبكة ، أو مجموعة من الخلايا .

وأحسست أننى لن أكتسب ثقة هذا النوع من الفتيات إلا بعد وقت طويل . فقد كن فى ثياب رثة ، مهملات زينة وجوههن ، كأنما من احتقار لمحاولة التجمل والظهور حساناً على الأعين مادام التجمل والزينـة من شأن « البورجوازيات » وديدنهن ؛ وقد ألفن جميعاً هذه الحلقة الجريئة للايحاء بأنهن « فاهمات » فلا يخدعهن شيء .

وقبل أن ينصرف شنيلر ذهب يقول بابتسامته المرتبكة : الآن وقد أصبحت عضواً فى الحزب ، فلا تخاطبنى بعبارات التعظيم . أنتم . وحضرتكم . وما إليها . بل قل « أنت » وكذلك فلتخاطب « بولا » سواء بسواء .

وشعرت عندئذ كأنى « فارس » يتلقى رسامته ويُخلع عليه لقبه الجديد .

وفى الموعد المضروب جاءت بولا و إدجار للقائى فى شقتى بمحى ويستند ، وقد جاءا فى « تاكسى » وأحضرت بولا معها أداتها الكاتبة وكان إدجار فتى ناعماً باسما ، أشقر ، يناهز الثلاثين .

وتحدثنا فى مسائل السياسة ، وكانت فى نفسى أشياء من خطة الحزب وسياسته فكنت مثلا أسائل : لماذا لا يتفاهم الحزب مع الاشتراكيين ما دام هتلر على الأبواب ؟ ولماذا نصر على تسميتهم « الفاشيين الاشتراكيين » تلك التسمية التى أحنقتهم وجعلت التعاون معهم ضرباً من المستحيل ؟ .

وطفق إدجار يشرح لى الأسباب فى تؤدة وصبر طويل فقال : إنه ليس ثمة شيء أحب إلى الحزب من إنشاء « جبهة متحدة » من الطبقة الكادحة والكتلة الديموقراطية الاشتراكية ، ولكن الوحدة يجب أن تبدأ من القاعدة ، لا من القمة ، فان الزعماء الديموقراطيين خونة وقد ينكثون بأى عهد أو حلف يبرمه الحزب معهم فلا سبيل إذن إلى تحقيق فكرة « الجبهة المتحدة » إلا بكشف القناع عن الزعماء الاشتراكيين ، وكسب الجماهير التى يتزعمونها .

وكان لإدجار منطق خلاب ، فلم تنقض بضع دقائق حتى اقتنعت بأنه من الحق

البالغ أن يؤيد أحد فكرة التعاون بين شق الحركة العمالية فى ألمانيا ، حيال النازيين .

وسألنى إدجار هل من حاجة إلى الإرشاد بسبيل شىء آخر ، فلما أجبت سلباً ، اثنى يقترح علىّ ، وهو يبدى طمأنينة ملحوظة ، حين وجدنى مكتفياً بما سألته ، أن أنبئه بأية معلومات سياسية أو أسرار أو أحاديث سمعتها فى دارأولشتاين أو وصلت إلى علمى .

وعاد يسألنى بعد لحظة أخرى هل لى اعتراض على أن تتولى بولا كتابة ما قلته الساعة له ، اقتصادا فى العمل ، والوقت ، فقلت لا مانع عندى .

واقتصر نشاطى فى الأسابيع القليلة التالية على إملاء تقارير على « بولا » مرة أو مرتين فى الأسبوع .

وكان « إدجار » يهبط أحياناً علينا ، فيستمع هو كذلك ، وعلى وجهه تلك الابتسامة الناعمة الخليطة بشىء من السخرية وهو يذرع الغرفة ذهابا وجيئة ، وكانت عادتى أنا أيضاً أن أتمشى ، حين أملى ، فجعلنا أحيانا نتمشى على زوايا قوائم فوق بساط الحجرة ، مما كان له أثر فى جوها، وأضفى عليها أفقاً من التعاون والإخاء .

وكان ذلك هو كل ما أحسسته من الحمية والحماسة عقب انضمامى إلى الحزب .

أما « بولا » فقلما كانت تخرج عن صمتها ، أو تزايل وجومها ، وقد تكلمت مرة أو مرتين فى التليفون مع بعض رفاقها ، وكان كلامها همساً ، أو أنصاف ألفاظ ، أو تلميحاً ، ثم لا تلبث عندئذ أن تنقلب خلقا آخر ، فإذا هى المرحة البسامة المتوثبة .

ولم تكن بينى وبينها أية جاذبية طبيعية ، وكنت أشعر بأنها من الناحية الروحية لا ترتضينى فى عالمها ، ولن تتقبلنى فى دنياها ، لأننى فى نظرها غريب ، أو أجنبى ، وقد أكون للحزب نافعاً ، وقد لا أكون أميناً موضع ثقته ، ولكنى على الحالين أجنبى دخيل من دنيا « البورجوازية » الفاسدة .

ولم تـكن يوماً لتقبل شراباً أو مرطباً، كلما اجتمعنا فى المقهى ، وكانت تصر على دفع ثمن ما تطلبه ، ولمحت فى أول مرة أريتها أين تغتسل ، نظرة غضب واستنكار إلى جلباب البيت الذى كنت أرتديه .

أما إدجار فكان أرق وأكثر مجاملة ، ولـكنه كان كلما أركبته السـيارة « الأجرة » أصرعلى أن ينزل منهـا عند منعطف أو فى زاوية أو شارع جانبى ، قبل أن تصل إلى المـكان الذى يقصده ؛ وكلما التقينا فى المقهى ، كان أول منصرف ، مشترطاً ألا أنصرف إلا بعـد خمس دقائق من خروجه ؛ مخافة أن أعرف مقره ، أو أتبعه إلى مسكنه . وكان يقول لى وهو يبتسم : إن ذلك كله مما جرى عليه العرف فى الحزب و إننى لن ألبث أن اعتاده وأنحو نحوه من تلقاء نفسى .

ولـكنى شعرت فى الواقع بامتعاض وخيبة أمل متزايدة ، و إن قبلت هذا التدقيق كضرورة ، وارتضيت هذا التخفى ، بطبيعة الحـال ؛ فقد كنت أجرى فى أذيال الحزب ظمآن متلهفاً على الارتماء فى أحضانه ، وكلما اجتهدت فى امتلاكه ، وأردت أن يمتلـكنى ، رأيته يزداد تهربا ، وتدللا ، وابتعادا من قبضتى ، فلم ألبث أن فعلت ما يفعل معاشر الخطاب الذين تتأبى الحسان عليهم ، ورحت أفـكر جاهداً فى إطرافه بالهدايا الـكفيلة بترقيق قلبه ، وكسب حبه ، والظفر بابتسامه ورضاه .

فقد عرضت أن أضحى بوظيفتى ، وأن أعيش عيشة مهينة متواضعة ، كسائق جرارة فى سهول روسيا المترامية ، فقيل لى إن هذا خيال « بورجوازى » رخيص ؛ وألححت على « إدجار » أن يدعنى ألتحق بخلية لا يعرفنى فيهـــا أحد إلا باسمى المستعار ، فقال لى إننى قد أكتشف وتعرف حقيقة أمرى فيحرم الحزب من نفعى وعونى . فسألته ماذا فى وسعى أن أفعل بعد هذا أو أقدمه من الخير للحزب ، فـكان جوابه أنه سوف يفكر فى الأمر ، ولـكن انقضت أسابيع ولم يقل شيئاً .

وفى ذلك الحين وضعت جريدة « آم ميتاج » تحت إشرافى شاباً يدعى فون ا . . .

Von A.. ، وهو نجل سفير سابق لألمانيا فى تركيا ، وكان الفتى فى الحادية والعشرين ويريد أن يكون صحفياً ، فجاء ليشتغل بضعة أشهر تحت التمرين براتب اسمى ، وكان مجلسه قبالتى فى المكتب ، فكنا إذا انتهى عملنا نخرج لبعض الألعاب الرياضية فى النادى الذى أنشأته دار أولشتاين للترفيه عن موظفيها ؛ وكان الفارق بيننا فى العمر لا يتجاوز خمسة أعوام ، فلم نلبث أن أصبحنا صديقين وتوثقت أواصر المودة بيننا ، فجعلت أبث فى نفسه تعاليم «ماركس» ونظرياته أو «أنجيله» كما ألفنا أن نقول ؛ وكانت حججى بوصفى معلمه ومدربه على الفن الصحفى ومطالبه تقع حتماً من نفسه ، وتجد أذناً واعية لديه ؛ فلم يكد ينقضى اسبوعان حتى توسمت فيه تقدماً كافياً لأن أربطه بعجلة الشيوعية وأسلكه فى خدمتها ، ولكنى بالطبع لم أنبئه بأننى عضو فى الحزب ، وإنما قلت له إن لى فيه أصدقاء اعتدت أن أوافيهم من حين إلى آخر بما يقع لى من « دردشة » أو معلومات سياسية ، أو أحاديث المجالس ، ولم يخطر عندئذ بخلدى أن هذا التعبير هو وصف « ملطف » لعملى مع إدجار وبولا ، فكأنى قد بدأت فعلا أجنى حصاد اعتناقى للدين الجديد ، وأعنى به نعمة هدوء الضمير وراحته .

وكان آل «فون!...» يعيشون عيشة اجتماعية مترفة ، ويختلف إلى دارهم ضباط وساسة وأعيان ، فطلبت إلى صديقى الشاب أن يرهف أذنيه ، ويوافينى بما قد يسمعه فى سبيل خدمة القضية المشتركة ، من نحو الاستعداد فى ألمانيا لمحاربة الاتحاد السوفييتى ، أو فى أية دولة أخرى ، فوعدنى أن يبذل كل جهده ، معتزاً بهذه الثقة التى وضعت فيه .

وهكذا أخذت التقارير التى جعلت أمليها على بولا تمتلئ حياة وتزداد خطراً ، وهى فى جملتها أحاديث دبلوماسية و « دردشة » مجالس ، ونتف وشذرات عن التسلح والدسائس الجارية بين الأحزاب الألمانية فى العام الأخير من عمر الجمهورية الأولى .

وقد وقع يومئذ حادث لا يزال ماثلا فى خاطرى بارزا على غيره من الأحداث ، وهو أن الصحف المنتمية إلى الحزب الشيوعى لبثت عـدة أسابيع تسخر من رفض الحكومة البروسية الألمانية ذات النزعة الفاشية الإشتراكية اتخاذ اجراء شديد حيال « القمصان السود » الذين كانوا يعدون العدة جهرة للقيام بحركة تطهير « البوتش »[1] وقد علمت فى ذات يوم من « رانير » المراسل السياسى لجريدة فوسيش زيتونج ، أن البوليس البروسى سيعد « كبسة » فجائية على مقر رياسة جنود العاصفة النازيين فى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى ، فيستولى على أسلحتهم وأوراقهم ، ويصدر أمراً بحظر ارتداء « البذلة » النازية .

فبادرت إلى نقل الخبر إلى بولا وادجار ، وقد تم الأمر وفقا للخطة المرسـومة ، ولـكن بينما كانت برلين على بكرة أبيها تتحدث عن وشك قيام حرب أهليـة بين النـازيين والاشتراكيين ، صدرت جريدتنا الشيوعية « روت فاهن » ساخرة فى صفحتها الأولى كعادتها من التسامح الذى تبديه الحـكومة الاشتراكية الديموقراطية حيال النازيين ، وكان صدور ذلك المقال هدفا لسخرية بالغة ، ولـكن الجريدة هى التى عرضت نفسها لها .

وسألت ادجار عن سر إغفالهم انذارى ، ورفضهم الأخذ بتحذيرى فقـال : إن موقف الحزب من الديموقراطيين الاشتراكيين وليد سياسة ثابتة طويلة الأمد فلا يمكن أن تتغير لحادث عارض ، أو اجراء عابر .

قلت ولـكن الواقع يكذب كل كلمة وردت فى ذلك المقال و يناقضها .

قال وهو يبتسم ابتسامة المتسامح ، إن نظرتك لا تزال « سوقية » .

وانطلق يشرح لى الوقائع بأسـلوب « التحليل المنطقى » فقـال إن إجراءات البوليس لم تـكن إلا عملية « صورية » لذر الرماد فى العيون ، و إخفاء « الشركة »

---

(١) أو البوتش Potsch أى الحمام ، وقد عرف فيما بعد بحمام الدم .



القائمة بين الفريقين فلئن رأيت فريقاً من الزعماء الاشتراكيين مناهضين «شخصياً» للفاشية ، فلا يزال الحزب الاشتراكى نفسه من الناحية « الموضوعية » أداة فى يد النازية ، بل الواقع أن الاشتراكيين هم العدد الأكبر ، لأنهم الذين أحدثوا صدعا فى الطبقة العاملة .

وقد اقتنعت بما قال لى ولكنى اعترضت لتغطية وجهى قائلا : إن الحزب الشيوعى على كل حال هو الذى انفصل من الاشتراكيين فى عام ١٩١٩ .

قال هذه هى النظرة « السوقية » إلى الموضوع مرة أخرى فقد كنا يومئذ فى الظاهر أقلية ، ولكننا نحن الذين نهضنا برسالة الثورة « العمالية » ، فأبى الزعماء الاشتراكيون أن يسيروا خلفنا ، ومضوا يقسمون الطبقة العاملة ويحدثون صدعا فى صفوفها ، فأصبحوا خدما للرجعية وأولياء .

وأخذت شيئا فشيئا استريب بآرائى ونظراتى « السوقية » كما وصفت لى ، والنظر إلى العالم المحيط بى على ضوء التعليلات «المنطقية» التى يتحدثون عنها ، وكانت هذه الحالة النفسية عندى مرضية كل الإرضاء ، لأنك بمجرد تنسيق عقليتك وفقاً للفن ومصطلحاته ومآخذه ومقتضياته ، لا تلبث أن تروضها على مواجهة الحقائق ، فى غير اضطراب أو انزعاج ، ولهذا بدأت الوقائع تتخذ اعتباطاً اللون الصالح لها عندى وتنزل فى المكان المناسب .

واعتقدت يومئذ ان الحزب معصوم من الخطأ ، أدبياً ومنطقيا على السواء ، أما أدبيا فلأن اهدافه صادقة أى وفقا « لمنطق التاريخ » وعلوم الكلام ، وهى أهداف وغايات تبرر الواسطة ، واما « منطقيا » فلأن الحزب هو طليعة الطبقات الكادحة « البروليتاريا » ، وهذه بدورها هى كيان المبدأ الفعّال فى التاريخ .

وكان خصوم الحزب من الرجعيين الظاهرين أى الفاشيين الاشتراكيين هم ثمرات بيئتهم ونتاج محيطهم فلا غرو إذا جاءت افكارهم صورة « للبورجوازية » ومساويها ومقابحها . وما كان الخوارج على الحزب إلا نفوسا « ضالة » باءت بعار ،

وليس الجدل معهم ، والاستماع ذاته لهم ، إلا تعاملا مع قوى الشر ، واتصالا بعناصر الإثم والسوء .

وكانت أيام جمهورية « فيمر » معدودات ، وكان كل عنصر منا فى الحزب الشيوعى الألمانى منتظراً أن يرسل إلى داشاو أو أورانيبرج أو غيرهما من المعتقلات ويرتقب سوء المصير .

ولكنا جميعاً مضينا نسير هانئين فرحين خلال سراب خداع من المصطلحات والأقيسة والتعبيرات الخاصة تحجب عن أعيننا عالم الحقيقة والواقع ، فليكن الفاشيون البهائم أنعاما أو أضل سبيلاً ، فما لنا ولهم ، إن كل ما يهمنا هو أمر الهراطقة « التروتسكيين » والمنشقين الاشتراكيين .

وقد وضع الحزب الشيوعى فى عام ١٩٣١ يده فى أيدى النازيين عند إجراء استفتاء عام حيال الحكومة البروسية الاشتراكية ؛ وفى خريف ١٩٣٢ عدنا نضعها فى أيديهم فى حوادث الإضراب الذى عمد إليه عمال النقل فى برلين . وكان هاينز نيومان Neumann الزعيم الشيوعى الألمعى هو الذى ابتكر تلك الكلمة المشهورة « اضرب الفاشى أينما ثقفته » ، وهى كلمة كانت تبدو يومئذ ذات رنين خلاب ، ولكنه لم يلبث أن خمل وتوارت شهرته قبل القضاء عليه ، وراحت سياسة الحزب متراوحة لا تستقر على حال ، كما رأيناها قبل ميثاق مولوتوف — ريبنتروب ، وإن كان الحزب قد قرر أن يجعل عام ١٩٣٢ عام النصر للثورة « العمالية » فى ألمانيا ؛ فقد ثبت لدينا يومئذ الإيمان المكين الذى لم يعد يتخذ الوعود جداً ، والأمانى يقيناً ، بل الإيمان الذاتى المستمد من أعماق الروح ؛ فلا عجب إذا كنا سعداء مستبشرين ، وإن ظللنا يومئذ القوم المستقيمين فى عالم معوج ، الصالحين فى دنيا فاسدة .

وفى ذات يوم سألنى إدجار عرضاً : هل ذهبت مرة إلى اليابان ؟

قلت : كلا .

قال : أتود الذهاب إليها ؟؟

فأجبت قائلاً : ولم لا ... إننى أحب الأسفار .

قال : هل تستطيع أن تقنع دار أولشتاين بفكرة إيفادك إليها كمراسل لها .

قلت : كلا . فإن لنا فيها مراسلين وأنا لا أعرف عنها شيئاً .

قال فى رفق : ولكنك لمصلحة الحزب تستطيع أن تكون فيها أنفع منك هنا ، فهل فى وسعك أن تحمل صحيفة أخرى على إيفادك إليها ؟

قلت : إن فى ذلك مشقة ، ولكن أى عمل يمكن أن أؤديه فيها إذا أنا ذهبت ؟

فبدا عليه شىء من التألم لسؤالى ، ولكنه أجابنى قائلا : إننى هناك سوف أؤدى عملى الصحفى وأكسب رزقى ، وأصيب مرتباً حسناً كما هو شأنى هنا فى الوقت الحاضر . وبجانب ذلك أستطيع أن أوافى الحزب بمعلومات طيبة وتقارير هامة من طريق أصدقاء سيدلوننى عليهم ، ويعرفوننى بهم . فهل لى أن أفكر فى هذا الأمر ملياً ؟؟

قلت : لا مدعاة للتفكير ، فإنى لن أتردد فى الذهاب ، ما دام الحزب يريد منى أن أذهب ، ولكن ليس ثمة أمل فى الظفر بصحيفة تعهد إلىّ بالسفر أو تعين لى مهمة أؤديها .

فسكت إدجار لحظة ثم استرسل يقول : هل ترتضى السفر إذا تولينا نحن إيجاد الصحيفة التى تقبل فكرة إيفادك ؟ ؟

قلت : إننى أكرر لك أن ليس لدىّ ما أفكر فيه ، لأننى سأذهب إذا شاء الحزبُ ذلك .

قال : إننى سأنبئك بما نريد بعد أيام .

وترك الحديث فى هذه المسألة ، ولم يعاوده بعد ذلك فلم أشأ أن أسأله ، فقد كنت قد عرفت آداب الحزب ولقنت طريقته كل التلقين .

ووقع لى حادث غريب آخر بعد قليل .

فقد جاءتني ذات يوم وأنا في المكتب فتاة تدعى « مس ماير » وطلبت لقائي ، وقد كتبت على البطاقة التي تقدم عادة إلى الزائر ليبين ما حاجته تقول « لأمر خطير... صديقة قديمة » .

فلما دخلت عليّ الحجرة إذا هي فتاة مسيحة من الجمال[1] دميمة صغيرة الجسم لم أكن رأيتها من قبل ، ولكن زيها المهمل وجرأتها وتصعير خدها ، وهي داخلة عليّ في مكتبي ، لم تلبث أن دلتني على أنها « رفيقة » .

وبدا لي من حديثها أنها جاءت لتسألني أن أقبل وظيفة « محرر مسئول » في وكالة صحفية حديثة العهد بالإنشاء ؛ وكان القانون في ألمانيا يحتم أن يكون لكل نشرة دورية محرر مسئول عما ينشر فيها ، وكان المألوف في المجلات الصغيرة وأشباهها من النشرات السريعة النمو ، العاجلة الزوال ، كبعض النباتات الفطرية ، أو عش الغراب[2] ألا يكون للمحرر المسئول عمل ما في التحرير ، بل هو في الغالب شخص أوتي مكاناً في المجتمع ، وله في المصرف حساب ، ويجدي اسمه على المجلة إذا صدرت به .

فسألت المس ماير أن تشرح لي أهداف هذه الوكالة الصحفية وماضيها ، لأنني لم أكن قد سمعت في حياتي بها .

وهزت كتفيها متأففة وانثنت تقول : ولكن ألا تفهم أنني قد أوفدت من أصدقائنا ، وأن هذه المسألة ليست سوى « شكلية » لمجرد توقيعك ؟

قلت بحذر متغابياً : ومن هم أصدقاؤنا هؤلاء ؟؟ .

وازدادت تململا ، وكادت تسب .

ولا عجب فقد كانت من نوع « سندريللا »[3] العصبي ، أو مثال الفتاة

(١) مسيحة من الجمال أي خالية منه ، وللانكليز تعبير آخر وهو قولهم « سادة » أي لا جمال فيها ولا ملاحة .

(٢) نبات فطري سريع النمو عاجل الزوال .

(٣) سندريللا في الاسطورة المعروفة فتاة يتيمة عذبتها امرأة أبيها عذاباً أليماً .

البورجوازية الخائبة التى استحالت عن طواعية واختيار إلى صفوف الطبقة الكادحة «البروليتاريا» ، وأمثالها كثيرات فى الحزب الشيوعى الألمانى .

فطلبت إليها أن تعين أسماء أولئك الأصدقاء .

قالت متكرهة ، وهى تلق نظرة حول المكتب لكى تستوثق من أنه خال من « الميكروفونات » : « جورج طبعاً » .

ولم يكن معارفى فى الحزب إلى ذلك العهد يتجاوزون أرنست و إدجار و بولا ، وكنت أجهل هذا الاسم ، فلم أكد أصارحها بجهلى له حتى استشاطت غضباً ، وانثنت تقول « كيف تسول لهم نفوسهم إيفادى إلى إنسان مثلك لإضاعة وقتى » . وانطلقت منصرفة .

وفى المرة التالية للقائى بولا ذكرت لها الحادث ، فعجبت له وارتبكت ، ووعدتنى أن تبحث عن «المس ماير» هذه وتنبئنى ولكنها حين اجتمعت بى بعد ذلك قالت إنها لم تجد متسعاً من الوقت للبحث .

ومضت يومئذ تهز كتفيها لكل سؤال ألقيه عليها بشأن تلك الفتاة وتقول إنه لا بد من أن يكون قد اختلط الأمر على وأنه يحسن أن أنسى ما جرى .

وجرت لى وقائع حال كثيرة من هذا القبيل ، ولكنها بجملتها لم تكن شيئاً مذكوراً .

ومن يدرينى لعل اقتراح إدجار بشأن سفرى إلى طوكيو كان مجرد اختبار نفسى ، أو لعله أراد فعلاً أن يوفدنى إليها ، ولكن رؤساءه لم يطمئنوا لى ولم يثقوا بى ؛ وقد تكون « المس ماير » قد جاءت فعلا من قبل « إدجار » ، الذى كان معروفاً لها باسم «جورج» ، فإن هذه الأمور ونحوها كثيرة الوقوع ، أو لعلها جاءت من قبل شبكة شيوعية منافسة تحاول التعدى على منطقة اختصاص إدجار ونفوذه .

وقد تبين لى من هذا الحادث وغيره فى ألمانيا وروسيا أن أعمال هذه الشبكات أقل كفاية و إتقاناً ودقة مما يظن خصومها ومنافسوها المروّعون منها ، وأن الوسائل التى تحت تصرفها أكثر قيوداً مما يحسبون ، وأن هناك ثلاثة عوامل نفسية كثيراً

ما يساء تقديرها ، ولا يدرك خطرها على حقيقته ، وهى الروح الخيالية التى تلازم فرق الأعوان المتطوعين فى خدمة « الهيئات السوفييتية الصامتة »[1] وسذاجتها ، وجرأتها التى لا تعرف ترددا .

ولم تتجاوز صلتى بشبكة شنيلر أكثر من ثلاثة أشهر أو شهرين ، ولم يكن هذا الاتصال سوى اتصال خارجى ، ولكن وقوفه عند هذا الحد فلم يجاوزه إلى الانغماس ، حتى أصبح « شبكياً » صميما ، وهو الاصطلاح الحزبى الذى وضع للجواسيس والصنائع ، لم يكن مرجعه إلى شىء من جانبى ، فقد كنت مستعداً أن أكونه ، لأنى أصبحت يومئذ أحد أنصاف العذارى فى الثورة ، ممن ينتظر مجرد إشارة ليكون فى مصاف أولئك الصنائع لحماً ودما ، و بدنا وروحا .

وما أريد بذكر هذا أو الوقوف لحظة عنده أن أسوقه اعترافاً أو أستشهد به فى قصتى استشهاداً ، بل لأنى كفتى ترجع نشأته إلى أوربا الوسطى ، ويتوافر فيه القدر العادى من الخيال ، والحد الوسط من الخبرة ، أمسيت يومئذ نموذجاً أو مثلاً من ألوف النماذج والأمثلة للشباب والفتيان الذين أقبلوا بكليتهم على الشيوعية ، وتفانوا فيها تفانياً ، وأن الكومنترن و « الأوجبو » كانا فى ذلك يتجران بالرقيق الأبيض وأن فريستهما وضحاياهما هم أولئك الشباب الخياليون الذين يداعبون العنف ، ويتحايلون على الانغماس فى وسائله .

ولم تكن نجاتى من مخالب هذه «الشبكات» الشيوعية ، بفضل بعد بصرى ، أو يقظتى وحذرى ، بل مرجعها إلى براءة الشاب «فون ا ...» ونقاء سريرته ، فقد كان فى الحادية والعشرين ، وكانت نفسه تستشعر نحوى تلك المودة التى يحسها الشاب فى تلك السن نحو معلمه ومدربه .

وقد مضت علاقاتنا بضعة أسابيع طيبة ، وظلت صلاتنا على ما يرام ، ولكنى بدأت بعد ذلك ألمح فتوراً من جانبه وإن لم ألق بالاً كثيراً إليه ، وجاءنى مرة

(١) سميت الصامتة أى التى تعمل فى هدوء وخفية بغير إعلان أو كلام ويرمز لها بالأحرف "S.S.S."

أو مرتين يقول فى تهيب ومخافة إنه يود أن يكون له معى «حديث طويل» .

ولكنى يومئذ كنت مرهقاً بكثرة العمل ، متورطاً فى حب غير موفق ، كما بدأت أمل تعليمه وأتبرم بتدريبه ، فجعلت أرجىء هذا « الحديث الطويل» المطلوب من حين إلى آخر ، و إن بدا لى فيما بعد أن إرجائى إياه كان غلطة من تلك الأغلاط التى يهيئها القدر لإنقاذى ، أشبه بمن يفوته ركوب الطائرة لأنها مقدر لها أن تسقط أو تقع لها كارثة .

وفى ذات يوم ، و إنى لماض فى إملاء بعض الرسائل على إحدى الكاتبات ، إذ انقض الفتى « فون ا... » علينا فجأة وطلب أن يتحدث معى فى الحال على انفراد .

وكان يبدو أشعث تاركاً شعر ذقنه ينمو ، وتلوح عيناه حمراوين ، وهومضطرب هائج ، فلم يسع الكاتبة إلا أن تنصرف من الحجرة مروعة .

قلت وأنا متطير موجس « ما الخبر ؟ »

قال : لقد انتهى بى مطاف التفكير إلى نتيجة قاطعة ، وهى إما أن أطلق الرصاص على رأسى فأنتحر ، أو أكشف القناع عن حركتنا ونشاطنا ، فاختر من الأمرين ما تشاء .

قلت : ما هى هذه الحركات التى تتحدث عنها؟ ؟

قال بلهجة حماسية : حركات يصح أن تسمى « خيانة عظمى » ؛ وأنشأ يقص قصته .

قال : إن هواجس وشكوكا خالجته منذ أسبوع فى هذا الأمر الذى حملته على ارتضائه ، ولم تلبث هذه الشكوك فى الليلة الماضية أن تحولت إلى يقين قاطع بأنه ليس إلا جاسوساً ، وخائناً .

وعاد يكرر أنه لم يبق أمامه إلا أن يختار بين أحد أمرين : إما أن ينتحر ، وإما أن يعترف بما فعل ، ويقبل النتائج .

فقلت له : إن هذا القول هراء كله و إن الجاسوس هو الذى يسرق وثائق حربية

أو يبيع أسرار الدولة لدولة أخرى ، وإن كل ما فعله هو نقل أحاديث و «دردشات» فى المجامع إلى صديق له .

قال مهاجماً : وماذا فعلت أنت بتلك الأحاديث ؟؟

قلت : رويتها لأصدقائى على علاتها .

فصاح بى قائلاً : أصدقاء ... ! هل تريد أن تقول جواسيس أجانب ؟ ؟

قلت : إن الحزب الشيوعى هو حزب العمال فى ألمانيا ، فهو وطنى كالحزب النازى أو الكاثوليكى سواء بسواء .

قال : كلا ... فإن كل إنسان يعرف أنه آلة فى أيدى الروس .

وتولانى العجب من أمره ، وتساءلت فى نفسى ماذا جرى له ، أفتراه انقلب « نازياً » بين عشية وضحاها .

ولكن تبين لى أنه لم يغير ميوله السياسية ، وإنما أدرك أن تحول المرء إلى الاشتراكية ، أو الماركسية ، شىء ، ونقل المعلومات إلى دولة أجنبية شىء آخر .

واعترف وهو يهز كتفيه مستخفاً بأننا من الناحية الفنية قد لا نكون جاسوسين ، ولكن ذلك عنده لا يغير شيئاً من الواقع ، وهو أن سلوكنا كان خيانة ، وعملا غير شريف .

وقال إنه يستحيل عليه أن يعيش إذا هو لم يعترف بكل ما جرى ، وقد كتب فعلا اعترافه فى الليلة البارحة ولكنه لن يسلمه إلا بعد موافقتى عليه .

وألقى بين يدى كتاباً مسهباً كتب على الأداة الكاتبة ، فإذا هو فى ثمانى صفحات ، وموجه إلى « المدير العام » .

وطلب منى أن أقرأه .

فقرأت السطرين الأولين منه أو الأسطر الثلاثة الأولى ، وهى « أنا الموقع على هذا ... أرى من واجبى أن أحيطكم علماً بما يلى ... إلخ »

ولكنى وقفت عن القراءة نافراً مستنكراً .

ولم يلبث الفتى وكان واقفاً قبالتي متأبياً الجلوس أن اكفهر ، وبدا منظره أليماً ، وعيناه أشد من قبل تورما واحمراراً ، فلم يخالجني الشك في أنه قد راح ينظر إلى الموقف نظرة «دراماتيكية» ، ويريد الخروج منه بحماسة الشباب وتسرعه ونزقه ؛ ولكن قلما تقع حوادث الانتحار لدوافع قوية ، وبواعث كبيرة ، وإن بدا لي مع ذلك أن هذا الشاب قد أوتي من العزيمة ما سيدفعه فعلا إلى إطلاق الرصاص على نفسه.

وظهر لي الموقف مضحكا ومؤلماً في آن واحد ، أما أنه مضحك فلأن الشاب كان مغالياً كثيراً في أهمية شخصه ، مبالغاً إلى حد بعيد في حقيقة ما فعلناه ؛ وكنت لا أزال أشعر بأن الأمر لم يتعد حد « الفضول السياسي » وإن أحسست العجز عن مجادلته أو قراءة كتابه ، على الرغم من أنه يتصل رأساً بمصيري .

وعند ما أبلغت « إدجار » الأمر فيما بعد ، لم أستطع أن أعلل له سر امتناعي عن قراءة الكتاب ؛ ولعل هذا هو ما جعل « الشبكة » تتخلى عني كانسان لا رجاء فيه .

أما اليوم فإن شرح المسألة سهل ، وهو أنني لم أقو على مواجهة شيء يتضمن وقائع كنت أنظر يومئذ إليها نظرة خاصة ، وأغالط في قيمتها المغالطات الحزبية المألوفة ، متلطفاً في أخذها كل التلطف ، مترخصاً أقصى حدود الترخص .

ولئن كنت مقتنعاً يومئذ بأن الفتى « فونا » كان حماراً غريباً ، أو غبياً شاذاً غريب الأطوار ، وأنني كنت العامل المجاهد الصادق في خدمة « القضية » ، فقد شعرت بأنني مخطئ في حق ذلك الشاب ، مروع الخاطر من تلك الخطرة التي أنذرني بها ، متخيلا وقفته أمام المرآة لإطلاق النار على رأسه .

وتناولت الكتاب فدسسته في جيبه وقلت له إنني لا أمانع في تسليمه ، وليذهب في داهية ، مشيعاً مني بالبركات ....!

قال : هل تعني أنك موافق على أن أفعل ما أشرت إليه فيه .

فقد أخذته كلماتي مأخذ المفاجأة الأليمة ، وراح يسألني هذا السؤال مترقباً الجواب

كأنه آخر فرصة أمامه ؛ وعندئذ بدا لى فى لحظة ما أننى تصرفت تصرفاً جنونيا ، فلعلى بشىء من الجدل على الطريقة الخاصة ، مستطيع إخراجه من الحرج المحيط به .

ولكنى لم أستطع الإقدام ، فقد تلاشى عندئذ اعتدادى بنفسى كمعلم ، وتبددت ثقتى بذاتى كمرشد ، وإذا بى أرى الشاب يعود من لدن الباب فيشد يدى فى عاطفة رهيبة ، وينصرف لا يلوى على شىء ، وهو يلوح أقل اضطراباً مما بدا عند حضوره .

وهكذا انتهى عملى فى دار « أولشتاين » وبدأت مرحلة جديدة فى حياتى سلخت سبع سنين عجافا ، وقد كنت متقبلا من قبل أن أستغنى عن وظيفتى من أجل الحزب ، ولكنى لم أكن أظن أننى خاسرها على هذا النحو الجنونى العجيب .

وكان ذلك أيضاً نهاية علاقتى بالشبكة الشيوعية ، فقد خسرت الوسيلة التى كنت أستطيع أن أتوسل بها لخدمتهم ، على صورة تثبت أننى غير صالح إطلاقا لأعمال « المخابرات » ، فلم يسعهم إلا الإعراض عنى بغير احتفال ، ولم أعد أرى إدجار أو بولا أبداً ، وإنما علمت فيما بعد أن بولا قتلها « النازيون » فى رافنسبروك ، ولا تزال شخصية إدجار مجهولة لدىّ إلى اليوم .

ويصح أن تسمى الطريقة التى فصلتنى بها دار أولشتاين من العمل طريقة « قويمة » أو « معتدلة » أو بعض الأمثلة على « النفاق » البورجوازى ، تبعاً للزاوية التى تنظر منها ؛ فقد كنت أرتقب عقب انصراف الشاب « فون » لتسليم كتابه أن أدعى فى أية لحظة إلى مقابلة المدير « موللر » ، وكنت قد أعددت دفاعى وهو أننى فعلا طلبت إلى هذا الفتى أن يروى لى الأحاديث السياسية التى قد تصل إلى علمه ، وأننى جعلت أحياناً أنقلها إلى أصدقائى فى الحزب الشيوعى الألمانى ، فأى إثم فى ذلك أو ضير ، فكل الناس يتحدثون فى السياسة ، ويتبادلون الأنبـاء مع الأصدقاء والأصحاب ، وليس للدار شأن بميولى السياسة ما دامت لا تؤثر فى عملى الصحفى ، وما إلى ذلك كله من الحجج والاعتبارات التى كان إدجار قد أشار علىّ بها .

ولهذا ظللت بعد زوال الصدمة التي أحسستها على أثر مقابلتي للشاب فون ا ، أترقب المشهد المنتظر بيني وبين المدير العام ، وأنا ممتلىء الصدر غضباً ، ناقم على هذا الحادث الذي كنت على يقين من أنه سيؤدي إلى نتيجة سيئة ، وأنا في الواقع منه برىء ، لم أقترف إثماً في حق الأخلاق ، أو أسيء إلى الفضيلة ، ولا عجب ، فإن من يعيش في بركة عميقة ملأى بالأسماك ، يشق عليه أن يميز بين الأجسام فيها والأشباح .

ولكن انقضت الأيام ولم يحدث شيء .

وإذا بي بعد أسبوع من واقعة الحال التي جرت بيني وبين ذلك الشاب أبصر كتاباً على منضدتي ، ففضضته ، وإذا به يحوي اعتذاراً جميلا يقول إنه بسبب التخفيض العام في عدد الموظفين مراعاة للأزمة الاقتصادية ، اقتضت الضرورة الاستغناء عنكم ، تاركين لكم حرية الاختيار بين كتابة مقالات لصحفنا من الخارج لقاء أجر شهري يعين حده الأدنى ، وبين قبول مبلغ من المال نظير المدة الباقية من العقد المبرم معكم لمدة خمس سنوات .

وهكذا لم ترد في الكتاب ولا كلمة واحدة عن الشاب فون ا .. ، أو عن خيانة الأمانة ؛ ولا ريب في أن دار أولشتاين أرادت ألا تحدث ضجة ، أو تكشف عن فضيحة ، وكان ذلك أيضاً رأي الحزب ، فقد أشار عليّ إدجار بقبول هذه التسوية وإلقاء الغطاء على هذا الحادث .

ومن ذلك الحين ، كما أسلفت عليك ، لم أره طيلة الحياة ...

— ٤ —

وكذلك وجدتني بعد فقدان الوظيفة حراً طليقاً من قيود دنيا البورجوازية وأصفادها ، ورحت أرسل جملة المال الذي قبضته من الدار إلى أبويّ ، وكان يكفي للقيام بأودهما عامين أو ثلاثة أعوام ، وقد أحسست أنني قد أخليت نفسي من تبعاتها نحوهما فترة طويلة من الزمن ، ولكني أبقيت مائتي «مارك» أو قرابة عشرة جنيهات لأدفع منها أجر السفر إلى روسيا إذا سمح لي الحزب بالهجرة .

وتركت الطبقة التى كنت أسكنها فى حى « وستند » وكنت أدفع عنها أجراً كبيراً ، وانتقلت إلى عمارة أخرى رخيصة الأجور فى ميدان بونر ، وجل سكانه من الفنانين « المفلسين » أصحاب المبادئ الراديكالية ، ولهذا سمى « المربع الأحمر » .

وكانت الأشهر الثلاثة التى قضيتها فيه أسعد الأيام فى فترة السنين السبع التى لبثتها عضواً فى الحزب الشيوعى .

ولم يعد ثمة حائل بعد أن زال وجه الفائدة منى للشبكة الشيوعية يحول دون انضمامى إلى إحدى الخلايا والعيش المنظم الرتيب كعضو عامل فى الحزب . والواقع أن إدجار كان قد سمح لى بالانضمام إلى خليـــة « المربع الأحمر » باسمى المستعار ، « إيفان ستاينبرج » ، وكان سماحه لى به قبل فصلى من دار أولشتاين بوقت قصير جزاء لى على الاجتهاد الذى بدا منى فى إملاء تلك التقارير الطوال على « بولا » ، وكنت يومئذ أقيم فى حى « وستند » ، وهو يبعد عدة أميال من ميدان « بونر » ، فلا مخافة إذا أنا انضممت إلى خلية الحى الجديد الذى نزلت به من أن يكشف أحد من الناس أمرى ، أو يدرك شخصية « إيفان ستاينبرج » وما يخفى وراءها .

وكان ذلك من الأغلاط السمجة التى تقع من تلك « الشبكات » المكيافيلية[1] ، فقد كان حى « المربع الأحمر » حى الفنانين والكتاب ، ولم أكد أظهر فى الخلية ويعلن للجمع عنى كعضو جديد يدعى « الرفيق إيفان » حتى رأيت بضعة وجوه تبتسم لى مرحبة محيية ، وكنت قد ألفت مشهدها من قبل .

ولم أعد أجد سبباً يدعونى إلى إبقاء عضويتى فى الحزب سراً مكتوما ، بعد أن تركت العمل فى دار أولشتاين فلم ألبث فى خلية « المربع الأحمر » أن ألقيت بنفسى كلية فى حياة الخلية وأفقها ورفقتها ، وكان أعضاؤها عشرين رجلا ، وكنا نجتمع بانتظام مرة أو مرتين فى الأسبوع ، وكانت كسائر الخـــلايا الشيوعية مقسمة

---

(١) نسبة إلى « مكيافيللى » صاحب كتاب « الأمير » ومذهب « الغاية تبرر الواسطة » . وجواز استخدام النفاق والملق والبطش والخداع لتحقيق الأهداف السياسية .

إلى ثلاثة أقسام : الأول منها يدعى « بول ليتر » أى « الزعيم السياسى » ، والثانى « أورج ليتر » أى « المنظم الإدارى » ، والثالث «أجيت بروب» أى العضو المسئول عن التهييج والدعاية ؛ وكان زعيمنا السياسى « ألفريد كانتوروفيكز » الذى يعمل الآن رئيساً لتحرير مجلة أدبية يحتضنها الروس فى برلين ، وكان يومئذ فى الثلاثين أو نحوها ، وهو الممشوق الناحل الأحول المعروف فى عالم النقد والأدب ، ومؤلف قصة تدعى « قصة زماننا » وهى رواية لم تشهد الضياء فى يوم من الأيام .

ولكنه كان بعد ذلك كله رفيقاً طيب القلب إلى حد بالغ وصديقاً كريماً يبذل النفس رخيصة فى سبيل صديقه ، وقد أوتى حفاظاً وملكة مجون خصيبة فياضة ، ولكن عيبه الوحيد هو الافتقار إلى الشجاعة الأدبية .

وقد لبثنا صديقين طيلة أعوام الهجرة التى قضيتها فى باريس ، وحين خرجت من الحزب كان الرجل الأوحد الذى لم يبصق فى وجهى ، وهو الآن من كبار أهل الأدب فى السوفييت ؛ وإنى لأرجو أن تحميه براءة سريرته واستسلامه وطاعته من الوقوع يوماً فى فخاخ التقاليد المناهضة للثورة أو شراك الكوزمو بوليتانية البورجوازية ، أو اللصوصية « الكنتية » الجديدة ، أو مجرد الإباحية الحرة [١] .

وكان زعيم خليتنا « الإدارى » الموكل بشئون التنظيم هو «ماكس شرودر» ، وهو أيضاً من الأدباء ، يعيش على الشهرة التى اكتسبها بعدة القصائد العامرة التى نشرها وهو فى التاسعة عشرة من العمر ، أى منذ خمسة عشر عاما مضت ، ولكنه كان أيضاً « بيضة » طيبة ، أو مثال « البوهيمى » المحبب الذى انحدر من « ميونيخ » والذى وجد فى تفانيه وإخلاصه للحزب تعويضاً عن خيبة آماله فى الأدب والحاسة الجنسية ، والمال ، وما إليها .

وأسندت مهمة التهييج والدعاية إلىّ عقب انضمامى إلى الخلية بوقت قصير ،

---

(١) كل هذه نعوت وصفات يطلقها الشيوعيون على من يريدون التشهير بهم أو اتهامهم بأنهم غير صادقين فى تفسيرهم للتاريخ ونظراتهم إلى الطبيعة .

ولا أزال أعتقد أن بعض الرسالات والمناشير التى وضعتها بقلمى ملأى بروح اليعقوبية [1] الحارة الصادقة .

وأذكر أن من بين أعضاء خليتنا الدكتور ويلهلم رايخ مؤسس معهد السياسة «الجنسية» ومديره العام ، وكان من الماركسيين المؤمنين بنظريات العلامة «فرويد» ، وقد أصدر أخيراً بإيحاء من مالينوفسكى كتاباً بعنوان « وظيفة الحاسة الجنسية » ، شرح فيه النظرية القائلة إن إضعاف الحاسة الجنسية عند الطبقة الكادحة هو الذى خنق فيها الوعى السياسى ، و إنه إذا لم تطلق الدوافع الجنسية وتسرح سراحاً تاماً بغير قيد لها ولا حد من نشاطها ، فلن تدرك هذه الطبقة مدى مقدرتها الثورية ، ومبلغ رسالتها التاريخية .

ولكن هذا الكلام وأشباهه كان أقل وضوحاً وجلاء مما يبدو من رنينه وأنغامه .

وقد أصدر رايخ بعد انتصار هتلر دراسة باهرة فى علم النفس ، تناول فيها تحليل « العقلية النازية » التى كان الحزب يندد بها ، ولم يلبث أن خرج عليه وانشق من صفوفه ، وهو اليوم يدير معهد أبحاث علمية فى الولايات المتحدة الأمريكية .

وكان معنا أيضاً فى الخلية ممثلان فى مسرح من المسارح «الطليعية» يدعى « فخ الفأر » وعدة فتيات ذوات مطامع أدبية غير ظاهرة ، وموظف فى شركة تأمين ، وشاب يدعى « أرنست » ابن الفاكهى القائم فى الحى ونفر من العمال الكادحين .

وكان نصف نشاطنا داخلا فى حدود القانون والنصف الآخر خارجاً عنه .

وكنا نبدأ اجتماعاتنا بمحاضرة سياسية يلقيها عادة الزعيم السياسى بعد أن تراجع فى مقر رياسة الحزب أو من « معلم » يوفدونه لهذا الغرض .

وكان الهدف المراد من هذه المحاضرات شرح الخطة السياسية المرسومة بسبيل مختلف المسائل الراهنة والشئون الجارية .

---

(١) أى الروح الثورية العنيفة التى لا تستند إلى العلم المادى ولكن كل كلامها حماسة .

وقد جرت فى ربيع عام ١٩٣٢ وخريفه المشئومين سلسلة انتخابات هزت البلاد هزة الزلازل ، كانتخابات الرياسة ، وانتخابات الريشتاغ مرتين ، والانتخاب المتصل بمجلس النواب البروسى ، وهى أربعة انتخابات سلخت معاركها ثمانية أشهر فى بلد أوشك أن يرتطم فى حرب أهلية .

وقد اشتركنا فى تلك الانتخابات ، من باب إلى باب ، ودار إلى دار ، موزعين نشرات شيوعية ، ومصدرين رسالات تدعو لحزبنا ، وكان أشق شطر من جهودنا ، تصيّد الناخبين ، والطواف بالدوائر الانتخابية ، فقد اعتدنا التجول فى صباح الأحد من الأسبوع ، حين يكون الناس فى بيوتهم ، فكان الرجل منا يدق جرس الباب ويدخل إحدى قدميه بين الباب والعمود ويعرض النشرات ، ويدعو القوم برفق إلى مناقشة سياسية فيها إذا شاءوا .

وكان الناس فى الغالب يلاقوننا بجفاء ، ولكنهم قلما يعمدون إلى الاعتداء ، وكثيراً ما كان الباب يوصد فى وجهى بعنف ، ولكن لم يتقدم أحد يوماً إلى شجار أو عدوان .

وكنا نتجنب دق أجراس بيوت النازيين المعروفين ، وكان أكثر الذين يقيمون فى مربعنا أو حواليه منهم معروفين لدينا ، كما كنا جميعاً لديهم معروفين ، لقيام خلايا لهم مثلنا ، وتشكيلات من ذوى « القمصان السود » ؛ فقد عمت ألمانيا حضرها وريفها تلك الخلايا المتقنة وشباكها الدقيقة ، ولا أزال أعتقد أننا كنا سنصيب رائد التوفيق ، لو لم تعمد موسكو إلى خطط نزقة ولا تفتأ بأساليبها الطائشة تمزق شباكنا وتخرجها من أيدينا ؛ فقد اجتمعت يومئذ الفكرة ، والاستعداد للتضحية ، والتأييد العام ، فكانت فى عوننا ، وكنا مصيبى النجاح ، لولا ذلك العائق القائم فى طريقنا .

وقد تلاشت من نفوسنا روح النضال ، لأننا لم نكن الصيادين ، كما كنا نظن ، بل « الطعم » المتدلى من الخطاف ، وإذا كنا يومئذ قد جهلنا هذه الحقيقة فما ذلك إلا لأن عقولنا « كيفت » تكييفاً جديداً من شأنه أن يجعلنا نتقبل أى تصرف

سخيف يأتى به الأمر من فوق ، كأنه من أصدق رغباتنا ، وبعض مظاهر اعتقادنا ويقيننا .

وكنا قد رفضنا تعيين مرشح مشترك مع الاشتراكيين فى انتخابات الرياسة ، وحين ناصر هؤلاء « هندنبرج » كأهون الشرّين ، حيال هتلر ، مضينا نحن نرشح « تالمان » Thalmann ، وإن لم يكن ثمة أمل فى نجاحه ، إلا من ناحية واحدة ، وهى أن ترشيحه سيقسم أصوات الناخبين العمال ويوزعها توزيعاً يكفى لجلب هتلر فى الحال إلى مقعد الحكم وزمام السلطان .

وقد ألقى « معلم » الخلية علينا محاضرة يثبت فيها أن ليس هناك شىء يسمى « أهون الشرين » وإنما كل هذا كلام يجرى مجرى المغالطة والمناورة ، بل هو فكرة « تروتسكية » منافية للثورة ، يراد بها تحويل الأذهان عن الشيوعية ، وتشتيت صفوفها ، فلا عجب إذا نحن لم نضمر غير الإشفاق على الذين يرددون هذه العبارة ويتحدثون عنها ، ولم نكنّ لهم سوى الحقد والحنق ، لاقتناعنا من البداية أنها دسيسة علينا ، واختراع يراد به الكيد لنا ، وكيف يعجز المرء أن يدرك أن بتر الساقين خير من محاولة إنقاذ واحدة منهما ، وأن السياسة الثورية الصحيحة هى انتزاع العكازين من كفى الجمهورية الكسيحة المقعدة .

إن الإيمان ليأتى بالعجب ، لا لأنه يحرك الجبال فحسب ، بل يحملك أيضاً على الاعتقاد بأن سمكة « الرنجة » هى حصان سباق ...!

ولم يكن « التكييف » الجديد مقتصراً على طريقة تفكيرنا ، بل تعداها إلى مجموعة عباراتنا وألفاظنا ذاتها ، فقد منعنا من استخدام كلمات معينة ، كقولنا « أهون الشرين » ولفظة « الذاتى » أو « الاعتباطى » لأن المظاهر « الذاتية » والدلالات « الاعتباطية » على وعى الطبقات الكادحة ، كانت جزءاً من نظرية « تروتسكى » عن الثورة الدائمة ، بينما أصبحت كلمات أخرى وعبارات بذاتها محببة شائعة مصطفاة ؛ ولست أعنى بهذا تلك الكلمات الشيوعية السائرة من نحو قولهم « الجماهير الكادحة » ،

بل أقصد كلمات أخرى كـكلمة « محسوس » ولفظة « طائفىّ » ، فى قولهم « يجب أن تضع سؤالك فى صيغة محسوسة » أو « إنك تتخذ أيها الرفيق موقفاً طائفياً يسارياً » ، أو كلمة « هيروستراتى » ؛ فقد رأينا لينين فى بعض مؤلفاته يذكر «هيروستراتاس» الإغريقى الذى أحرق معبداً لا لشىء سوى أنه لم يجد وسيلة أخرى يظفر منها بالشهرة والصيت ، وأصبحنا نسمع بعضهم يقول أحياناً « إن هذا هو «الجنون الهروستراتى » الأثيم الذى يبديه أعداء الثورة فى سبيل القضاء على الجهود الرائعة التى تبذلها الطبقات الكادحة فى وطننا لتحقيق مشروع السنوات الخمس فى أربع فقط » .

وفى وسعك طبقاً لمجموعة ألفاظهم «وكليشيهاتهم» المحببة إلى نفوسهم أن تعرف فى الحال منزع الشخص الذى تتحدث إليه ، هل هو «تروتسكى» أو«إصلاحى» Reformist أو «براندليرى » Brandlerite أو « بلانكستى » Blanquist أو سواه من نعوت الخوارج وأسماء المنشقين ؛ وكثيراً ما دل شيوعيون على أنفسهم أمام البوليس من طريقة حديثهم وألفاظهم وعباراتهم .

وأعرف فتاة كشف الجستابو فى الحال عن حقيقتها ، بغير دليل قائم عليها ، أو بينة ظاهرة تدينها ، بل لمجرد أنها قالت فى عرض كلامها « محسوس » ، وقد ظل القوميسار يصغى إليها ملولا متبرما ، وهو مقتنع إلى حد ما بأن مرءوسيه أخطأوا فى اعتقالها ، حتى عادت تكرر كلمة « محسوس » أمامه ، فإذا بأذنيه تنتشران ، وهو ينظر إليها قائلاً : من أين التقطت هذا التعبير ؟؟ ، فلم تلبث الفتـاة ، بعد أن كانت إلى تلك اللحظة هادئة متمالكة أن اضطربت وتلعثمت ومتى تلعثم المرء فالويل ويله ، والمصاب مصابه .

وكذلك أعيد «تكييف » أذواقنا فى الأدب والرسم والتصوير والموسيقى ، وقد تحدث لينين فى بعض تواليفه عن نفسه فقال إنه عرف عن فرنسا من قصص بلزاك ، أكثر مما عرفه عنها من كل كتب التاريخ مجتمعة ، فلا عجب إذا عد الشيوعيون

بلزاك أكبر كتاب الدنيا عامة ، وقيل عن الكتاب الآخرين إنهم كانوا «يصورون القيم المشوهة للمجتمع المتداعى الفاسد الذى أخرجهم » .

وكان المبدأ الغالب فى المسائل المتصلة بالفنون هو « الديناميزم الثورى » Revolutionary Dynamism[1] فكل صورة تخلو من مدخنة مصنع أو جرارة هى صورة رسام « تهربى » أو « متهرب » Escapist . وأما كلمة « الديناميزم » فقد أفسحت المجال لدخول أساليب تجريبية جديدة كقولهم الرسم التكعيبى Cubism والفن « التعبيرى » Expressionism وغيرها ؛ ولكن ذلك كله تغير بعد بضع سنين حين استعيض عن « الديناميزم » ، « بالرياليزم » الاجتماعى أو الفن « الواقعى » .. ومن هنا أصبح كل ما هو حديث أو « تجريبى » يوسم بميسم « الصياغة البورجوازية » للتعبيرعن فساد «الرأسمالية» وانحطاطها وتدهور أقيستها وفنونها ؛ وكان «الكورس» فى الموسيقى والتمثيل يعد يومئذ أسمى ضروب التعبير وأرفعها ، لأنه يصور الروح « الجماعية » فى اللحن والغناء ، ويتناقض مع الموسيقى « المنفردة » التى شاعت فى « البورجوازية » واستمكنت منها ، ولم يكن فى الإمكان إلغاء « الأشخاص » أو « الأفراد » من « المسرحيات » ، فاقتضى الأمر تحديد الأساليب والنماذج وتجريد الأشخاص من الفردية ، وقصرهم على الرموز .

وعمد الشيوعيون أيضاً إلى علم النفس فبسّطوه تبسيطاً واسع المدى ، واكتفوا بإقرار دافعين انفعاليين ، وهما دافع « التضامن الطبقى » Class Solidarity والدافع الجنسى Sexual Urge ووصف كل ما عداهما بأنه داخل فيما وراء الطبيعة عند البورجوازيين ، أو أثر من التنافس الاقتصادى عند الرأسماليين ، كالطمع والطموح ونشوة السلطان والنفوذ .

أما الدافع الجنسى فقد كنا فى حيرة بالغة من أمره ، وإن أقره الحزب رسمياً ، واعترف به ، فإن الوحدانية فى الزواج ، وشريعة الحياة الزوجية بجملتها هما من ثمرات

(١) مذهب فى الرسم والتصوير يروق الشيوعيين كما ترى من اشتراطهم فيه .

النظام الاقتصادى ، وهما يولدان « الفردية » ، ويغرسان النفاق ، ويحدثان نزوعاً إلى « التهرب » من الصراع الطبقى فلا معدى عن رفضهما جملة واحدة ، وليست « الزوجية البورجوازية » إلا ضرباً من « البغـاء » أقره المجتمع ، ولـكن الزواج « العرفى » مرذول أيضاً ، وقد راج فى الحزب وشاع فى روسيا والخارج ، حتى أعلن لينين مخالفته لنظرية «قدح الماء» Glass of Water وهى قولهم إن «العملية الجنسية» لا نتيجة لها غير ما يحدثه قدح من الماء فى إطفاء الظمأ إلى الشراب » ومن هنا كانت الأخلاق أو الحاسة الأدبية عند البورجوازية سيئة ، والزواج العرفى مثلها فى السوء ؛ والرأى الصائب فى مسألة « الدافع الجنسى » هو سلامة الحاسة الأدبية عند الطبقة الكادحة ، لأنها تقتضى الزواج والإخلاص للزوج و إخراج الذرارى الكادحة والبنين العاملين .

ولـكن قد يسأل سائل : أليست هذه جميعاً واحدة عند الطبقتين ؟ ؟

والجواب الشيوعى هو أن هذا السؤال أيها الرفيق يدل على أن تفكيرك «سوقى» وليس تفكيراً « منطقياً » ، إذ ما هو الفرق بين البندقية وهى فى يد الشرطىّ ، و بينها وهى فى يد العامل ؟ ؟ إن الفرق هو أن الشرطىّ ليس إلا خادماً يجرى فى أذيال الطبقة الحاكمة ، وليست البندقية فى يده إلا آلة عسف واضطهاد ، ولـكنها فى يد العامل الـكادح أداة تحرير للطبقات المظلومة المضطهدة ، وهذا هو بالذات وجه الحق فى مسألة الفارق بين « الحاسة الأدبية » عند البورجوازية ، و بينها عنـــد الطبقة الكادحة ؛ فإن شرعة الزواج فى المجتمع الرأسمالى هى مظهر من مظاهر الانحطاط البورجوازى ، ولـكنها فى الجماعات الكادحة السليمة قـــد تحولت تحولا منطقيا خاصاً ، طهرها من الشوائب ، فهل فهمت أيها الرفيق ، أم تريد منى أن أكرر الجواب فى صيغة أوضح بياناً ، وأكثر جلاء ؟ ؟

وكان تكرار الصيغ والعبارات ، وإلقاء الأسئلة وإعادتها بنصها فى الأجو بة والردود عليها ، واستخدام نعوت معينة ، وصفات بذواتها ، ورفض رأى أو حقيقة

بمجرد وضع الكلمات بين أقواس، و إضفاء غشاء تهكمي سافر عليها كقولهم : ماضي تروتسكي « الثوري » ! والرغاء « الإنساني » الذي تلح صحف الأحرار فيه !... كل أولئك كانت أجزاء لامعدى عنها من الأسلوب الذي كان فيه جوزف جوجاشفيلي [1] السيد الذي لا يباري، والمولى غير مدافع؛ بل الأسلوب الذي جعل من طول تكراره وجريانه على وتيرة واحدة، يحدث تأثيراً أشبه بتأثير التنويم المغناطيسي، فإن حضرت هذه اللهجة الرتيبة ساعتين من الزمن لم تعد تدري أأنت غلام أم فتاة، بل أصبحت على استعداد للايمان بأنك أحدهما، بمجرد ظهور الآخر بين قوسين، وتأهبت للاعتقاد أيضاً بأن الاشتراكيين هم (ا) أعداؤك الألداء (ب) وحلفاؤك الطبيعيون، وأن البلاد الاشتراكية والأقطار الرأسمالية تستطيع أن تعيش جنباً إلى جنب في سلام، وأن « انجلز » كان يقصد العكس تماما حين كتب يقول إن قيام الاشتراكية في بلد واحد مستحيل؛ بل لقد علمك الشيوعيون من قبل أن تبرهن بطريقة « الاستنتاج المسلسل » أن كل من يخالفك هو صنيعة من صنائع الفاشية لأنه (١) بمخالفته لرأيك يهدد وحدة الحزب (٢) و بتهديد وحدة الحزب يفسح المجال لانتصار الفاشية ومن ثم (٣) قد تصرف معك « موضوعياً » تصرف صنيعة من صنائعها و إن كان «شخصياً» قد حطم كليتيك يوما بالضرب المبرح في معسكر الاعتقال، وكانت لكلمة « صنيعة » ولفظة « ديموقراطية » وعبارة « حرية » معان في تقدير الحزب تختلف عن معانيها العامة المفهومة عند الناس؛ وكلما تغيرت معانيها الحزبية تبعاً لتغير الخطط وتبدل السياسات، أصبحت أساليب الجدل أشبه شيء في لعبة الكروكيه « بملكة القلوب » حيث يتحرك الطوق حول الساحة وتبدو الكرات قنافذ حية، مع فارق واحد، وهو أنه عندما يفوت الدور أحد اللاعبين، وتصيح الملكة «اقطعوا رأسه» ينفذ الأمر حقيقة وفعلا، فلكي ننجو بالأرواح كان علينا أن نصبح « غواة » في لعبة الكروكيه !

---

(١) اسم ستالين في الأصل.

وكان من أبرز معالم الحياة فى الحزب يومئذ الإيمان « بالطبقة الكادحة » كملة ودين ، واحتقار أهل الطبقة المستنيرة وامتهانها ، فقد كان هؤلاء « الدمل » الخبيث و« الخراج » الملىء بالصديد ، وفلول المتعلمين المنحدرين من أصل بورجوازى ، وإذا كنا من أفراد الحركة وأعضائها ، فما دخلنا إلا لنتعذب ، لا لأنه حق من حقوقنا ، وكان هذا الاعتقاد يغرس فى نفوسنا ليل نهار ، ويلقن لنا تلقيناً ، وما أطاق الحزب وجودنا ، وتسامح معنا ، إلا لأن لينين قال بهذا التسامح ونصح به ، ولأن روسيا لم تكن تستطيع أن تستغنى عن الأطباء ، والمهندسين ، والعلماء ، الذين ينتمون إلى الطبقة المتعلمة قبل الثورة ، ولا يمكنها أن تعيش فى غناء عن الإخصائيين الأجانب الملاعين ، ولكننا مع هذا كله لم نكن موضع ثقة أو أكثر احتراما فى نظرهم من فئة « اليهود النافعين » فى الرايخ الثالث الذين خلى بينهم ، ولم يذبحوا تذبيحاً ، بل أعطوا شارات مميزة حتى لايساق بهم خطأ إلى حجرة من حجرات الاختناق بالغاز قبل أن يعتصروا اعتصاراً وتستخلص وجوه النفع فيهم استخلاصاً ، وكان « الآريون » فى الحزب هم الطبقة الكادحة ، وكان الأصل الاجتماعى للآباء والأجداد عاملا له خطره ووزنه عند طلب العضوية وخلال حركتى التطهير العادى الذى يجرى مرتين فى كل عام ، كشأن فكرة الأصل الآرى عند النازيين ، كما كان البروليتاريون الأقحاح هم عمال المصانع الروس ، والصفوة المختارة منهم هم عمال مصانع « بوتيلوف » فى مدينة لينجراد ومنابع الزيت فى باكو ، وكان العامل « المثالى » فى كل ما قرأناه أو وضعناه من الكتب هو العامل العريض المنكبين الصريح الوجه والقسمات ، الواعى كل الوعى ، المدرك كل الإدراك ، لكرامة طبقته ، الرقيب على دوافع حاسته الجنسية ، القوى الصموت الحار العاطفة ، ولكنه الخشن الغليظ عند الاقتضاء ، ذو القدمين الكبيرتين واليدين المشققتين ، والصوت الجهورى الذى يعينه على التغنى بأغانى الثورة وإنشاد أناشيدها . أما « البروليتاريون » الذين ليسوا شيوعيين فهم أبعد ما يكونون

عنهم حقاً، لأنهم إما أن يكونوا منتمين إلى بروليتارية لامبن[1] أو إلى الأرستقراطية العمالية[2] وليس لأية حركة حيـاة بغير مثل من أمثلة البطولة ، وكان بطل خليتنا إيفان إيفانوفتش الذى يشتغل فى مصانع « بونيلوف » .

وهيهات لفرد من الطبقة « المستنيرة » أن يصبح عاملاً كادحاً صميما ، ولـكن المتعين عليه أن يحاول أن يكون أدنى منه وأقرب شىء إليه ، وقد حاول فريق منهم تحقيق ذلك فأقلعوا عن استخدام رابطة العنق « الـكرافت » ، وارتداء « العراقات » التى ترتدى فى لعبة « البولو » وترك أظافرهم طوالا سوداً ، ولـكن الحزب لم يرقه هذا ولم يقره ، بل عده « رقاعة » وتصنعاً وافتعالاً ، وجعل السبيل القويم ألا يكتب المرء ولا يقول ولا يفكر فى شىء يعجز الـكناس فى الشارع عن فهمه ، فجعلنا نلقى عنا بضاعة العلم وحقائب التفـكير ، كما يلقيها المسافر على ظهر باخرة فى ساعة الفزع ، أو الخطر من الفرق ، ولم يبق لنا منها إلا القدر القليل المحدود من العبارات الشائعة ، والجمل الثوابت كالـكليشيهات والشذرات المقتبسة من « الماركسية » التى يتألف من مجموعتها كلام ستالين وأشياعه فى المجال الدولى ، وأصبح الأخذ بنصيب من التعليم البورجوازى ، والبروز بحصة من الثقافة ، والقدرة على رؤية مشكلة ما من عديد نواحيها لا من ناحية واحدة — مصدر ندامة لصاحبها وباعث وخز وألم ، ورحنا نتلهف على أن نصبح واضحى الأذهان ، بسطاء العقول ، وأضحى « الاخصاء » العقلى[3] ، ثمناً زهيداً فى سبيل الظفر بشبه ولو قليل لما فعله بطل خليتنا الرفيق إيفان إيفانوفتش ....

— ٥ —

ولنعد إلى سير الحياة فى الخلية .

فقد كانت الاجتماعات كما أسلفت عليك تبدأ بمحاضرة سياسية، أو بمحاضرتين، لبسط الخطط ، وشرح المعالم ، ثم تتلوها المناقشات ، وكانت ذات طابع خاص ، فقد

---

(١) Lumpin أو العمال الذين لم يؤتوا وعياً طبيعياً .

(٢) الأرستقراطية العمالية أو العمال الذوات .

(٣) كالإخصاء فى الخراف حتى لا تبقى لهم حرية التفكير .

كان من القواعد الأساسية فى روح النظام الشيوعى أن كل انتقاد يوجه إلى قرار اتخذه الحزب، بشأن سياسة معينة، أو تصرف من التصرفات، فى مسـألة من المسائل، يعد « تخريباً »، ويوصف الناقد بأنه من « المنحرفين » أو «المنشقين»، وكانت المناقشة مسموحاً بها جائزة قبل صدور القرار، ولكن القرارات إنما تأتى من فوق، وتهبط من السماء، دون الاستئناس بآراء أية هيئة تمثل الدهماء، أو عامة الأعضاء، فليس لهؤلاء إذن نفوذ ما أو شأن فى السياسة وتكييفها ورسم خططها ولا أمل لهم فى التعبير عن آرائهم، ولكن لا تنس أيضاً أن الزعامة محرومة من الوسائل التى تستطيع بها أن تقيس نفسية الجماهير وتتعرف وجهتها، حتى لقد أصبح من الكلام السائر قولهم « إن الخط الأمامى ليس مكاناً للمناقشات » . أو قولهم « أينما يقف شيوعى، فهو أبداً فى الخط الأمامى .. » .

ولهذا كانت مناقشاتنا تدل دائماً على إجماع تام على رأى واحد، وكان الشكل الذى تتخذه أن ينبرى واحد فى إثر واحد « فيتلو » كلاماً يختلف تعبيراً، من ناحية الأساليب المأخوذة عن شوجاشفيلى — أى ستالين — والألفاظ الثوابت المحاكية لعباراته، ولكنها تجتمع فى الجملة على إقرار ما جاء فى المحاضرة والتأمين على ما ساقه المحاضر فيها، ولعل التعبير بكلمة « يتلو » ليس بالوصف الصحيح هنا، فقد كنا نتحسس بألم بالغ فى أعماق عقولنا لكى نجد مبرراً للخطة المعروضة علينا، ونعثر على آثار لأفكار وخواطر سابقة تثبت لنا أننا كنا من قبل نرى هذا الرأى المطلوب، ونفكر هذا التفكير المعروض، وكنا فى هذه العملية المجهدة كثيراً ما نوفق، ولعلى أحسست الحيرة والدهشة حين ذهب معلمنا فى بعض اجتماعاتنا ينبئنا أن الشعار الذى سوف يتخذه الحزب فى الانتخابات القادمة لمجلس النواب البروسى لن يكون بسبيل الملايين السبعة من العمال المتعطلين فى ألمانيا، ولا خطر «ذوى القمصان السـود» ولكنه سوف يكون « الدفاع عن الطبقة الكادحة فى الصين ضد عدوان اليابانيين القراصنة » .

ولكننى لم أعد أذكر حيرتى تلك ، أو يقف عندها خاطرى طويلا ، وإنما ذكر أننى كتبت رسالة صادقة بليغة فى موسم الانتخابات ، دللت فيها على أن الحوادث التى تقع فى « شنغاى » أهم شأناً فى عين الطبقة العاملة فى ألمانيا من الحوادث التى تجرى فى برلين ، وأذكر أيضاً الكف التى ربتت على كتفى عقب تلك الرسالة من جانب مقر رياسة المركز ، ولا تزال ذكراها تسعدنى ، وأنا لا أزال العاجز عن مغالبة هذا الإحساس .

وكان أعضاء الخلية من « العمال » يجلسون عادة فى الاجتماعات « مهومين » يبدو النعاس على وجوههم ، وكانوا يصغون بأجفان متثاقلة من ريبة ، أو مفتحة قليلا من التشكك ، إلى ما كان « المعلمون » يشرحونه كأسباب لموافقتهم ، وعوامل تؤيد إقرارهم ، ولكن لا يلبث بعد تردد يسير أن ينهض أحدهم فيردد بشكل غريب ولهجة تحد ظاهرة ، الأقوال السائرة التى وردت فى كلام المحاضر باعتبارها الشعار الذى ينبغى اتخاذه ، والبرنامج الذى يجب السير عليه ، دون أن يكلف نفسه مؤونة التغيير فى الألفاظ ، أو التبديل فى التعبير ، وكان الآخرون ينصتون إليه فى صمت رهيب ، فإذا فرغ من مقالته ، عاد إلى مجلسه وسط همهمة موافقة ، ومخافتة بتأمين ، وعندئذ يتولى « المعلم » تلخيص ما دار فى الجلسة ، ويقول إن الرفيق س ... هو الذى استطاع دون سائر الخطباء المتكلمين أن يضع الموضوع المطروح فى أحسن عبارة وأسلم تعبير .

وقد أسلفت أن صيف عام ١٩٣٢ كان فترة انتقال إذ كان الحزب يتأهب للعمل فى الخفاء ، ويعاود لهذا السبب تنظيم صفوفه ، وتكوين هيئاته وشعبه وخلاياه ، فقد كان من المحتمل بين عشية وضحاها أن يصدر أمر بإلغاء الحزب أو تحريم وجوده قانوناً فلامعدى عن الاستعداد لهذا الطارئ ، لأن جميع الخلايا إذا نحن أكرهنا على العمل ضد القانون سوف تتلاشى ، ويحل محلها تنظيم جديد يغمر البلاد كلها ، ونعنى به «الجماعات الخماسية» السرية Groups of Five لأن الخلايا كانت عادة بين عشرة رفاق

وثلاثين رفيقاً ، وهى لكثرة أعضائها لا تحسن العمل فى الحركة السرية ، وتهيئ الفرص أمام المخبرين لكشف مخابئها ، ومعرفة خافيتها .

وكان تقسيم « الكادرات » إلى جماعات تتألف من خمسة أفراد يستوجب تنظيما لا يتوافر فيه التركيز ، ولكنه أمان من الخطر ، وأقل ما يكون استهدافاً للمجازفات ، إذ لا يعرف شخصية الأعضاء الأربعة ومحال إقامتهم غير «المسئول» ، أو الخامس فيهم ، وهو وحده الذى يتصل بالهيئة العليا التالية لهيئته فى الصرح الشيوعى العام ، فإذا قبض عليه فلن يكون فى إمكانه غير الغدر بالأربعة الآخرين فى جماعته والشخص الأوحد الذى كان على صلة به .

وقد اقتضى الاستعداد أن تظل الخلية مؤدية عملها ، وأن يخصص سراً لكل عضو جماعة خماسية ينتمى فى الوقت ذاته إليها ، وكان المراد من ذلك ألا تعرف أية جماعة خماسية شيئاً عن تكوين الجماعات الأخرى ، والواقع أننا كجيران فى «المربع» كنا نعرف أية جماعة كانت منعقدة سراً ، وفى شقة أى عضو . وفى الليلة التى أحرقت فيها دار « الريشتاغ » ، حين وجه جورنج ضربته القاتلة إلى الحزب الشيوعى ، لم تلبث تلك الجماعات الخماسية أن تناثرت وتفرقت ، وتداعى البنيان الدقيق كله فى البلاد ، وكان إعجابنا بالغاً ببراعة زعمائنا ودقة حبكتهم للمؤامرة ، ولئن كان كل فرد منا قد قرأ كتباً ومؤلفات عن التمرد ووسائله الفنية ، والحرب الأهلية وأساليبها الجهنمية ، فلم تلبث ملكاتنا الانتقادية أن اضطربت يومئذ واختلت إلى حد جعلنا جميعاً حيارى مبهوتين لا ندرك حكمة تلك الخطة الجديدة وما قد يترتب عليها من الأخطار والنكبات ، فإن الاستعداد لحركة سرية طويلة الأمد بتشكيل جماعات صغيرة بعيدة عن التركيز ، كان معناه أن زعماءنا سلموا لا محالة بأن النصر واقع للنازيين ، وأن تجزئة « الكادرات » إلى وحدات صغيرة توحى بأن الحزب سوف لا يلجأ إلى مقاومة صريحة مسلحة حيال صعدة هتلر إلى ذروة السلطان ، بل كان يستعد لمقاومات أو مناوشات متقطعة محدودة النطاق .

ولكننا نحن معاشر الدهماء ، أو الصفوف ، لم نكن يومئذ ندرى من ذلك شيئاً بل مضينا خلال ذلك الصيف المستطيل الخانق عام ١٩٣٢ نواصل معاركنا المألوفة مع النازيين ، فلم يكن ينقضى يوم دون مصرع واحد منهم أو اثنين فى برلين ، وكانت ميادين هذا الصراع تلك الحانات الصغيرة المختنقة بسحائب الدخان ، التى تكثر فى الجهات التى يقطنها العمال ، أو مشـــارب « الجعة » فقد كان بعضها ملتقى النازيين ، والبعض الآخر منتدانا نحن ومجتمعنا ، وكان دخول حانة غير الحانة الصحيحة معناه الوقوع فى خطوط الأعداء ، وقد اعتاد النازيون فى الفينة بعد الفينة أن يطلقوا الرصاص على حانة من حاناتنا، على طريقة العصابات الأمريكية فى شيكاغو ، إذ يمشى فريق من جنود العاصفة النازيين قبالة المشرب أو يمرون بالسيارة عليه بطاء فيطلقون النيران من خلال زجاج النوافذ ثم يتوارون مسرعين ، ولم يكن لدينا من السيارات القدر الوفير الذى كان لديهم، فكانت ثاراتنا تقع ونحن فى سيارات مسروقة أو مستعارة من العاطفين علينا والحادبين ، وكان الذين يتولونها منا هم أعضاء رابطة الجنود القدامى الشيوعيين ، وكانت سيارتى أحياناً تعار لرفاق لم أشهدهم من قبل ولا رأيتهم فى حياتى ، وكانت تعاد لى بعد بضع ساعات فلا أسأل أين كانت ، ولا يقال لى ماذا صنع بها ، وكانت السيارة صغيرة حمراء اللون ، مكشوفة من نوع «الفيات» موديل ٥٠٩ ، أى أنها لم تكن تناسب مطلقاً هذه الأغراض ، ولكن لم يكن أحد سواى فى الخلية يملك سيارة حتى يعيرها ، وكانت بقية ما كان عندى من الماضى البورجوازى البائد فأصبحت أداة من أدوات « الثورة العالمية »، وكنت أنفق نصف وقتى فى الطواف بها عدة مشاوير ، وتأدية مختلف المهام ، من نحو نقل منشورات ، أو توزيع كتيبات ، أو اقتفاء أثر سيارات نازية ، أعطيت لنا أرقامها من قبل ، أو أخرج بها أحياناً لحراسة بعض الرفاق فى خرجتهم لعمل معين ، وحدث يوماً أن طلب منى نقل أدوات مطبعة يد بكامل أجزائها ولوازمها من إحدى محطات السكك الحديدية إلى مخزن تحت دكان بقّال .

وكان أعضاء الرابطة الذين يجيئون لأخذ السيارة تمهيداً لغزواتهم المباغتة، من الأشرار الذين يعيشون عادة فى مواخير برلين و بؤرها الخفيـة ، وكنت أنبـأ بقرب مقدمهم بإشارة تليفونية أو رسالة شفوية من مقر رياسـة المركز، ولـكنى لم أشهد أشخاصاً منهم يأتون مرتين، بل فى كل مرة يأتى أناس يختلفون عن السابقين، وأحياناً كنت أؤمر بأن أتولى قيادة السيارة، إذا كانت المهمة بسيطة أو قليلة الخطر، فـكنا ننطلق بها فى رفق قبالة بعض الحانات التى يختلف النازيون إليها، لمراقبة الحال، أو نطوف بحانة من حاناتنا إذا جاءنا أحد مخبرينا الذين يتجسسون لنـا على النازيين فأبلغنا أن هناك هجمة مرتقبة علينا؛ وكانت هذه المهمة ثقيلة على النفس ممجوجة، فقد جعلنا نكمن عن كثب من الحانة مطفئى الأنوار تاركين المحرك دائراً، وكنت على مقترب سيارة ما أسمع قعقعة «سقاطه الأمان» فى مدافع الركاب الذين أتولى قيادة سيارتى لهم، مشفوعة بهمس فى أذنى أن «طأطئ رأسك» ولـكن لم يحدث أمامى مرة أن انتهى الاستعداد للاطلاق إلى الضرب فعلا.

وحدث يوماً أن عمد الذين جاءوا لأخذ السيارة إلى التنكر فى «شقتى» قبل المسير، فوضعوا شوارب مستعارة ومنـاظير على أعينهم، وارتدوا سترات سوداً، ولبسوا على رءوسهم قبعات مثلثة الأركان، ووقفت أرقبهم من نافذتى وهم منطلقون كأنهم سادات أكابر، فى سيارة صغيرة حمراء، أو جمع فى جنازة أو سير موكب، وقد عادوا بعد أربع ساعات من ذهابهم، فغيروا ثيابهم، وانصرفوا بعد أن شدوا على يدى فى صمت مصافحين.

وكانت التعليمات الصادرة إلىّ أن أقول إذا تمـكن البوليس مرة من أخذ رقم السيارة، خلال غزوة من تلك الغزوات، أنها سرقت منى وأنى عثرت عليها ملقاة فى شارع مهجور.

وأحياناً كانت الإشاعة تسرى فى حينا «المربع الأحمر» بأن النازيين منتوون مهاجمته كما سبق أن هاجموا أحياء شيوعية أخرى، فـكنا نقف لهم بالمرصاد، ويتولى أعضاء الرابطة مهمة الرقابة والحراسة.

وحدث فى ذات ليلة رهيبة أن حوت «شقتى» الصغيرة نحو ثلاثين فرداً ، وهم راصدون مدججون بالسلاح والمواسير والهراوات المصنوعة من الجلد «الباسطونيات» واتفق أن وصل فى تلك الليلة بالذات صديق لى من « فيينا » يدعى « أرنست » للمقام فى برلين بضعة أيام ، وكان من العلماء الشباب ، رقيق العاطفة ، حيياً ، منزوياً وإن كان حاد الذهن ، ألمعى الذكاء .

وبدت « الشقة » غائمة قاتمة من كثافة سحائب التبغ الملبدة فى أفقها ، والقوم جلوس أونيام فى كل ناحية منها ، فوق السرر ، أو على أديم الأرض ، أو تحت البالوعة فى المطبخ ، وسط المواسير الرصاص ، والهراوات وزجاجات الجعة .

ولما جاء دورى للحراسة فى الشارع ، اصطحبت صديقى معى ، فراح يسألنى : لم كل هذا الحشد فى مسكنك ؟ ولم يكد يسمع منى السر ، حتى مضى يقول « أنا عارف ، أنا عارف ، ولكن نبئنى ، ماذا أنت بهذا صانع بحياتك ؟؟ »

قلت بفرح وتهلل : « إننى أعاون فى الاستعداد للثورة » .

قال : « إن الأمر لا يبدو لعينى كذلك ؟؟ ولست أدرى لماذا ، لأننى لا أعرف طبعاً كيف تعد الثورات وتتخذ لها الأهبة وتوفر المطالب ، ولكن المشهد الذى رأيته فى مسكنك يلوح لى مشهد شرذمة من المكافحين ، أو فلول جيش مندحر » .

وقد أصاب فيما قال ، فقد كنا نعد أنفسنا « طليعة » الثورة ، وإذا بنا فى الواقع « مؤخرة » حركة « عمالية » ممزقة متناثرة .

ولم تمض بضعة أسابيع حتى دبر « فون بابن » انقلابه ، وتمكن ضابط واحد وثمانية جنود من طرد الحكومة الاشتراكية وإقصائها عن الحكم ، ولم يبد الحزب الاشتراكى وقوامه ثمانية ملايين أو يزيدون ، شيئاً من المقاومة ، ولم يحدثوا يومئذ حدثاً ، بل لم تعمد النقابات التى كان يشرف الحزب الاشتراكى عليها إلى دعوة العمال إلى الإضراب احتجاجاً ، ولكننا نحن وحدنا ، معاشر الشيوعيين ، الذين انضممنا منذ عام واحد إلى النازيين ، على تلك الحكومة الاشتراكية ذاتها ، نحن

الذين ما فتئنا يومئذ نقول إن الاشتراكيين هم أعدى أعداء الطبقة العاملة ... مضينا ندعو إلى الإضراب العام فى الحال ، ولكن الدعوة لقيت آذاناً صماء فى جميع أرجاء ألمانيا وربوعها ، فقد فقدت كلماتنا معانيها الحقيقية فى نفوس الجماهير ، كما تفقد العملة المتضخمة قيمتها فى الأسواق .

وهكذا خسرنا المعركة حيال هتلر قبل أن تبدأ ، وأصبح من الجلى بعد ٢٠ يولية عام ١٩٣٢ لكل إنسان سوانا أن الحزب الشيوعى الألمانى ، وهو أقوى الأحزاب الشيوعية فى أوربا كلها ، لم يعد غير عملاق خصى كل كلامه الضخم وزهوه وثرثرته لا تعدو مجرد « تغطية » لإخفاء رجولته المفقودة ، وذكورته الضائعة !

وانثنت صحف الحزب بعد اليوم الأول لحركة الإضراب الميتة فى المهد تؤكد أن الدعوة إليه كانت وحدها نصراً متردد الأصداء ، ما دام الحزب الاشتراكى نفسه قد وقف جامداً لا حراك به ، وذهبت تقول إن حزبنا بهذا الإجراء الذى اتخذه ، قد كشف عن خيانة زعماء الفاشية الاشتراكية وغدرهم .

ولم تمض أشهر أخرى حتى انتهى الأمر بخيبة تامة ، وظهر فى بضع ساعات أن الأعوام التى انقضت فى التدريب على المؤامرات والحركات الفنية والاستعدادات للطوارئ والخطوب ، كانت هباء منثوراً ، وجهداً ضائعاً ، بل تبين أن ذلك «العملاق» خارت ساقاه فانهار كما ينهار «الجبار» المقنع فى «المرافع» أو الكرنفال ، إذ لم يلبث «تالمان» زعيم الحزب ، وأكثر أعوانه أن قبض عليهم فى المكامن التى حرصوا من قبل على إخفائها ، واعتقلوا بجملتهم فى بضعة أيام .

وتفرقت اللجنة المركزية ، ونزح أهلها من البلاد ، وغمر الليل البهيم ألمانيا بأسرها .

واليوم ، بعد سبعة عشر عاما ، لا يزال ذلك الليل البهيم مُرْخياً عليها سدوله ... !

وأخيراً ، بعد أن تربع هتلر دست السلطان ، وألقى «تالمان» فى غيابة السجن ،

وذهب ألوف من أعضاء الحزب صرعى ، وسيق بعشرات الألوف إلى معسكرات الاعتقال ، استيقظ الكومنترن وانتبه إلى تبعاته ، وجلس قضاة الحزب فى خارج روسيا وداخلها ، مجلس الحكم على « العدو الكامن فى الصفوف » وراحوا يندِّدون بهم ، قائلين عنهم إنهم «أعوان الفاشية وعصاباتها وصنائعها» لأنهم يهمهمون ويتبرمون سراً بسياسة الحزب ويتسخطون على خطته ، وهى أن الاشتراكى لا يزال العدو رقم ١ للعمال فى ألمانيا ، بل مضى أولئك القضاة يحكمون بأن الشيوعية لم « تنهزم » و إنما انسحبت انسحاباً فنياً اقتضته الظروف ، وحتمته الملابسات ...

* * *

ولا يخفى أن ذاكرة المرء تحيط الماضى دائماً بهالات من الخيال لتجميله ، ولكن حين يتخلى الإنسان عن عقيدة ما ، أو تنكشف له خيانة من صديق ، أو غدر من صاحب ، تنعكس العملية ، ويحدث النقيض ، فلا تلبث التجربة الأولى ، أو الماضى ، على ضوء ما انكشف أخيراً وظهر ، أن تفقد طهارتها ، وجمالها القديم وروعتها ، وتصبح عند استعادة ذكراها سيئة الوقع ، أليمة ، معتمة ، وقد حاولت جهدى فى هذه الصفحات أن أستحضر نفسيتى ذاتها التى كنت أحسها فى ذلك العهد الذى أروى قصته ، ولكننى أعلم أننى فشلت فى هذه المحاولة ، فلا تزال تغالبنى السخرية ، ويتملكنى الغضب والاستحياء ، ويلوح لى أن عواطفى فى ذلك الحين تحولت اليوم إلى أضدادها ، وانقلبت إلى حياة أشبه بالحياة التى يحياها «المدمن» الملحّ على المخدرات ، وليس الذين وقعوا فى أحبولة هذه « الخدعة » الكبرى التى ظهرت فى عصرنا الحديث ، وعانوا من فجورها وأضرارها ، وخاضوا مواجعها وعذاباتها ، فاستسلموا لإدمان جديد و إلحاح على مخدر آخر ، من نوع مختلف ، أو قدر عليهم أن يعيشوا إلى الأبد فى « خُمار » [1] دائم ، إلا المقابر المتحركة لأصحابهم القتلى و إخوانهم المضرجين ، بل هم المتخذون من أكفان زملائهم أعلاما و بنوداً . .

(١) الخمار على وزن دوار تأثير الخمر فى الصباح .

ومن هنا رأينا كيف يتأبى هؤلاء المدمنون على كل علاج ويقاومون جاهدين الدواء الذى يشفيهم من الداء ..!

وفى أوائل صيف عام ١٩٣٢ رخص لى أخيراً بجواز سفر إلى روسيا، وقد ظفرت به بناء على دعوة وجهت إلى من « الهيئة الدولية للكتاب الثوريين » للطواف بها ووضع كتاب عنها، واقترح أن يكون عنوانه « أرض السوفييت كما تراها عين بورجوازية »، وأن يكون هدفه أن يصف مسيو ك ... المراسل « البورجوازى » المعروف بتحيزه ضد السوفييت، كيف زار تلك البلاد فلم يلبث أن عدل عن رأيه الأول فيها وتحول إلى الإعجاب بها، عقب مشاهدة ثمرات الإنشاء والتعمير خلال السنوات الخمس الأولى، وكيف أصبح « الرفيق ك ... » بعد أن كان بالشيوعية من الكافرين.

وسافرت إلى روسيا، قبل استيلاء هتلر على زمام السلطان فى ألمانيا بستة أشهر مزوداً بتوصية إلى الرفيق جوبنر الذى كان يومئذ يرأس قسم الدعاية فى اللجنة التنفيذية للشيوعية الدولية فى موسكو، كما زودتنى هذه اللجنة بكتاب « تزكية » تطلب فيه إلى جميع السلطات السوفييتية مساعدتى على تأدية « مهمتى » كمندوب من قبل « الهيئة الدولية للكتاب الثوريين ».

وكان كتاب هذه اللجنة فى روسيا أشبه فى قوة تأثيره « بمرسوم » أو قرار[1]، فلا عجب إذا هو ذلل لى السفر والتجوال فى تلك البلاد حراً طليقاً لا أجد عقبة أو حائلا ولا أحتاج فى تنقلى وتطوافى إلى مرشد أو دليل، كما أعاننى على الظفر بتذاكر السكك الحديدية دون الوقوف فى الصف، والحصول على أماكن للنوم فى « المضايف » الحكومية، وعلى الطعام فى المطاعم المخصصة للموظفين المدنيين، بل لقد يسر لى أيضاً دفع نفقات أسفارى، من عدة الألوف من « الروبلات » التى اجتمعت لى فى نهاية مُقامى.

(١) أو « ديكريتو » فى الأصل.

وقد جرت الرحلة كما يلى :

كنت كلما وصلت إلى إحدى عواصم الأقاليم ، كمدينه «تفليس» مثلا ، قصدت إلى دار الهيئة الدولية للكتاب الثوريين فأبرزت لها كتاب « التوصية » الذى كان معى، وإذا بالسكرتير يبادر إلى إعداد المآدب والولائم والاجتماعات بالزعماء السياسيين وأفراد الطبقة المستنيرة فى المدينة ، وتعيين من يرافقنى ويوفر وسائل الراحة لى، ويقدمنى إلى رئيس تحرير المجلة الأدبية ، ومدير شركة النشر الحكومية ، وهى فى تفليس تدعى شركة النشر التابعة لجمهورية « الكرج » السوفييتية .

وحين لقينى رئيس تحرير المجلة مضى يقول مرحباً بى إنه كان من أعز أمانيه منذ عدة سنين أن ينشر لى شيئاً بقلمى ، فسلمته صورة من قصة لى كنت قد نشرتها فى ألمانيا منذ حين ، فإذا بى أتلقى منه فى اليوم ذاته شيكا ببضعة آلاف روبل ، أرسله إلى الفندق الذى كنت أقيم به .

وفاتحنى مدير النشر فى أمر السماح له بنشر ترجمة الكتاب الذى انتويت وضعه ، وقدم لى «أورنيكا» مطبوعا يتضمن صيغة « اتفاق » على النشر ، وبعث إلىّ بشيك ببضعة ألوف أخرى ، وكان معدل أجر العامل يومئذ مائة وثلاثين روبلا فى الشهر .

وهكذا بعت حق طبع هذه القصة ذاتها لثمانى مجلات أو عشر فى المدائن المختلفة بين لينينجراد وطشقند ، وبعت حقوق طبع كتاب لم أضعه بعد لشركات طباعة روسية ، وألمانية وأوكرانية وكرجية وأرمنية ، وتقاضيت دفعات سلفاً تبلغ حدود ثروة كبيرة ومال لايستهان به .

وهكذا وجدت تشجيعاً بالغاً من السلطات السوفيتية الرسمية ، كما وجد غيرى أشباهه ونظائره منها، فلم يخالجنى يومئذ الشك فى أن روسيا السوفييتية هى جنة الكاتب، وفردوس الأديب ، وأن ليس فى العالم بلد آخر أسخى منها على الفنان ولا أجزل عطاء ، ولا أوفر إكباراً وأحسن تقديراً، ولم يخطر بخلدى يومئذ ، كما هى طبيعة البشر، أن تلك العقود التى أبرمت معى ، والأموال التى صرفت مقدما لى ، لم تتم معى

لسمعتى الأدبية ، وإنما جرت لأسباب أخرى ، إذ لم أكن إلى ذلك الحين قد أخرجت كتباً ، أو ظهرت لى فى السوق مؤلفات ، بل كان اسمى لا يزال « نكرة » لا يعرفه أحد ممن سخوا علىّ بتلك الأموال لقاء قصة لم يقرأوها من قبل وكتاب لم يوضع بعد ، وإنما كانوا فى الواقع موظفين ينفذون « التعليمات » ، فإن الكتاب والناشرين والنقاد الفنيين فى بلد أصبح كل ما ينشر فيه ملكا للدولة لايلبثون أن يحسوا هم أيضاً جزءاً من الأداة الحكومية ذاتها ، فهى تستطيع أن ترفع كتاباً أو تضعه ، طبقا للتعليمات التى تصدر إليها من طريق الناشر ، بطبع عدة ألوف من كتابه ، أو مواراة كتبه الماضية ، ومن طريق الناقد ، تستطيع أن تسميه « تولستوى » الجديد ، أو تصفه بأنه أسخف السخفاء ، أو تجمع بين الوصفين ، فى بضعة شهور .

وقلما يدرى الكاتب الطارئ على روسيا شيئاً من ذلك ، أو يشعر به ، والقليل الذى يحرزه أو يتشكك فيه أو يستريب به ، لا يلبث الغرور أن يغالبه فيجعله ينساه أو يتناساه ، إذ يبدو له من المآدب والولائم التى تقام لتكريمه أن جميع الذين يلقاهم فيها يعرفون كتبه عن ظهر قلب ، فمن أين يدرى أن ذلك كله إنما اصطنع له اصطناعا ، ودبر لمخادعته تدبيراً، إلا أن يكون فطنا إلى أبعد حد ، أو متشككا يتهم كل ما حوله ، ولا يصدق ما يحيط به من شىء .

فلنتصور مثلاً أن لجنه النشر عرضت على الكاتب توقيع اتفاق معه على كتابه القادم ، وأعطته « عربوناً » يغطى عمولته فى بيع مائة وخمسين ألف نسخة فإن كان أمينا ، استحيا من هذا الإغداق قائلا إن هذا القدر هو خمسة عشر ضعفا لعدد النسخ الذى ينتظر الكاتب الغربىّ الذائع الصيت أن يُحاسب عليه ويعطَى عنه «عربونا» قبل انتهاء البيع ، ولكن الناشر عندئذ سيبتسم ابتسامة ساخرة وينثنى يقول له هذا هو ما يفعله الناشرون فى البلاد « الرأسمالية » ولكننا هنا لانفعل ذلك مع الكتاب والمؤلفين ، ولا تنس أيضا أن جميع هيئات الطباعة والنشر فى الاتحاد السوفييتى ملك للدولة ، وأن الفرد الواحد فيه أكثر شراء للكتب من الفرد العادى فى أمريكا

بنسبة ٢٣٠ من مائة فى المائة ، وأن هذه النسبة ستصل فى نهاية مشروع السنوات الخمس الثانية إلى ٣٦٥ فى المائة أو تتجاوزها بكثير ، فلا عجب إذا رأينا الكتاب المُكرَّمين فى روسيا السوفييتية لا يسكنون فى السطوح كما هو شأن الكتاب فى البلاد الرأسمالية ، بل يقيمون فى « شقق » ذوات غرفتين ، ولهم مغسل مستقل ، وحمّام بديع ، بَلْهَ السيارات الخاصة ، والزوارق الفخمة أو « الذهبيات » فى موسم الصيف .

وقد يستاء الكاتب القادم إلى روسيا من تلميح مدير النشر لسكنى السطوح ، ولكنه لا يلبث أن يهدأ ، قائلا لنفسه إنه لا موجب لهذا الاستياء ، لأنه ليس سوى زهو صغير أولى به أن يترفع عنه فلا ينى فى توقيع العقد ، ويعود بعد أيام إلى بلاده فيعلن على رءوس الإشهاد أنه ليس فى الدنيا بلد أكثر من روسيا السوفيتية تقديراً لأهل الفنون ولا أكبر إجلالا لشأن الكتاب وأرباب الأقلام .

وأما المال فلا يستطيع أن يأخذه معه روبلات لأنه غير قابل للتحويل إلى العملة الأجنبية فى الخارج ، ولكنه قد يشترى ببعضه سجاجيد من صنع « بُخَارَى » ويودع الباقى فى بنك الدولة بموسكو ، فإن المرء ليشعر بشىء من اللذة إذا هو ترك بيضة تفريخ فى بلد يشغل سدس مساحة العالم . ولكن فى بعض الحالات الاستثنائية ترخص لدار الطباعة والنشر الحكومية أن تحول جزءاً من هذا المال إلى العملة المتداولة فى بلد الكاتب الأجنبى وترسله إليه على أقساط شهرية ، وأعرف كاتبين من الألمان المبعدين يقيمان فى فرنسا ويتلقيان منذ سنين « شيكات » شهرية من هذا النوع ، وإن لم يكن لأحدهما كتاب مطبوع فى روسيا إطلاقاً ، وإنما كانا من الناقدين المشتدين فى الحملة على الديموقراطية وفسادها ، ولم يكتب أحدهما كلمة نقد واحدة فى حياته ضد النظام السوفييتى ، ولست أعنى بهذا أنهما كانا يتقاضيان « رشوة » من الروس ، لأننا لا نعالج هنا الكلام فى هذه الوسائل الساذجة وأمثالها ، وإنما نحن نتحدث عن الشعور الداخلى الخفىّ الذى يهمس لنا بأن الناشرين فى دنيا الرأسمالية حيتان مفترسة ، لا يهمهم ما يكتبه الكاتب ، مادامت كتبه رائجة فى السوق ؛ بينما نرى

الناشرين فى الاتحاد السوفييتى هم الشعب السوفييتى نفسه ، الذى لا يرتضى بالطبع نقداً يوجه إلى بلده الحر .

وإذا قيل إن روسيا جنة الفنان ، وفردوس الأديب ، فلا تنس أن فى هذه الجنة أشجاراً « محرّمة » يقوم على حراستها ملائكة ذوات قلانس مدببة ، وتحمل سيوفاً مرهفة حداداً ...

— ٦ —

وأقمت فى الاتحاد السوفييتى عاما كاملاً ، قضيت نصفه متجولا طائفاً ، وأنفقت النصف الثانى منه فى خركوف وموسكو منكمشاً فى وضع كتابى ، وقد صدرت منه فعلا طبعة ألمانية فى خركوف بعنوان مختلف عن العنوان الذى اقترح علىّ ، أما الطبعات الروسية والكرجية والأرمنية وغيرها فلم تشهد الضياء أبداً .

وانتهى بى المطاف فى سفرى إلى المناطق الصناعية القائمة على طول ضفاف نهر « الفولجا » ثم جنوبا إلى أوكرانيا ، ومنها كان اجتيازى الجمهوريات القوقازية ، وأعنى بها الكرج وأرمينيا وأذربيجان وباكو ، حيث مضيت أعبر بحر قزوين وأخترق أراضى جمهوريات آسيا ، كتركمانستان وأزبكستان حتى وصلت إلى حدود الأفغان وانتقلت منها إلى طشقند وكزاكستان عائداً أدراجى إلى موسكو .

وكان ما شاهدته وعاينته بنفسى فى تلك النقلات صدمة لى ، ولكنها فى الواقع كانت صدمة بطيئة الأثر ، لا يبدو فعلها إلا بعد حين ، فإن تربيتى الحزبية قد زودت عقلى بحواجز واستحكامات مطاطة وتحصينات مرنة تقيه الصدمات ، وترد عنه المؤثرات ، فلا يهز ما أراه أو أسمعه شيئاً من فكرتى الأولى ، أو يزلزل اعتقادى أو يحول نفسى عما أشربته من قبل أدنى تحويل .

وكنت أتكلم الروسية بطلاقة لا بأس بها ، ولكنى على الرغم من سفرى بمفردى لم أجد مجالا للكلام بها والتدرب على الحديث بأساليبها مع الناس ، خلا المعارف الرسميين ، وقد بدا لى أن المواطن الروسى العادى يشعر بأن ظهوره على أعين الملأ

وهو يتحدث بالروسية إلى أجنبي أمر معيب ، وفعلة خطرة ، كلمس الأبرص ، أو مصافحة المجذوم .

أما الذين كانوا يتحدثون معى فى المطاعم أو مركبات السكك الحديدية فقد كانوا لا يخرجون فى كلامهم عن اللوازم والعبارات المتكررة « والـكليشيهات » المعتادة فى المقالات الافتتاحية فى صحيفة «البرافدا» ، حتى ليخيل للمرء أنهم يرددون نصوصاً بأعيانها ، ويتلون قطعاً إنشائية محفوظة .

وقد سجلت ذلك كله عندى موافقاً مرتضياً ، لأنه بدا لى يومئذ كعلامة طيبة على يقظة بلشفية تامة وأخذ بروح النظام الثورى .

وشاهدت بعينى ما فعلته المجاعة فى أوكرانيا خلال الفترة بين ١٩٣٢ و ١٩٣٣ ، إذ أبصرت بأسر وعشائر تتسول فى محطات السكك الحديدية ، وهم فى أسمال بالية ، ورأيت النساء يرفعن إلى المركبات ولدانهن الساغبين ، وهم فى منظرهم الأليم ، سيقان كالعصى ، ورءوس كبيرة كجماجم الموتى ، و بطون ضامرة ، يلوحون أشبه «بالأجنة» أو « السقط » الموضوعة فى الزجاجات الملأى بالـكحول ، و بدا الرجال بين تلك الجموع فى أحذية ممزقة ، تلوح منها أطراف أقدامهم التى هرأها الجليد .

وقيل لى إن أولئك هم « الـكولاك » Kolak الذين رفضوا الزراعة الجماعية فى البلاد فارتضيت هذا التعليل ، فهم إذن أعداء الشعب الذين آثروا التسول على العمل .

ورأيت الخادم التى كانت تشتغل فى فندق ريجينا الذى نزلت به فى«خركوف» يغمى عليها من شدة الجوع وهى تنظف غرفتى ؛ وأنبأنى المدير أنها قدمت أخيراً من الريف ، وأنها لم تتلق بطاقة جرايتها إلى الآن ، بسبب بعض الإجراءات الفنية ، فلم يسعنى إلا قبول هذا التفسير .

ولم أستطع أن أتجاهل بشجاعة ما رأيته على الحياة الأسيوية فى تلك الأصقاع من التخلف والانحطاط ، وما كان يلوح على الناس من الفتور والخلاء من الشعور

فى زحمة الشوارع ، ومركبات الترام ، والقطر الحديدية ، ومشهد المساكن وسوء ماهى فيه إلى حد لا يكاد المرء معه يصدق عينيه ، مما جعل المدن الصناعية تلوح أشبه شىء « ببؤرة » واحدة مترامية المدى ، إذ كان كل اثنين أو ثلاثة أفراد يتشاركون فى حجرة واحدة ، يفصل جزءاً منها عن الآخر ملاءة أو غطاء منشور على حبل غسيل .

وتبينت ضآلة الجرايات التى كانت توزعها الجمعيات التعاونية ، وعلمت أن سعر الكيلو من الزبد فى السوق الحرة يوازى أجر العامل العادى فى شهر كامل ، وثمن الحذاء أجر شهرين .

ولكنى لقنت أن أقدر الوقائع تقديراً لا أنظر فيه إلى الظواهر ، ولا أراعى فيه التفكير الجامد والعقيدة الراسخة ، بل تنبغى فيه الموازنة ، والتمشى مع الزمن ؛ فاذا كان مستوى المعيشة منخفضاً كما رأيت ، فلا يصح أن أنسى أنه كان على العهد القيصرى أدنى من ذلك وأشد انخفاضاً ، وأنه إذا كانت الطبقات العاملة فى البلاد الرأسمالية أحسن حالاً منها فى الاتحاد السوفييتى، فإن هذه الموازنة بعيدة عن الصواب، جامدة لا تتمشى مع الظروف وقرائن الأحوال ، لأن المستوى هنا فى روسيا آخذ فى الارتفاع ، بينما هو هناك مستمر فى الهبوط ، وأنه لا تنقضى السنوات الخمس التى أعد لها المشروع حتى يتوازى المستويان ، وتتعادل الحالتان ؛ فلا معدى إذن عن القول بأن كل مقارنة قبل أن يتم ذلك ويقع فعلا، هى مقارنة مضللة ، بل ضارة بالروح المعنوية فى الشعب السوفييتى .

فلا عجب إذا أنا لم أقف عند قبول المجاعة الضاربة أطنابها فى البلاد كأمر لا سبيل إلى تجنبه ، بل ارتضيت أيضاً حكمة الحظر المفروض على سفر الأجانب وتنقلهم فى أرجائها ودخول الصحف والكتب الأجنبية إليها ، وكل ما يراد به تشويه حقيقة الحياة الروسية فى الخارج .

وقد عجبت العجب كله فى بداية الأمر ، عقب أن ألقيت محاضرة ، أن راح

السامعون يوجهون إلىّ أسئلة كهذه : هل سحبت بطاقة جرايتك عند ماتركت العمل فى الصحف البرجوازية ، وركلت ركلاً من الغرفة التى كنت فيها مقيما ؟ وما هو متوسط عدد الأسر التى تموت فى كل يوم من المجاعة فى مدن فرنسا وأقاليمها ؟ وماهى الوسائل التى تذرّع بها رفاقنا فى الغرب ولو إلى حين فى قطع السبيل على الرأسماليين الذين راحوا يعدون العدة لحرب الوساطات ، ويستعينون عليها بالخونة من الفاشيين الاشتراكيين فى الطبقة العاملة ؟ ؟ ؟

وكانت هذه الأسئلة ونحوها تصاغ دائماً فى الأسلوب الروسى الجديد الذى ابتدعه جوجاشفيلى [1] ولكنى لم ألبث ان وجدتها طبيعية لا غرابة فيها ، لأن فيها عنصراً يسيراً من الحقيقة ، ولكنها مبالغ فيها طبعاً من أثر الدعاية ومحاولاتها .

ولكنى كنت أقول لنفسى إذا ماتذكرت الدعاية وأفانينها إن هذه الوسيلة لاغناء عنها لنجاة الاتحاد السوفييتى ، ما دام قد أحيط بعالم كاره له ، ودنيا تمقته ولا تسيغه .

وقد تبدو الأكذوبة الضرورية ، والغيبة التى لابد منها ، والتخويف الذى لا مفر منه ، لحمل الجماهير على التوقى من الوقوع فى الأغلاط ، والتهافت على الحماقات ، والتصفية اللازمة للمعارضين ، والقضاء التام على الخصوم والمقاومين ، والتضحية المحتومة بجيل كامل لمصلحة الجيل الذى بعده — كل أولئك قد يبدو بشعاً منكراً ولكن كان من السهل قبوله وارتضاؤه ما دام المرء منطلقاً مع إيمانه ، سائراً على هدى عقيدته ؛ وهو ما حدث فعلا مثله فى التاريخ ، ووقعت أشباه له ؛ ففى تاريخ الكنيسة عبر القرون الوسطى جرى شىء منه ، وفى بيزنطة ، بل فى «الخلوة» على أيام الصوفيين أوالمتصوفين ؛ وإن كان من الصعب فى عالم الإدمان والمدمنين أن يشرح أحد للغريب عنه الذى لم تحوه دائرة السحر ، ولم يجرب شيئاً من تجاريبه ، هذا الذى بدا لى يومئذ مقبولا على علاته ، لابأس منه ولا ضير . . .

---

(١) ستالين كما .ر بك .

وغادرت روسيا السوفيتية فى خريف عام ١٩٣٣ ، ولكنى بقيت فى الحزب أربعة أعوام أخرى ونصف عام حتى أوائل ربيع ١٩٣٨ حين تزلزل إيمانى زلزالاً شديداً ، وإن بقيت بطيئاً فى إدراك الأثر الذى حدث فى نفسى ، لكثرة الحواجز والاستحكامات التى كانت مقامة فى أطواء جوانحى ، لاستيعاب كل صدمة ، وامتصاص كل مفاجأة ، كما جاءت عدة أحداث خارجية ، وعرتنى جملة أحاسيس ، فأعانتنى على المضى فى طريقى والبقاء فى الحزب ، وأخرت الهزة الأخيرة ، والقطيعة الفاصلة .

وكان أهم تلك الأحداث انعقاد المؤتمر السابع للكومنترن فى عام ١٩٣٤ ، فقد وضع المؤتمر سياسة جديدة تنافى السياسة القديمة على خط مستقيم ، ولكن تتولى الزعامة ذاتها مهمة التنفيذ ، كما هى العادة ، وكانت الخطة الجديدة تقضى بوضع العبارات القديمة والكليشيهات الثابتة ، وكل ما كان يشير إلى صراع الطبقات ، ودكتاتورية البروليتاريا « فى مخزن » الأشياء البالية ، والمخلفات المهلهلة ، والاستعاضة عنها بواجهة طريفة مبتكرة مزدانة بالأزاهر والرياحين ، تدعى « الجبهة الشعبية للسلام ومناهضة الفاشية » ، وفتحت أبوابها على مصاريعها لكل الأخيار وسليمى النية من اشتراكيين وكاثوليك ومحافظين ووطنيين .

واقتضى المنهج الحديث الاستخفاف بالفكرة القائلة إن الشيوعيين ينادون بالثورة والعنف ، ووصفها بأنها كلام مزيف أريد به التخويف والتنفير منها ، ووشاية دسها على الشيوعية الرجعيون من طلاب الحرب والمحرضون على إثارة نيرانها .

وهكذا لم نعد ندعو أنفسنا « بلاشفة » ولا «شيوعيين» أيضاً ، بل بدأ الحزب ذاته يعبس ويتجهم كلما سمع هذه الكلمة تجرى على ألسنة العامة وأفواههم قائلا إننا لسنا إلا قوما صرحاء أمناء محبين للسلام كارهين للفاشية ، ذادة عن الديموقراطية ومناضلين . .

واثنى الزعيم الشيوعى المخضرم ، ونعنى به مارسل كاشان، فى يوم ذكرى تحطيم «الباستيل» ، يعانق فى قاعة بلبيه فى باريس ، وسط عدة ألوف من الهتافين والمتحمسين ذلك الثعبان الخبيث « ليون بلوم » الزعيم الفاشى الاشتراكى ، ويقبل خديه ، فما كان من نصف النظارة إلا أن بكوا ومضى نصفهم الآخر ينشد « المارسيليز » ويعقبه بالنشيد الدولى .

وهكذا اتحدت أخيراً الطبقة العاملة مرة أخرى ولم تلبث الجبهة الشعبية فى انتخابات عام ١٩٣٦ التى جرت فى كل من إسبانيا وفرنسا أن ظفرت بفوز مبين .

وكان ذلك كله نتيجة مباشرة للتغييرات التى طرأت على سياسة روسيا الخارجية ، كدخول الاتحاد السوفييتى فى عصبة الأمم ؛ وانتصار سياسة لتفينوف ، والميثاقين اللذين عقدا بينه وبين فرنسا وتشيكوسلوفاكيا ؛ واليوم ونحن نعود بالذاكرة إلى الماضى لنتأمله بعين الحصر لا نلبث أن نشعر بأن عهد تلك الجبهة الشعبية كان مشوباً بالخيانة المستهترة ، والخديعة الجريئة المستنكرة ، التى كانت تختفى خلف واجهة حسنة ظاهرة ، وأن ذكرياتها ملأى بنتائج سيئة ، وأحداث وعبر مريرة ، وإن بدت يومئذ وقبل انكشاف حقيقتها قوية ذات سحر خلاب ، ولاحت محجبة غامضة ، كبعض التصوف ، أو المذاهب الدينية الغريبة .

أما فى تقديرى فقد كانت شهر العسل الثانى بينى وبين الحزب الشيوعى .

وعند ما كنت مقيما فى روسيا ، صعد هتلر ذروة السلطان فى ألمانيا ، فلم ألبث فى خريف عام ١٩٣٣ أن انضممت إلى أصدقائى فى الحزب الذين كانوا يومئذ مقصيين فى باريس ، وكان أصحابنا الذين يسكنون « المربع الأحمر » قد توافوا إليها ، خلا الذين استطاع الجستابو القبض عليهم ، وكان الناجون قد نزلوا فى الفنادق الصغيرة المنتشرة على الضفة اليسرى لنهر السين .

وكانت السنون الخمس التالية أعوام شقاء لى ومسغبة ، لم يعزنى عنها غير النشاط السياسى الذى غمرتنى موجته ، وكان مركز هذا النشاط وقطب رحاه صديقى « ويلى

منزنبرج » ، وكان رجلا قصير القامة ، بديناً ، من أصل « بروليتارى » ، وقد أوتى شخصية لها فعل السحر أو أشد ، وفتنة مغرية فعالة بالغة . وفى عام ١٩٣٨ انشق على الكومنترن ، أى بعد خروجى بستة أشهر ، وقضى نحبه مقتولا فى صيف ١٩٤٠ . ولا يزال قتلته مجهولين ، ولم يهتد أحد إلى أدلة قاطعة ، وإنما عرفت قرائن غير مباشرة ، ولكنها تتحد جميعاً اتحاداً واحداً ، كما تتجه إبرة المغناطيس إلى القطب .

وكان « ويلى » الشخصية الحمراء البارزة فى الحركة الدولية ضد الفاشية ، والبيانات التى أذيعت فى باريس ولندن عام ١٩٣٣ . ونبهت أذهان العالم كله يومئذ إلى فظائع الأحداث التى اقترفها الريخ الثالث .

وتلت ذلك سلسلة «الكتب السود» وهى طوفان من الرسائل والمناشير والصحف التى كان ويلى يتولى الإنفاق عليها وتوجيهها . وإن لم يظهر عليها اسمه . كما مضى يؤلف لجاناً « دولية » وينظم عقد مؤتمرات . ويقوم بحملات وحركات مختلفة . كما يخرج « الحاوى » أرانب من قبعته : كلجنة الترفيه عن ضحايا الفاشية . ولجان الإشراف والرقابة الديموقراطية . ومؤتمرات الشباب الدولية وما إليها . وكانت كل هيئة من هذه الهيئات تحوى جموعاً من أهل الخطر والمكانة . بين دوقات من الإنجليز . إلى كتاب كبار من الأمريكيين . والعلماء الفرنسيين . وكان أكثر هؤلاء لم يسمعوا باسم « مونزنبرج » فى حياتهم ، وكانوا يحسبون أن الكومنترن لم يكن سوى « بعبع » اخترعه جو بلز وابتدعه .

والواقع أن مشروعاته أمست محيرة مذهلة . بعد التغيير الذى طرأ على الخطة العامة . تنفيذاً للقرار الذى اتخذه «المؤتمر السابع» وظهور فجر «الجبهة الشعبية» ؛ وهو الذى أشرف على تأليف « لجنة السلام » المناهضة للفاشية . وهى الحركة التى كانت تدعى « حركة أمستردام — بلييل» والتى كان يرأسها « باربوس » كما ألف «جمعية الكتاب» للدفاع عن الثقافة . ولجنة التحقيق فى أسباب المخالفات غير القانونية لنصوص

اتفاق الامتناع عن التدخل فى مسألة أسبانيا ، وغيرها من الهيئات الدولية «الفطرية» السريعة النمو ، والعاجلة الفناء ، كأعشاش الغراب .

فقد كان مونزنبرج عبقرياً فى التنظيم والتنسيق والتدبير والترتيب ، وداعية موهوباً من أكبر الدعاة لا يتردد فى عمل يوحى الخاطر به ، ولا يتوسوس فى وسيلة من وسائله ، إلا كما ينتظر أن يتردد الرجل الذى يريد الاحتفاظ بمركزه وسط دسائس الكومنترن ومكايده المرهوبة . ويوم يكتب تاريخ هذا الرجل ، سوف يكون من أعجب الوثائق فى كشف أسرار الفترة التى وقعت بين الحربين العالميتين ورفع السدول عن خباياها العجيبة وخفاياها المدهشة .

وقد اشتغلت معه فى بداية العام فى المنفى بباريس، وخلال محاكمات الريشتاغ ، وشيوع « الكتب السود » ، وعدت أعمل معه فى الحرب الأسبانية ، وأخيراً فى عام ١٩٣٥ بعد اختلافه مع الكومنترن . حين أصدرنا معاً صحيفة « دى زوكونفت » وهى صحيفة مناقضة للنازية وغيرمعادية لستالين . أما الفترات التى تخللت تلك العهود فقد قضيتها فى العمل كصحفى طليق وتوليت تحرير صحيفة هزلية للحزب خلال الحملة التى نظمت للاستفتاء العام فى منطقة « السار » . ولكن الحزب وقفها عن الصدور بعد العدد الأول لمجونها البالغ ، وهزلها المكشوف . واشتغلت فى ملجأ لرعاية أطفال العمال الشيوعيين الذين يعملون فى الحركة السرية بألمانيا . وانتقلت منه إلى « وكالة أنباء » يتولى إخراجها « إليكس رادو » الذى أصبح فيما بعد من أكبر رجال المخابرات العسكرية الروسية فى سويسرا ثم قضى عليه فى روسيا عقب الحرب الثانية وكنت مديراً لمعهد دراسات فى الفاشية . كان بمثابة دار محفوظات و بحوث ضدها . يشرف عليها الحزب الشيوعى ، ويتولى رقابتها الكومنترن، ولكنه لا يمدها بالمال . وكان العام الذى قضيته فى ذلك المعهد عاماً مليئاً بحماسة ومسغبة ، وسعادة أيضاً ؛ فقد كانت الفكرة التى رمينا إليها من إنشائه إقامة مركز للبحث الجدى فى دخيلة الحزب

الفاشى وحقائقه . بعيداً عن الوسائل التى تتوسل بها لجان منزنبرج وتشكيلاته ؛ وكنا نتلقى هبات ومعونات من نقابات العمال والجمعيات الأدبية والعلمية فى فرنسا ؛ وكنا نعمل جميعاً بلا أجر . وقد تبلغ ساعات العمل فى اليوم عشراً أو اثنتى عشرة أحياناً . وكان المكتب الذى استأجرناه رقم ٢٥ شارع بيفون يحوى لحسن الحظ مطبخاً . فكان أعضاء المكتب يتناولون فى كل ظهر حساء كثيفاً من نقيع الفول . وكان هذا هو غذائى الأوحد عدة أسابيع . وكنت يومئذ أسكن فى « طبقة » فى حى آهل بتلامذة « رايموند دونكان » وهو حى « ميدون فال فليرى » . إذ كان هذا هو المكان الأوحد الذى أستطيع فيه النوم دون دفع أجرة . و إن اقتضانى السير على قدمى عدة أميال فى اليوم غادياً رائحاً بين المكتب وذلك المسكن المجانىّ الحقير .

ولكن العمل كالعقار المؤثر ، وله فعل المخدر . وأن يستشعر المرء منا أنه إنما يعمل عملاً صالحاً وهو فيه المجهول ، و يفنى فيه عصارة نفسه ، وهو المضحى الذى لا يعرفه أحد — خير وسيلة وأقوى ذريعة لإرضاء الضمير أو « رشوته » .

ولم تلبث تصرفات العهد الجوجاشفيلى [1] ومساوىء حكمه ، وأداة الكومنترن وشنائعها ، أن توارت ولم يعد شىء جديراً بالاهتمام منا غير محاربة النازية ودرء خطر الحرب ، ولم أكن أدرى يومئذ أنها كانت محاربة « صورية » وأننا كنا فيها مجرد ظلال وأشباح .

وقد أعاننى عامل نفسى آخر على مواصلة العمل فى خدمة الشيوعية عقب عودتى من روسيا ، وهو الاعتقاد الذى كان يشاركنى فيه صفوة صحبى وخيرة أصدقائى الذين تركوا الحزب اليوم أو فصلوا منه فقد كنا معصوبى الأعين ، ولكننا لم نكن عمياناً ، ولم يكن أشد المتعصبين للشيوعية بيننا يستطيع أن يغفل عن الواقع الملموس أمامنا ، وهو أن حركتنا لم تكن تسير بخير ، ولكنا مع ذلك لم نحاول يوما أن نتناجى

---

(١) أى عهد ستالين .

أو نتكاشف بما كان يخالجنا من الشعور بأن الحزب لايحتاج إلى تطهير من الخارج ، بل هو أحوج ما يكون إليه من الداخل .

وأنت قد تستطيع أن تستقيل من ناد أو من حزب عادى إذا لم تعد سياسته تروقك ؛ ولـكن الحزب الشيوعى كان شيئا يختلف عن سائر الأحزاب كل الاختلاف ؛ فقد كان بمثابة المقدمة أو الطليعة من الطبقة الكادحة أو إرادة التاريخ ذاته مجسمة ماثلة ؛ فإن أنت خرجت عليه عددت طريداً أو منبوذاً « خلف الأسوار » ، ولن يكون لأى كلام تقوله أو عمل تحاوله أمل ما فى تغيير مجراه أو إحداث أثر فيه ، فمن الخير لك أن تبقى فى حظيرته ، مقفلا فمك مخفياً مضضك ، مرتقباً اليوم الذى تصبح فيه روسيا والـكومنترن بعد دحر عدوهما وانتصـــار الثورة العالمية ، على استعداد لأن يصبحا « ديموقراطيتين » ؛ وعندئذ يصح أن يدعى الزعماء للمحاسبة على تصرفاتهم ، من هزائم كان ممكناً تجنبها ، وتضحيات لم يكن شىء يستوجبها ، وحملة دسائس ومكائد قضت على خيرة رفاقنا وذهبت بأرواح الصفوة من إخواننا .

أما قبل هذا اليوم المرتقب ، فما عليك إلا أن تؤدى لهذه اللعبة حقها ، فتؤكد وتنفى وتقول وتردد ، وتأكل كلامك أكلاً ، وتلعق بصقتك لعقاً ، فذلك هو الثمن الذى قضى عليك أن تدفعه لـكى تظل تشعر بأنك النافع المجدى ، ولـكى توفر على نفسك احترامها ...

— ٨ —

وفى الثامن عشر من شهر يولية عام ١٩٣٦ كان الجنرال فرنكو قد أعد العدة لإحداث « انقلابه » فذهبت لزيارة « ويلى منزنبرج » وطلبت إليه أن يساعدنى على الانضمام إلى جيش الجمهورية الاسبانية ، وكان ذلك قبل أن يتم تأليف « الفرقة الدولية » وكان معى جواز سفرى ، وهو جواز « مجرى » ، فنظر إليه ويلى نظرة شاردة ، ولم يكن يرتضى — وهو الداعية البارع — فكرة ذهاب الـكتاب وحملة الأقلام إلى

الميدان و إضاعة وقتهم فى حفر الخنادق ، وكانت مع جوازى بطاقتى الصحفية كمراسل صحيفة « البستر لويد » فى باريس ، ولم أكن كتبت لتلك الصحيفة كلمة واحدة قبل ذلك ، ولكن كل صحفى مجرى محترم يقيم فى باريس يملك ببطاقة صحفية من أية جريدة فى المجر ، حتى يستمتع بتذاكر المسارح والسينما دون مقابل .

ولم يلبث أن خطف ضياء غريب على عين صديقى ، كأنما قد خطرت له فكرة جديدة .

قال : « لماذا لا تقوم برحلة إلى مقر رياسة فرنكو كمندوب عن صحيفة « البستر لويد » ؟ ؟ فإن المجر تكاد تعد بلدا « فاشياً » وأكبر ظنى أنهم مرحبون بك متقبلوك بالعناق والأحضان » .

وراقتنى الفكرة أنا أيضاً ، ولكن تنفيذها لم يكن يخلو من بعض الحوائل والعقبات ؛ فأولاً إن الجريدة ذاتها لن تسمح مطلقا بإيفادى ، ولكن ماذا يمنع من أن أسافر دون علمها ، وما حاجتى إلى إبلاغها النبأ ومكاشفتها بالنية ؟ ولست أحسب أحداً سيحفل بى فى غمرة حرب أهلية كهذه بمراجعة أوراق اعتمادى والتثبت منها . وثانياً أن بعض مراسلى الصحف الأجنبية الأخرى سيشكون فى الأمر ولا يصدقون أن صحيفة مجرية فقيرة كهذه توفد مراسلا خاصاً إلى أسبانيا ، ولكن هذه العقبة أيضاً أمكن التغلب عليها، فقد كان لى صحاب وأصدقاء فى جريدة « النيوز كرونكل » فى لندن ، وكانت الكرونكل شديدة الحملة على فرنكو عنيفة فى نقده ، فلا أمل فى السماح لأحد مراسليها بدخول المناطق التى قامت فيها الثورة ؛ ولشد ما اغتبط رئيس تحريرها بالفكرة ووافق على أن أعمل بوصفى مراسلا خاصاً لها إذا قدر لى الوصول إلى أسبانيا الثائرة .

ولكنى عرفت كيف أدخل البلاد من طريق لشبونة إلى أشبيلية ، وإن كانت سفرتى قد فشلت وشيكا فلم يكد ينقضى اليوم التالى لمقامى فى أشبيلية ، وهى مركز

رياسة فرنكو ، حتى عرف أمرى ، وانكشف للقوم أننى شيوعى، ولـكنى استطعت وسط الفوضى الضاربة فى البلاد الخروج منها فى عجلة بالغة من طريق «جبل طارق» ؛ وقد تمكنت على قصر المقام من رؤية الطيارين الألمان والطائرات الألمانية فى جيش فرنكو وقواته ونشرت النبأ فى جريدة « النيوز كرونكل » وضمن رسالة منفصلة ، واستهدفت بذلك لنقمة فرنكو وحكومته ، فلم ألبث حين اعتقلت بعد ستة أشهر من ذلك التاريخ كمراسل مرافق للجيش الجمهورى أن أدركت أن خير ما يفعلونه بى هو الإعدام رمياً بالرصاص دون مقدمات سيئة أو تمهيدات مؤلمة .

وقضيت أربعة أشهر فى السجون الاسبانية بملقا وأشبيلية ، وكان أكثرها فى السجن الانفرادى ، وأنا طيلة الوقت موقن أننى سأعدم رمياً بالرصاص .

ولـكنى فى شهر يونية عام ١٩٣٧ بفضل تدخل الحـكومة البريطانية وجدتنى فجأة مطلق السراح لم يشتعل منى الرأس شيباً ، ولم تتغير ملامح وجهى ، ولا أثرت المخاوف الملحة فى نفسى ؛ ولـكنى عرفت شيئاً جديداً من الحقائق لم يلبث أن غيّر نظرتى إلى الأمور ، وأحدث انقلاباً فى القيم عندى والموازين ؛ وكان هذا الانقلاب من العمق بحيث ظللت فى الأيام الأولى من إطلاق سراحى مذهولا لا أشعر بشىء . وكان هذا التغيير يرجع إلى ثلاثة عوامل الخوف والشفقة والثالث يصعب وصفه . أما الخوف فلم يكن من الموت ولـكن من التعذيب والإذلال والوسائل البشعة فى تنفيذ الإعدام ؛ وكان فى السجن معى رفيق يدعى « جارسيا أتادل » أعدم شنقاً عقيب الإفراج عنى . وأما الشفقة فعلى فلاح أندلسىّ وقروى من « كتلان » سمعتهما يبكيان ويعولان حين سيق بهما ليلا إلى الإعدام بالرصاص . أما العامل الثالث فهو حالة نفسية ألفنا الحديث عنها فى عبارات مستعارة من «الصوفية» وأمثالها من المذاهب ، حالة تنتاب المرء فى لحظات غير منتظرة فتضفى على نفسه سكينة بالغة ، وهى حالة لم أكن شعرت بها من قبل ، ولم أشعر بها منذ ذلك الحين .

ويقيني أن الدرس الذى يتعلمه المرء من هذه التجربة يختفى أبداً تحت ستار رث ، وثوب مهلهل لايحجب حقيقتها وهى أنها شيء بديهى، وأمر مفهوم ، كقولك إن الإنسان حقيقة ، ولـكن البشرية « تجريد » ، وإن الناس فى السياسة لا يمكن اعتبارهم «وحدات» فى عمليات حسابية لأنهم يقومون مقام «الرموز» كالصفر والرقم «الدائر» ، وهو ما يحل بكل عملية حسابية ، وقولهم إن الغاية إنما تبرر الواسطة إلا فى أضيق الحدود ، وإن الأخلاق لا محل لها ولا أثر فى « الصلاحية أو المنفعة » الاجتماعية ، وإن إيتاء الخير والبر ليس عاطفة « بورجوازية » صغيرة ، ولـكنه القوة الجاذبة التى تقيم الحضارة دائرة فى فلـكها .

ولـكن ليس ثمة شيء أسخف ولا أبعد عن أصالة الرأى من هـذه الأقوال والعبارات بسبيل أحاسيس لايجدى فيها الكلام ، ولا هى فى نطاق القول والتعبير ، وإن كل كلمة من هذه الـكلمات التوافه كانت متعارضة مع الإيمان الذى كنت أحسه من ناحية الشيوعية ...

* * *

ولو كانت هذه القصة من نسج الخيال لانتهت عند هذا الحد ، ما دام الشخص الأول فى القصة قد ترك بعد تحوله الروحى صفوف أصحابه ورفاقه بالأمس ، وانطلق فى سبيله باسماً بسمة هادئة مطمئنة . ولـكننى حين نجوت من الهلكة، لم أدر أننى لم أعد شيوعياً ، فكان أول عمل عمدت إليه بعد أن جاوز بى الحرس حدود جبل طارق ، أن بعثت الى الحزب ببرقية استهللتها ببيت من شعر شللر ، يقول فيه : « أيتها الملايين أننى أعتنقك ..! » . بل أغرب من ذلك أننى أضفت قائلا : « وقد شفيت من جميع أوجاع البطن وأدوائه » . وكانت كلمة « أوجاع البطن » اصطلاحاً عاماً يدور على ألسنة الشيوعيين . ومعناه « المخاوف » من خطة الحزب وسياسته .

وقضيت ثلاثة أشهر هادئة مع صحب لى وخلطاء فى بريطانيا ، عاكفاً على

وضع كتاب عن أسبانيا ؛ و بعد رحلة قصيرة إلى الشرق الأوسط موفداً من قبل جريدة «النيوز كرونكل» — وهى رحلة لا تدعو إلى قيام خلاف بينى و بين الحزب — بدأ الصراع بطوفة فى أرجاء بريطانيا لإلقاء محاضرات عهد بها إلىّ « نادى الكتاب اليسارى» Left Book Club ، فكان كل سائل ينبرى بعد الفراغ من المحاضرة من بين المستمعين وأكثرهم من الشيوعيين ، فيطلب منى تفصيلا لنشاط جماعة «البوم» ووجوه غدرها بالحزب وخيانته ، وهى شعبة منشقة من الشيوعية تتبع مبادئ تروتسكى فى أسبانيا ، وتعمل مستقلة طليقة من القيد ، حتى استهدفت لاتهام الحزب لها بأنها من «صنائع فرنكو وعيونه» — يجد عندى الجواب حاضراً ، وهو قولى إننى لا أنكر أن سياسة هذه الشعبة المنشقة قد تكون ضارة بالقضية ، ولكنى على يقين بأنها ليست من الخونة إطلاقا . ولشد ما دهشت أن يمضى الأمر بسلام عند هذا الحد ، ولم يحدث لى أذى أو ضرر بسببه . ولعل ذلك راجع إلى فتور الحزب الشيوعى البريطانى فى رفع أمر « المنحرفين » إلى الجهات الشيوعية العليا وكراهية كشف سترهم عندها .

وعلمت عندئذ أنه قد قبض فى حركات التطهير العامة التى جرت فى روسيا على زوج أختى وصديقين من أعز أصدقائى ؛ وكان نسيبى هذا يدعى الدكتور «أرنست أشر» ويشتغل فى أحد مستشفيات الدولة فى جمهورية الفولجا الألمانية ، وكان عضواً فى الحزب الشيوعى الألمانى ، ولكنه لم يكن ذا نشاط سياسى ولا هو بالمعنىّ بالشيوعية أو الحافل بأمرها ، بل كان سليم النية غير مكترث ؛ وقد انتهى إلى سمعى أن التهمة التى وجهت إليه هى أنه « مخرب » جعل يحقن مرضاه بميكروب « الزهرى »[1] وأنه قد أفسد أذهان العامة بادعائه أن الأمراض السرية عضال مستعصية العلاج ، وأخيراً إنه بالطبع صنيعة دولة أجنبية .

---

(١) وكانت التهمة التى وجهت إلى جاجودا رئيس الأوجبو السابق وثلاثة أطباء معه ، أنهم سمموا الروائى الكبير مكسيم غوركى ببخار الزئبق.

ولم يعرف أحد ماذا صنعوا به منذ اعتقاله من اثنى عشر عاما ، ولم يهتد إنسان إلى أثره .

أما صديقاى الحميان فهما أليكس ويزرج وزوجته « إيفا » . وسأقص عليكم قصتهما فى شىء من التفصيل الأسباب ستبدو لكم فيما بعد .

فقد كان أليكس طبيباً يشتغل فى المعهد الأوكرانى للطب والمصطلحات الطبية ، وكنت أعرف الرجل وزوجته من عدة سنين ، وأقمت معهما ردحا من الدهر فى « خركوف » ، وقد ودعنى « أليكس » فى المحطة عند مغادرتى روسيا عام ١٩٣٣ ، وكانت كلمات الوداع التى قالها لى « مهما يحدث فلا معدى لك عن حمل العلم السوفييتى عالياً » ، وكان اعتقاله فى عام ١٩٣٧ كما علمت فيما بعد بتهمة استئجار عشرين شقياً ليكمنوا لستالين وجانوفتش فى رحلتهما التالية للصيد فى جبال القوقاز ، وأنه رفض التوقيع على اعتراف بالفعلة ولبث يتنقل بين مختلف السجون ثلاثة أعوام سويا ، حتى سلم أخيراً عقب إبرام ميثاق التحالف بين ربنتروب ومولوتوف إلى « الجستابو » فى مدينة بوست لينوفسك مع مائة آخرين من الشيوعيين النمسويين والألمان والمجريين ، ومن بينهم جريت نيومان زوجة الزعيم الشيوعى الألمانى هانز نيومان ، وأخت زوجة ويلى مونزنبرج ، والطبيب فسل هوترمانز أحد أعوان العلامة بلاكت السابقين .

وقد نجا صديقى « إليكس » من شر الجستابو واشترك فى ثورة فرسوفيا ، ووضع كتابا سيكون قريباً فى متناول القراء الإنجليز .

وكانت امرأته « أيضاً » من المشتغلات بصناعة الخزف والأوانى الفخارية ، وكان اعتقالها قبل القبض على زوجها بعام أو نحوه ، وقد اتهمت أولا بأنها رسمت الصليب المعقوف على أقداح الشاى التى وضعت تصميمها للمصنع الذى يتولى الإنتاج بالجملة ، ثم عادوا يتهمونها بأنها كانت تضع مسدسين تحت الوسادة ، وأن هذين المسدسين كانا معدين لقتل ستالين عند انعقاد الجمعية العامة للحزب ، وقد أمضت

ثمانية عشر شهراً فى « لوبيانكا » حيث حاول « الأوجبو » تقديمها كمذنبة نادمة فى محاكمات بوخارين « الصورية » فعمدت إلى قطع شريان من شرايينها ، ولكنها أنقذت ، وأطلق بعد قليل سراحها بفضل مساعى قنصل النمسا فى موسكو ، وكان بالمصادفة صديقاً لوالدتها .

وقد لقيتها عقب الإفراج عنها و إبعادها من روسيا فى ربيع ١٩٣٨ ، وكانت مشاهداتها فى السجون الروسية ، والأساليب التى يتبعها « الأوجبو » فى انتزاع الاعترافات من الذين استهدفوا لنقمته ، مادة طيبة استعنت بها فى كتابى « الظلام فى الظهيرة » .

ووعدتها أن أبذل كل ما فى وسعى لإنقاذ زوجها اليكس ، وكان أينشتاين قد توسط من قبل فى هذا الشأن فلم يسعنى إلا أن أبعث ببرقية إلى ستالين توخيت فيها الألفاظ الدقيقة ، والعبارة المحكمة ، واستطعت الظفر عليها بتواقيع ثلاثة من أعلام الطب فى فرنسا ، وممن فازوا بجائزة نوبل ، وهم بيران ولانجفان وجوليوت كورى ؛ كما بعثنا بصورة منها إلى النائب العام فى روسيا وهو فيشنسكى ، طالبين إصدار بيان عن التهم الموجهة إلى ويزبرج إذا كانت ثمة تهم وجهت إليه ، ومحاكمته عليها ؛ ومما يجدر بى ذكره هنا أن لانجفان وكورى كانا يعطفان على السوفييت ولم يلبثا أن انضما إلى الحزب الشيوعى ، ولكنهما لم يكونا راضيين عن القضاء فى روسيا وأساليب المحاكمات وأداة العدالة لأنهما لم يسمعا يوما عن إليكس ، ولم تكن بينى و بينهما معرفة وثيقة ، ولكنهما مع ذلك سلما فى الحال بأن إليكس لابد من أن يكون بريئاً .

وقد وقع البرقية أيضاً بولانى فى مانشستر ؛ وكان العلامة « بلاكت » هو الطبيب الوحيد الذى اتصلت به ورفض توقيعها .

وقد ذكرت هذه الواقعة لأن الأستاذ بلاكت حاول من قبل جاهداً إنقاذ مساعده السابق « هوترمان » ، وهوصديق حميم لويزبرج . وأكبر ظنى أنه خشى إذا هو وقع الاحتجاجين أن يضيع الفرصة لإنقاذ ولو إحدى الضحيتين على الأقل .

ومغزى هذه القصة العابرة هو أن جوليوت كورى و بلاكت و بقية أصحابنا الماركسيين الغضاب لا يمكن أن يدعوا أنهم كانوا فى جهل مطبق بسير الأحداث فى روسيا، لأنهم يعرفون على أقل تقدير تفاصيل ماوقع لزميلين من زملائهم ، ممن كانوا يدينون بالولاء الصادق للاتحاد السوفييتى وأنهما اعتقلا بتهم غريبة وظلا أعواما بلا محاكمة، ثم سلما فى النهاية إلى الجستابو ؛ كما يعرفون أن هذه الحالات لم تكن استثنائية بل تحفظ الدوائر العلمية فى روسيا لديها تقارير موثوق بها عن مئات الحالات المماثلة لها ، وهو ما ينطبق تماماً على ما عند جميع الكتاب والعلماء الذين اعتنقوا المبادئ الشيوعية ؛ فما من أحد منهم إلا يعلم عن مصرع صديق له فى معسكرات السخرة القائمة فى الأصقاع الشمالية ، أعدم رمياً بالرصاص بتهمة «التجسس» ، أو توارى عن الأبصار فلم يعد أحد يعثر له على أثر . ولشد ما كانت أصواتنا تدوى غضباً كلما كشفنا عن تصرفات معيبة فى سير التحقيقات أو العدالة داخل بلادنا الديموقراطية ، ولكنها فى روسيا لا ترتفع ، إذا ما تخلص الروس من أحد من رفاقنا دون محاكمة أو إدانة ؛ فقد كان كل منا يحمل جثة صديق أو صاحب فى « دولاب » ضميره ، فلو جمعت تلك الجثث بجملتها لتألفت منهـا مقابر عظام ، وهياكل وجماجم أشد تشعباً من سراديب باريس وأقبيتها .

وما أحسب بلداً فاق روسيا السوفيتية فى عدد الثوريين الذين طوِّح بهم فيه ، أواستذلوا وسيق بهم مساق الرق والعبيد . وكان مشهد هذه الفظائع والأعمال المنكرة التى يقترفها رجال من ذوى الذكاء والألمعية والنية الحسـنة فى عين رجل راح سبعة أعوام كاملة يجد الشفائع والمعاذير لـكل حماقة ترتكب تحت علم المـاركسية ، وكل جريمة تقترف تحت لواء الشيوعية — أدعى إلى الاشمئزاز والنفور من الأعمال الوحشية التى يأتيها البسطاء والجهال والحمقى .

وقد شاهدت بعينى مدى تلك «البهلوانية» الذهنية أو الرقص على الحبل الممدود حول ضمير الإنسان وشعوره .

فلم أكن أجهل مبلغ الجهد الذى يقضيه مد ذلك الحبل المرن المطاط إلى الحد الذى يجعله يَرِثّ أو ينقطع .

وفى ذلك الحين الذى عرفت فيه أنباء القبض على أليكس استطاع رفيق آخر الفرار إلى باريس من ألمانيا حيث قضى خمسة أعوام سجيناً مع الأشغال الشاقة ، وكان قبل اعتقاله يشتغل فى فرع من « شبكة شيوعية » عمد الحزب إلى التخلص من زعمائه بتهمة التجسس .

وهكذا بلا تحقيق ، ولا أمل فى الدفاع عن النفس، لم يلبث صديقى وامرأته أن اتهما بأنهما من صنائع الجستابو ، وظهرت صورهما فى صحف باريس مشفوعة بتحذير للناس من الاتصال بهما .

وكنت قد سمعت بأحداث كهذه ، من قبل ، فكنت أهز كتفىّ استخفافاً وأواصل « الرقص على الحبل » ومغالطة الضمير ، ولكن هذين الزوجين قد أصبحا حقيقيين فى عينى أكثر من القضية الشيوعية ذاتها ، التى يراد التضحية بهما من أجلها ، فاعتزمت أن أقف بجانبهما ذائداً مدافعاً [1] .

ولكن الحزب لم يفعل شيئاً حيالى ؛ فقد استغلنى ، حين زج بى فى السجن ، كشهيد فى سبيل الدعاية الشيوعية ، فلا معدى عن انقضاء فترة أخرى من الزمن قبل أن يتهمنى بأنى كنت صنيعة فرنكو أو جاسوساً للميكادو !.

وجاءت النهاية مفاجأة غريبة ، فقد طلب منى فى ربيع ١٩٣٨ أن أدلى بحديث عن أسبانيا أمام جمعية الكتّاب الألمان المهاجرين فى باريس ، وجاءنى قبل إلقاء الحديث مندوب من الحزب فطلب منى أن أضع فيه فقرة أعلن فيها أن « البوم » هم صنائع فرنكو وعملاؤه ، فرفضت .

وانعقد الاجتماع يومئذ فى دار جمعية الصناعات الفرنسية فى ميدان سان جرمان

(١) وقد دخلا الآن فى حياة جديدة باسمين جديدين ، وهما يقيمان اليوم فى أحد الممتلكات البريطانية « الدومنيون » . والشىء بالشىء يذكر أقول إن الزوجة هى بعينها الفتاة التى اعتقلها الجستابو لمجرد تفوهها بكلمة « محسوس » كما ورد فى الصفحات الماضية .

دى بريه ، وكان المستمعون قرابة مائتين أو ثلثمائة من المهاجرين المستنيرين كان نصفهم من الشيوعيين .

وكنت أعلم فى أعماق نفسى أن هذه هى المرة الأخيرة التى سوف أظهر فيها أمام الجمهور كعضو فى الحزب الشيوعى .

وكان الموضوع يدور حول أسبانيا وموقفها ، ولم يكن يحوى كلمة انتقاد ما للحزب أو لروسيا ، ولكنه كان يتضمن ثلاث فقرات اخترتها عامداً ، وانتقيتها عن قصد ، لأنها كانت فى أعين العاديين من الناس كلاماً عاماً لا بأس منه ، ولكنها فى أعين الشيوعيين ستبدو بمثابة « إعلان الحرب » على الحزب .

وكانت الأولى منها قولى « لا يصح لحركة أو حزب أو شخص أن يدعى « العصمة » من الزلل » .

وكانت الثانية « أن تهدئة خواطر العدو حماقة لاتقل عن حماقة اضطهاد صديق يرمى إلى هدفك بالذات ولكن من طريق آخر » .

وكانت الثالثة اقتباساً من توماس مان ، وهو قوله « حقيقة ضارة خير من أكذوبة نافعة ... » .

وكان هذا كافياً للتعجيل بالنهاية .

ولم أكد أنتهى من حديثى حتى راح النصف غير الشيوعى من المستمعين يصفق إعجاباً ، بينما جلس الشيوعيون صامتين واجمين شابكى الأذرع على صدورهم؛ ولم يكن تصرفهم هذا إيحاء أو إيعازاً ، ولكنه كان تأثراً من تلك الكلمات البديهية التى قررت مصيرى ، وهو التأثر بعينه الذى كان مرتقباً أن يحدث لو أنك قلت على أسماع جمهور من النازيين إن الناس ولدوا جميعاً متساوين ، بغض النظر عن اختلافهم فى العنصر أو العقيدة .

ولم تمض بضعة أيام على هذا الحادث حتى كتبت خطاب استقالتى و بعثت به إلى لجنة الحزب المركزية .

* * *

وهذا هو الموقف الثانى الذى كان أولى بهذه القصة أن تنتهى عنده ، ولكن الواقع أن هناك مفاجأة ثانية دهمتنى ؛ فقد كان كتابى بمثابة وداع للحزب الشيوعى الألمانى، وللكومنترن والعهد الجوجاشفيلى، و إن ضمنته آية الولاء للاتحاد السوفييتى .

فقد مضيت فيه أشرح معارضتى لهذا النظام ، وانتقادى لهذا النمو السرطانىّ البادى على هذه الأداة «البيرقراطية» ، و إهدار الحريات المدنية المقررة ، و إن كنت قد أعلنت إيمانى بأن الأسس التى قامت عليها هذه الدولة المؤلفة من العمال والفلاحين لا تزال « ثابتة وطيدة » ، وأن تأميم وسائل الإنتاج ضمان كاف لعودتها إلى طريق « الاشتراكية » السليمة ، وأن الاتحاد السوفييتى على الرغم من كل شىء لا يزال يمثل الأمل الأوحد الذى بقى لنا فى هذا الكوكب الذى أخذ ينحل و يفسد و يختل وشيكا .

وهكذا رثّ الحبل الذى كان ملفوفاً حول ضميرى وانقطع البهلوان أخيراً عن الرقص عليه .

ولكن بقيت من تحته شبكة نجاة .

فلما هبطت وجدتنى فى جمع مختلط من بهلوانيين وحواة قدامى فقدوا توازنهم «المنطقىّ» وتروتسكيين ونقاد يشاركون الشيوعية بوجدانهم، وشيوعيين «مستهترين» وساسة محدثين ، وجمهوريين جدد ، وأحرار وغيرهم ممن يزحفون و ينتشرون فى هدف الشبكة متخذين أوضاعاً مختلفة .

وكنا جميعاً فى قلق بالغ ، معلقين فى الهواء ، أو هائمين على الوجوه فى « منطقة حرام » ، ولكننا على كل حال لم نكن مضطرين إلى اعتبار أنفسنا « ملائكة ساقطين » .

وقد لبثت معلقاً على هذا النحو حتى حل ذلك اليوم الذى رفع فيه علم الصليب المعقوف على الميناء الجوى فى موسكو احتفالا بقدوم ريبنتروب ، وراحت موسيقى الجيش الأحمر تعزف النشيد الألمانى، فقد كان ذلك إيذانا بالنهاية ، ولم أعد منذ ذلك

اليوم أحفل بأن يدعونى حلفاء هتلر خارجاً على الثورة ، أو منشقاً ، أو أياً ما يدعونى من الأسماء والصفات .

وقد حاولت فى كتاب آخر لى أن أشرح تلك النظرية المنطوية على مغالطة ظاهرة ، وهى قولهم عن روسيا إن الأسس القائمة عليها لا تزال « سليمة لم تتأثر » ، وإن النظام الاقتصادى سيؤدى حتماً إلى حكم اشتراكى ؛ ولست معيداً هنا ذلك الشرح ، وليس غرضى من الإشارة إلى ذلك التعلـّق الذى كان منى بآخر مزقة من ثوب الشيوعية الذى ارتديته ، ثم رحت أنضوه عنى ، إلا التدليل على هذه الجبانة العقلية التى تأبى إلا ملازمة الإنسان المستنير ، حتى بعد زوال الغشاوة عن عينيه ، وانكشاف الخدعة لبصيرته ، للفكرة التى انخدع قديماً بها . فإن إدمان معاطاة هذه الأسطورة السوفييتية تستمكن من المدمن استمكاناً يجعل من الصعب الشفاء منه كإدمان المخدرات سواء بسواء . والمشاهد أن المدمن بعد إدراكه ما فى هذا العقار من غش لا يفتأ يتلهف على رشفة أخيرة منه ، حتى ولو شعشعت بشىء من الماء ، أو قدمت إليه فى برشامة مختلفة واسم جديد ، ولا تزال سوق الكومنترن ملأى بأنواع منوعة من « الماركات » ، ولا تخلو مطلقاً من عشرات الجُرَع والبرشامات ؛ فقد ألف الكومنترن الاتجار بالكلام المزخرف ، والعبارات المنمقة ، كما ألف باعة الخمور المهربة والمخدرات الاتجار بالأشربة المغشوشة والعقاقير المزيفة ، وكلما كان « الزبون » ساذجاً وعلى نياته ، أصبح من السهل أن يقع فريسة لكل نوع من المخدر يقدم إليه باسم « السلام » والتقدم والديموقراطية وما إليها .

***

لقد خدمت الحزب الشيوعى سبعة أعوام ، وهى الفترة ذاتها التى قضاها يعقوب عليه السلام فى رعاية غنم لابان لكى يظفر بابنته « راحيل » ، ولما حان الظفر بها ، سيق بالعروس تحت جنح الليل إلى خيمة مظلمة ، ولكنه لم يتبين إلا مع الصبح

أنه لم يقض ليلته مع «راحيل» الحسناء ، وإنما قضاها مع «لِيئَه» الدميمة الشوهاء .

وإنى لأعجب هل تراه أفاق من الصدمة ، حين أدرك أنه كان ينام مع أكذوبة ، ويضاجع وهماً من الأوهام ؛ بل عجبى اليوم له ، هل تراه فيما بعد قد آمن بأنه كان يوماً بها مؤمناً ، وهل ستتكرر الخاتمة السعيدة التى انتهت إليها تلك الأسطورة القديمة ، فإن يعقوب بعد جهاد سبعة أعوام أخرى ظفر براحيل ذاتها ، وأصبح الوهم حقيقة ملموسة ، فلم تلبث الأعوام السبعة أن بدت له قصاراً كأنها بضعة أيام من فرط الحب الذى كان لها فى جوانحه .

اجنازيو سيلونى

- ١ -

استطاع عدة أشخاص منا النجاة من الاعتقال فى مساء أحد الأيام فى شهر نوفبر ، عقب صدور « القوانين الخاصة » فقد لجأنا إلى « فيللا » صغيرة فى إحدى ضواحى « ميلانو » كان قد استأجرها أحد رفاقنا من عهد قريب ، وكان رفيقنا هذا متنكراً فى صورة « نقاش » .

وكانت أحياء العمال مهجورة ، والشوارع فيها مقفرة ، والحانات صامتة أو موصدة الأبواب ، والظلام مخيما على الدور والأكواخ ؛ وهو مشهد أضفى على ذلك الوقت من العام ، كآبة غامرة ، ووجوماً أليماً .

وكان رجال الشرطة مدججين بالسلاح ، وقد راحوا يغيرون على الدور ، و « يكبسون » البيوت التى تحوم حولها الشبهات ، كأنها تحصينات للعدو ودور منيعة ، وكان عدد المعتقلين قد بلغ يومئذ حداً كبيراً ، وأخذ يزداد على الأيام ، كلما عرفت أسماء جديدة ، واكتشفت دور أخرى من نتائج هذا التفتيش المستمر ، أو تقارير الجواسيس والأرصاد ، أو اعترافات المستضعفين من المقبوض عليهم الذين لم يقووا على الوعيد بالتعذيب .

وكان كثير من هذا ونحوه يجرى فى المدائن والأقاليم الأخرى ، وكانت الصحف المعارضة قد عطلت يومئذ ، والصحف التى لا تزال موالية الصدور مضطرة إلى الامتناع عن نشر شىء من أنباء الاعتقالات ، بل مضت بالعكس تنوه بمآثر الدكتاتورية الإيطالية ، وتنشر مدائح كبار ممثلى الديموقراطية فى البلاد الأخرى وحسن تقديرهم لفضلها وجهودها .

ولكن التقارير المبنية على المعلومات التى جمعها رسل الحزب الشيوعى من ممثلينا

فى أكبر المناطق ، وبعثوا بها إلى مقر حركتنا السرية ، لم تكن تدع مجالاً للشك فى أن الدكتاتورية تنتوى القضاء على المعارضة ومحو كل أثر لها فى البلاد .

وكان الشيوعيون هم وحدهم الذين أوتوا تنظيما سريا بارعاً ، وإن كان رجال الشرطة فى عدة أقاليم يجهلون هذه الحقيقة أحياناً ، ولكنهم بهذه « الكبسات » المتوالية استطاعوا تدمير شبكة مخابراتنا وتقطيع خيوطها وأوصالها .

وجاء فريق كبير من « الرفاق » الذين نجوا من الاعتقال يطلبون منا مأوى ثابتاً فى مدينة غير مدينتهم ، وأوراقاً « مزورة » تمكنهم من الانتقال ، وتعينهم على معاودة النضال .

وأمسى الذين كانوا يعيشون منا بأسماء مستعارة حيناً من الدهر ، مخفين مظاهر نشاطنا غير المشروع تحت ستار ما ، فى مركز أفضل من غيرهم ، وإن كنا جميعاً فى خطر من أن يكتشف يوماً أمرنا، أو من أثر غفلة تبدر من أحد المعتقلين فيهتدى بها رجال الشرطة إلى مكاننا ، وتفتح لهم مغاليق أسرارنا .

فلا عجب إذا كنت فى ذلك المساء الذى أسلفت ذكره قد تلقيت فجأة نذيراً بألا أعود فيه إلى البيت ، لأن قرائن الأحوال توحى بأن الشرطة يحومون حوله .

وكنت مع آخرين فى مثل ظروفى قد وجدنا ملاذاً مؤقتاً فى تلك « الفيللا » الريفية التى يملكها ذلك « النقاش » ، فلم نلبث أن عمدنا بعد إقامة حرس حول الدار ، والتفكير فيما نحن صانعوه إذا باغتنا البوليس ، إلى قضاء الليل جلوساً على المقاعد مستسلمين لمشيئة المقادير ؛ فقد كانت الدار خالية من الأثاث ولا تحوى غير مرقد واحد ، وكان معنا بجانب النقاش « المتنكر » وامرأته رجل آخر متنكر فى زى سائح أسبانى ، وطبيب أسنان « مزيف » ، وثالث ينتحل شخصية مهندس ، وفتاة ألمانية ، وطالب ؛ وكنا قد تعارفنا منذ عامين ، وإن ظلت علاقتنا طيلة هذه الفترة مقصورة على مجرد التعاون الفنى فى مختلف نواحى الحركة السرية وفروعها ، إذ لم يتسع أمامنا الزمن ولم تسنح الفرص لنكون أصحاباً وأهل مودة ، بل كنا فى الغالب نعرف

أصولنا ونشأتنا وعشائرنا ، لما تقتضيه ظروف حياتنا خارج دائرة القانون من الإحاطة بهذه ونحوها من المعلومات .

ولست أدرى سر هذا الأثر الباقى من تلك الليلة وأحداثها فى حاضرى إلى الآن ، ولكنى أذكر أن طبيب الأسنان انثنى يقول : لقد كنت ماراً بصالة « اسكالا » أصيل اليوم فوجدت صفوفاً متراصة من الناس يرتقبون أدوارهم لشراء تذاكر لدخول الحفلة التالية، فوقفت لحظة لأنظر إليهم و بدا لى أنهم جمع من المجانين .

فانبرى السائح الأسبانى يسأله قائلاً : ولماذا تعدهم مجانين ، هل تعتقد أن سماع الموسيقى ضرب من الجنون ؟

قال : ليس سماعها كذلك فى الظروف العادية ، ولكن فى أوقات كهذه كيف يرتضى الناس لأنفسهم التسلية واللهو بسماع الموسيقى ، لا بد من أن يكونوا مجانين .

فعاد السائح الأسبانى يقول : إن الموسيقى ليست فى كل الأحوال مجرد تسلية ومحض لهو .

وأردف النقاش يقول : لو أن هؤلاء المجانين بالموسيقى شهدونا الساعة أو سمعوا بأمرنا أو علموا بعملنا ، لعدونا بدورهم فى الغالب مجانين ، إذ ليس من السهل معرفة من هم المجانين حقاً ، وهذا علم من أشد العلوم مشقة وأصعبها أمراً .

ولم يرق طبيب الأسنان هذا المجرى الذى اتخذه الحديث فأجاب بعنف قائلاً: إن المرء لا يمكن أن يجازف بحياته وحريته فى الجهاد ، كما نفعل نحن ، ثم يحاجّ و يناقش كأنه شخص فوق الجهاد وفى مرتبة أعلى من النضال .

فقال النقاش : إنك تستطيع أن تلقى بنفسك فى بهرة الجهاد ، وساحة النضال ، وتركل خصمك وتضر به كيف تشاء ، ولكن لا حاجة مطلقاً بك إلى محاجته ومناقشته ، أليس الأفضل أن يبقى المرء على رأسه لأشياء أخرى أنفع وأجدى .

وانبرى السائح الأسبانى يقول : أليس جهادنا جهاد أفكار ومبادىء ، أو ليس هذا يقتضى تشغيل رءوسنا وعقولنا ؟ ؟

وعندئذ ابتسم النقاش ومضى يقول : أى نعم ، يقتضى رأيى بالطبع وتفكيرى ، ولكنه لا ينبغى أن يقتضى منى عينى أيضاً وبصرى ، أو بعبارة أخرى إننى لأفضل أن أبقى على عينى لأشهد ما يجرى وأبصر الأشياء عياناً .

وهنا قال طبيب الأسنان : أنا لا أفهم هذا الذى تقوله ، إن المخاطرة التى تتعرض لها بإقامتك معنا لا تبدو متناسبة مع العمل القليل الذى تؤديه ...

وسادت فترة سكون محيّر ، وكنا نشهد خلالها من النافذة ثلاث سيارات ضخمة ملأى بالجنود وهى تجتاز الطريق العـام ، فجاءت ربة الدار فأغلقتها وقدمت إلينا قهوة طيبة .

وعاد السائح الأسبانى محاولاً إعادة روح « الانسجام » بين الرفاق فقال : إن جميع الطرق فى عصرنا هذا مؤدية إلى الشيوعية ، ولكن لا نستطيع جميعاً أن نكون شيوعيين بوسيلة واحدة ، أو من طريق واحد .

ومضى النقاش يقول : لقد جازفت بحياتى فى سبيل « الثورة العالمية » ، وإذا لم أجازف بعينى أيضاً ، فما ذلك إلا لكى أحتفظ لنفسى بحق رؤية ما يجرى لحياتى ومشاهدة ما سيحدث لها ، وإن كانت صاحبة لى من عهد المدرسة عمدت إلى التبتل فأصبحت « راهبة » ، ووهبت حياتها « للجنة » ، وأقصد الجنة « السموية » ، حتى لا تلتبس مع جنتنـا نحن ؛ وفى إمكانى أن أؤكد لكم أننى لن أعدل عن هذه المجازفة بالحياة ، إذ ليت شعرى لماذا أعدل ، ولست أحسب أحداً منكم متشككاً فى شرفى وذمتى .

ولكن طبيب الأسنان راح يعلق بعنف على كلمات صاحبه بقوله : ولكن الثورة العالمية ليست لعبة يغلب عليها « الحظ » .

وأجاب النقاش قائلا : إننى أعرف حق المعرفة أن الكسب فى اللعب ليس مرتهناً « بالحظ » ، ولكنه أيضاً إنما يعتمد على قوة اللاعبين وبراعتهم ، وعلى كل ما قرأنا عنه فى كتب المناهج المقررة فى مدارسنا ومعاهدنا الشيوعية ، وهذا هو سر

اشتراكى فى اللعب لا كمقامر فحسب ، بل كلاعب أيضاً ، كلاعب متوفر بكليته ، مجازف بجملة نفسه وحياته ، نعم بكليته ، عدا العينين كما قلت ...

وهنا قال طبيب الأسنان : لست فاهماً .

ولكن النقاش مضى فى حديثه يقول : إننى بالاختصار أرفض أن أسير معصوب العينين ، ولست أتردد فى القيام بأى عمل يعهد إلىّ به ، ولكن بعينين مفتحتين وبصر مكشوف .

وانثنى السائح الأسبانى يقول له : حسناً ، ولكن لا أفهم المراد ، ما دمت فى الواقع جاداً فيما أنت مغامر من أجله مجازف فى سبيله ، واسمح لى أن أسألك : ألا يجوز فى ظروف أخرى أن تجازف من أجل شىء آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف ، كالحرب مثلا ، أو ارتياد القطب الجنوبى ، أو تمريض المبروصين والمجذومين ، أو الاتجار بالرقيق الأبيض ، أو تزييف العملة ..؟؟

فاستضحك الآخر وانثنى يجيب قائلا : ولم لا ؟ . ولكن لعلى فى كل هذه الأعمال ونحوها محاول أن أظل مفتح العينين ، مجتهد أن أفهم وأدرك .

وانثنت الفتاة الألمانية تقول : إن الإنسان يولد شيوعياً ! .

ولكن النقاش عقب عليها قائلا : ولكن الإنسان يصبح « رجلاً » .

واستدار إليه طبيب الأسنان فقال : هل تستطيع أن تقول لنا ماهى الظروف التى أدت بك إلى المجازفة بحياتك من أجل الشيوعية ؟

قال بجد : هذه قصة طويلة ، واسمح لى أن أكون صريحاً فأقول لك إن فيها أشياء قد يدق فهمها عليك .

وعندئذ انبرت الفتاة الألمانية تقول له : نبئنى إذن بقصتك الطويلة غيرالمفهومة ، وسنشرب القهوة ونظل أيقاظاً ، لنصغى إلى قصتك .

فنظر النقاش إلينا مبتسماً ، وراح يسألنا قائلا: وهل تقصون أيضاًعلىّ قصصكم ؟؟

وانثنى طبيب الأسنان فقال : « موافقون » ، فلنشرب القهوة ونسهر لنسمع .

ولكن صاحبنا النقاش أنشأ يحذرنا قائلا : فكروا جدياً فى هذا الأمر قبل أن أبدأ ، لأنه قد يكون من الخطر عليكم أن تتراجعوا ، بل من الخطر على كل واحد فى حومة الجهاد ، وأنا ضمناً ، أن يبحث و يحلل الأسباب والدوافع ، ثم ينكص ويتراجع ، إذ متى بدأ اللعب فلا بد من انتهائه لأنك لا تستطيع أن تترك الرقص وأنت فى وسطه .

وعاد السائح الأسبانى يقول : ولكن أليس فى إمكان المرء أن يفصل الجهاد عن الدوافع التى أدت به إليه ، وهل من الخطر أن يذكر الإنسان نفسه بالدوافع التى أفضت به إلى الشيوعية ؟؟

وهنا قالت الفتاة الألمانية : «الليل طويل» ، فهلموانقصُص قصصنا، ونشرب القهوة ، ونظل أيقاظاً ساهرين ...

وهكذا قضينا الليلة يحاول كل منا أن يشرح لأصحابه سر اعتناقه الشيوعية وكيف اعتنقها ، ولم تكن شروحنا وافية شاملة ، ولكن لم يكد يتنفس الصبح حتى أصبحنا جميعاً صحاباً وأصدقاء ، ورحنا نقول حين تودعنا لننصرف : « حقاً إن جميع الطرق فى أيامنا هذه مؤدية إلى الشيوعية » ...

وفى العام التالى قبض على طبيب الأسنان وعُذِّب ، ولكنه أبى أن يكشف عن أسماء أصحابه والمشتركين معه وقضى فى السجن نحبه .

أما « النقاش » فقد ظل يؤدى واجباته السياسية إلى أن سقطت « الفاشية » وانتهت الحرب ، وأحسبه قد اعتزل بعدئذ الحياة العامة وأخلد إلى العيش فى بيته .

أما الفتاة الألمانية فلم يسمع أحد بها .

وقد خطرت ببالى فيما بعد تلك المكاشفات التى تبادلناها فى ذلك الاجتماع الذى حوانا ؛ وكنت يومئذ قد شعرت بضرورة فهم تطورات الحركة التى اشتركت فيها وإدراك أسرارها والموازنة بينها و بين الدوافع التى دفعتنى فى الأصل إلى المساهمة فيها ؛ وقد استبد بى هذا الإحساس وأقلق بالى أيما إقلاق .

وإذا كان لعملى الأدبى الضئيل معنى أو مراد فهو بالتحليل والدراسة لا يعدو القول بأن الكتابة أصبحت عندى فى وقت من الأوقات ضرورة ملحة ، وحاجة قصوى إلى تخليص نفسى من شعور مسيطر على خاطرى ، ولازمة مستمكنة من إحساسى ، وإلى بيان حدود انفصالى من الحزب وتعيين مراميه و بواعثه ، وإن ظل ولائى مقيماً ، وارتباطى مستمراً فى أوسع نطاق ؛ ولم تكن الكتابة عندى فى يوم من الأيام ، ولا يمكن أن تكون ، متعة روحية هادئة ، أو لذة خيالية بديعة ، اللهم إلا فى بعض اللحظات الموفقة والظروف القليلة المواتية ، ولكنها أبداً جهاد أليم ، ونضال مستمر وصراع موحش متواصل ؛ وأما المتاعب والصعاب التى أعانيها أحياناً فى محاولة التعبير عن خوالجى ، وتصوير أحاسيسى فليست ناشئة من العوز إلى مراعاة قواعد الكتابة الحسنة ، بل مرجعها إلى تشبث ضميرى بأن تحترم نزاهته ولا يستخف بكرامته ، وأن أمضى جاهداً فى تضميد جروح خفية وعلاج آلام قد تكون مستعصية ؛ إذ لا يخفى أن مجرد الإخلاص لا يكفى إذا أراد المرء أن يكون صادقاً...

— ٢ —

وفى حفلة التأسيس لإنشاء الحزب الشيوعى الإيطالى عام ١٩٢١ فى مدينة لبغورن سقت معى إليه أكثر الشباب الاشتراكين الذين كنت أنتمى إليهم منذ عام ١٩١٧ ، فانضموا اليه ، وأعلنوا ولاءهم له ؛ وكان موقفنا نحن الشباب الاشتراكين خلال أعوام الحرب موقف الناقدين المستنكرين للديموقراطية الاشتراكية « الاصلاحية » ، فلم يثر انضمامنا إلى الشيوعية أيه دهشة ، ولم يقابل بعجب .

وقد وجدتنى فى تلك الليلة التى حدثتكم عنها ، ونحن فى ميلانو خلال شهر نوفمبر نتكاشف بماضينا ، مضطراً أن أصف لأولئك الصحاب كيف انضممت وأنا فى التاسعة عشرة من العمر ، ولا أزال يومئذ طالباً فى المدرسة ، إلى اشتراكية « روس والد » ، وكيف مضيت أرجع بالذاكرة خطوة فخطوة إلى عهد الشباب وأيام الحداثة والصبا ، وكيف كان لزاماً علىّ أيضاً أن أقص أشياء عن طفولتى ، وأستكشف من

جديد أول نشأة فكرة المجتمع فى خاطرى ، تلك الفكرة التى اتخذت فيما بعد شكلا سياسياً ، وبدت لى ، وأنا محاول استرجاعها فى ذاكرتى ، أصيلة « راديكالية » صادقة ، إذ لم يكن يعقل أن ينضم فتى فى السابعة عشرة ، وإبان الحرب العالمية ، إلى حركة ثورية ، تستهدف لاضطهاد الحكومة ونقمتها ، إلا إذا كانت دوافعه وبواعثه جدية مستمكنة من نفسه . .

وقد نشأت فى إقليم جبلى بجنوب إيطاليا ، وكانت الظاهرة التى تركت أثرها فى خاطرى حين شببت عن الطوق ، هى تلك المفارقة البالغة ، الغامضة ، المنكرة ، بين الأسرة والحياة الخاصة المنظمة فى الغالب النقية من الشوائب، وبين الروابط الاجتماعية التى كانت فى أكثر الأحيان « خامة » ملأى بالكراهية والغش والخديعة ؛ وكان الناس يعرفون عدة روايات وقصص مروعة عن الشقاء الذى كان يومئذ عاما فى الولايات الجنوبية من إيطاليا ، واليأس المستولى على أهلها مما هم فيه من بأساء ومتربة ؛ وقد رويت أنا نفسى طائفة من تلك القصص فى بعض ما كتبته ، ولكنى لا أريد هنا أن أتعرض للأحداث التى أحدثت الاضطراب فيها وأدت إلى القلاقل ، بل أود أن أقتصر على وصف بعض الحوادث الصغيرة التى كانت تقع فى الحياة اليومية ، فهى وحدها التى تبين الحياة المزدوجة التى كان يحياها القوم الذين نشأت بينهم ، والتى كان مشهدى لها أحد أسباب الآلام المبرحة والعذاب النفسى الشديد الذى غمر أيام حداثتى .

كنت فى الحول الخامس، طفلا صغيراً، حين مضيت فى يوم أحد أخترق الميدان الصغير القائم فى قريتنا، مع أمى وهى تقتادنى بجانبها، ممسكة بيدى ، فشاهدت منظراً قاسياً أليماً ، منظر سيد من سادات القرية يطلق كلبه الضخم على امرأة فقيرة تشتغل « خياطة » كانت فى تلك اللحظة خارجة من الكنيسة فإذا بها تخر على الأرض ، وتصاب بأذى بالغ ، ويتمزق ثوبها إرباً ، وكان الاستياء فى القرية عاماً ، ولكنه مع ذلك بقى مكتوماً مكبوتاً ؛ ولم أفهم إلى الساعة كيف خطرت للمسكينة تلك الفكرة

المحزنة ، وهى إقامة دعوى على السيد واستعداء القضاء عليه ، فلم تكن النتيجة سوى سخرية العدالة منها ، وهى سخرية تضاف إلى الأذى الذى أصابها ، ولئن كان الناس كما قلت قد رَثَوْا لها ، وراح خلق كثير يعينونها سراً و يؤيدونها ، فلم تجد ولا شاهداً واحداً يرضى أن يدلى بأقواله فى مصلحتها أمام القاضى ، ولا محامياً يتقبل المرافعة عنها ، بينما مضى محامى السيد الغطريف ، وأحسبه من المحامين اليساريين ، يواظب على حضور الجلسات ، ولا يتخلّف عن المجىء إليها ، كما جاء شهود مرتشون عرضوا أنفسهم لسوء القالة بقصهم على أسماع القاضى رواية غريبة لما حدث ، واتهامهم المرأة بأنها هى التى استفزت الكلبَ واستنفرته ، فلم يسع القاضى، وكان رجلاً فاضلاً نزيهاً فى حياته الخاصة، إلا أن يبرئ السيد ، و يحكم على المرأة بدفع المصاريف والأتعاب ..!

وراح القاضى بعد بضعة أيام من صدور الحكم يعتذر عما حكم به ، وهو يزورنا فى دارنا ، بقوله : « لقد كان ذلك والله ضد إرادتى ، بل أؤكد لكم بشرفى أننى آسف كل الأسف ، ولكن لو أنى كنت حاضراً الحادث كإنسان عادى لما استطعت أن أمسك عن لومه ، واستنكار تصرفه ، ولكنى كقاض ملزم أن أتقيد بأقوال الشهود فى القضية ، وكانت أقوالهم للأسف فى مصلحة الكلب » .

وجعل القاضى فى زهو يقول : « إن القاضى الصحيح هو الذى يستطيع أن يخفى إحساسه الشخصى و يبعد عن التحيز ، ولا يميل مع الهوى » . ومضت أمى تقول ، إنها صناعة شنيعة ، ومهنة منكرة ، فخير لنا أن نعيش فى دارنا بنجوة من ذلك ومنأى، كما ألفت أن تقول لى : « يا بنى حين تكبر وتنمو ، كن أى شىء تريد ، إلا أن تصبح قاضياً . . » .

وأستطيع أن أذكر أحداثاً صغاراً كهذه ونحوها ، ولكن لا أحب أن يفهم أحد منها أننا كنا جهلاء لا ندرى شيئاً عن فكرة العدالة المقدسة والحق الواجب الاحترام ، أو أننا كنا ننظر إليها بعين الزراية والاحتقار ، بل بالعكس لقد كانت العدالة والحق فى المدرسة والكنيسة والحفلات العامة ، موضع تقدير و إجلال ،

بوجه عام، فى غير تخصيص حادث بذاته، أو مثل بعينه؛ وأحسبنى مضطراً لوصف أحوالنا بالدقة إلى القول بأنها كانت قائمة على خديعة كنا جميعاً حتى الأطفال منا عليمين بها، ومع ذلك ظلت قائمة لأنها مبنية على شيء لا دخل له بجهل الأفراد وغبائهم.

وأذكر مناقشة حامية جرت ذات يوم فى فرقتى بين الطلبة الذين أدركوا الحُـلُم وأوشكوا أن يصبحوا « مكلفين »، وبين قسيس « الأبرشية »، وكان موضوع البحث معرض عرائس كنا قد حضرناه مع القسيس فى اليوم السابق، وهو عبارة عن مخاطرات طفل كان الشيطان يتعقبه ويعذبه؛ وقد ظهر الطفل على المسرح فى بعض المشاهد، وهو يرعش من الخوف ويحاول فى سبيل الفرار من وجه إبليس الاختباء تحت سرير فى ركن من المسرح، ولم يلبث إبليس أن أقبل يبحث عنه ولا يجد مكمنه وإن ظل يردد قوله « ولكنه لا بد من أن يكون هنا، إننى أجد ريحه، فلأسأل هؤلاء الأخيار عنه »؛ ودار نحونا نحن النظارة وهو يقول « يا أولادى الأعزاء، هل رأيتم بالمصادفة هذا الولد الشقىّ الذى أبحث عنه مختفياً عنى فى مكان ما »، فانطلقت أصواتنا جملة واحدة، وهى تقول:

كلا .. كلا .. كلا!

قال: وأين هو إذن ؟؟

فصحنا به قائلين: لقد انصرف ... ذهب إلى لشبونه. وكانت لشبونه فى هذا الجزء الجنوبى من إيطاليا حيث نقيم لا تزال معدودة فى أقصى أطراف الأرض.

ولم يكن أحدمنا حين ذهبنا إلى الملهى يتوقع أن يسأله الشيطان، فلا عجب إذا كان سلوكنا على هذا النحو غريزياً محضاً، واعتباطاً من كل نواحيه، وأعتقد أن غيرنا من الولدان فى أية بقعة أخرى من بقاع العالم، كانوا فاعلين عين ما فعلنا.

ولكن قسيس قريتنا، وكان من أفضل الناس وخيرهم علماً وثقافة، لم يرتض عملنا مطلقاً ولم يسر له، لأننا كذبنا فيه ولم نقل صدقاً، حتى لقد ذهب يحذرنا، وهو

قلق الخاطر مغموم ، قائلا إنه لا يشك فى أننا قلنا كذباً ونحن نريد منه خيراً ، ولكنه كذب على كل حال ، ولا يصح للمرء أن يكذب .

فرحنا نسأله فى دهشة : حتى ولو على الشيطان ؟؟

قال : الكذب إثم على كل حال .

فسأله أحدنا : ولو على القاضى ؟؟

فعنفه القسيس بجفوة بالغة ، وقال : إننى هنا أعلمكم مبادئ الدين ، لا الكلام الفارغ ، وما يحدث خارج الكنيسة لا شأن لى به .

وانثنى يشرح لنا نهى الدين عن الكذب عامة ، والأمر بالصدق ، فى أبلغ منطق وأحسن تعبير .

ولكن مسألة النهى « عامة » لم تثر اهتمامنا نحن الأطفال ، فقد كنا نريد أن نعرف : هل كان ينبغى لنا أن نقول للشيطان أين اختبأ الطفل أم لا .

وجعل القسيس يردد القول وهو قلق مرتبك : « ليست هذه هى النقطة ، إن الكذب كذب على كل حال ، وقد يكون إثماً كبيراً ، أو متوسطاً أو عادياً أو صغيراً ، ولكنه ذنب على السواء ، ومن واجبنا أن نحترم الصدق ونكبره .

قلنا : إن الصدق فى هذه المسألة بالذات هو أن الشيطان كان فى جانب ، والطفل كان فى الجانب الآخر ، فأردنا أن نساعد الطفل . هذه هى الحقيقة الصادقة .

ولكن القسيس ظل يقول : ولكنكم قلتم كذباً ، وأعلم أنكم ماقلتموه إلا للخير ، ولكنه كان مع ذلك كذباً .

وأردت أن أنهى هذا النقاش ، فأبديت اعتراضاً جريئاً بالنسبة لسنى ، إذ قلت افرض أن قسيساً كان فى مكان الطفل ، أفكان من الواجب أن نقول الحقيقة للشيطان ؟؟

وعندئذ احمرّ وجه القسيس وتحاشى الجواب ، وعقاباً على قحتى عاقبنى على البقاء إلى نهاية الحصة راكعاً فوق ركبتىّ بجانبه .

ولما فرغ من الدرس انثنى يسألنى قائلاً : هل أنت آسف ؟

قلت : بالطبع ... ولو سألنى الشيطان عن عنوانك لأعطيته إياه فى الحال ..!

ولا ريب فى أن حدوث نقاش كهذا فى فصل مدرسى لم يكن مألوفاً ، وإن كانت حرية المناقشات مكفولة فى أفقنا « العائلى » وبين أصحابنا وخلطائنا، ولكن هذه الحماسة الذهنية لم تثر حركة ولا أحدثت اضطراباً فى أفق حياتنا الاجتماعية الراكدة البدائية المهينة ...

- ٣ -

وكان هذا النظام الذى يدعونه « ديموقراطياً » قد أدخل من قبل ذلك العهد الذى أتحدث عنه تفاصيل ودقائق فنية جديدة على العلاقات بين المواطن والدولة ، وهو « التصويت السرى » فى الانتخابات لأنه أحياناً ، وعلى الرغم من أنه لم يكن فى ذاته كافياً لإحداث تغيير أساسى، قدأدى إلى نتائج مدهشة ، بل فاضحة، إذا نحن نظرنا إليها من ناحية النظام العام؛ ولئن كانت حوادث الانتخابات قليلة وفى ظروف وأوقات متباعدة ، ولم تكن لها معقبات عاجلة ، فلا تزال أليمة مزعجة .

فقد كنت فى السابعة حين جرت فى إقليمنا أول حملة انتخابية تعيها الذاكرة ، ولم تكن لدينا فى ذلك العهد أحزاب سياسية ، فلا غرو إذا لم يحدث إعلان ابتدائها اهتماماً كبيراً . ولكن لم يلبث الشعور العـــام أن ارتفع مدُّه حين علم القوم أن «البرنس» سيكون من بين المرشحين . ولم تكن ثمة حاجة إلى إضافة الاسم أواللقب لمعرفة من يكون هذا « البرنس » الذى سيتقدم إلى المعركة الانتخابية ؛ فقد كان رب الضيعة الكبرى التى انحدرت إليه من وضع أجداده أيديهم على مساحات واسعة من الأراضى المستصلحة فى القرن الماضى ، والحقول المترامية على ضفاف بحيرة «فوكينو» ، ولا تزال قرابة ثمانية آلاف أسرة أو على الأصح أغلبية السكان ، فى خدمة الأمير إلى اليوم وفلاحة أراضيه التى تبلغ مساحتها أربعة عشر ألف هكتار .

وهكذا تنزل الأمير من عليائه ليطلب إلى الفلاحين أصواتهم حتى يكون « نائبهم » فى البرلمان !

ولم يلبث رجاله فى المزرعة وصنائعه أن انثنوا يقولون للناس فى صراحة وسماحة، بالطبع : لن يرغم أحد على إعطاء صوته للأمير ، و بالطبع أيضاً ليكن مفهوماً أن أحداً لن يرغم الأمير على قبول الذين لا يعطونه أصواته فى العمل بأراضيه . نحن اليوم نعيش فى عهد الحرية الحقيقية المكفولة للجميع ... أنتم أحرار . والأمير أيضاً حر ...

ولكن إذاعة هذه المبادئ « الحرة » أحدثت ذهولا عاماً بين معاشر الفلاحين وقلقاً بالغاً . فقد كان الأمير أبغض مخلوق إلى نفوسهم فى البلد كله ، كما هو طبيعى ومفهوم ، وكان كرههم له ظاهراً ما دام القائم على ربوة عليائه ، وذروة إمارته ، كبعض الملاك العظام وأرباب الضياع الدهاقين ، وما دام أحد من أولئك الزراع لم يره إلى ذلك الحين ، ولم يشهده فى يوم من الأيام .

وكانت اللعنات تتوجه إليه فى غيابه ، وهى لعنات لا تجدى ، ولكنها ترضى ، وتشفى النفوس من الغل والحقد الدفين .

ولكن ها هو ذا يتنزل من سمائه ، و يبدد السحب التى كانت تحجبه ، و ينحدر إلى الآدميين . و يهبط إلى مخلوقات الله ، فلا معدى إذن لهم بعد الآن من قصر التعبير عن شعور البغض والكره له على مجالسهم الخاصة وأحاديثهم ، والتأهب للترحيب به واستقباله بمظاهر الحفاوة والتكريم فى الشوارع والدروب إذا تقدم ليطوف بين الناخبين !.

وكان أبى يبدو متأبياً على هذا النوع من المنطق ، كارهاً لهذا المظهر من السلوك ، وكان أصغر أخوته ، وهم جميعاً من صغار المالكين والمستأجرين ، ولكنه رفض الخنوع ، وأبى أن يتطامن إلى الاذعان والإمتثال .

ففى ذات مساء جاء أخوته الكبار يلحون عليه فى سبيل المصلحة المشتركة أن يأخذ الأمر بالحكمة والسداد والأناة :

وكان ذلك المساء بالنسبة لى مليئاً بأكبر العبر والدروس والعظات وإن لم يبد أحدهم اهتماماً بى ، لأن الكبار يحسبون أن الصغار لا يفهمون هذه الأشياء ، ولا يدركون هذه المسائل والأمور .

وقد سمعت الأخ الأكبر يقول لأبى فى معرض النصح والتحذير إن ترشيح الأمير نفسه مهزلة بلاشك وكلام فارغ ، لأن الانتخابات السياسية ينبغى أن تقتصر على المحامين وغيرهم من الكبراء ، ولكن مادام الأمير قد رشح نفسه لها ، فما علينا إلا أن نؤيد هذا الترشيح .

وأجاب أبى قائلا : إذا كان ترشيح الأمير مهزلة ، فلست أفهم لماذا نؤيده .

فقال أخوه الأكبر : لأننا كما تعلم أجراؤه وتابعوه .

وأجاب أبى بقوله : نعم ، ولكنا ليس كذلك فى السياسة ، نحن فيها أحرار .

فأجابه إخوته قائلين : نحن لا نزرع سياسة ، بل نزرع الأرض ، ونحن كزراع أو كُـكَّال عليه .

قال : ليس فى عقود الإيجار شىء ينص على السياسة ، وإنما تنص العقود على زراعة بطاطس وبنجر وغيرها ، فنحن إذن أحرار كناخبين . .

قالوا : وسيكون وكيل الدائرة هو الآخر حراً فى ألا يجدد هذه العقود ، أى أننا مضطرون إلى الوقوف بجانبه .

قال : لا يمكننى أن أعطى صوتى لإنسان لمجرد أننى مكره على إعطائه له ، بل أشعر بإذلال .

قالوا : لن يعلم أحد شيئاً عن تصويتك ، فإن إعطاء الأصوات يجرى بطريقة « سرية » فى الصناديق ، وفى استطاعتك أن تكون حراً كما تشاء ، ولكن فى أثناء الحملات الانتخابية يتحتم علينا أن نكون جميعاً فى صفوف مؤيديه .

قالى : كان يسرنى أن أفعل لولا أننى أستحيي منه . صدقونى إننى من أمر كهذا شديد الحياء والاستنكاف .

وحاول أعمامى تسوية الخلاف مع أخيهم بشىء من التوفيق بين الرأيين فتم الاتفاق على ألا يقف أبى فى صف الأمير ، ولا فى صفوف منافسيه .

واشترك فى إعداد العدة لطواف الأمير بأرجاء دائرته الانتخابية كل من السلطات المدنية ورجال البوليس والشرطة المسلحين بالقرابينات « الخفر » وعمال دائرة سموه وموظفيه .

وتفضّل الأمير فى يوم واحد وتعطف بالمرور على القرى الكبيرة فى دائرته ، دون أن يقف لحظة بها أو يلقى خطباً انتخابية .

وقد ظلت ذكرى هذه الزيارة ماثلة فى أذهان أهل بلدنا فترة طويلة من الدهر ، لأنه جاء فى سيارة ، وكانت تلك هى المرة الأولى التى شهد فيها القوم السيارات ، بل إن كلمة « سيارة » ذاتها لم تكن قد وجدت بعد مكاناً لها فى لغتهم اليومية ودارج كلامهم ، حتى لقد راح الفلاحون يدعونها « مركبة بلا جواد » وشاعت فى مجالسهم حكايات وحركات عن القوة المحركة « الخفيّة » التى حلت فيها محل الخيل ، والسرعة الشيطانية التى تستطيع أن تصل إليها ، والأثر المدمر الذى تحدثه بالرائحة المتخلفة عنها فى مزارع الكروم وعرائشه .

وقد خرج الناس عن بكرة أبيهم فى ذلك اليوم للقاء الأمير على الطريق الذى سيمر منه موكبه ، وظهرت بوادر عدة على إعجاب القرويين به ، وحبهم له ...

لقد ارتدوا أحسن ما عندهم من ثياب ، وكانوا فى حماسة ظاهرة لا يخفى أمرها على اللبيب ، ووصلت « المركبة الخالية من الجواد » متأخرة ، واخترقت صفوف الحشود المتراصة صافرة مدوية زائرة ولم تقف ، بل لم تتئد فى مسيرها ، تاركة فى أثرها سحابة كثيفة بيضاء من الدخان .

وأقبل عمال الدائرة يشرحون لمن يريدون بياناً قائلين إن هذه المركبة بلا جواد إنما تسير بالبخار الذى يحدثه « البنزين » فلا تقف إلا حين ينفدُ هذا الزيت منها ،

فهى ليست كالخيل كل مايحتاج المرء إليه لوقفها عن المسير لا يتجاوز شد اللجم ، إذ ليست لها أعنة . فهل رأيتم لها بالله عليكم عناناً أو لجاماً ... ؟!

و بعد يومين وصل من روما شيخ قصير القامة يضع منظاراً على عينيه ، و يمسك بعصا سوداء اللون وحقيبة ثياب صغيرة ، ولم يكن أحد من القوم يعرفه ، فقال إنه « طبيب عيون » و إنه مرشح نفسه للنيابة عن الدائرة إزاء الأمير ، فالتف به جمع قليل من الناس فضولاً ولهفة على معرفة خبره ، وكان أكثرهم من النساء والصبيان ، الذين لا حق لهم فى الانتخاب ، وكنتُ بين الصبيان الذين أحاطوا به وقد بدوت فى « بنطلونى » القصير متأبطاً كتب المدرسة .

وطلبنا إلى الشيخ أن يخطب فينا .

قال : ذكروا آباءكم أن التصويت سيكون «سرياً» هذا هو كل ما أقوله لكم .

وانثنى بعد ذلك يقول : « إننى رجل فقير ، أرتزق من طب العيون فإن كان أحدكم يشكو أذى من عينيه عالجته بلا مقابل » .

فسقنا إليه امرأة عجوزاً تبيع الخُضَر وتشكو من ألم فى عينيها فمسحهماوأعطاها « قارورة » صغيرة لتقطر قطرات منها فيهما وشرح لها طريقة الاستعمال ، وأنشأ يقول لنا ، وكنا جمعاً من الغلمان : ذكروا أهلكم بأن إعطاء الصوت سيكون « سرياً » . وانصرف .

ولكن فوز الأمير فى الانتخاب كان مؤكداً بدليل الحشود الحاشدة التى رحبت به فى طوفته الانتخابية ، حتى لقد راح رجال الإدارة وموظفو الدائرة يعلنون مقدماً البرامج الموضوعة للاحتفالات القادمة بفوزه المنتظر ونصره المؤكد .

أما أبى فقد نفذ الاتفاق الذى تم بينه وبين إخوته فلم يؤيد أحداً من المرشحين المتنافسين ، و إنما عمل على أن يتم تعيينه عضواً فى لجنة فرز الصناديق .

وما كان أشد دهشة الناس ، وأكبر ذهلتهم ، حين تبين أن أغلبية كبيرة من

الناخبين أعطت أصواتها لذلك الطبيب الخامل المجهول ولم تعطها لصاحب السمو الأمير الخطير ، اعتماداً على سرية الانتخاب .

لقد كانت النتيجة فضيحة بالغة ، وإن كانت « الإدارة » قد سمتها « خيانة منكرة » .

ولكن هذه « الخيانة » كانت عامة فلم يستطع موظفو زراعات الأمير أن ينتقموا من أحد بالذات .

وعادت الحياة فى القرية بعد ذلك سيرتها الأولى ، ولم يسائل أحد نفسه ، لماذا تبدو إرادة الشعب هكذا على فترات متقطعة ؟؟ وما ضرها لو أنها بدت ثابتة مستقرة حتى يتم تنظيم الحياة العامة ويتوالى تهذيبها و بناء كيانها من جديد ؟؟

ولكن لايحسبن أحد عند تعليل هذه الحادثة التى سردتها أن العائق الأكبر فى هذا السبيل هو « الخوف » ، فإن قومنا لم يعرفوا الخوف يوماً فى حياتهم ولا كانوا الهيابين المنزوين ، بل بالعكس لقد أحالتهم قسوة المناخ ، ووطأة الكدح ، وشدة التنازع على البقاء ، والصراع على الرزق ، من أكثر الناس جلداً وأشدهم مراساً ، وأقواهم شكيمة و بأساً ، فى كل إيطاليا ور بوعها المختلفة ، حتى لتجدن فى تاريخ إقليمنا أحداث الثورات العنيفة المدمرة الوحشية على قصر آجالها ، أكثر تردداً فيه من حوادث الانتخابات والمفاجآت السياسية فى نتائجها النهائية ، وقد يستطيع هؤلاء القوم الممتهنون الذين يُداسُون بالأقدام أن يتحملوا أشد المحن والمساءات بلا ضجر ولا شكاة ، ولكنهم قد ينفجرون يوماً و يثورون ثورة عارمة فى أوقات غير مرتقبة وظروف فجائية لم يكن أحد يحسب لها أقل حساب .

وكان فى قريتنا على العهد الذى أتحدث اليوم عنه قرابة خمسة آلاف نفس ، ويتولى أمر النظام فيها نحو عشرين جندياً بقيادة «ملازم» ، و يكفى هذا العدد الكبير من رجال الحفظ فى قرية صغيرة للدلالة على المعنى المنطوى عليه ، ولم يكن ثمة تعاطف

بين جنود الجيش ورجال الحفظ خلال الحرب العالمية الأولى، لأن هؤلاء كانوا يعملون فى المناطق الخلفية وراء الجيش والقوات المحاربة ، ويقال إن بعضهم كان يتدخل كثيراً فى أمر زوجات الجنود المحاربين فى الجبهة وشئونهم المالية . والمألوف فى القرى والدساكر أن تعطى الإشاعات التى من هذا القبيل أهمية بالغة ، وتضرب عليها الأمثلة الخاصة ، والقرائن الشخصية ، فقد حدث فى ذات مساء أن وقع شجار بين ثلاثة جنود من الجيش كانوا عائدين أخيراً من الجبهة و بين بعض رجال الحفظ ، فلم يكن من هؤلاء إلا أن قبضوا عليهم واستاقوهم إلى المخفر .

وكان هذا الإجراء سخيفاً من البداية وأنفى ما يكون للرجولة والكرامة ، ولكنه لم يلبث أن انتهى بتصرف أسوأ و إجراء أسخف ، إذ عمد الضابط قائد الدرك إلى إلغاء إجازات الجنود الثلاثة و إعادتهم إلى الجبهة .

وكنت صديقاً حميماً لأحدهم ، وقد استشهد فيما بعد فى المعارك ، فجاءتنى أمه تنتحب وأنبأتنى الخبر ، فتوسلت إلى العمدة والقاضى ، والقسيس ، أن يتوسطوا فى الأمر فكان جوابهم جميعاً أنه خارج عن دائرة اختصاصهم .

وعندئذ لم يسعنى إلا أن أقول لهم : إذا كان الأمر كذلك فلا سبيل أمامنا غير « الثورة » !

وكنا قد ألفنا أن نفوه بهذه الكلمة البغيضة فى أحاديثنا إذا أردنا أن نصف مظاهرة صاخبة لا أكثر ولا أقل ؛ فقد حدثت « ثورتان » من هذا القبيل فى قريتنا خلال أعوام الحرب ، فكانت الأولى منها ضد المجلس القروى بسبب جراية الخبز ، وكانت الأخرى ضد الكنيسة لنقل مركز الأسقفية إلى بلد آخر .

أما الثالثة التى سأورد الآن قصتها ، فقد انحدرت مع التاريخ باعتبارها « ثورة » من أجل أولئك الجنود الثلاثة ، فقد تقرر أن يتولى حرس مسلح مرافقتهم إلى القطار فى الساعة الخامسة مساء ، ولهذا أعدت العدة للقيام « بالثورة » قبل هذا الموعد بنصف

ساعة ، وتم الاتفاق على أن تكون أمام « الشكنات » ، ومن الأسف أنها اتخذت دوراً أكثر جدية مما كان فى الحسبان .

فقد بدأت مزاحا ، وكنا ثلاثة غلمان البادئين بها .

وفى اللحظة المتفق عليها ذهب أحدنا إلى برج الناقوس وراح يدقه دقات متواصلة وهى الإشارة المعروفة فى البلد بأنها إيذان بحريق كبير أو خطر داهم ، وأما الآخران فقد انطلقا يستقبلان الفلاحين المقبلين لينبئاهم بجلية الخبر .

وكان القرويون قد سمعوا قرع الناقوس على هـــذا النحو ففزعوا من رنينه ، ووقفوا عن العمل فى الحقول وانطلقوا سراعاً إلى القرية مروّعين ، ولم تمض لحظات حتى اجتمع حشد صاخب منهم أمام «الشكنة» ، وراحوا يسبون ويشتمون ويرشقون الجنود بالأحجار ، وما لبثت النيران أن أطلقت فى الفضاء ، وظل القوم محاصرين الشكنة إلى ساعة متأخرة من الليل ، وقد اشتد هياج القرويين وتناهى بهم الحنق ، فأقبلوا يهجمون على المعسكر ويحطمون منه النوافذ والأبواب ، ويقتحمون المكان اقتحاما ، وإذا بالجنود يلتمسون الفرار إلى الحقول تحت جنح الظلام .

وأما الجنود الثلاثة فقد نسى القوم أمرهم كل النسيان فلم يلبثوا أن تسللوا إلى بيوتهم دون أن يشعر بهم أحد .

وهكذا وجدنا نحن الغلمان أنفسنا سادة الموقف ليلة كاملة .

وانثنى الغلامان الآخران يسألاننى قائلين « والآن ماذا نحن فاعلون ..؟؟ » وكان نفوذى فيهما يرجع إلى معرفتى « اللاتينية » دونهما .

قلت : إن القرية ستحتل فى الصباح بمئات من الجنود المسلحين ورجال الشرطة والدرك القادمين من « أفيزانو » وسلمونا وأكويلا ، وربما من «درنة » أيضاً .

فعادا يسألان قائلين : وماذا سنفعل نحن الليلة قبل قدومهم ؟ .

قلت وأنا أحزر ما فى خاطرهما : إن ليلة واحدة بالطبع لا تكفى لإقامة نظام جديد فى القرية .

قالا : ألا نستطيع أن نستغل الموقف ، وننتفع بذهاب القوم إلى المراقد ، فننادى بالاشتراكية ونقيمها فعلا .

ولعلهما كانا لا يزالان متحمسين هائجين من الصخب الذى حدث فى المساء ، أو لعلهما كانا فعلا يعتقدان أن فى الإمكان إحداث حدث ما فى تلك الليلة بالذات ، وإن لم يصارح أحدهما بذلك ولا اقترحه .

وقال أحدهما أخيراً : لا أظن فى استطاعة أحد أن يفعل شيئاً كهذا فى ليلة واحدة، حتى وإن كانت القرية فى النوم غارقة ، ولكن الشىء الوحيد الميسور هو أن ننام فى فراشنا الليلة قبل أن نذهب إلى السجن .

وكنا مكدودين متعبين ، فرأينا هذه النصيحة معقولة ومقبولة فعملنا بها ..

وكان تكرار حوادث العنف المماثلة لهذا الحادث وما يعقبها حتما من اعتقالات ومحاكمات وأتعاب قانونية وأحكام بالسجن — من شأنه أن يزيد الفلاحين ريبة وتشككا واستهزاء بالسلطات ، وكراهية للادارة ورجالها فلم تلبث « الدولة » أن أصبحت فى نظرهم شراً مستطيرا، وداء لا دواء له ، وجعل كل فرد طيب يريد النجاة بجلده يتجنب ما استطاع الاتصال بالدولة ، أو الاحتكاك بها ؛ بل أصبحت الدولة علماً على الغش والنصب والظلم والاحتساب ، فلا سبيل إلى تغييرها ، لا بالقوة ولا بالقانون ، فإذا نالها يوما شىء من القصاص أو الانتقام ، فما ذلك إلا تدبير من الله ورحمة من لدنه .

— ٤ —

وحدث فى عام ١٩١٥ زلزال عنيف لا مثيل له فى عنفه فدمر شطراً كبيراً من إقليمنا وقتل فى ثلاثين ثانية قرابة خمسين ألفاً .

وقد عجبت لقومى كيف تقبلوا هذه الكارثة المروّعة بهدوء كأنها حادث مألوف ومضوا ينظرون إلى تعليلات علماء طبقات الأرض له ، وتفسيراتهم المعقدة فى الصحف

السيارة بعين الاستخفاف والاحتقار ، فقد ألف الناس فى إقليم كاقليمنا حيث تبقى المظالم المتعددة بغير عقاب ، أن يعدوا الزلازل المتكررة مجرد ظواهر طبيعية لا تحتاج إلى تعليل ، بل لقد كان عجبهم ألا يقع منها الكثير ، ولا تتوالى منها الكوارث ، ففى الزلازل يهلك الأغنياء والفقراء والعلماء والجهلاء والحكام والمحكومون على السواء وهنا أيضاً سر جلد الإيطاليين المعروف حين تواجههم نكبات الطبيعة ومحنها ، وعلة قوة احتمالهم للمصائب والقوارع والخطوب .

ولا يخفى أن الزلزال يحقق مايقول به القانون ولا ينفذه فعلا ، ونعنى به « المساواة العامة بين الناس » .

وحدث أن عجوزاً من جيراننا لبثت دفينة تحت الأنقاض فى دارها ، وكانت ربة « مخبز » عدة أيام ، ولم يكن قد أصابها من الزلزال سوء ، وإن دمر الدار تدميراً ، لأنها لم تدرك أن المصاب عام ، وإنما ظنت أن بيتها وحده هو الذى تداعى ، إما من عيب فى بنائه ، أو لعنة دعا بها داع عليها ، فكان ذهولها بالغاً ، حين جاء جماعة من المنقذين لإخراجها من بين الأنقاض ، حتى لقد رفضت الخروج بتاتاً وأصرت على البقاء ، ولكنها لم تن أن هدأت ، وثابت إليها قوتها ورغبتها فى الحياة وإصلاح البيت بعد تداعيه ، عندما قيل لها إن زلزالا قد وقع وإن عدة بيوت وأكواخ قد تداعت كما تداعى بيتها .

وقد بدا لقومنا الفقراء فى هذه البقعة من العالم أن مصاب الزلزال كان أهون من المصاب الذى وقع بعده ، فإن البرنامج الذى وضعته الحكومة لاعادة القرية اقترن من بداية التنفيذ بدسائس لا تحصى وسرقات واختلاسات واحتيالات لا تعد ، وصاحبه من الغش والنصب ما صاحبه .

وجاءنى أحد معارفى وكانت إحدى المصالح الحكومية قد فصلته من العمل يشرح لى أموراً ومسائل كثيرة عن تصرفات جنائية كان كبار المهندسين فى المصلحة يأتونها .

فلم أعجب مما سمعت ، ولكنى تأثرت ، فبادرت بنقلها إلى بعض أهل النفوذ ممن كنت أعرف عنهم النزاهة والاستقامة حتى يستطيعوا التشهير بأولئك الجناة .

ولكن أصحابى الموقرين أكدوا لى صحتها ، ولم يحاولوا إنكارها ، وإنما راحوا ينصحون لى بألا « أحشر نفسى فيها ، وألا أتدخل فى هذه الأمور ونحوها » قائلين بلهجة الإشفاق إنك لا تزال شاباً فى مقتبل العمر ، ولا بد لك من إتمام دراستك ، وأمامك مستقبلك تحرص عليه ، فلا تشغل إذن نفسك بما لا يعنيك ...

وقلت : من الخير بلاشك أن يأتى التشهير بهم من قوم كبار مثلكم أهل نفوذ ، لا من شاب مثلى فى السابعة عشرة .

فما كادوا يسمعون هذا القول حتى بهتوا وراحوا يقولون « إننا لسنا مجانين ، مالنا ولهذا ، نحن فى حالنا ، فلا ندخل فيما لا يعنينا » .

فذهبت إلى بعض القساوسة المحترمين وحدثتهم بالخبر ، كما أفضيت به إلى بعض الأفراد الذين عرفت فيهم الشجاعة والإقدام .

فكانوا جميعاً يعترفون بأنهم بتلك التصرفات المعيبة عارفون ، ولكنهم يرجون منى ألا أضع إصبعى فى الشق ، بل ينبغى أن ألتفت إلى دراستى وأنتبه إلى نفسى وأحرص على مستقبلى .

قلت : بكل سرور ، ولكن أليس فيكم رجل يرتضى فضح أولئك اللصوص .

فكان جوابهم فى سخرية « لسنا مجانين ، إن هذه المسائل وأشكالها ليس لنا شأن بها » .

وعندئذ مضيت من عجب أسائل نفسى : أليس من الخير حقاً أن أتولى بمعاونة فريق من الغلمان والشباب تنظيم ثورة جديدة تنتهى بحريق رهيب يأتى على مكاتب أولئك المهندسين الفاسدين المرتشين ، لولا أن ذلك الصديق الذى نبأنى بتفاصيل تصرفاتهم ذهب يقول لى إن إشعال حريق فى مكاتبهم من شأنه أن يذهب بالأدلة عليها والبينات .

وكان الرجل أكبر سناً وأكثر تجربة ، فاقترح علىّ أن أسعى فى نشر فضائحهم فى بعض الصحف السيارة .

قلت : وأية صحف تحسبها ترتضى النشر ؟

قال : إن هناك صحيفة واحدة قد يهمها نشر هذه الفضيحة، وأعنى بها الصحيفة « الاشتراكية » .

وعندئذ عكفت على كتابة ثلاث مقالات ، هى أول ما كتبت فى حياتى ، وقد ضمنتها تفاصيل تصرفات مهندسى الدولة فى إقليمنا و بعثت بها إلى جريدة « أفانتى » و إذا بها تنشر المقالين الأولين منها فى الحال ، ولم يكد القراء يطالعونها حتى بدا الاهتمام بالأمر بالغاً . ولكن لم يحدثا أثراً ما فى الأوساط الحكومية .

ولم يظهر المقال الثالث ، وعلمت فيما بعد أن اشتراكياً كبيراً توسط لدى هيئة التحرير .

وتبين لى أن شبكة الغش والخداع والاحتيال أوسع مدى مما بدت لى أول مرة وأن الفساد المتصل بها قد امتد إلى « الاشتراكية » ذاتها ، و إن كانت الفضيحة الجزئية التى ظهرت فجأة فى الصحف كافية لرفع عدد من القضايا أو تأليف « لجنة تحقيق » .

ولكن شيئاً من هذا أو نحوه لم يحدث .

ولم يحاول المهندسون الذين قلت عنهم إنهم لصوص ومختلسون ، وقذفتهم بتهم معينة ، أن يبرئوا أنفسهم مما اتهموا به علانية ، أو يصدروا تكذيبا عاماً .

ومضت فترة ارتقاب لما عسى أن يفعلوه ، و إذا بالقوم يعاودون أعمالهم كأن لم يحدث شىء ..

وقد عد الأبرار والراغبون فى الخير ، هذا الطالب الذى أقدم على هذا التحدى الجرىء فتى قوياً شجاعاً .

ولا يصح أن ننسى أن الفاقة الضاربة أطنابها فى الأقاليم الجنوبية من إيطاليا لا تدع مجالا فسيحاً للعمل أمام الشباب الذين تخرجهم المدارس ألوفاً فى كل عام، فلا عجب إذا كان كل همّ الشباب الظفر بعمل فى الحكومة، ولا يخفى أن وظائفها لا تحتاج إلى قسط غير مألوف من الذكاء، وإنما كل ما تطلبه الخنوع والاستخذاء ومجاراة السياسة القائمة؛ فلا عجب إذا رأينا فتيان الجنوب الذين نشأوا فى الجو الذى وصفته لكم ينزعون بطبيعة الحال، إذا هم أوتوا ولو نصيباً يسيراً من الشعور بآلام البشرية ومظالمها، إلى التمرد والثورة والفوضى. وأما الذين لا يزالون على أبواب الشباب فهم يعدون الانخراط فى سلك الوظائف الحكومية استسلاماً وخضوعاً وامتهاناً لعقولهم وإزراء بأرواحهم. وهذا هو الذى جعل الناس يقولون « فوضويون فى العشرين ومحافظون فى الثلاثين ».

ولا تنس أيضاً أن التعليم الذى يلقن فى المعاهد العامة والخاصة منها على السواء لا يتوخى تقوية الأخلاق وغرس مكارمها فى النفوس.

وقد قضيت الأعوام الأخيرة من عهد الدراسة والطلب فى معاهد كاثوليكية خاصة، وكان تعليم اليونانية واللاتينية فيها على أحسنه، ورياضة الشباب على حسن الأخلاق وكريم العادات والخلال سهلة صريحة واضحة، ولكن تعليم الحقوق الوطنية والتدريب على ممارستها كان مزرياً إلى حد يؤسف له، وكان معلمو التاريخ لدينا ينقدون صراحة الآراء والنظريات الرسمية، وكان تاريخ النهضة وأبطالها أمثال مازينى وجاريبالدى وفيكتور عمانويل الثانى وكافور موضع سخرية وانتقاص، كما كان أدباء العصر من نحو كاردوتشى ودانونزيو محل امتهان وإزراء.

ولم تكن هذه الطريقة فى التعليم تخلو من فوائد، لأنها تروض أذهان الشباب على روح النقد وصناعته ودقائقه، ولكن معلمينا الدينيين كانوا يريدون أن يعدونا للامتحانات الحكومية، وكانت شهرة مدارسهم ونجاحها قائمين على حسن نتائجها،

فلا عجب إذا هم راحوا يعلموننا أيضاً و يوصوننا بأن نكتب فى الامتحانات عكس ما كانوا يلقنونه لنا ، ونقيض ما كانوا بالأمس يحاولون إقناعنا به .

ولـكن الممتحنين الموفدين من قبل وزارة المعارف لاختبارنا شفويا ، والعارفين بأننا قادمون من هذه المعاهد الخاصة ، كان يروقهم أن يوجهوا إلينا أسئلة فى الموضوعات الجدلية ثم يمتدحون بتهكم الطريقـة الحرة التى تتبع فى تعليمنا ؛ فكان الـكذب والنفاق والرياء فى هذا كله ونحوه من الوضوح بحيث يؤثر أسوأ الأثر فى نفس كل فتى أوتى بالسليقة والفطرة أقل نصيب من احترام الثقافة وتقديرها ؛ ولـكن لم يكن ثمة مفر مع ذلك من أن ينتهى الطالب فى الأغلب الأعم إلى اعتبار الشهادات والوظائف التى سيظفر بها بعد التخرج ، أسمى حقائق الحياة وأعلاها ذروة ...

وقد ألف الدكتور ف . ج ، وهو طبيب فى قرية مجاورة لقريتنـا ، أن يقول إن الذين ولدوا فى هذا الإقليم تعساء حقاً وعاثرو الحظوظ ، فليس أمامهم شىء وسط ، فإما أن يتمردوا و يثوروا ، و إما أن يصبحوا فى الجريمة شركاء .

وقد تمرد هو وأعلن أنه يدين بالمبادىء الفوضوية ، ومضى يلقى خطباً « تولستويـة » على الفلاحين ، ولـكنه لم يلبث أن أصبح ضُحـكة الإقليم كله ، فقد تبرم به الأغنياء ، واحتقره الفقراء ، ولم يكن يشفق عليه سراً إلا قليل .

وانتهى الأمر بفصله ، وقضى نحبه ... جائعاً ساغباً ...!

— ٥ —

و إننى لأشعر بأن هذا الذى مضيت أقصه على الناس فى هذه الصفحات يبدو من الإيجاز بحيث يدنو من حدود الاختصار ، ويلوح تكلفاً شاقاً ، ومجرد إجهاد ، فإن عرضت له اليوم فلست أريد أن أنفيــه ، ولا أبغى أن أقسم على صدق ما جاء فيـه ، لأن كل ما يمكننى أن أقوله هو أننى أضمن إخلاصى فى سرده ، ولا أضمن نزاهته وموضوعيته ، و إنى أحياناً لأعجب وأدهش كلما عـدت بالذاكرة إلى

ذلك العهد البعيد حتى ليكاد يلوح قبل التاريخ ، عهد العيش الذى تقاسمته ومعاصرىّ وأهل بلدى ، كيف أصبحوا لا يذكرون منه شيئاً ، أو إذا ذكروا منه فلا يتجاوز ذكرهم إلا النزر اليسير ، من خلال سحب النسيان وغمائم الغموض ، بينما أراهم يذكرون ظروفاً لا أهمية لها ، ولا تنطوى على أية دلالة أو خطر ، فهل كان هؤلاء المقاصرون إذن « شركاء » فى الجريمة ، وهم لا يشعرون ... ؟؟

وكثيراً ما أسأل نفسى بأى قَدَر أو فضيلة يأتى على المرء حين من الدهر يختار فيه بين أن يكون مشتركاً فى الجريمة أو يكون متمرداً ثائراً ؟؟ . ومن أين لبعض الناس هذا الذى أوتوه من الأنفة وإباء الضيم والسخط على المظالم ، حتى وإن وقعت للغير وأصابت الآخرين ، بل من أين لهم ذلك الإحساس الفجائى بالإثم إذا هم يوماً جلسوا إلى مائدة حافلة بأطايب الطعام بينما غيرهم يكادون يهلكون جوعاً ، وأين لهم ذلك الرضى بالفقر وإيثار السجن على المهانة والخنوع ... ؟؟

لست أدرى ، ولا أحسب أحداً يدرى ، فإن أكمل الاعترافات وأبلغها قد تصبح عند نقطة معينة مجرد إيراد للوقائع ، ولا تكون جواباً ، وكل من فكر يوماً فى أمر نفسه أو أمور سواه ، لابد قد أدرك كيف تروح بعض القرارات سرداً عميقاً ، وكيف تصبح بعض الأقوال غريبة كل الغرابة ، مجهولة الأسباب والعلل والمؤثرات .

وكانت فى ثورتى النفسية وتمردى نقطة يتلاقى عندها الكره والحب ، أو نشأة الوقائع التى بررت غضبى وسخطى ، والدوافع التى أثارتهما ، والبواعث التى حفزتهما ، من ظروف الإقليم ذاته الذى ولدت فيه . ولعل هذا هو أيضاً السر فى أن كل ما اتفق لى من قبل أن أكتبه ـ ومن يدرى لعل كل ما سأكتبه ـ متصل مباشرة بذلك الإقليم ، أو على الأصح بذلك الجزء منه الذى يمكن أن يشاهد من مسقط رأسى . وهى مسافة لا تتجاوز ثلاثين أو أربعين كيلو متراً عن كلا الجانبين ، رغم كثرة أسفارى ، وطول مقامى فى الخارج . فهو إقليم كبقية ولاية « ابروزى » بجملتها ، فقير فى تاريخه ، ويكاد يكون بأسره مسيحياً فى تكوينه ، ومتخلفاً من عهد القرون

الوسطى فى نشأته . فليس فيه من أبنية تستحق الذكر غير الكنائس والأديرة . ولم ينبغ من أهله عبر عديد القرون والأجيال إلا القديسون والمثالون والنحاتون فى الصخر . وما برحت ظروف العيش فيه على الدهر قاسية شاقة ، وكان الألم طيلة الزمان مقبولا عند أهله كأول ناموس من نواميس الطبيعة ، فلا غرو إذا هم رحبوا « بالصليب » وأجلوه وأكبروه ، لأنه رمزه و إشارته؛ وأصبحت «الفرنسيسكانية» والمذهب الفوضوى على مر السنين المظهرين الغالبين على غيرهما من مظاهر التمرد والثورة من جانب النفوس الحية المتحمسة الشفافة فى هذه البقعة من الدنيا . ولم يستطع الدخان المتصاعد من رماد «التشكك» أن يخنق يوماً فى قلوب المعذبين ، والكادحين ، والناقمين ، الأمل القديم فى ملكوت الرب على الأرض وقيام الخير مقام القانون ، ذلك الحلم القديم الذى كان يتراءى لجيُوا كيمو دافيورى، والأمنية التى كانت تجول فى نفس البابا سيلستينو[1] ، وإنها لحقيقة على أكبر جانب من الأهمية والخطر لأنها فى بلد قاحل مكدود مستيئس منهوك القوى كبلدنا ، يبلغ فى الواقع مبلغ الغنى، و يقع موقع الثراء ، بل هو فى الحق مدّخر عجيب بالغ العجب، واحتياط صبر لا ينفد ، و إن كان معاشر الساسة جهلاء بوجوده ، ورجال الكنيسة والإكليروس هيابين منه وجلين ؛ وقد لا يعرف أين يجده غير الأبرار والقديسين . ولكن الأمر الأوحد الذى ظل دائماً أشق شىء علينا ، بل يكاد يكون ضرباً من المستحيل فى تقديرنا ، هو البحث عن الوسائل المعينة على الثورة السياسية لقيام مجتمع حر منظم .

ولكننى ظننت أننى وحدى الذى اهتديت إليه حين انتقلت إلى المدينة ووقع لى أول اتصال بالحركة العمالية ؛ وكان انتقالى نوعاً من الهرب، وخروجا من عزلة لا تطاق، ونجاة من وحدة لا تحتمل ، والتماساً « للأرض الثابتة » ، أو اكتشافاً لقارة جديدة ؛ ولكن لم يكن من السهل التوفيق بين نفس متمردة على الواقع الأليم فى البيئة

---

(١) بعض رجال الدين الذين كانوا يحلمون بهذه الأمنية الخيالية ، كما هو مدون فى تاريخ القديسين المسيحيين القدامى .

الاجتماعية ، والمظالم القديمة المتأصلة فيها ، و بين المطالب «العلمية» التى تقتضيها عقيدة سياسية مقررة الخطوط مبينة المعالم والأصول ؛ ولم يكن انضمامى إلى الثورة العمالية فى نظرى مجرد تعهد أوقعه ، و « استمارة » أذيلها بإمضائى ، فأصبح عضواً فى حزبها ، وفرداً منتمياً إلى هيئـة سياسية قائمة ، بل كان اعتناقاً ، واندماجا كليا ، وتفانياً تاما . وكان إعلان المرء أنه أصبح « اشتراكيا » أو أمسى « شيوعيا » يعدل فى تلك الأيام الأولى الإلقاء بنفسه فى مهاب الريح،والقطيعة بينه و بين الأهل ، والتشرد فى الحياة ، والخلاء من الرزق . و إذا كانت النتائج المادية قاسية أليمة ، فلا تزال رياضة الروح عليها أشق وأقسى ؛ فقد كان عالمى الذى أعيش فيه ، عالم « القرون الوسطى » الذى ورثته وتأصلت جذوره فى أعماق نفسى ، ومنه استوحيت فى الواقع الحوافز إلى التمرد ، والانبعاث إلى الثورة — قد بدأ يهتز من القواعد ، كأن زلزالاً قد أصابه وهزة أرضية قد مسته ، فلم يلبث كل شىء أن أصبح فى « البوتقة » ، وأمسى مشكلة من المشاكل ومعضلة معقدة ، فالحياة والموت،والحب والبغض ، والخير والشر ،والصدق والكذب، قد تغيرت معانيها أو فقدتها بتاتاً ؛ وقد يسهل على المرء أن يستهدف للخطر أو يلقى بنفسه إليه ، إذا هو لم يعد وحده ، ولم يبق منقطعاً عن سائر الناس ؛ ولـكن من ذا الذى يستطيع أن يصف الأثر النفسىّ الأليم الذى يحدثه إلغاء الإيمان بخلود الروح البشرية و بقائها إلى أبد الآبدين . وكان من أشق الأمور على خاطرى أن أبحث فى هذه المسألة مع أحد من الناس ، ولو أنى ناقشت فيها رفاقى فى الحزب لجعلوها موضع سخرية منى ومثار استهزاء ، ولم يعد لى يومئذ أصدقاء آخرون ، فلا غرو إذا اتخذ العالم كله فى عينى شكلا آخر ، و إن جهل الذين حولى ما عرانى ، ولم يفطن الناس لما كان يعتمل فى خاطرى .

حقاً ما أحوج الناس إلى الإشفاق والرثاء ...!

وكانت ظروف الحياة التى يضطر الشيوعيون إلى النزول على حكمها بسبب غزوة «الفاشية» للدولة ، واستئثارهم بالحكم والسلطان، شاقة كل المشقة ، وفيها كل العنت

والحرج ، وإن ساعدت مع ذلك على صحة النظريات التى كان الشيوعيون ينادون بها ، ومن شأنها أن تهيئ الفرصة لخلق نوع من النظام لا يتمشى مع العقلية الشيوعية بحال من الأحوال .

وقد اضطررت أنا أيضاً إلى رياضة نفسى عدة سنين على العيش غريباً فى بلادى ، ولا مفر للمرء من انتحال اسم غير اسمه ، وفصم كل علاقة قديمة بأسرته وأصحابه ، واتخاذ حياة كاذبة لإزالة كل ريبة تحوم حوله ، أو ظن بأنه مشترك فى نظام هدام . وأصبح الحزب هو الأسرة والمدرسة والكنيسة والثكنة . أما العالم المترامى خلف ذلك كله ، فلا معدى عن تدميره وإنشائه من جديد ؛ وكان النضال النفسىّ الذى يجعل كل مجاهد متصلاً بالجماعة ، أشبه بذلك النضال الذى يشاهد فى بعض الملل والنحل والمذاهب الدينية أو الكليات الحربية ، مع تشابه النتائج ، وتماثل المعقّبات ؛ فكانت كل تضحية مقبولة مرتضاة كمساهمة شخصية من الفرد فى ثمن « خلاص الجماعة » . ولا تنسَ أيضاً أن الروابط التى كانت تربطنا بالحزب جعلت تنمو على الأيام وتزداد توثقاً ، لا على الرغم من المخاطر والتضحيات التى تقتضيها ، بل بسببها ؛ وهذا هو سر فتنة الشيوعية لعقول فريق معين من الشباب ، والمستنيرين ، وسريعى التأثر ، وكرام النفوس الذين يؤلمهم أشد الإيلام ما يرونه من معايب الحياة البورجوازية وعبثها وفسادها ؛ فكل من يحسب أنه قادر على انتزاع أحد من خيرة الشباب وأكثرهم رزانة وجداً ، من مخالب الشيوعية ، واجتذابه إلى « الصالونات » الدافئة ، والقيعان البديعة ، للعب « البليارد » ، إنما يطاوع فكرة خاطئة عن نفسية البشر .

— ٦ —

فلا عجب إذا لم تؤثر فى خاطرى الأزمات الداخلية الأولى التى أصابت الشيوعية الدولية ، ولم أتحرك لها ، أو أعبأ بها ؛ وكانت تلك الأزمات قد نشأت من أن الأحزاب التى استمسكت بالدولية الجديدة ، عقب قبول الشروط الواحد والعشرين التى وضعها

لينين للدخول فى حظيرتها ، لم تكن فى الواقع متجانسة ، و إنما كل ما كانت مشتركة فيه لا يعدو كراهية الحروب الاستعمارية ونتائجها ، و إجماعها على اعتناق الأفكار الإصلاحية التى كانت الدولية الثانية تُرددها ؛ أما ما عدا ذلك فقد كان كل حزب منها صورة صادقة لمدى تطور بلاده وتفاوته فى التقدم والرقىّ . ومن هنا ظهر التباين البالغ فى وجهات النظر بين البلشفية الروسية التى أنشئت فى أفق كانت الحرية السياسية والفارق فى الكيان الاجتماعى غريبَين عليه ، و بين الجماعات الاشتراكية اليسارية فى الدول الغربية ؛ فلا غرو إذا كان تاريخ الدولية الشيوعية هو تاريخ الانشقاقات والدسائس ، وصلف الهيئات الروسية المتزعمة الموجهة وكبريائها على سائر الأحزاب الأخرى المنتمية إليها ، التى تريد أن تستقل بالرأى ، وتعبر عن حرية التفكير ، مما اضطرها واحداً بعد واحد إلى مقاطعة الدولية الشيوعية وتحطيم صلاتها بها ، سواء منها الجماعات العاطفة على التقاليد والصور والأوضاع الديموقراطية والبرلمانية ، كفريق « فروسار » ، وفريق « بول ليفى » الذى كان يُؤْثِرُ الأخذ بالقانون و يعارض أشد المعارضة فى محاولات إحداث الانقلابات ، والعناصر الحرة التى فتنتها الديموقراطية السوفييتية والتى يتزعمها «رولاند هولست» ، والنقابات الثورية التى لا تقر الخضوع « لبيرو قراطية » الحزب الشيوعى ولا ترضاه والتى يتولى قيادتها أمثال بيير مونات ، وأندريه نين ، والفريق الذى يأبى قطع التعاون مع الديموقراطية الاشتراكية والذى كان الأعضاء البارزون فيه براندييه و برنجولف وتاسكا ، والفريق اليسارى المتطرف الذى لم يكن يرتضى القيام بأية حركة وصولية أو استغلالية ، والذى كان يوجهه أمثال بورديجا ، وروث فيشر و بوريس سوفارين ..

وهكذا وقعت تلك الأزمات الداخلية فى أفق بعيد كل البعد عن أفقى فلم أشترك فيها ولم يكن لى بها اتصال ؛ ولست أقول ذلك متفاخراً ، بل بالعكس أقوله محاولا شرح الموقف لا أكثر ولا أقل .

وقد أحسست يومئذ بنفور بالغ ، واشمئزاز شديد ، من تحول الدولية الشيوعية على

ذلك النحو السريع إلى بيروقراطية مستبدة وطغيان ، وإن كانت هناك أسباب ملحة جعلتنى أتردد فى الخروج ، كتضامنى مع الرفاق الذين غيّبوا فى السجون والصحب الذين استشهدوا ، وانتفاء وجود حزب آخر فى إيطاليا يناهض الفاشية ، والانحطاط السياسىّ بل التدهور الأدبى العاجل الذى عرا فريقاً كبيراً من الذين غادروا قبلى صفوف الشيوعية وحظيرتها ، وأخيراً التعلل بأن الطبقات الكادحة فى الغرب قد تستطيع إصلاح «الدولية» وتردها سيرتها الأولى ، إذا ما حدثت أزمة داخلية يوما فى داخل النظام السوفييتى وصميم نطاقه .

وقد سنحت لى فى الفترة بين عامى ١٩٢١ و ١٩٢٧ فرص كثيرة للسفر إلى موسكو والاشتراك كأحد أعضاء وفد الحزب الشيوعى الإيطالى ، فى المؤتمرات التى كانت اللجنة التنفيذية تعقدها ، فكان أشد ما يرهبنى من أمر الشيوعيين الروس ، من أمثال لينين وتروتسكى وغيرهما من ذوى الشخصيات البارزة ، تجردهم التام من السماحة فى قبول الآراء والأفكار التى تتعارض مع آرائهم وأفكارهم ، فلا يكاد أحد يجرؤ على معارضتهم حتى يعد فى نظرهم « خائناً » و « وصولياً » ومأجوراً ، إذ لا يستطيع هؤلاء الروس أن يتصوروا وجود خصم حسن النية ، أو مجادل صادق الطوية ، لأن تغليب الاعتبارات الأدبية أو الأخلاقية فى الجدل والنقاش على الذكاء يعد فى أعين هؤلاء الذين يوصفون بأنهم «ماديون» «عقليون» ، شذوذاً فى الشعور واختلالاً فى موازين الإحساس والوجدان ؛ ولا أحسب شيئاً يمكن أن يقارن بهذه الخواص التى عرف بها الروس ، إلا محاكم التفتيش فى القرون الوسطى .

وقد حدث لى وأنا أعد العدة للعودة من موسكو عام ١٩٢٢ أن التقيت باليكسندرة كولونتاج ، فانثنت تقول لى : إذا قرأت يوماً فى الصحف أن ستالين اعتقلنى بتهمة سرقة الملاعق الفضية من الكرملين، فاعلم أن هذا معناه أننى قد اختلفت معه فى شىء يتصل بسياسته الزراعية ، أو خططه المتعلقة بالنهضة الصناعية .

وكانت كولونتاج قد اكتسبت نزعة التهكم من الغرب فلم تكن تستخدمها إلا

فى حديثها مع بعض أهله ، ولكن فى تلك السنين المليئة بالحماسة ذاتها ، تلك السنين التى انقضت فى بناء كيان النظام الجديد ، ولم يكن هذا النظام يومئذ قد استولى على الحياة الفكرية فى البلاد ، كان من أشق الأشياء التفاهم مع شيوعىّ روسى على أبسط المسائل وأوضحها فى أعيننا ؛ ولم يكن وجه المشقة فى الاتفاق ، ولكنه كان من ناحية التفاهم على الأقل والمطارحة وتجاذب الآراء ، إذا عرض النقاش لمعانى الحرية فى نظر الغربىّ أو فى عين العامل، حتى لقد قضيتُ يوما عدة ساعات أحاول أن أشرح لإحدى المشرفات على دار الطباعة الحكومية كيف أنه من العار عليها أن ترتضى تثبيط همم الكتاب الروس وتسمح بأن يعيشوا فى جو من الترهيب والتخويف، ولكنها لم تستطع أن تفهم مرادى ، فاضطررت إلى ضرب بعض الأمثلة ، قائلا إن الحرية تقتضى السماح بالشك ، والوقوع فى الخطأ ، والإذن للناس بالبحث والفحص والتجربة وقول نعم أو لا لأية سلطة كائنة من تكون أدبية ، أو فنية ، أو فلسفية ، أو دينية ، أو اجتماعية ، أو سياسية أيضاً .

ولكنها لم تكد تسمع هذا القول منى حتى غمغمت فَزِعة مروّعة تقول: ولكن هذا معناه « مناهضة الثورة » .

وكأنما أرادت أن تسند ظهرها قليلاً وتستدرك فانثنت تضيف قائلة : إنا لنحمد الظروف على أننا لا نملك الحرية التى تملكونها ، ولكن لدينا بدلا منها « المصحات » .

ولما لاحظت عليها أن التعبير بلفظة « بدلاً » ليس له معنى فإن الحرية ليست سلعة تتبادل، أو متاعا للمقايضة، وأننى شاهدت مصحات فى بلاد أخرى ، استضحكت قائلة : إنك تريد المزاح معى اليوم .

وعندئذ تراجعتُ أمام صراحتها فلم أجرؤ على معارضتها ، وكان مشهد الحماسة التى يبديها الشاب الروسى فى السنوات الخمس الأولى لبداية إنشاء عالم جديد، كنا جميعاً نرجو أن يكون أكثر إنسانيةً من العالم القديم ، يبعث الخاطر على الاقتناع التام

بصدقه ، واليقين الكلىّ بقوة أثره ، ولكن ما كان أشد ألم الخيبة ، وأبلغ المرارة ، حين مرت السنون ، وانقضت الأعوام ، وعزز النظام الجديد كيانه ، واتخذ بنيانه الاقتصادى ، وانقطع الهجوم المسلح عليه من الخارج — فقد رأينا أن ذلك الأمل الموعود لم يتحقق ، وأن الرجاء فى قيام « ديموقراطية » صحيحة شاملة لم يتم ، وإنما شهدنا فى مكانه « دكتاتورية » تلح فى العسف ، وتشتد فى الكبح ، وتسرف فى الكبت والاضطهاد .

وفى ذات مساء مضى صديق من خيرة أصدقائى ، وهو « لازار شاتزكى » رئيس جماعة الشبان الروس الشيوعيين يكاشفنى بأنه فى الحق حزين لأنه ولد متأخراً ، وكان يتمنى لو أنه جاء إلى الحياة أبكر مولداً ، ليشهد ثورة ١٩٠٥ ، أو يحضر ثورة ١٩١٧ .

قلت مواسياً : ولكن لا تزال ثمة ثورات منتظرة ، وستظل الحاجة إلى الثورات قائمة ، حتى فى روسيا ذاتها .

وكنا فى الميدان الأحمر غير بعيدين من ضريح لينين .

قال فى لهفة : ومن أى نوع ، وكم يطول بالمرء ارتقابها ؟؟

فأشرت إلى الضريح ، وكان لا يزال مصنوعاً من الخشب ، وكنا فى كل يوم نشهد أمامه حشوداً لا تنقطع من الفلاحين الفقراء المهلهلين يمرون به صفوفا متراصة .

وانثنيت أقول : أكبر ظنى أنك تحب لينين ، وأنا أيضاً قد عرفته ، ولا تزال صورته ماثلة فى خاطرى ، وأعتقد أنك لابد معترف معى بأن هذا الاعتقاد الخرافى الذى يأبى إلا أن يظل جثمانه قائما تحت هذا الضريح الخشبى هو إهانة لسيرته ، وانتقاص من ذكراه ، وعار يلحق مدينة ثورية كموسكو هذه ؟ ؟ .

وقصارى القول أننى رحت أقترح عليه أن نأتى بصفيحة أو اثنتين من البنزين ، فنحدث « ثورة صغيرة » على ذمتنا ، بأن نشعل النار فى هذا الضريح المهين .

والحق أقول إننى لم أكن أتوقع منه قبول اقتراحى ، وإنما كنت أنتظر أن نضحك قليلاً بسببه .

ولكنى رأيت صديق يصفَرّ ويرعش رعشة شديدة ويتوسل إلىّ ألا أقول كلاماً مروعاً كهذا له ولا اسواه .

وقد انقضت عشرة أعوام على هذا الحادث و إذا بهم يبحثون عنه بتهمة اشتراكه مع « زينوفيف » ، ولكنه عمد إلى الانتحار بإلقاء نفسه من الطبقة الخامسة فى المسكن الذى كان يقيم فيه .

ولطالما شهدت حشوداً حاشدة من الناس ، ورأيت جنوداً تسير فى شكل عرض مخترقة ذلك « الميدان الأحمر » ، ولكن منظر الانفعال الذى بدا على صديقى الشاب ، وسماع صوته الراعش ، وقوله الراجف من فرط الرعب ، لا يزال فى ذاكرتى أقوى من كل تلك الصور والمشاهدات ، ولكن لعل السر فى ذلك أن هذه الذكرى ، من ناحية « موضوعيتها » أكبر شأناً وأشد خطراً ، وأبلغ دلالة .

وليس من السهل متابعة تاريخ الدولية الشيوعية من البداية إلى النهاية ، لأن محاولة متابعته غير مجدية ، إذ كيف يستطيع المرء أن يفصل بين الغث والسمين ، أو يفرق بين القيّم والتافه ، فى المناقشات غير المنطقية التى كانت دائرة الرحى فى مؤتمراتها واجتماعاتها ، وأى الخُطَب أولى بأن تترك للفيران تقرضها ، وأيها أحق بالنقد ، وتوصية العقلاء والأذكياء والمستنيرين بقراءتها ودراستها .

لست أدرى ، وقد يكون اختيارى عند بعض الناس منفراً ، وقد لا تروقهم آرائى فى شأنها .

فقد حدث يوماً فى اجتماع شعبة خاصة متفرعة من اللجنة التنفيذية أن دار النقاش حول الإنذار النهائى الذى أصدرته اللجنة المركزية لنقابات العمال البريطانيين محذرة فيه فروعها المحلية من تأييد الحركة التى تقوم بها الأقلية ، ويتزعمها الشيوعيون ، وإلا كان عقابها الإقصاء ؛ فقد انبرى مندوب الحزب الشيوعى البريطانى يشرح الأضرار الخطيرة التى ستنجم من كلا التحذيرين ، فإن أحدهما سوف يؤدى إلى القضاء على حركة الأقلية ، والآخر سيترتب عليه إخراجها من النقابات ؛ وإذا بالمندوب الروسى

« بياتنسكى » يتقدم باقتراح خيل إليه أنه فى مثل وضوح « بيضة كولومبوس » و بداهته ، إذ انثنى يقول : إنه من المتعين على الفروع أن تعلن أنها ممتثلة للأمر الصادر ، ثم تفعل بالعكس تماماً ...

وهنا قاطعه المندوب البريطانى بقوله : « ولكن هذا غش ومين ....! » .

و إذا بهذا الاعتراض الوجيه يقابل بعاصفة من الضحك ، بل بضحك صريح مستطيل لا أحسب المكاتب القائمة التى تضم الدولية الشيوعية قد سمعت من قبل له نظيراً أو تردد مثله يوماً فى أرجائها .

وما لبثت « النكتة » أن شاعت فى جميع نواحى موسكو ، لأن هذا الرد « المضحك » الغريب الذى لا يتصوره أحد من الروس نقل بالتليفون حالاً إلى ستالين ، وأثار موجات جديدة من المجون والضحك فى كل مكان .

ولكن الواقع أن هذا التهكم العام أو الضحك المدوّى الذى أثاره ذلك الاعتراض البارع من المندوب البريطانى قد أضفى عليه كل معانيه الصحيحة ؛ فلا عجب إذا ظلت عاصفة الضحك التى قوبلت بها تلك الكلمات القصيرة الصريحة الساذجة غالبة فى خاطرى على سائر الخطب الطوال الثقيلة الظل الخانقة التى سمعتها فى مؤتمرات الدولية الشيوعية واجتماعاتها ، ولا غرو إذا هى بقيت فى ذاكرتى نوعاً من الرمز ، ومثلا سائراً .

وكانت زوراتى لموسكو كما أسلفت قليلة ، مقتصرة على مهمتى كعضو فى الوفد الإيطالى الشيوعى ، فلم أكن يوماً فى صميم نطاق الدولية ولا « لبنة » من لبناتها ، ولكن فى وسعى أن أتابع الفساد السريع الذى تطرق إليها من ملاحظة ما جرى لبعض معارفى الذين كانوا منتمين إليها . ولعل « جاك دوريو » أبرزهم جميعاً ، فقد كان أول عهدى بلقائه فى موسكو عام ١٩٢١ ، وكان يومئذ شاباً متواضعاً حبيباً أخا رغبة صادقة وعاطفة رقيقة ؛ ولعل لين عريكته ، وسلامة فطرته ساعدا على اختياره للدولية

الشيوعية و إيثاره على سواه من الشيوعيين الفرنسيين الشباب ممن كانوا أذكى منه وأكثر علماً .

وكان يقضى الأعوام مترقباً الفرص ، متلهفاً على التقدم والتبريز ، و إذا به على مر الأيام يزداد شأناً ، و يرتفع مكانة فى حظيرة الدولية الشيوعية ، وكنت كلما التقيت به على السنين أراه قد تغير ، فأصبح متشككا مستهتراً مستخفاً متحولاً بسرعة إلى « الفاشية » فى نظراته السياسية إلى الناس والدولة ..

ولو استطعت يوماً أن أتغلب على نفورى الطبيعى واشمئزازى لوضعت ترجمة لحياة « جاك دوريو » وجعلت مدارها الحديث عنه « كشيوعى مجاهد ينقلب فاشياً » .

وقد التقيت ذات مرة به فى موسكو عقب عودته من مهمة سياسية فى الصين ، فراح يقص علينا أنا و بعض الأصدقاء حديثاً مقلقاً عن أغلاط الدولية الشيوعية ومساويها فى الشرق الأقصى ، ولكنه فى غداة اليوم التالى مضى فى الخطاب الذى كان يلقيه أمام اللجنة التنفيذية فى جلستها العامة يؤكد العكس على خط مستقيم :

وقد أسر إلىّ بعد الاجتماع وهو يبتسم ابتسامة مترفعة قائلا : لقد كان ذلك منى حكمة سياسية .

وقد أوردت هذا المثل لأنه لم يكن حادثاً فردياً ، بل كانت له نظائر وأشباه .

وقد حملته التغييرات الداخلية التى حدثت بعدئذ فى الحزب الشيوعى الفرنسى على ترك الدولية الشيوعية ، وهيأت له الفرصة ليظهر نفسه علناً على حقيقتها ، و يبدد صراحته بلونه الصحيح .

ولكن كثيرين سواه ممن لا يختلفون فى الجوهر عنه وبقوا على رأس الأحزاب الشيوعية فى مختلف البلاد كبالميرو تولياتى الإيطالى ، تناولوا هذا الضرب من الرياء ، وتحدثوا عن هذا الانحطاط الخلقىّ الذى شاع بين رجال الدولية الشيوعية ، حتى لقد رأينا تولياتى يصف ذلك كله فى الخطاب الذى ألقاه أمام المؤتمر السادس و يطالب أن

يؤذن له فى ترديد كلمة « جوته » عند ما حضره الموت وهى قوله : « علىّ بالنور ... مزيداً من النور ! » .

وكانت تلك الخطبة فى بعض معانيها أشبه بصيحات « الأوز » ، فقد لبث عاماً بعدها أو عامين يحاول جهده استملاء ضميره والسير على أصداء وجدانه ، والتوفيق بين عضويته كشيوعى ، و بين المصارحة بآرائه ؛ ولـكنه فى النهاية اضطر إلى الأذعان والامتثـال .

وقد شعرت الدولية الشيوعية إلى جانب خلافاتها الداخلية بسبب تنافر تكوينها وعوزها إلى التجانس ، بوطأة المتاعب التى تحدثها لها الدولة السوفييتية أيضاً ، إذ تبين عقب وفاة لينين أنها لا يمكن أن تتجنب القـدَر الملازم لـكل ديكتاتورية ، والمصير المحتوم لـكل طغيان ، وأعنى به الضيق التدريجى فى هرمها السياسى؛ إذ تبدأ تضيق شيئاً فشيئاً حتى تبلغ الذروة ، كما هو شكل الهرم ، ولم يلبث الحزب الشيوعى الروسى الذى عرف كيف يكتم أنفاس الأحزاب الأخرى ، ويسد السبيل على كل بحث أو نقاش فى الأندية والاجتماعات السوفييتية ، أن لقى المصير ذاته وإذا بآراء أعضائه تتوارى وتتلاشى وشيكا أمام سياسة الحزب وخططه ، فأصبح كل خلاف فى الرأى داخل الهيئة أو الجماعة ينتهى حتما إلى القضاء على الأقلية ومحوها بالفعل من الوجود .

وهكذا رأينا الثورة التى أطفأت أعداءها تنتهى بالتهام أبنائها المحببين .

ولم يعد « الآلهة العِطَـاش » يرتضون هدنة ولا يقبلون هوادة ولا سلاما ...

— ٧ —

وفى شهر مايو عام ١٩٢٧ اشتركت مع توليانى كممثلين للحزب الشيوعى الإيطالى فى الدورة غير العادية التى عقدتها اللجنة التنفيذية التى اتسع يومئـذ نطاقها ، وجاء توليانى من باريس حيث كان يتولى سكرتيرية الحزب السياسـية ، وجئت أنا من إيطاليا حيث كنت مشرفاً على حركة المقاومة السرية .

والتقينا فى برلين وسافرنا معاً إلى موسكو .

وكانت الدعوة فى الظاهر قد وجهت للمناقشة على وجه الاستعجال فى التوجيهات التى ينبغى تقريرها لإرشاد الأحزاب الشيوعية فى نضالها حيال الحرب الاستعمارية المرتقبة ، ولكن الاجتماع كان فى الحقيقة للشروع فى « التخلص » من تروتسكى وزينوفيف اللذين كانا لا يزالان عضوين فى اللجنة التنفيذية للدولية الشيوعية .

وكانت الدورة العامة قد سبقت هذا الاجتماع وتولت اللجنة الرئيسية التى تضم رؤساء الوفود والهيئات الكبرى إعداد التفاصيل ، كما هى العادة ، اجتنابا للمفاجآت .

وقد أصر تولياتى على مرافقتى له فى هذه الجلسات رغم القيود الموضوعة لتحديد الذين يحق لهم حضورها ، والتى تعطيه وحده الحق فيه بالنيابة عن الوفد الإيطالى .

ولكنه كان يتوقع مقدماً أن تظهر بعض « المضاعفات » فى هذه الدورة ، فآثر أن يستعين بممثل الحركة السرية ، وشعرت فى الجلسة الأولى التى حضرناها أننا جئنا متأخرين كثيراً .

وكان الاجتماع منعقداً فى مكتب صغير بمركز رياسة الدولية الشيوعية ، برياسة الألمانى « تالمان » ، فلم يكد يفتتح الجلسة حتى شرع فى قراءة مشروع قرار ضد تروتسكى يراد عرضه على الجمعية العامة .

وكان هذا المشروع يحوى استنكاراً شديداً لبعض تصرفات تروتسكى ، ومن بينها خطاب بعث به إلى المكتب السياسى للحزب الشيوعى فى روسيا ؛ وكان الوفد الروسى فى ذلك الاجتماع الخاص مؤلفاً على غير العادة ، فقد ضم ستالين وريكوف وبوخارين ومانيلسكى .

وعلى أثر الانتهاء من تلاوة مشروع القرار انثنى تالمان يسأل الحاضرين هل هم موافقون عليه .

وهنا لاحظ « أوتومار كوزينين » الفنلندى أن صيغته لم تكن قوية إلى الحد الكافى ، ومضى يقول : ينبغى أن يقال فيه صراحة إن هذا الخطاب الذى أرسله تروتسكى إلى المكتب السياسى يتنافى كل التنافى مع روح الثورة وأساليبها ، ويقوم دليلا ساطعاً على أن الشخص الذى كتبه لم يعد مشتركا فى شىء مع الطبقة العاملة .

ولم أر أحداً آخر يطلب الكلمة ، فنهضت بعد استشارة تولياتى فاعتذرت بأنى قد وصلت متأخراً ولهذا لم يتح لى الاطلاع على الكتاب الذى يراد استنكاره .

وعندئذ انثنى تالمان يقول بصراحة : إذا أردت الحق فلا أخفى عنك أننا أيضاً لم نطلع عليه ...

وآثرت ألا أصدق سمعى ، وعدت أكرر اعتذارى بعبارات أخرى ، فقلت : قد يكون كتاب تروتسكى فعلا مستحقاً اللائمة والاستنكار ، ولكن لا خفاء فى أننى لا أستطيع أن أستنكره قبل أن أطلع عليه .

فعاد تالمان يكرر قائلا : ونحن هنا ، وأغلبية الوفود الممثلة فى هذا الاجتماع ، لم نطلع على الكتاب ، اللهم إلا أعضاء الوفد الروسى .

وكان تالمان يتكلم بالألمانية ، فنقلت كلماته إلى ستالين ، وترجمت إلى الفرنسية ليفهمها اثنان أو ثلاثة منا .

وكان الرد الذى نقل لى غريباً لا يكاد يصدق ، فلم يسعنى إلا أن أدور بعينى إلى المترجم فأقول له : مستحيل أن يكون تالمان قد قال هذا ، فأرجوك أن تردد عبارته كلمة كلمة ...

وعندئذ تدخل ستالين .

وكان واقفاً فى ركن من الحجرة ،وهو يلوح الوحيد الذى ظل محتفظاً بهدوئه التام .

وأنشأ يقول : إن المكتب السياسى للحزب رأى أنه ليس من المناسب ترجمة كتاب تروتسكى ، وتوزيعه على أعضاء الوفود ، لما فيه من مزاعم عن سياسة السوفييت [1] .

---

(١) وقد نشر تروتسكى نفسه نص ذلك الكتاب فيما بعد ضمن كتاب موجز أسماه « مشاكل الثورة الصينية » . وقد تبين منه أنه لا يحوى أية إشارة إلى سياسة السوفييت ، ولكنه كان هجوماً منطقياً معقولا على السياسة التى انتهجها ستالين والدولية الشيوعية فى الصين .

وقد رأيت ستالين فى خطاب ألقاه يوم ١٥ أبريل سنة ١٩٢٧ أمام مجلس السوفييت فى موسكو يحرق البخور فى مديح شيانغ كاى تشك ويؤكد ثقته الشخصية بالكومنتانغ ، وكان ذلك قبل أسبوع من تنكره هو وحزبه للكومنتانغ وطرد الشيوعيين منه بين عشية وضحاها وتذبيح عشرة آلاف من العمال فى شنغهاى وألوف آخرين بعد شهر آخر فى « ووهان » ، فلا عجب إذا كان ستالين يريد تجنب النقاش فى مسائل كهذه ويحاول حماية نفسه خلف ستار من الظلام .

وعندئذ سألنى تالمان : هل اقتنعت بهذا التفسير ؟

قلت : إننى لا أنازع فى حق المكتب السياسى فى الاحتفاظ بأى وثيقة أو مستند طى الكتمان ، ولكننى لا أفهم كيف يطلب من الآخرين استنكار وثيقة لا يعرفون عنها شيئاً .

فلم أكد أقول هذا حتى اشتد الاستياء ، وتناهى الغضب على وعلى توليانى الذى كان يبدو موافقاً على ما قلت .

وكان أشد الحاضرين غضباً العضو الفنلندى الذى أسلفت ذكره ، وآخر من البلغار ومجريا أو اثنين .

فقد راح كوزينين يصيح وهو محمر الوجه « لم نر من قبل ولم نسمع بأنه لا يزال فى حصن الثورة العالمية صغار بورجوازى من هذا الطراز » .

وقد فاه بعبارة « صغار بورجوازى » بلهجة التحقير والاشمئزاز .

وكان ستالين الرجل الوحيد الذى ظل ملازماً السكينة والهدوء .

فقد أنشأ يقول : إذا انفرد مندوب واحد بمعارضة مشروع القرار فلا ينبغى عرضه .

وسكت لحظة ثم أردف قائلا : لعل رفيقينا الإيطاليين لا يعرفان شيئاً عن موقفنا الداخلى ، ولهذا أقترح تأجيل الاجتماع إلى الغد وتكليف أحدنا بالاجتماع فى المساء مع رفيقينا الإيطاليين ليشرح لهما الحالة .

وقد عهدت اللجنة إلى المندوب البلغارى « فاسيل كولاروف » بهذه المهمة الثقيلة .

ولكنه أنفذها بلباقة وروح طيبة إذ دعانا إلى تناول الشاى فى غرفته بفندق « لوكس » ، ولم يلبث عقب اجتماعنا أن دخل فى هذا الموضوع الشائك رأساً ، بلا مقدمات ، فقال وهو يبتسم : لنكن صرحاء .. فهل تظنان أننى قرأت ذلك الكتاب؟ كلا ... لم أقرأه ... وفى وسعى أن أصارحكما الحقيقة ، فأزيد على ما قلت أن

الكتاب نفسه لا يهمني . أتريدان أيضاً أن أزيد ، إذن فلأصارحكما القول إنني لن أقبل قراءته حتى وإن وافاني تروتسكي ذاته سراً بنسخة منه ؛ فياخليليّ إن المسألة ليست مسألة وثائق ومستندات ، ولست أجهل أن إيطاليا هي من قديم العهد بلد المجامع العلمية ، ولكننا لسنا هنا في مجمع علمي ، إننا هنا في غمرة «صراع» على النفوذ والسلطان بين فريقين متنافسين من الزعماء الروس ، فأي الفريقين ينبغي أن نناصر ؟ هذه هي المسألة ، فلا دخل إذن للوثائق والمستندات .

«وليست المسألة مسألة البحث عن حقيقة تاريخية بشأن فشل ثورة قامت في الصين وأسباب إخفاقها وعوامل حبوطها ، ولكنها مسألة نزاع محتدم بين جماعتين متعاديتين عداء لا هوادة فيه ، وما على المرء إلا أن يختار بينهما ، وأنا قد اخترت ، وأجمعت النية على أن أقف بجانب الفريق الأغلب ، وأكرر أمامكما القول بأنني مع الغالبية ، مهما تقل الأقلية أو تفعل ، وأي أسانيد أو وثائق قد تتقدم بها ضد الأغلبية ، فإن الوثائق لا تهمني ، لأننا لسنا هنا في مجمع » .

وراح يصب الشاي في الأقداح ويتفحصنا فحص المعلم لتلميذين صغيرين من تلاميذه العصاة المتعنتين ، وانثنى يسألنا وهو يوجه الكلام إليّ خاصة : «هل هذا الكلام واضح أم لا ..؟» .

قلت : كل الوضوح ، من غير شك .

قال : وهل أقنعكما ؟

قلت : كلا ..

قال : ولماذا .....؟؟

قلت : إن الرد على هذا السؤال يقتضيني أن أشرح لك أسباب وقوفي موقف المعارض من « الفاشية » .

وعندئذ تظاهر كولاروف بالغضب ، فبادر توليـاتي إلى شرح ما قلته في لهجة أكثر اعتدالاً وإن لم تكن أقل صراحة .

قال : إن المرء لا يستطيع أن يحكم هل يقف بجانب الأغلبية أم بجانب الأقلية مقدماً ، إذ لا بد من معرفة الأساس السياسى للمسألة قبل القطع بشىء .

وكان كولاروف يستمع لنا وهو يبتسم ابتسامة الشفقة والرثاء .

قال وهو يصحبنا إلى الباب : « أنتما لا تزالان حدثين ولم تدركا بعد ما هى السياسة وما خططها ومطالبها ... » .

وتكرر فى غداة اليوم التالى المشهد ذاته فى الاجتماع عند استئنافه ، فقد شاع فى المجلس جو غير مألوف من الحدة والاضطراب العصبى .

وانثنى ستالين يسأل كولاروف : هل شرحت الموقف لرفيقينا الإيطاليين ؟

قال بلهجة التوكيد : « أوفى الشرح » .

فعاد ستالين يقول : « إذا انفرد مندوب بمعارضة مشروع القرار المطروح فلا يمكن إحالته على الجمعية العامة ، إذ لا ينبغى اتخاذ قرار ضد تروتسكى ما لم يتوافر فيه الإجماع » .

وهنا دار بعينيه نحونا وراح يسأل قائلا : فهل رفيقانا الإيطاليان موافقان على المشروع ..؟

قلت بعد استئذان صاحبى تولياتى : « قبل أن نبحث فيه يجب أن نطلع على الوثيقة » .

وانبرى ألبير ترانت العضو الفرنسى ، وجول هامبرت دروز السويسرى ، فأعلنا هذا الرأى كذلك[1] .

وعندئذ انثنى ستالين يقول : « ليسحب إذن المشروع » .

ولم نلبث أن شهدنا المنظر العصبى ذاته الذى جرى فى اليوم السابق ، وما تخلله من غضب وهياج وانفعال من كوزينين وراكوزى و بيبر والآخرين .

---

(١) ومما يذكر هنا أنهما انتهيا بعد بضع سنين إلى الخروج من الدولية الشيوعية .

وقال تالمان فى التعقيب على موقفنا « الفاضح » : إن اتجاه نشاطنا فى إيطاليا ضد الفاشية هو على الأرجح ضلال مبين ، و إنه إذا كانت الفاشية لا تزال راسخة القدم فيها إلى الآن ، فاللائمة علينا ، والخطأ خطؤنا ؛ ولهذا أرى أنه لا معدى من عرض سياسة الحزب الشيوعى الإيطالى لغربلتها وتنقيتها من الشوائب .

وقد تم ذلك فعلاً ، وتبين لأولئك الرقباء المتعصبين أن سلوكنا «المتوقح» مرجعه إلى التوجيه الفاسد الذى كان يتجه فى السنين الماضية « أنطونيو جراموشى » والذى كانت تشو به الروح البورجوازية الحقيرة وتلوثه تلويثاً .

ورأى تولياتى أنه من الحكمة أن يرسل كتاباً إلى المكتب السياسى للحزب الشيوعى الروسى يشرح فيه سبب موقفنا فى اجتماعات اللجنة التنفيذية .

وقد مضينا فى ذلك الكتاب نقول : إن أحداً من الشيوعيين لا ينازع فى سابقة فضل رفاقنا الروس ، ومكانهم الرفيع فى زعامة الدولية الشيوعية ، ولكن هذا الفضل يفرض عليهم واجبات معينة ، فلا يصح لهم ممارسة حقوقهم بطريقة ميكانيكية أو تعسفاً واستبداداً .

وتلقى « بوخارين » الكتاب وبعث فى طلبنا عاجلاً ، وطلب إلينا سحبه حتى لا نزيد موقفنا السياسى سوءاً على سوئه .

وتلت هذا الحادث أيام أحسست فيها بخيبة الأمل ، ومرارة الإخفاق ، أيام أسف وكمد حتى لقد مضيت فيها أسائل نفسى : هل إلى هذا الحد سقطنا ، وهل أولئك الذين قضوا نحبهم ، والذين يموتون اليوم فى غيابات المحابس ، قد ضحوا بأنفسهم من أجل هذا ونحوه . . ؟ ونحن معاشر المتشردين الهائمين على وجوههم ، الذين يعيشون مستهدفين للمخاطر معرضين للبلاء والأذى ، إنما فعلنا ذلك بأنفسنا من أجله ... ؟

ولم يلبث حزنى أن بلغ ذلك الحد البعيد الذى يشل الإرادة وتنهار عنده المقاومة .

وقبل أن أغادر موسكو جاءنى عامل إيطالى ليتحدث معى ، وكان الرجل قد

لجأ إلى روسيا منذ سنين هرباً من حكم بالسجن مدة طويلة أصدرته إحدى المحاكم الفاشية ، وأعتقد أنه لا يزال إلى اليوم شيوعياً .

جاءنى هذا الرجل يشكو من الأحوال المهينة التى تحيط بحياة العمال فى المصنع الذى يشتغل فيه بموسكو ، وقال إنه لا يرى بأساً من تحمل النقص فى الأغذية والمواد الأخرى ، لأن علاجها قد يتعاظم جهود الأفراد ، ويشق على المداوين ، ولكنه لا يفهم لماذا يبقى العمال تحت رحمة إدارة المصنع ، وليس لهم أحد يحميهم أو يرعى مصالحهم ، ولا يدرى أيضاً لماذا تكون حالهم أسوأ من حال إخوانهم فى البلاد الرأسمالية ... أحقاً أن أكثر حقوق العمال التى طالما سمع بها، وطالما وصفت فى أزهى الصور وأعجب الألوان ، مجرد أقوال وكلمات نظرية .

وفى برلين وأنا عائد من مهمتى فى روسيا قرأت فى الصحف أن اللجنة التنفيذية للدولية الشيوعية قررت تعنيف تروتسكى على كتاب كان قد أعده بسبيل الأحداث الأخيرة فى الصين .

فقصدت إلى مكاتب الحزب الشيوعى الألمانى وسألت تالمان عن سر هذا الذى جاء فى الصحف السيارة قائلا بكل بساطة : « وأنت تعلم أن هذا كذب محض » .

ولكنه مضى يشرح الأمر قائلا : إن اللائحة الداخلية تعطى الرياسة فى المسائل المستعجلة حق اتخاذ أى قرار باسم اللجنة .

وكنت قد قرأت فى الصحف خلال الأيام القليلة التى أقمتها فى برلين منتظراً الفراغ من إعداد أوراقى المنتحلة وجوازاتى المصنوعة ، أن الأحزاب الشيوعية فى أمريكا والمجر وتشيكوسلوفاكيا استنكرت كتاب تروتسكى أشد الاستنكار .

فقلت لتالمان : هل معنى هذا أن الكتاب المحجوب قد ظهر أخيراً .

قال : كلا ، ولكنى أرجو أن يكون المثل الذى ضربته هذه الأحزاب قد أبان حقيقة النظام الشيوعى وخافية أمره .

وكان فى عبارته هذه جاداً ، فلم يخالطها التهكم ولا مازجتها سخرية ، بل اقترنت بجد محزن يناسب كابوس الحقيقة التى انطوى عليها ، ويلائم مرارتها البالغة .

- ٨ -

وكنت مضطراً لأسباب صحية إلى أن أقصد رأساً إلى مصحة سويسرية وأنقطع عن كل عمل سياسى .

فى ذات يوم التقيت بتولياتى فى قرية لا تبعد عن الموضع الذى كنت أستشفى فيه ، وراح يشرح لى بصراحة وجلاء الأسباب التى حملته على التصرف الذى آثره قائلا فى إيجاز إن حالة الدولية الشيوعية لم تعد فى الحق مرضية ولا مقبولة وإن جهودنا ونياتنا الصادقة عاجزة عن تحسينها أو تغييرها لأن هناك ظروفاً تاريخية تعترض السبيل ولا معدى عن مراعاتها . إن أنظمة الثورة العمالية ليست عرفية ولا تحكمية ، ولكن إذا هى لم تتفق مع أمانينا فالويل ويلنا ، والسوء واقع علينا ، إذ أين لنا أن نذهب ، وأى بديل منها نختار ، وماذا بقى لنا؟ ألا تنظر إلى النهاية التى انتهى إليها الشيوعيون الآخرون الذين خرجوا على أحزابهم ، وهلا تدبرت حال الديموقراطية الاشتراكية وما هى فيه من بلاء وسوء ؟ .

ولم تكن اعتراضاتى على هذه الحجج متماسكة ولا مقنعة ، لأنها كانت حججاً سياسية بحتاً ، بينما كان الانفعال البالغ الذى ثار فى أعماق نفسى من التجارب والمشاهدات الأخيرة شيئاً آخر لا يمت إلى السياسة بسبب .

إن هذه الأوضاع التاريخية الصلبة الجامدة التى ينبغى لنا أن ننحنى لها ، ليست إلا صورة جديدة من الحقيقة الأليمة التى ثرنا عليها وأعلنا أننا اشتراكيون استنكاراً لها ، وألماً منها ..

فلاعجب إذا أنا أحسست كمن أصيب بضربة موجعة هوت فوق رأسه ، فظل قائماً على ساقيه وراح يمشى ويتكلم ويشير ، وهو لا يشعر ، ولا يدرى مما حدث شيئاً ...

ولكنى على الأيام أفقت ، وكانت الإفاقة بطيئة رخية أليمة شاقة ، وإلى اليوم لا أزال أفكر ملياً فيها محاولا أن أفهم ما لم أكن قد فهمته ، وأن أدرك ما لم أدركه .

وإذا كنت قد ألفت كتباً ، فما كان ذلك إلا محاولة منى حتى أفهم وأدع الآخرين يفهمون .

ولست على يقين مطلقاً أننى وصلت إلى نهاية جهدى . وفى الحق لقد كان يوم خروجى من الشـيوعية يوماً حزيناً أليماً لنفسى ، كأنه يوم حداد بالغ على شبابى الضائع ، وأنا كما تعلمون منحدر من بلد يطول فيه الحداد أكثر من أى بلد سواه . وليس من السهل على المرء أن يتخلص من عمل رهيب باهظ كالاشتغال بأمر الحركة السرية فى الحزب الشيوعى ، فإن شيئاً منه لا بد عالق بنفسه مهما يحاول الخلاص ، تارك أثره فى خلقه وكيانه طيلة الحياة .

وفى وسع المرء أن يتدبر حال الشيوعيين الذين خرجوا من الحظيرة ، فهم يؤلفون طائفة بذاتها كما يؤلف القساوسة السابقون أو الضباط القدامى .

وقد أصبح عددهم كبيراً ، حتى ليبلغ اليوم مبلغ الفرقة أو اللواء .

وقد قلت من عهد غير بعيد لتولياتى مازحاً « إن الصراع الأخير سيكون بين الشيوعيين ، والخارجين على الشيوعية » .

ولكنى عقب تركى الحزب رأيت أن أجتنب الانحدار إلى طائفة من تلك الطوائف المتعددة التى أصبحت تنتظم الذين خرجوا على الشيوعية وغادروا صفوفها ، ولم أشعر بندامة قط على ما كان منى لأنى أعلم المصير الذى سيجرى على تلك الطوائف والأشتات ، ويجعل منهم جماعات صغيرة تتمثل فيها جميع عيوب الشيوعية الرسمية ومساويها وتعصبها وانحصار السلطة فى أيديها ، دون أن تتوافر لها ما توافر لهذه الشيوعية من صفات ومزايا تستمدها من كثرة أشياعها وأنصارها بين العمال الكادحين .

وقد رأينا منطق المعارضة بأى ثمن وكيف يقود فريقاً كبيراً من الشيوعيين المنفصلين بعيداً عن نقطة ابتدائهم، وتؤدى بهم أحياناً إلى « الفاشية » .

وقد أدى بى التفكير فيما خضته من الخطوب ، إلى تعميق الدوافع التى دفعتنى إلى الانفصال ، حتى تكون أبعد كثيراً من دوافع الظروف التى حملتنى بادى الرأى عليه .

ولكن إيمانى بالاشتراكية الذى لا أتردد فى القول بأن حياتى كلها شاهد عليه ، باق إلى اليوم ، بل هو الآن أقوى وأبلغ حياة فى نفسى منه فى أى يوم مضى .

وقد عاد من ناحية جوهره إلى ما كان حين ثرت أول مرة على النظام الاجتماعى القديم ورفضت التسليم بالقدرية ، وآمنت بوجوب امتداد الدوافع الأدبية والخلقية من الجو الذى تنحصر فيه ، وهو جو الفرد والأسرة ، إلى أفق البشرية عامة ، ووجوب قيام أخوة فعالة فى العالم ، للتدليل على سمو الإنسان فوق النظم الاقتصادية والاجتماعية التى ترهقه .

وعلى مر السنين رحت أضيف إلى هذه كلها الإيمان بكرامة الإنسان واحترامه بما يحاوله دائماً لكى يجتاز المسافة القائمة دونه ، ويحقق ما هو كامن فى أعماق قلقه الدائم ، ولهفته الأبدية .

ولكنى لا أعتقد أن هذا النوع من الاشتراكية ، مقصور على تفكيرى وحدى ، خاص بى دون سواى؛ فإن الحقائق التى أسلفت عليكم ذكرها، أقدم عهداً من الماركسية العمالية التى أولدتها الرأسمالية الصناعية ، ولا تزال من موارد وحيها ، وينابيع إلهامها، وأشد حوافزها سلطانا ؛ وقد سبق لى أن أبديت مراراً رأيى فى العلاقات بين الحركة الاشتراكية ، ونظريات المذهب الاشتراكى ذاتها ؛ وقلت إن هذه العلاقات ليست صلبة ولا جامدة مطلقا ، فإن النظريات قد تصبح بفضل تطور الدراسات الجديدة، « موضة بالية » أو تطرح ظهرياً فلا يعنى أحد بها ، ولكن الحركة تظل قائمة وتبقى مستمرة ماضية فى وجهها ، وإن كان من الخطأ أو مجافاة الصواب فيما يتصل بالنزاع القديم

بين معاشر النظريين ، و بين الذين يتولون علاج الحركة العمالية وتوجيهها ، أن أوضع فى صف الأخيرة ، وضمن أفرادها ، لأنى لا أومن بالاشتراكية فى ارتباطها بنظرية خاصة ، ولكنى أنظر إليها كمذهب وعقيـــدة و إيمان ؛ وكلما ادعت النظريات الاشتراكية أنها قائمة على أسس « علمية » كانت أضعف شأناً، وأهون خطرا ، وأدنى إلى الزوال ؛ ولكن «القيم» الاشتراكية هى الثابتة الباقية ، أن كنت للأسف أرى الفارق بين النظريات والقيم لا يزال غير معترف به إلى الحد الكافى ، مع أنه فارق أساسى بالغ الخطر ، إذ يستطيع المرء على مجموعة من «النظريات» أن يؤسس مدرسة أو يقيم مذهباً ، ولكن على مجموعة من « القيم » يستطيع أن يؤسس ثقافة ، وحضارة ، وأسلوباً جديداً من الحياة يجمع بين الناس و يؤلف بين صفوفهم ...

ريتشارد رايت

– ١ –

فى يوم ثلاثاء تلقيت دعوة من جماعة من الشبان البيض عرفتهم فيما مضى حين كنت أشتغل فى إدارة البريد ، إلى لقائهم فى أحد الفنادق القائمة فى الجانب الجنوبى من مدينة شيكاغو للبحث فى أحوال العالم وشئونه .

وقد اجتمعنا فى الموعد المضروب وكنا عشرة فتيان ، ورحنا نأكل ساندوتش ، ونشرب الجعة ، ونتجاذب أطراف الأحاديث .

وقد أدهشنى أن أعرف أن كثيراً منهم انضموا فعلا إلى الحزب الشيوعى ، فمضيت أتحداهم سافراً ، وأورد على أسماعهم حكايات ونوادر عن الشيوعيين الزنوج الذين شاهدتهم فى المتنزهات العامة ، وما كان يقال لى عن تهريجاتهم ، وهى أنها ليست تهريجات ، بل « مناورات » وأن لا بأس منها ولا ضير ، ولكنى كنت من هذا القول فى شك مبين .

وفى ليلة خميس بعد ذلك الاجتماع لم يلبث شاب يهودى يدعى « صول » أن فاجأنا بقوله إن مجلة صغيرة تدعى «السِندان» ويتولى تحريرها « جاك كونروى » قبلت منه قصة قصيرة ، وأنه قد انضم إلى جماعة ثورية من الفنانين سمت نفسها « نادى جون ريد » .

وألح صول علىّ فى حضور اجتماعات هذا النادى .

قال : إننى على يقين من أنك ستحبها .

قلت : لست أريد أن أندمج فى هيئة ما .

قال : إنهم يستطيعون أن يعاونوك على الكتابة .

قلت : لا أحد يستطيع أن يعلمنى كيف أكتب ، أو ماذا أكتب .

قال ملحفاً : تعال وشاهد ، لأنك لن تخسر شيئاً .

وكنت أشعر يومئذ أن معاشر الشيوعيين لن يحفلوا بنا نحن الزنوج ، فقد كنت متشككا ، حتى لأوثر أن أسمع رجلا أبيض يقول إنه يكره الزنوج ، لأنه قول أعتقده صحيحاً دون تردد ، على أن أسمعه يقول إنه يحبهم ، لأنى لا أستطيع أن أصدقه .

فى ذات مساء أحسست مللاً من القراءة فاعتزمت الذهاب إلى نادى « جون ريد » كمشاهد ليس أكثر ، فقصدت إلى حى « لوب » وعثرت على رقم النادى ، وصعدت سلماً مظلماً إليه ، ولم تكن الظواهر مغرية ، حتى لقد سألت نفسى أى شىء فى الأرض يمكن أن يحدث فى مثل هذا الموضع المظلم ويكون له خطر وشأن ؟؟

ورأيت من خلال النوافذ القائمة فوق رأسى حيطانا وجدراناً قائمة ، حتى وقفت بباب كتب عليه « نادى جون ريد » ، ففتحته وإذا بى فى أغرب حجرة شهدتها فى حياتى .

فقد انتثرت الأوراق وأعقاب اللفائف على أديمها ، وصفت فى جوانبها المقاعد لصق الجدران ومن فوقها تبدو ألوان براقة تلوح منها صور حشود من العمال يحملون أعلاماً خفاقة ، وقد فغروا أفواههم متصايحين هاتفين ، وامتدت منهم السيقان فوق مختلف المدائن والبلاد .

وسمعت صوتاً مرحباً يقول « هالو ! » .

فُدرت بعينى لأتبين مَنْ المرحِّب ، فأبصرت رجلاً أبيض يبتسم لى .

قلت : لى صديق من أعضاء هذا النادى طلب منى أن أزوره هنا واسمه « صول » .

قال : أهلا وسهلا ، وإن كنا الليلة هادئين ، ليس لدينا شىء غير جلسة صحفية ، فهل ترسم .

وكان الرجل أشيب قليلا وله شارب .

قلت : كلا ، ولـكنى أعالج الـكتابة .

قال مقترحا: فلتحضر إذن الاجتماع الذى تعقده الليلة هيئة تحرير مجلتنا « الجبهة اليسارية » .

قلت : لا أعرف شيئاً عن « التحرير » .

قال : فلتتعلم إذن .

فحملقت البصر فيه متشككا .

قلت : لست أريد أن أثْـقِـل عليكم .

قال : إننى أدعى « جريم » .

فنبأته باسمى وتصافحنا .

وذهب إلى حجرة صغيرة وعاد يحمل رزمة من المجلات وهو يقول « إليك بعض الأعداد الماضية من مجلة « الجماهير » فهل اطلعت يوما على شىء منها ؟ » .

قلت : كلا .

قال : إنها تنشر لطائفة من خيرة الـكتاب فى أمريكا .

وقدم لى أيضاً مجموعة من مجلة تدعى « الأدب الدولى » وهو يقول : وفى هذه المجلة بحوث لأندريه جيد ، ومكسيم غوركى ..

فأكدت له أننى سأقرأها .

وأخذنى إلى مكتب وقدمنى إلى شاب يهودى قائلا : إنه ينتظر أن يصبح من أكبر الرسامين فى البلاد ، وإلى آخر سوف يصبح من أكبر المعاصرين فى الموسيقى ، وإلى كاتب سوف يخرج للناس أحسن القصص فى هذا الجيل ، وإلى فتى من اليهود سيضع فيلماً يصور فيه احتلال النازى لتشيكوسلوفاكيا ، وقال إننى أتعرف الساعة إلى رجال ونساء سأعرف لهم خطرهم على السنين ، وستتوثق بينى وبينهم أحسن الصلات وأقوى الروابط والوشائج فى حياتى .

وجلست فى ركن أستمع لهم وهم يتباحثون فى شئون مجلتهم « الجبهة اليسارية » .

ومضيت أسائل نفسى : أتراهم يتأدبون معى لأنى زنجى .. ؟ ؟

ورأيت أن أدع الهدوء والمنطق لى مرشداً حيال هؤلاء القوم .

واقترحوا علىّ أن أكتب شيئاً لمجلتهم ، فقلت إننى سأفكر فى الأمر .

ولقد لقيت بعد هذا الاجتماع فتاة إرلندية تشتغل فى وكالة لنشر الإعلانات ، وأخرى تعمل فى الإصلاح الاجتماعى ، وثالثة تتوفر على التدريس ، واجتمعت أيضاً بزوجة أستاذ كبير فى الجامعة ، وكنت فى سالف أيامى قد اشتغلت خادما لأمثال هؤلاء ، فلا عجب إذا شعرت بشىء من التشكك ، وحاولت أن أتعمق فى البحث عن الدوافع التى حملتهم على لقائى ، والترحيب بى ، ولكننى لم أهتد من بحثى إلى أى عارض من أعراض « التَـنَـزُّل » فى هذه المعاملة التى رأيتها منهم .

— ٢ —

وأويت إلى دارى كثير التفكير ، والتأمل ، أحاول معرفة مدى الصدق والإخلاص فى هولاء الغرباء الذين التقيت بهم ، مسائلا نفسى هل هم حقاً يحترمون الزنوج ويرتضونهم ؟

والتمست فراشى واستلقيت وعكفت على قراءة تلك الأعداد ولشد ما دهشت أن وجدت أن فى هذا العالم فعلا بحثاً منظما عن حقيقة حياة المظلومين والمضطهدين والمنبوذين ؛ ولطالما عجبت من قبل حين كنت أستجدى الخبز من الموظفين ، وتساءلت هل سيأتى حقاً يوم يتحد فيه طريدو القانون عملاً وتفكيراً وشعوراً فيصبحون قوة يعتد بها ، ويتوافر لهم سلطان لا يغض أحد منه .

واليوم قد أدركت أن ذلك فعلا حادث فى سدس الأرض ، إذا أبصرت الكلمات والعبارات الثورية تقفز من صفحات هذه المجلات وتصدمنى بقوة بالغة .

ولم يستأثر بمشاعرى منها النواحى الاقتصادية من الشيوعية ، ولا قوة النقابات ونفوذها العظيم ، ولا أعمال الحركات السرية وأساليبها ؛ ولكن كل ما أخذ عينى

منها ، واستولى على خاطرى ذلك التشابه الملموس بين أحوال العمال فى مختلف الأمصار ، واحتمال توحيد صفوف الأقوام المتماثلين فى الحياة والألم والعذاب ، وإن افترقوا أقطاراً ، وتباينوا شعوباً وقبائل ، فتكون منهم قوة واحدة ؛ وقيل لى إن محنة الزنوج واجدة فى هذا الأفق الثورى وحده ملجأ وملاذاً وقيمة فعلية ودوراً نضطلع به ، وأحسست من جانب هذه المجلات والصحائف نداء حار قوياً يدعو المعذبين فى الأرض ويتصل بآلامهم ، ويلمس أحاسيسهم الخفية ويساعدهم ؛ ولم أجد خلالها أثراً لشنشنة المبشرين ، وثرثرة الدعاة والمروجين ، فلم تقل واحدة منها «اقتدوا بنا ونحن نحبكم أو قد نحبكم» ، ولكنها جميعاً راحت تقول «إذا أوتيتم من الشجاعة ما يكفى لكى تصارحوا الدنيا بحقيقة أمركم ، فلن تجدوا حينئذ أنكم وحدكم ، ولن تشعروا بأنكم فى معزل أبداً» .

لقد رأيتها جميعاً تدعو الحياة إلى الإيمان بالحياة . .

وأوغلت فى القراءة إلى موهن من الليل .

وطلع الفجر علىّ وأنا لا أزال ممعناً فى القراءة ، ولكنى لم ألبث أن قفزت من مرقدى ، ووضعت الورق فى مكانه من الأداة الكاتبة شاعراً لأول مرة فى حياتى أننى مستطيع أن أوجه القول إلى آذان واعية ، فأكببت على نظم قصيدة ثائرة ، متمردة غير مقيدة بالأوزان والبحور ، راسماً صوراً سوداً لأيد وأذرع تعمل وتجاهد وترفع الحراب وتمتشق السلاح ، ثم تتشخب أخيراً حتى يغلبها الموت ؛ وأحسست أن هذا الكلام الذى صغته يربط بين البيض والسود . ويدمج محناً وخطوباً بمحن مثلها وخطوب .

وإذا بى أسمع حركة إنسان فى المطبخ ، وصوت أمى تنادى : «ريتشارد» ماذا بك ، أأنت مريض ؟؟

قلت : كلا ، بل أطالع .

وفتحت أمى الباب ووقفت تحملق البصر فى كومة المجلات الملقاة فوق الوسادة ، ثم انثنت تقول : ما أحسبك تبدد النقود فى شراء هذه المجلات كلها ؟

قلت : كلا ، لقد أعطيت لى ...

فراحت تظلع بساقيها الكسيحتين إلى الفراش وتناولت عدداً من مجلة «الجماهير» وكانت على غلافه صورة كاريكاتورية بمناسبة « يوم أول مايو » .

ووضعت منظارها على عينيها وراحت تطيل النظر فى تلك الصورة ، ثم صاحت فزعة : « يا آلهى ما هذا ؟؟ » .

قلت : ماذا يا أماه ..؟؟

قالت وهى تدفع بالمجلة إلى يدى وتشير إلى صورة الغلاف : ما هذا الذى أراه .. وما خطب هذا الرجل المصور فى هذا الرسم المخيف ...؟؟

فوقفت أتأمل الصورة ، وهى بجانبى ، وكانت تلك الصورة من ريشة رسام شيوعى ، رسم فيها صورة عامل مشتمل ببذلة الشغل المهلهلة ، وممسك بقلم أحمر ، وقد جحظت منه العينان ، وفغر فمه حتى أصبح بعرض وجهه كاشراً عن أسنانه ، متوتر الرقبة كأن عروقها الحبال ، ومن خلفه جمع من الرجال والنساء والأطفال بشعى السحنة ، وهم ممسكون بالهراوات والأحجار والمجاريف .

وانثنت أمى تسألنى قائلة : « ماذا يهمُّ هؤلاء الناس بأن يفعلوا ؟ ؟ » .

قلت متغابياً : لا أدرى .

قالت : أهذه مجلات شيوعية ؟؟

قلت : نعم .

قالت : وهل يريدون أن يفعل الناس هذا .

قلت : والله ... وترددت فلم أستكمل .

فبدا الاشمئزاز والاستنكار على وجه أمى ، فقد كانت امرأة رقيقة المشاعر ، كل مثلها الأعلى فى المسيحية والمسيح ، فكيف أستطيع أن أقول لها أن الحزب الشيوعى يريدها على أن تسير فى الشوارع هاتفة صاخبة منشدة ؟؟

ومضت تسأل : ماذا يظن الشيوعيون إذن بالناس ؟ ؟

قلت متلعثماً : إنهم لا يعنون هذا الذى ترينه فى الصورة .

قالت : وماذا يعنون إذن ؟؟

قلت : إن هذا الرسم « رمزى » .

قالت : ولماذا لا يصارحون الناس بما يريدون .

قلت : لعلهم لا يعرفون الوسيلة .

قالت : وعلامَ إذن ينشرون هذا .

قلت معترفاً، وأنا فى عجب لا أدرى من ذا الذى أستطيع أن أقنعه إذا لم أستطع إقناع أمى : إنهم لا يعرفون إلى الآن كيف يخاطبون قلوب الناس ويتحدثون إلى أرواحهم .

قالت وهى تضع المجلة ، وتتولى منصرفة : « إن هذه الصورة كافية لأن تذهب بعقول الناس وتردهم مجانين » .

ووقفت لدى الباب وأردفت تقول : « لا أحسبك مختلطاً بهؤلاء الناس، أليس كذلك ؟؟ » .

قلت متهرباً : « إننى أطالع فقط يا أماه ... » .

ولم تكد أمى تنصرف حتى انثنيت أفكر فى عجزى الظاهر عن مواجهة تحديها البسيط ، وعدت ألقى نظرة أخرى على غلاف مجلة « الجماهير » فتبين لى أن هذه الصورة الرمزية لا تصور مشاعر العامة ، فتصفحت موضوعاتها مرة أخرى فلم ألبث أن اقتنعت بأن كثيراً مما حوته لم يكن سوى ما حسب « الرسامون » أنه مؤثر فى نفوس الناس ، وما ظنوه كفيلاً بأن يكسب الأنصار ، ويأتى بالأشياع والمريدين ، وأدركت أن معاشر الشيوعيين قد وضعوا خططاً، ورسموا تصميمات ، ولكن لا تزال تعوزهم اللغة ، ولا يزالون يفتقرون إلى التعبير .

ها هنا إذن شىء أستطيع أن أكشف عنه ، وأصارح به ، وأسد المفاقر إليه .

فقد بدا لى أن الشيوعيين أسرفوا فى تبسيط المحن والآلام التى يعانيها الذين يريدون أن يتموا صفوفهم ويقووا جموعهم ، وأنهم فى محاولة كسب الجماهير ، نسوا

التعبير عن معنى حياة الجماهير ، وتصوروا الناس تصوراً خيالياً محضاً لا يمت إلى الحقيقة ، فلأحاول أنا أن أصحح هذا المعنى، أو أرده إلى حقيقته ، فأحدث الناس عامة عن تضحية الشيوعيين الذين يجاهدون فى سبيل تحقيق الوحدة البشرية فى هذا العالم .

وقبل رئيس تحرير مجلة « الجبهة اليسارية » قصيدتين ساذجتين لى لنشرهما ، و بعث باثنتين إلى جاك كونروى رئيس تحرير «السندان» وأخرى إلى مجلة «الجماهير الجديدة » ، التى حلت محل « الجماهير » .

ولكن الشكوك كانت لا تزال تخامر خاطرى .

قلت : لا ترسلها إذا رأيت أنها ليست جيدة .

قال : إنها جيدة فعلا .

قلت : هل تفعل ذلك لتحملنى على الانضمام ؟

قال : كلا . إن قصائدك لا تزال « خاما » ولكنها نافعة لنا ، ألا ترى أننا جديدون جميعاً فى هذا الأمر الذى نضطلع به ، إننا نكتب مقالات عن الزنوج . ولكننا لا نرى زنوجا مطلقاً ، إننا بحاجة إلى مادتك .

وحضرت عدة اجتماعات فى النادى فراقنى من نشاطه سعة نطاقه وجديته . وكان النادى يطالب الحكومة بتهيئة أعمال للرسامين والفنانين والمتعطلين ، و يتولى كذلك تنظيم المعارض والمتاحف ، وجمع الأموال لنشر مجلة « الجبهة اليسارية » : و إيفاد عشرات من الخطباء لحضور اجتماعات النقابات .

وكان أعضاؤه متحمسين ديموقراطيين لا يفترون عن الحركة والتفانى والإيثار ، فكانت استجابتى لهم أننى عولت على أن أعرف معاشر الزنوج بحقيقة الشيوعيين ، وخطرلى أن أكتب سلسلة صورقلمية للزنوج الشيوعيين، ولكنى لم أكاشف أحداً بنيتى ، ولم أكن أدرى أن مطمحى هذا كان ساذجاً غريباً فى ذاته .

— ٣ —

ولم أكد أحضر بضعة اجتماعات حتى أدركت أن هناك حربا انقسامية مريرة

بين جماعتين من الأعضاء ؛ وكان كل اجتماع مقترنا بصخب بالغ ، ونقاش عنيف .

ولاحظت أن فئة قليلة من « الرسامين » هى التى تتزعم النـادى وتسيطر على سياسته ، وأن جماعة الـكتاب الذين يحيطون بمجلة « الجبهة اليسـارية » متأففون من زعامة الرسامين منكروها عليهم .

وكانت مصلحتى من البداية مع المجلة، فلم يسعنى إلا أن أقف فى صف الـكتاب .

وما لبث أن حدث تطورعجيب ، فقد راحت جماعة « الجبهة اليسارية » تعلن أن الزعامة الحاضرة لا تمثـل رغبات النادى واتجاهاته ، فتقرر عقد جلسة خاصة ، وتقدم مشروع قرار باعادة انتخاب سكرتير ينوب عن اللجنة التنفيذية ، وعند ما رشحت أسماء لهذا المركز كان اسمى من بينها ، ولـكنى رفضت معلناً الأعضـاء أننى أجهل أغراضهم إلى حد لا يصح معه ترشيحى .

واستمرت المناقشات طيلة الليل، وأخذت الأصوات فى ساعة مبكرة من الصباح بطريقة رفع الأيدى ، وإذا بى الفائز فى الانتخاب .

وقد عرفت فيا بعد حقيقة ما جرى ، فقد أجمع فريق الـكتاب فى النادى على الانتفاع بى فى سبيل إخراج الرسامين الأعضاء فى الحزب الشيوعى من زعامة النادى، ومضوا بغـير علمى ولا موافقتى يواجهون الحزب بزنجى مثلى ، وهم يعلمون أنه من الصعب على الشيوعيين أن يرفضوا التصويت فى مصلحة رجل يمثل الأقلية العنصرية الـكبرى فى الشعب ما دامت المساواة بين البيض والسود أحد مبـادئ الشيوعية وتعاليمها الأساسية .

ولم ألبث بوصفى زعيماً للنادى أن علمت بطبيعة هذا النزاع القائم فيه وخافيته ؛ فقد ذهب الشيوعيون خفية ينظمون فى النادى حز باً صغيراً من أعضائه المنتمين إلى الحزب الشيوعى ، واتفقوا على الاجتماع خارج النادى للبحث فى الخطة السياسية التى ينبغى له اتباعها .

وكان المألوف فى اجتماعات النـادى أن قوة الحجة هى وحدها التى تحمل

الأعضاء غير الحزبيين على تأييدهم فى الانتخابات ؛ وكان جوهر النزاع تذمر الأعضاء الذين لا يمتون إلى الحزب الشيوعى من المطالب المسرفة التى يطلب الحزب من النادى تنفيذها من طريق هذه « الفئة » أو ذلك الحزب الضئيل .

فقد كانت مطالبتهم النادى بالأموال والخطباء ورسامى اللافتات والإعلانات كثيرة إلى حد يهدد مجلة الجبهة اليسارية بالاحتجاب ؛ وكان فريق كبير من الكتاب والأدباء الشباب قد انضموا إلى النادى أملاً فى نشر ما يكتبونه فى هذه المجلة ؛ وعند ما أبلغ الحزب النادى من طريق هذه الفئة أن المجلة ستقف عن الصدور لم يلبث الكتاب أن رفضوا الأخذ بهذا القرار ، فعد تصرفهم على هذا النحو إجراء عدائياً نحو الحزب وسلطته .

وقد حاولت إقناع أعضاء الحزب بوجوب ترك مدى واسع من حرية العمل للنادى ، ولكن محاولتى لم تزد النزاع إلا احتداماً ، والخصومة إلا مرارة واشتداداً ؛ وجاءنى عندئذ من يبلغنى بأننى إذا أردت الاستمرار فى العمل كسكرتير للنادى فمن المتعين علىّ أن أنضم إلى الحزب الشيوعى ، فقلت إننى أؤيد كل سياسة من شأنها تعزيز مكانة الكتاب والفنانين فقبلوا هذا الرأى منى ووقعت طلب الانضمام إلى العضوية .

وفى ذات ليلة حضر اجتماعنا شاب يهودى وعرفنا بنفسه فقال إنه يدعى «الرفيق يونج » من أهل « ديترويت » ، وإنه عضو فى الحزب الشيوعى ، ونادى جون ريد فيها ، وإنه اعتزم المقام فى شيكاغو .

وكان الفتى قصير القامة متلطفاً فاحم الشعر ، كثير الاطلاع ، متدلى الشفتين ، جاحظ العينين ، فلم يسعنا غير الترحيب به ، لقلة حيلتنا فى تنفيذ مطالب الحزب الشيوعى ؛ ولكنى لم أستطع أن أفهم حقيقة شخصية هذا الشاب وخافية شأنه . إذ جعل كلما وجهت إليه سؤالا يتولى بوجهه ويغمغم بكلام غامض مضطرب ، فرأيت

أن أحيل أوراقه إلى الحزب لمراجعتها وعينته عضواً فى النادى ، واعتقدت أن لا بأس منه ، ولا غبار عليه إلا أنه فنان غريب الأطوار .

ولكنه عقب ارفضاض الاجتماع واجهنى بمشكلة ، فقد ذهب يقول إنه لا يملك مالا ويطلب أن يؤذن له فى المبيت فى النادى حتى حين ، فأذنت له لاعتقادى صدقه وإخلاصه ؛ وإذا به بعد قليل يصبح من أشد أعضاء النادى حماسة ، وأكسبهم للاعجاب العام ، وكان رسمه فى أعين خيرة الفنانين بديعاً ، وإن كنت لا أدرى وجه الإبداع فيه .

ولم أتلق عنه تقريراً من الحزب الشيوعى ، ولكنى رأيته عاملاً نزيهاً مجداً ، فلم ألق بالاً إلى شىء من ذلك ، ولم أعتقد أن إغفال الحزب إرسال تقرير عنه ينطوى على أمر خطير بأى حال من الأحوال .

ففى أحد الاجتماعات الليلية طلب يونج أن يعطى الكلمة ، ولما حل دوره نهض للكلام وراح يحمل أشد حملة عرفها النادى فى كل تاريخه على رسام من خيرة رسامينا وهو فنان يدعى « سوان » ، فبهتنا مما سمعنا ، إذ ذهب يتهمه بالخيانة والغدر والوصولية والتعاون مع البوليس ، والتشيع التروتسكى ؛ ولكن أكثر أعضاء النادى اعتقدوا بطبيعة الحال أن يونج لعضويته فى الحزب الشيوعى إنما كان يجاهر برأى الحزب واعتقاده .

ومن فرط الدهشة والحيرة اقترحت على المجلس إحالة أقوال يونج على اللجنة التنفيذية للبت فيها ، فاحتج سوان على اقتراحى ، وكان احتجاجه فى محله ، إذ قال إنه قد هوجم علناً ، ومن حقه أن يدافع عن نفسه علناً كذلك .

وأخذت الأصوات فوافق الأعضاء على السماح له بالكلام ، وانبرى يفند تهم يونج الصارخة ، ولكن الأغلبية ظلت حائرة لا تدرى هل تؤمن بقوله أم لا ، فقد كنا جميعاً نحبه ، ولا نعتقد أنه موضع اتهام ، ولكننا لا نريد أيضاً أن نغضب الحزب .

ولم تلبث أن نشبت معركة كلامية ، وأخيراً نهض الأعضاء الذين لازموا الصمت

طيلة الأخذ والرد ، احتراماً للحزب ، وطلبوا منى سحب التهم الخرقاء التى وجهت إلى سوان .

ولكنى عدت فاقترحت وجوب إحالة الأمر إلى اللجنة التنفيذية ، وعادوا فخذلوا هذا الاقتراح ؛ فقد بدأوا يستريبون بدوافع الحزب وأغراضه ويخشون أن يحال الأمر على اللجنة وأكثرها من أعضائه فتقر التهم التى وجهها «يونج» وهو عضو فيه.

وسألنى بعد ذلك وفد منهم : هل لى يد فى هذه التهم التى كالها الشاب اليهودى لذلك الفنان ؛ فشعرت من هذا السؤال بحرج أليم ، وأقسمت أن لا علاقة لى بتاتا به ؛ ورأيت أن أنهى هذه المهزلة فما زلت به أسأله عمن أذن له فى هذا الطعن الذى وجهه إلى سوان حتى أجاب قائلا : « لقد طلب منى أن أطهر الحزب من الخونة » .

قلت : ولكن « سوان » ليس خائنا .

قال وقد جحظت عيناه ، وارتعشت معالم وجهه من الانفعال : لا بد من التطهير .

ولم أجد بأساً من حماسته الثورية ، ولكنى اعتقدت أنها متطرفة أكثر مما يجب .

وازداد الموقف حرجا .

فقد أبلغنى وفد من الأعضاء أنهم سيستقيلون إذا لم تسحب الاتهامات التى وجهت إلى سوان .

فكتبت إلى الحزب الشيوعى أسأله لماذا صدرت الأوامر بمعاقبة سوان ، فجاءنى الرد منه يقول إن الأوامر لم تصدر بذلك إطلاقا .

فعجبت للشاب اليهودى : ماذا تراه يقصد ، ومن الذى حرضه ؟

وأخيراً طلبت إلى الأعضاء أن يسمحوا لى بأن أضع الأمر أمام زعماء الحزب . وقبلوا اقتراحى بعد نقاش عنيف .

وفى ذات مساء اجتمع عشرة منا فى مكتب أحد زعماء الحزب لنسمع يونج وهو يكرر الاتهامات التى وجهها إلى سوان ، وكان هذا الزعيم يلوح مترفعاً لاهيا متفكهاً

بالحادث ؛ وقبل أن يبدأ يونج الكلام ، أشار إليه الزعيم أن يفعل ، فاذا به ينشر بين يديه أوراقاً وصفحات ، و يعدد منها تهماً سياسية جديدة تفوق فى بشاعتها التهم التى سمعناها فى النادى منه .

فحدجته بنظرى ، وقد شعرت بأنه قد اقترف خطأ عظيما ، ولكنى كنت أخشاه لأنه مستمتع بنفوذ جهة سياسية يخاف بأسها و يخشى شرها .

ولما فرغ الفتى من اتهاماته ، انبرى الزعيم يسأله : هل تسمح لى بالاطلاع على هذه الأوراق ؟؟

قال : بلا شك ، ومد يده بنسخة منها قائلا : ولك أن تحفظ هـذه النسخة لديك ، فإن لدى عشراً منها « بالكاربون » .

قال : ولماذا نسخت هذه الصور العشر ؟ ؟

قال : خيفة أن تسرق منى .

وانثنى سوان يقول : إذا أخذت تهم هذا الرجل مأخذ الجد فسأستقيل وأفضح النادى علناً .

وهنا صرخ يونج قائلا : هل رأيتم ، إنه يشتغل مع البوليس !

وعندئذ غلبنى الاشمئزاز ، واستولى الضجر على نفسى ، ولكن لم ينته الاجتماع إلا بعد أن تعهد الزعيم الشيوعى بأن يدرس الأوراق دراسة دقيقة ، و يقرر هل يصح أن يحاكم سوان عليها أم لا .

وكنت على يقين أن هناك خطأ ما ، ولكنى لا أستطيع إدراك كنهه أو اكتشافه .

وفى ذات أصيل ذهبت إلى النادى لأتحدث طويلا إلى يونج ولكنى لم أجده فيه ، فانتظرت إلى اليوم التالى ، ولكنه لم يظهر ، وظللت أسبوعا أترقبه فلا أهتدى إليه ؛ وجعل الأعضاء يتساءلون أين ذهب ، ولا يصدقوننى حين قلت لهم إننى لا أدرى أين مكانه ، ولا أعلم هل تراه مريضاً أو قبض البوليس عليه .

وفى ذات يوم تسللنا أنا والرفيق « جريم » إلى النادى وفتحنا حقائبه ؛ ولشد ما بهتنا مما رأينا ، فقد وجدنا أولاً رقاً طويلاً يبلغ طوله عشرين ياردة ، وهو مؤلف من صفحات بعضها لصق بعض ، وتحوى رسوماً تبين تاريخ البشرية من وجهة نظر الماركسيين ، وقد كتب على الصفحة الأولى منها « سجل مصور لتاريخ التقدم الاقتصادى » .

قلت : هذا بحث عظيم ، ومطمح دراسة عالية .

فأجابنى جريم قائلا : يظهر أنه بحاثة .

ووجدنا أخيراً كتاباً عليه عنوانه فى « ديترويت » وفيه يسأل كاتبه عن أنباء العضو المحترم وأحواله .

و بعد بضعة أيام جاء كتاب يقول :

« سيدى العزيز

« رداً على كتابكم نحيطكم علماً بأن المستر يونج كان مريضاً فى هذه المصحة وهرب منذ بضعة شهور وقد عثرنا عليه وأعدناه لمعالجته من المرض العقلى الذى يعانيه .. » .

فكأنما دهمتنى صاعقة ، أحقاً ما قرأت .

ولكن الواقع واضح صريح .

فيا للعجب ! أى ناد هذا الذى نديره إذا كان مجنون قد دخل حظيرته وساعد على إدارته ، أ كنا إذن مجانين مثله فلم نستطع أن نكتشف مجنوناً بيننا على هذا النحو ..؟؟

وعندئذ تقدمت باقتراح يرمى إلى سحب جميع التهم التى وجهت إلى سوان ، وأقر الأعضاء اقتراحى ، واعتذرنا للرجل ؛ ولكنى ظللت شيوعياً معذبا محترق الخاطر ، و إن مضيت أدير النادى وأشرف عليه .

— ٤ —

وطلب الأعضاء المنتمون إلى الحزب الشيوعى فى النادى أن أشير على « الخلية » التى أنتمى إليها بأن تسمح لى بتأدية العمل فى النادى وقضاء كل الوقت فى مباشرته، كما طلبوا منى أن أقدم إليها تقريراً عن وجوه نشاطى من تأليف وتنظيم وخطابة. وقد فعلت.

وكانت الخلية هى الوحدة الأساسية للحزب الشيوعى والعضوية فيها إلزامية لا مفر لعضو منها.

وكانت اجتماعاتها تعقد فى بعض الليالى سراً، خوفاً من كبسة البوليس. والمألوف ألا يقع غدر أو تحدث خيانة فى هذه الاجتماعات، ولكن لا يصح للمرء ما دام قد أصبح شيوعياً أن يستهدف لأنظار الشرطة.

وذهبت إلى أول اجتماع لخليتى فى حى الضفة الجنوبية وقدمت نفسى إلى المنظم الزنجى.

فقال وهو يبتسم : « أهلا وسهلا أيها الرفيق، يسرنا أن يكون كاتب بيننا ».

فقلت : لست كاتباً ولا بد ...

و بدأ الاجتماع.

وكان الحاضرون قرابة عشرين زنجياً.

وجاء دورى للكلام، فأخرجت مذكراتى، ومضيت أشرح لهم كيف كان انضمامى إلى الحزب والقصائد التى نشرتها والرسائل التى كتبتها، والعمل الذى أؤديه فى النادى.

ولما انتهيت من تقريرى انتظرت أن يكون ثمة تعليق عليه، فإذا السكون مخيم؛ فدرت بعينى فى القوم، فإذا هم مطرقو الرءوس، ولكنى لمحت ظل ابتسامة على فم امرأة زنجية.

ومضت دقائق.

وإذا بتلك المرأة ترفع رأسها وتنظر إلى « المنظم » وإذا به يختنق ضحكة تغالبه ؛ وعندئذ ضجت المرأة ضاحكة حتى كادت تستلقى من فرط الضحك لولا أن راحت تدفن وجهها بين راحتيها .

فوقفت محملقاً مبهوتاً .

أترانى قلت شيئاً مضحكا ... ؟؟

قلت : ما الخبر .. ؟؟

فشاع الضحك فى المجلس ، ولكن المنظم — وكان يلعب بقلمه الرصاص طيلة الوقت — لم يلبث أن رفع رأسه وراح يقول : لا شىء أيها الرفيق ، إنه ليسرنا أن يكون بيننا كاتب .

فعاد القوم يضحكون .

قلت لنفسى من فرط العجب : أى قوم هؤلاء ، لقد قدمت تقريراً جدياً معقولا فإذا بهم يقابلونه بالضحك والتهاتف والابتسام .

وانثنيت أقول مرتبكا قلقاً : لقد فعلت كل ما فى وسعى أن أفعل ... وقد أدركت أن الكتابة ليست عملاً أساسياً أو ذا بال ، ولكنى أستطيع أن أساعد وأعاون إذا هيأتم لى الوقت ، وأفسحتم لى المجال .

قال : إننا نعرف أنك تستطيع أيها الرفيق .

وكانت لهجته أشد ترفعاً من لهجة البيض ، فغضبت واشتد بى الحنق .

لقد كنت أظن أننى بهؤلاء القوم عليم ، ولكن تبين لى عندئذ أننى كنت مخطئاً .

وأردت أن أدخل معهم فى نزاع ، وشجار على هذا المسلك المعيب نحوى ، ولكنى رأيت من الحذر والحيطة أن أتحدث عنه أولا مع بعض الناس .

وقد علمت فى الأيام التالية من التحرى والاستقصاء أننى قد بدوت عنصراً غريباً فى أعين أولئك الشيوعيين السود ، بل لشد ما ذهلت وعجبت أن سمعت

أنهم دعونى أنا الذى لم أتلق من التعليم أكثر من « الابتدائى » فى مصاف « المستنيرين » .

ولم أكن من قبل قد سمعت شيئاً عن معنى « المستنير » الذى أرادوه ، ولا علمت بهذا التعريف الذى به عرفوه ؛ وقد كنت أظن أنهم سيرفضون انضمامى إليهم بدعوى أننى لا أدرى كثيراً فى « السياسة » ، أو لعلهم قائلون إن مسألتى تحتاج إلى بحث وحالتى تقتضى التحقيق .

ولكنهم اكتفوا بالقهقهة ساخرين .

وما كان أشد كمدى حين علمت أن الشيوعيين السود فى خليتى استدركوا على حذائى اللامع ، وقميصى النظيف ، وربطة العنق التى ارتديتها ، بل إن لهجتى فى الكلام بدت لهم شيئاً غريباً عنهم وأمراً مستنكراً .

وقال أحدهم « إنه يتكلم بلغة الكتب » .

وكان هذا وحده كافياً للحكم علىّ إلى الأبد بأننى « بورجوازى » لا أكثر ولا أقل ...

— ٥ —

وفى عملى المتصل بالشيوعية عرفت رفيقاً زنجياً يدعى « روس » كان متهماً « بالتحريض على الشغب » .

وكان « روس » هذا مثال المهيِّج الشديد النفوذ فى الجماهير ، وكان مولده فى الولايات الجنوبية ثم هاجر إلى الشمال ، وكانت حياته صورة الآمال الساذجة ، والخيبة المريرة التى تغالب نفس القروىّ المنحدر إلى الحضر ؛ فكان المتشكك المستريب وإن لم يكن المتهجِّم النازع إلى العدوان ، فهو مجموعة من رذائل وفضائل اختلطت فى نفس إنسان يجاهد مكفوف البصر أو معصوب العين بين جماعتين ، ويناضل أعمى بين بيئتين مختلفتين ، رجل يعيش على هامش ثقافة ؛ حتى لقد بدا لى أننى مستطيع إذا عرفت دقائق قصته ، وماضى حياته ، أن أصور بعض المتاعب والمشاق التى تلازم

التوفيق بين أهل القرى و بين الحياة فى المدن ، والعيش فى بيئة متحضرة ، وأننى مستطيع أن أعرف الناس بحياته أكثر من معرفته هو بنفسه .

ورحت أفاتح «روس» فى أمرى وأشرح له الخطة التى انتويتها ، فكان المتلطف المتودد ، ودعانى إلى بيته ، وعرفنى بامرأته اليهودية وابنه الصغير وأصحابه .

ولبثت ساعات أتحدث إليه شارحاً مرادى طالباً إليه ألا يبوح لى بشىء يريد كتمانه .

وقلت له : إننى أريد أن أعرف النوازع التى نزعت بك إلى الشيوعية .

ولم تلبث الإشاعة أن سرت فى الحزب بأننى أخذت أدون مذكرات عن حياة « روس » و إذا بأحداث غريبة تقع ، فقد جاءنى مثلا شيوعى من الزنوج ذات ليلة وأنا فى دارى وطلب منى أن أخرج معه إلى الشارع ليتحدث معى على انفراد . ولمح لى تلميحاً عن مصيرى أثار به مخاوفى .

قال بلهجة جدية : اسمع يا رايت ، إن المستنيرين لا يجدون محلا فى الحزب ولا يصلحون له .

قلت محتجاً : ولكنى لست منهم . إننى أكنس الشوارع لأصيب قوتى .

وكانت إدارة الترفيه قد كلفتنى أخيراً كنس الشوارع لقاء ثلاثة عشر دولاراً فى الأسبوع .

قال : ولو ... فإن لدينا مذكرات عن مختلف المتاعب التى عانيناها فى الماضى من معاشر « المستنيرين » . و يقدر عدد الذين يبقون منهم فى الحزب بثلاثة عشر فقط فى المائة .

قلت : ولماذا يتركون الحزب ما دمت تصر على تسميتى « بالمستنير » ؟

قال : أكثرهم يذهبون من حيث أتوا مختارين .

قلت : ولكنى لن أذهب .

قال بلهجة رهيبة وتلميح له معانيه : ولكن بعضهم يطرد طرداً .

قلت : بأية تهمة ؟

قال : معارضة سياسة الحزب .

فعدت أقول : ولكنى لست معارضاً فى شىء .

قال : سيطالبونك بالتدليل على ولائك له .

قلت : وكيف ؟

قال : إن للحزب وسائله الخاصة فى اختبار الناس .

قلت : هذا كلام لا أسيغه .

قال : كيف تفعل إزاء مراقبة البوليس ؟

قلت : لا أفعل شيئاً ، لأنهم لم يحتكوا يوما بى ، ولم أجد منهم عنتاً .

قال وهو يشير إلى زنجى شيوعى معروف « بالشغب » : هل تعرف إيفانز ؟؟

قلت : نعم ، لقد اجتمعت به .

قال : هل لاحظت أنه مصاب بأذى .

قلت : نعم ، كان رأسه مضموداً .

قال : إنه أصيب بذلك الجرح فى مظاهرة ، وكان البوليس هو الذى اعتدى عليه ، هذا هو الدليل على الولاء للحزب .

قلت : هل تعنى بهذا أن أتعرض لضرب البوليس و إصابة رأسى لمجرد التدليل على ولائى ؟؟

قال : لست أعنى شيئاً . إننى إنما أشرح لك وأفسر .

قلت : وماذا يحدث إذا أنا تلقيت ضربة من يد البوليس فأحدثت لى ارتجاجا فى المخ ، وافرض أننى لم أعالج منها بعد ذلك ، فهل أستطيع أن أكتب ، وماذا أقمت الدليل عليه فى هذه الحال ؟؟

فهز رأسه وانثنى يقول : لقد اضطر الاتحاد السوفييتى إلى التخلص من كثير من المستنيرين بقتلهم رمياً بالرصاص .

فصحت أقول : يا لله .. هل تعرف ماذا أنت قائل ؟ إنك لست فى روسيا ، إنك واقف الآن فى أحـد شوارع شيكاغو ، ومع ذلك تتكلم كمن هو تائه ضال فى موكب .

قال : هل علمت بما جرى لتروتسكى ؟

قلت : نعم ، لقد أبعدوه عن روسيا .

قال : وهل تعرف لماذا ؟؟

قلت : والله . . وأمسكت محاولا ألا أكشف عن جهلى بالسياسة لأننى فى الواقع لم أكن متتبعاً تفاصيل النزاع بين تروتسكى والحزب الشيوعى فى روسيا ، ولـكننى مضيت أقول : الظاهر أن الحزب اتخذ قراراً فعمد هو إلى مخالفته .

ولـكن محدثى صاح بى متضجراً برماً ، إنه أبعد لنشاطه المناهض للثورة .

وقد علمت فيما بعد أن جوابى ذلك لم يكن مرضياً، ولم يُصـْغ فى قالب مقبول، ولاعبارة من العبارات الجارية على الشفاه المليئة بالحقد على تروتسكى واستنكار فعلته .

قلت : أعرف ذلك ، ولـكنى لم أقرأه فى حياتى، فما هو موقفه من الأقليات ؟؟

قال : لماذا تسألنى .. أنا لا أقرأ تروتسكى .

قلت ، اصغ لى ، إذا وجدتنى أقرأه فما معنى ذلك عندك ؟ ؟

قال بلهجة المستاء المتضايق : أيها الرفيق ، أنت لا تفهم .

وهكذا انتهى بيننا الحديث .

ولـكن تلك العبارة الأخيرة « أيها الرفيق أنت لاتفهم » ، لم تـكن آخر مرة أسمعها وإن كنت خالى الذهن لا أعرف أنهم يعتقدون أننى ضال مخطىء ، والواقع أننى لم أقرأ شيئا مما كتبه تروتسكى ، بل العكس هو الصحيح ، فقد شاقنى كتـاب « ستالين » ، « المسألة القومية والمسألة الاستعمارية » .

وفى الحق لم يستأثر بخاطرى من كل التطورات التى حدثت فى الاتحاد السوفيتى غير الوسيلة التى اتخذها للسير بعشرات من الشـعوب المتخلفة إلى الوحدة الوطنية ،

والتضامن القومى ، كما قرأت من قبل كيف كان الشيوعيون يوفدون خبراء لغويين إلى أقصى أرجاء روسيا ليستمعوا إلى شكوى الشعوب التى ظلت قروناً تعانى طغيان القياصرة وعسفهم ، ويحاولوا فهم رطاناتهم ، مما حذقوه من علم الأصوات ، واللهجات؛ وكان أول ما هز يومئذ عاطفتى اطلاعى على جهد أولئك الخبراء فى تدريب أولئك الأقوام على الكلام ، وتنظيم لغة لهم ، وإدخال الصحافة على حياتهم ، وإنشاء معاهد فى ربوعهم النائية ؛ وقرأت كيف كانوا يشجعون تلك الشعوب المنسية المهملة على الاحتفاظ بثقافاتهم القديمة ، واستخلاص معان ومشاعر لا تقل عمقاً عن المعانى والمشاعر التى تسود الأمم الراقية ذاتها من عاداتهم العتيقة وتقاليدهم ، وكنت أعجب فى نفسى للفارق الظاهر بين هذا كله وبين سخرية الأمريكيين بالزنوج وترفعهم عنهم .

وإذا كان هذا هو شأنى ، فما معنى هذا النذير الذى تلقيته من ذلك الشيوعى الأسود ؟ ولماذا يستراب بى ، وتحوم الشبهات حولى ، لمجرد أنى أردت أن أكشف عن مناقص حياة الزنوج وسوء ما هم فيه ، لكى أبين العمق الكامن فى تلك الأقوام المهملة ، والمآسى التى ترجع إلى أبعد العصور وأقدم الأزمنة ، ولكى أصور الشمس والجبال والبحار القائمة فى فاقة أمريكا الزنجية ، المتخللة عيشهم الضنك ، وحياتهم الشقية .

أى خطر لعمرى فى تصوير مدى التشابه والتماثل بين آلام الزنوج ، ومأساة الشعوب الأخرى .

— ٦ —

وفى ذات صباح كنت جالساً مع « روس » فى بيته ، وقد جاءت زوجته ، وابنه ، فاشتركا فى المجلس ، وأنشأت أدون مذكرات ونقطاً فى حماسة على أوراق صفراء أمامى ، وإذا بجرس الباب يدق ، ودخل زنجى شيوعى يدعى « أدجرين » وهو طويل القامة ، عبوس الوجه ، أشبه بالجندى فى خشونته وعريض منكبيه .

فقدمنى رب الدار إليه وإذا به يهز رأسه بجفوة ويقول بغير تمهيد ولا مقدمات :

ماذا يجرى هنا ؟ ؟

وعندئذ مضى « روس » يشرح له خطتى . وكلما أوغل فى الشرح ، راح وجه « أوجرين » يزداد عبوساً وتجهما .

ولم يجلس حين قدمت إليه زوجة روس مقعداً ولم يستمع إليها ، بل انثنى يسألنى قائلا : ماذا أنت ناو أن تصنع بهذه المذكرات ؟ ؟

قلت : أرجو أن أنسج منها قصصاً .

— وماذا تسأل أعضاء الحزب عنه ، وأى شىء منهم تستفسر ؟ ؟

— عن ماضيهم بوجه عام .

— ومن الذى أشار بهذا عليك ؟

— لا أحد ... لقد جاء من وحى خاطرى .

— هل كنت يوماً عضواً فى أية جماعة سياسية أخرى ؟ ؟

— اشتغلت مرة مع الحزب الجمهورى .

— أقصد أية هيئات ثورية ؟

— كلا ... ولماذا تسأل ؟

— وأى عمل تؤدى ؟

— أكنس الشوارع للظفر بالقوت .

— إلى أية مرحلة من التعليم وصلت ؟ ؟

— الابتدائية .

— ولكنك تتكلم كمن تجاوزها .

— قرأت كتباً ، وعلمت نفسى بنفسى .

— لا أعرف .

قال ذلك وتولى عنى معرضاً .

قلت : ما هى الحكاية ؟ ؟

قال : لمن أريت هذه المذكرات ؟

قلت : لم أرها لأحد ؟

ورحت أعجب فى نفسى لهذه الأسئلة ، ومن سذاجتى ، ظننت أنه يصلح أيضاً كنموذج لهذه الصور القلمية التى انتويت رسمها .

قلت : أحب أن يكون لى حديث معك .

قال بجفوة : لا أرى داعياً ...

وأمام جفوته لم ألح .

ورأيته يدعو روس إلى غرفة مجاورة . . . فظللت فى مكانى مستشعراً ذنباً لا أدريه ، ولكن لم تكد تمضى لحظات ، حتى عاد فحدجنى ببصره فى صمت ، وانصرف .

وانثنيت أسأل روس : ماذا يظن هذا الرجل أنه أوتى ؟ ؟

قال : إنه عضو فى اللجنة المركزية .

— ولكن لماذا يفعل هكذا ؟

— هذا طبعه أبداً .

وسادنا سكون طويل .

وأخيراً انثنى روس يقول : إنه يعجب لك ما الذى تريد أن تصنعه بهذه المذكرات .

فنظرت إليه ، وبدا لى أنه هو أيضاً قد أخذ يرتاب ، ويحاول إخفاء الخوف البادى على محياه .

قلت : إننى معفيك من أن تقول لى شيئاً لا تريد أن يعرف عنك .

والظاهر أن قولى هذا خفف من ريبته فى تلك اللحظة ، و إن كانت بذور الشك قد نبتت فى أعماق نفسه .

وأحسست أن الأرض تميد بى ... أترانى مجنوناً ؟ ؟ أم ترى أولئك القوم مجانين ...؟

وانبرت زوجته تقول : اسمع يا ريتشارد ، إن « روس » يخشى التهم ، فإن هذا

الرجل يمثل الدفاع العمالى الدولى عن هذه المنطقة من المدينة ، فمن واجبه أن يكون على بينة من الذين يحاول الدفاع عنهم ، فلا غرو إذا هو أراد أن يعرف هل أعطاك روس شيئاً قد يستخدم ضده فى المحكمة .

فلم أحر قولاً .

قلت : ما الذى يظنه بى ؟ ؟

فلم تجب ... ولم يفه زوجها ببنت شفة .

فصحت من الغضب ، يا لكم من قوم ضالين ! وضربت المنضدة بجُمْع كفى ، فاستحيا روس وتأثر وقال متعلثما : إن « أوجرين » ليس إلا رجلاً مفرطاً فى الحذر والحيطة .

قلت : وهل تثق أنت بى يا روس ؟ ؟

قال مرتبكا : نعم .

لقد جلسنا نحن الزنجيين متقابلين ينظر كل إلى صاحبه خوفاً ووجلا . وكان كل منا جائعاً ، يعتمد على الصدقات لكى يأكل ويصيب مضجعاً ، ولكن كان كل فى نفسه أشد ريبة بالآخر منه بالذين تولوا صب حياتنا فى قالبها ، وأرادوا أن نكون جياعاً شُرّداً هائمين .

ولم أكف عن تدوين مذكرات عن حياة « روس » ، ولكنه ما لبث على مر الأيام أن ازداد تكتما وتحفظاً فى ردوده ، حتى أشفقت عليه ورثيت له ، ولم أحاول محاجته إذ كنت أعلم أن التشجيع والحث والحض لن تزيل المخاوف من نفسه ، وإنما قنعت بالجلوس والإصغاء إليه والاستماع لأصحابه وهم يتحدثون عن محن الزنوج فى الجنوب ، وتدوين مذكرات فى خاطرى ، غير مجترئ على أن أوجه سؤالاً مخافة أن أقذف به الرعب فى قلوبهم .

وما لبثت أن زحمت خاطرى برواياتهم وأحاديثهم عن ماضى حياتهم ، رغم مخاوفهم ، وعدلت عن كتـــابة التراجم التى كنت أنتويها ، واكتفيت بكتابة

سلسلة من القصص الصغيرة مستخدماً المادة التى ظفرت بها من روس وأصحابه ، بانياً عليها من عندى ، ناسجاً من خيالى ، متحدثاً خلالها عن اقتحام جماعة من الغلمان السود أملاك رجل أبيض والمحاكمة العرفية التى تلته .

وقد نشرت القصة بعنوان « غلام كبير يغادر مسقط رأسه » فى قصيدة من الشعر ؛ ولكن ظهورها جاء متأخراً كثيراً عما ينبغى ، فلم تحدث أثراً فى نفوس الشيوعيين الذين كانوا يتساءلون عن سر هذا النزوع فى التصور .

وانتهى العمل الذى كلفتنى تأديته إدارة الترفيه ، فأصبحت متعطلاً أبحث عن عمل ولا أهتدى إليه ؛ فجعلت أقترض نقوداً لكى أغدو إلى عملى فى النادى وأعود منه ، ووجدت غرفة فى السطوح لتقيم فيها أمى وخالتى وأخى خلف سياج للسكك الحديد فى زقاق معزول حتى عاد رجال إدارة الترفيه فعينونى فى نادى الشبان « بساوث سايد » لقاء أجر زهيد لا يكاد يكفى لقوت أسرتى ، أو يسد مفاقر أهلى .

وأثيرت يومئذ مشاكل سياسية فأحيطت بى ، وأقضّت مضجعى ؛ فقد اتهم الحزب الشيوعى صديقى « روس » الذى كنت أحاول أن أصور حياته بأن له « ميولاً ضد الزعامة » وجنوحاً نحو « التعاون الطبقى » و « اتجاهات انشقاقية » ؛ وهى عبارات وهمية غريبة لم يسعنى إلا أن فغرت فمى حين سمعتها من فرط الدهشة والروع ؛ وأشيع أيضاً أننى سأتهم بأمثال هذه التهم وأشباهها ، لأن المعتقد أننى قد تأثرت سياسياً به .

وفى ذات ليلة جاء جمع من الرفاق الزنوج إلى بيتى وأمرونى بألا أتصل بروس .

قلت : لماذا ... ؟؟

قالوا : إنه عنصر غير سليم ، ألا تقبل هذا القرار ؟ ؟

قلت : أهذا قرار من الحزب ؟ ؟

قالوا : نعم .

فعدت أسأل : إذا كنت متهماً بأمر ما فلا يسعنى إلا النزول على هذا القرار ، ولكنى لم آت أمراً .

قالوا : أيها الرفيق إنك لا تفهم ، ألا تعلم أن أعضاء الحزب لا ينتهكون قراراته .

قلت : ولكن قراركم لا ينطبق عليّ ، ولن أسكن إليه .

قالوا : إن موقفك غير جدير بثقتنا .

فتولاني الغضب .

قلت منفجراً وأنا أنهض من مجلسي وأشير بذراعي إلى « الطقيسة » الحقيرة التي أعيش فيها : انظروا ، أي شيء هنا يخيفكم ، وأنتم لا تجهلون أين أشتغل ، وتعلمون ما هو أجري ، ولا يخفى عليكم أحد من صحابي ، فما هو وجه الخطأ بالله عليكم وماذا أعاب به ؟ ؟

فانصرفوا باسمين بسمة لا مرح فيها ولا مجانة ، وهو ما يوحي بأنني لن ألبث أن أعرف أين وجه الخطأ الذي أسأل عنه .

ولكني وجدت شيئاً من الترفيه يخفف عني هذه المنغصات وهو انشغالي بعملي في نادي الشبان ؛ فقد كان الغلمان السود ممن تتراوح أعمارهم بين الثامنة والخامسة والعشرين يأتون في كل يوم إلى النادي للسباحة والرسم والمطالعة ، وهم جميعاً متشردون هِيم أشقياء ، أخلياء من كل ثقافة ، أو علم ، أو تربية روحية ، ممن يتهيأون للأمراض أو السجن أو الإصلاحية أو الكرسي الكهربائي المعد لتنفيذ الأحكام بالإعدام ، فكنت أقضي الساعات مصغياً لأحاديثهم عن الطائرات ، والنساء ، والمدافع ، والسياسة والجرائم والمجرمين ؛ وكانت تعبيراتهم واستعاراتهم وتشبيهاتهم قوية زاهية الألوان فكنت أحفظ في جيبي قلماً رصاصاً ودفتراً صغيراً لأدون فيه ما أسمعه منها ؛ ولم يكن أحد منهم يخشى الناس على هذا النحو الذي يشعر به الكبار حتى ليخيل إليهم أن كل إنسان جاسوس ؛ فليت معاشر الشيوعيين الذين استرابوا بدوافعي وأوجسوا خيفة من نوازعي ، عرفوا أولئك الأحداث ، أو فطنوا إلى ما يخطر ببالهم من أحلام ، أو دروا المصائر التي ترتقبهم على الأيام .

لقد خطر ذلك ونحوه لي ، فخيل لي أنني لن أستطيع أن أصور للشيوعيين هذه المآسي التي أشاهدها في نادي الشبان .

ولم تلبث واجباتى الحزبيــة أن تدخلت فى جهودى ، وحالت دون مواصلة التعبير عن خواطرى، وتصوير جوانحى وأفكارى ، فقد قرر النادى عقد مؤتمر يضم جميع الـكتاب اليساريين فى الولايات الغربية الوسطى، وقد ناصرت الفكرة ناديت بوجوب ترك المؤتمر يدرس مشاكل المهنة ومسائلها ، ولـكن رأيى لم يقابل بالرضى ، وقال القوم إن المؤتمر سيعالج المسائل السياسية دون سواها .

وعندئذ طلبت إليهم أن يعرفونى ماذا ينتظر إذن من معاشر الـكتاب والمؤلفين هل يراد منهم أن يضعوا كتباً ؟ أو يبدوا نشاطاً سياسياً ؟ فكان الجواب « كليهما »؛ يكتب الكاتب بضع ساعات فى اليوم، ويقضى البقية فى الشوارع مع الرقباء والعسس .

وانعقد المؤتمر .

وحضره أحد الزعماء فى الحزب كمستشار .

وكان السؤال الذى طرح للمناقشة : ماذا ينتظر الحزب من النادى ؟؟

وكان الرد الذى أدلى به الزعيم يتراوح بين أعمال التنظيم وتأليف القصص والروايات .

وكانت حجتى أنه إما أن يشتغل المرء بالتنظيم، وإما أن يضع قصصاً .

ولـكنه قال : إن عليه أن يؤدى كلا الأمرين ، وكان رأيه فى المؤتمر هو الغالب .

وأخذت الأصوات على مصير مجلة « الجبهة اليسارية » التى طالما اشتغلت لها ، وكتبت فيها فتقرر العدول عن إصدارها ، وتركها تختفى من الوجود .

وتبين لى عندئذ أن النادى موشك على النهاية ، فنهضت لأشرح وجهة نظرى المحزنة ، وطلبت « حل النادى » ، فلم تلبث دعوتى أن سميت « دعوة إلى التردد والهزيمة » وجلبت علىّ غضب ذلك الزعيم وحنقه البالغ .

وانتهى الأمر باتخاذ عدة قرارات بشأن الصين والهند وألمانيا واليابان ، والأحوال المتعلقة بعدة أقطار و بلدان أخرى .

ولكنه لم يقرر شيئاً على الإطلاق بشأن الكتاب وما يكتبون .

وما لبثت الآراء التى أعلنتها فى المؤتمر أن رُبِطَتْ بالشبهات التى أثرتها فى أوساط الشيوعيين الزنوج ؛ وتحقق الحزب يومئذ أن هناك عدواً له خطراً بين ظهرانيه وخصما مبيناً بين صفوفه ، وأخذ القوم يتهامسون بأننى أسعى فى تأليف هيئة سرية لمعارضة الحزب ومناوأته ؛ وكنت على يقين أن نفى الاتهام لا يجدى ، وأصبح من المؤلم أن ألاقى شيوعياً فى الطريق ، أو يحتوينى مكان ما معه ، لأننى لا أعرف ماذا سيكون موقفه منى .

وعلى أثر ظهور قرارات المؤتمر ، دعى نادى جون ريد إلى عقد جمعية عامة ، وتم اجتماعها فى صيف عام ١٩٣٤ وحضرها الكتاب اليساريون جميعاً فى مختلف الولايات المتحدة ، ولكن لم تكد جلساته تتوالى حتى شعر الكتاب بحيرة وارتباك واستياء ، فقد كان أكثرهم شباباً متحمسين يحاولون الإحسان ويقبلون التجديد ، ولكن لم يبق منهم أحد فى طمأنينة من أمره ، أو يدرى ماذا يرتقب الحزب منه .

وجاء هذا المؤتمر الثانى فلم يخرجوا منه برأى ، ولا رأوا فيه توحيداً أو تضامناً .

وقبل أن يرفض الاجتماع ، وتختم جلساته ، حضرت اجتماعاً تمهيدياً للبحث فى مصير الأندية ،واجتمع عشرة منها فى غرفة واحدة بأحد الفنادق ؛ ولشد ما عجبت أن رأيت زعماء مجلس إدارة النوادى يؤيدوننى فى انتقاداتى للطريقة التى اتبعت فى إدارتها وتنظيمها ، فتولتنى الحماسة ، وظننت أن الأندية موشكة أن تدخل طوراً جديداً ، وتواجه حياة أفضل من هذه الحياة التى كانت تحياها .

ولكنى ما عتمت أن ذهلت حين سمعت شيوعياً فى المجلس يعلن حل الأندية .

فقلت : لماذا تحلها ؟؟

وقيل لى لأنها لا تخدم سياسة « الجبهة الشعبية » الجديدة .

فقلت : إن فى الإمكان علاج هذا ومداواته ، بجعل الأندية أصح أفقاً، وأوسع نطاقاً ، وأصلح حالاً .

قال صاحبنا : كلا ، بل يجب تنظيم هيئة أكبر وأفضل ، هيئة يصح أن يندمج فيها جميع كتاب الأمة وأرباب الأقلام فيها .

وقيل لى أيضاً إن السياسة التى رسمتها « الجبهة الشعبية » هى الآن أسلم نظرة إلى الحياة وأصح تفكيراً بسبيلها ، فلا ينبغى أن تبقى الأندية بعد اليوم .

قلت : وما مصير الكتاب الشباب الذين دعاهم الحزب إلى الانضمام لتلك الأندية ، ولا يصح ترشيحهم لعضوية الجبهة طبقاً لشروط إنشائها .

فلم أتلق رداً .

وقلت لنفسى إن هذا كله خطل وتخبط ، فقد عمد الحزب فى سبيل إحداث تغيير فى سياسته وخططه إلى إلقاء إحدى هيئاته فى اليم ، وتنظيم هيئة جديدة تجمع أناساً جديدين .

ووجدتنى أناقش وحدى ، والكل ضدى ، والأغلبية لى خصم مبين .

وانكشف لى أمر آخر لم أكن قد تبينته من قبل ، وهو أن الذين وافقونى لم يؤيدونى ؛ وعلمت فى ذلك الاجتماع أنه من المحتم على المرء ، إذا قيل له إن هذه هى سياسة الحزب ، أن يمتثل فلا يعارض حتى وإن حدثه العقل ، وأوحى المنطق إليه ، أن رغبة الحزب ليست من الحكمة فى شىء ، بل بالعكس ستضر فى النهاية بمصالح الحزب ومستقبله .

ولم تكن الشجاعة هى التى حملتنى على معارضته ، ولكن الواقع أننى لم أكن أعلم وسيلة غير تلك الوسيلة ، ولم أكن أتصور رغم مولدى فى أحضان الكراهية الشائعة فى الجنوب ، ألا يباح للمرء المصارحة برأيه ، والمجاهرة بقوله ؛ ولقد قضيت ثلث الحياة متنقلا من مكان مولدى إلى الشمال ، جواباً أخا سفر وترحال ، لأتحدث حراً ، وأتكلم بما أريد ، وأهرب من وطأة الخوف .

وهأنذا أواجه الخوف مرة أخرى .

وتقرر قبيل ارفضاض الاجتماع عقد مؤتمر آخر من الكتاب الأمريكيين فى

مدينة نيو يورك خلال الصيف التالى عام ١٩٣٥ ؛ ولـكنى قابلت هذا القرار بفتور ، وأجمعت النية على أن أقف وحدى وأكتب فى معزل ، وأجاهد بمفردى .

وخشيت يومئذ أن تكون القصص التى وضعتها من قبل غير متسقة مع التيار الجديد .

فهل يتحتم علىّ أن أعدل عن أفكارى وألتمس خواطر أخرى وتفكيراً جديداً .

ولـكنى لم أستطع .

إن ما كتبته هو ما أراه وأومن به ، وأعيش عليه ، وأحسه ، فمن ذا الذى يستطيع أن يغير نظره و إيمانه ، واتجاهه وحواسه ومشاعره ..؟؟

— ٨ —

وحل ربيع ١٩٣٥ ، وتقدمت الخطط التى وضعت لعقد مؤتمر من الـكتاب « أشواطاً » . ولسبب مجهول — من حسن حظى — طلب منى الشيوعيون المحليون حضوره ، وتقرر إيفادى إليه « كمندوب » فأخذت إجازة من « نادى الشبان » ، وانطلقت إلى نيو يورك مع المندو بين الآخرين .

ووصلنا فى المساء وقيدنا أسماءنا فى قوائم الوفود التى ستحضر المؤتمر .

وانعقدت الجلسة الافتتاحية فى كارنجى وطلبت مكاناً للنزول فيه ، فإذا بأعضاء نادى جون ريد فى نيويورك ، وكلهم من البيض ، يقفون حيالى مرتبكين لا يدرون كيف يجيبون .

وانتظرت حتى انتحى أحدهم بآخر وجعلا يتباحثان فى الوسيلة التى يتسنى بها إعطائى أنا الشيوعى الأسود القادم من شيكاغو مكاناً أبيت فيه ؛ وكنت خلال الرحلة قد نسيت أننى زنجى ، وانشغل خاطرى بمحاولة حل مشاكل الـكتاب اليسار يين والتفكير فى مصيرهم .

ولـكن فى موقفى هذا حيال أولئك الشيوعيين البيض، وهم يتناقشون و يتحدثون عن لون بشرتى وسواد أديمى ، لم ألبث أن شعرت باشمئزاز شديد .

وعاد الرجل الذى انتحى بصاحبه ليحدثه ؛ فقال لحظة : أيها الرفيق فسأجد لك مكاناً .

قلت : أو ليست لديكم أمكنة أعددتموها لنا قبل قدومنا ، فإن هذه المسائل ونحوها بطبيعة الحال تنظم مقدماً .

قال بإخلاص وصراحة : أى نعم ، ولدينا بضعة عناوين هنا ، ولكننا لا نعرف أصحابها . أظنك فاهماً .

قلت وأنا أصرف بأسنانى : نعم ، فاهم .

قال وهو يربت على ذراعى لتهدئة خاطرى : أرجو أن تنتظر لحظة واحدة ، سأوجد لك شيئاً .

قلت وأنا أحاول إخفاء غضبى حتى لا يبدو فى صوتى ولهجتى : اسمع ، إننى لا أريد أن تتعب نفسك .

قال وهو يهز رأسه متشبثاً : كلا ، إنها مشكلة ، ولكنى سأحلها .

قلت نافد الصبر : لم يكن يصح أن تكون مشكلة .

فاستدرك قائلا : لم أكن أقصد ذلك .

فلعنت وسببت فى سرى .

وما لبث الجمع الواقفون عن كثب منا أن لاحظوا شيوعياً أبيض يحاول إيجاد مكان لينام فيه شيوعى أسود ، فكدت أحترق استحياء وخجلا .

وما هى إلا لحظات حتى عاد الشيوعى الأبيض مضطرباً يتصبب عرقاً .

قلت : هل وجدت شيئاً .

قال وهو لاهث : كلا ... لم أجد بعد ، ولكن انتظرنى لحظة ، فإنى سأدعو بعض الذين أعرفهم لمحادثتى فى التليفون .

قلت وقد شعرت بساقى تتخاذلان : أرجوك أن تنسى هذه المسألة فإنى سأجد محلا ، ولكنى أريد أن أضع حقيبتى فى مكان ما ريثما ينتهى الاجتماع الليلة .

قال وهو يحاول إخفاء يأسه : هل تظن حقاً أنك واجد مكاناً .

قلت : طبعاً .

ولكنه ظل غير واثق ، وكان يريد فعلا أن يساعدنى ولايدرى كيف ، وتناول حقيبتى فوضعها فى غرفته وأوصد عليها ، وانطلقت أذرع الطريق حائراً لا أدرى أين أبيت .

لقد وقفت عند الناصية ، فى مدينة عظيمة كنيو يورك هذه ، أسود البشرة ، فقيراً ، لا أكاد أملك مالاً ، مهموماً ذاهلا ، مشغول الفكر ، لا بمشاكل الحركة الأدبية فى أمريكا ، بل بمشكلة الاهتداء إلى منام وحمام .

وقدمت أوراق اعتمادى فى قاعة كارنجى ، وكانت غاصة بالناس ، ولم أكد أستمع للخطب النارية ، والكلمات الهجومية التى دارت فى الجلسة الأولى حتى سألت نفسى من الدهشة والألم : لماذا ترانى جئت ؛ وخرجت من المجلس إلى الشارع أتأمل الوجوه . فلم ألبث أن التقيت بعضو فى نادى شيكاغو فابتدرنى بالسؤال قائلا : ألم تهتد إلى مكان إلى الآن ؟؟

قلت : كلا ، ويبدو لى أنه يحسن بى أن أجرب النزول فى أحد الفنادق ، ولكنى لست فى حال نفسية تسمح لى بأن أناقش كاتب فندق فى مسألة العنصر واللون .

قال : شىء ثقيل حقا ... ولكن انتظر لحظة .

وانصرف مارقاً ، وعاد بعد دقائق بامرأة شحيمة بيضاء وتولى تعريفنا ، وانثنت هى تقول : تعال بت عندنا الليلة .

فمشيت معها إلى مسكنها وعرفتنى بزوجها ، فشكرت لهما ضيافتهما ، ومضيت لأنام فى « عشة » بالمطبخ .

واستيقظت فى السادسة ، وارتديت ثيابى ، وطرقت الباب لأشكرهما وأودعهما ؛ وخرجت إلى الطريق فجلست على متكأ وأخرجت ورقاً وقلماً ، وحاولت أن أدون

نقطاً ومذكرات بماسأتولى الدفاع به عن الأندية ، ولكن مسألتها لم تبد لى خطيرة ، وإنما الأمر الخطير هو : هل يقدر للزنجى يوماً أن يعيش ولو نصف عيش الآدمى فى هذا البلد اللعين ... ؟

وجلست فى المؤتمر طيلة الاجتماع فى ذلك اليوم، ولكنى لم أتأثر بما سمعته فيه ؛ والتمست حين جن الليل سبيلى إلى حى « هارلم » المخصص للزنوج ، ورحت أقطع أفاريز وطرقاً ملأى بصور الحياة الزنجية ومشاهدها .

وأدهشنى كلما سألت المارة عن فنادق الزنوج فى الحى أن أسمع أن ليس فيها فنادق لهم .

وظللت أسير على غير هدى ، حتى انتهى بى المطاف إلى فندق شاهق نظيف يخرج منه زنوج ، ولا يرى فيه بيض ، فدخلته مطمئناً ، ولكنى تهيبت حين رأيت الكاتب الجالس إلى منضدته رجلا أبيض ، فترددت ، ولكنى تقدمت فقلت : أريد غرفة .

قال : ليس هنا .

قلت : أليس هذا هو حى « هارلم » ؟

قال : ولكن هذا الفندق للبيض فقط .

قلت : أليس فى الحى فندق للسود .

قال : جرب « جمعية الشبان » لعلك واجد فيها مكاناً .

ولم ألبث أن اهتديت إلى جمعية الشبان الزنوج المسيحيين أوذلك الحصن الذى أقيم لإيواء السود ، فظفرت فيها بغرفة وتناولت حماما ونمت اثنتى عشرة ساعة ، ولما استيقظت لم أجد روحاً للذهاب إلى المؤتمر ، فاستلقيت فى فراشى مفكراً ، وإذا بخاطرى يهتف بى قائلا « ينبغى أن تذهب وحدك ... ينبغى أن تعرف مرة أخرى كيف ... » .

وارتديت ثيابى وحضرت الجلسة التى كان مقرراً فيها البحث فى حل الأندية .

وبدأت الجلسة ناشطة متحمسة، وانبرى كاتب شيوعى من أهل نيو يورك يلخص تاريخ الأندية ويتقدم باقتراح لحلها؛ وبدأت المناقشة، فنهضت فشرحت الأهداف التى كان الكتاب الشباب والناشئون يتمثلونها فى قيام هذه الأندية والمعانى السامية التى كانت تنطوى عليها فى تقديرهم، وطلبت الإبقاء عليها، ثم جلست وسط سكون تام.

وانتهت المناقشات، وبدأ أخذ الرأى.

وارتفعت الأيدى مؤيدة مشروع الحل.

ونودى على الذين يعارضون فيه، فرفعت يدى، وأنا عليم أن موقفى هذا سيعلل بأنه معارضة للحزب، ولكنى قلت ليذهب الحزب إلى الشيطان!

— ٩ —

ووجدتنى بعد حل الأندية طليقاً من كل قيود الحزب وصلاته، فتحاميت الذهاب إلى «الخلية» خشية تقديمى إلى المحاكمة والتأديب، ولكنى كنت على بينة من التهم التى كان الشيوعيون يتراشقون بها، من بعض الزنوج الذين جعلوا أحياناً يزوروننى فى البيت غير مكترثين بالتعليمات التى كانت تستوجب منهم الابتعاد عن العناصر المريبة والأفراد الذين تحوم الشبهات حولهم.

وما كان أشد دهشتى حين علمت من أحدهم أن «بودى نيلسون» اتهمنى بأننى أحاول إعادة «الرجعية».

وكان نيلسون هذا هو الزنجى الذى حدد مركز الزنوج فى النظام الشيوعى، وخطب فى الكرملين، وتكلم أمام ستالين نفسه.

قلت: ولماذا يدعونى نيلسون هكذا، ويصفنى بهذا الوصف؟؟

قال صاحبى: إنه يقول إنك «بورجوازى» منحط صغير الشأن.

قلت: وما معنى هذا الذى يقوله عنى.

قال: إنه يزعم أنك تحاول إفساد الحزب بأفكارك.

قلت: كيف؟؟

فلم يجب ...

ونويت يومئذ أن أقطع ما بيني و بين الحزب ، ورأيتني مضطراً إلى تركه ؛ فقد اشتدت الحملات عليّ ، وكثرت المطاعن في حقي ؛ وكلما وجدني نيلسون صامتاً لا أعير تهمه اهتماماً أسرف وأوغل في سبابي واتهامي ، فقال عني إنني « مستنير ابن زنا » ، ووصفني مرة أخرى بأنني « تروتسكي أثيم » ، وزعم أنني من خصوم الزعامة ، وأنني أنادي باتجاهات مضادة ، وأن لي نزعات «صاروفيمية» أو «ملائكية » ، وهي عبارة يراد بها أنني قد انسحبت من نضال الحياة لأني أعد نفسي ملـكا طاهراً معصوماً من الزلل .

وكنت يومئذ أشتغل طيلة النهار وأكتب إلى نصف الليل ، فأصبت بعلة صدرية شديدة .

وفيما كنت معتكفاً في فراشي دق الباب في صباح يوم من الأيام وفتحته أمي ، فاذا بالطارق « أوجرين » جاء يسألني ماذا أنا فاعل بالمعلومات التي كنت أجمعها من الرفاق ، فحملقت فيه البصر وأنا راقد في فراشي ، إذ أدركت أنه كان يعـدني خصماً بارعاً ، وعدواً مبيناً للحزب ، فلم تلبث نفسي أن امتلأت مرارة وكمداً .

قلت بجفوة : ماذا تريد ، ألا ترى أنني مريض ؟

قال : لديّ رسالة من الحزب حملتها إليك .

ولم أكن من غيظي الـكظيم قد حييته عند دخوله ، وهو كذلك لم يبادئني بها.

ولم يبتسم أحدنا بل مضى يجيل البصر في غرفتي الحقيرة فبادرته قائلا بسخرية : هذا هو مسكن المستنير ابن الزنا .!

فوقف يتشأرني بعينيه، وهما لا تطرفان ، فلم أطق وقفته حيالي كالحجر ، فاضطررت أدبا إلى مجاملته بقولي « اجلس » ، فتخشبت كتفاه .

ومضى يكلمني بلهجة الضابط الخشنة : إنني في عجلة .

قلت : وما هذا الذى تريد أن تنبئنى به ؟

قال : هل تعرف « بودى نيلسون » ؟

فتولتنى ريبة ... أترانى أمام شرك سياسى ؟

قلت محاذراً : وما دخله فى الأمر ؟

قال : إنه يريد لقاءك .

فازددت تخوفاً وريباً ، قلت : لماذا ؟

قال : إنه يريد أن يتحدث إليك عن عملك فى الحزب .

قلت : أنا مريض ولن أستطيع لقاءه ، حتى أتماثل .

فوقف هنيهة ثم تولى عنى منصرفاً .

ولما صح صدرى وزالت علتى التمست موعداً مع بودى نيلسون .

وكان قصير القامة ، زنجياً ، لا يفتر فمه عن الابتسام ، كثيف الشفتين ، ماكر الحركات ، خبيث النظرات ، يبدو عصبياً ، واعياً مخفياً تأثره وانفعالاته ؛ وكان يتكلم بعبارات قصار مهزوزة قافزاً فى حديثه من فكرة إلى أخرى ، كأنما يشتغل عقله بحركة آلية ، لاتنم عن أى إجهاد ، وكان يشكو ربواً حتى ليشخر على فترات متقطعة ، وإن استطاع تنظيم نطقه بتناول رشفة من زجاجة ويسكى بجواره من لحظة إلى أخرى ؛ وكان كثير الأسفار حتى لقد جاب نصف الأرض متنقلا ، وكان حديثه مختلطاً ببعض رطانات المدن الغربية ولهجاتها المختلفة .

وكان لقاؤنا فى شقته ، ومضيت أصغى إليه باهتمام ، وألاحظ حركاته وسكناته بدقة ، لأنى كنت أعلم أننى أواجه علماً من أعلام الشيوعية الدولية .

قال وهو يشخر : هالو .. رايت ، لقد سمعت عنك !

وأرسل وهو يشد يدى مصافحاً ضحكة مدوية بغير سبب ظاهر ، فلم أدر وهو يقهقه على هذا النحو هل تراه موجهاً ضحكته نحوى أو أراد بها أن يخفى اضطرابه .

قلت : أرجو أن يكون ما سمعته عنى خيراً .

فعاد يضحك ويشير إلى مقعد قائلا: اجلس ... نعم. لقد قالوا لى إنك تكتب.

قلت : بل أحاول .

قال وهو ينفخ بمنخره : إنك تكتب ، فقد قرأت لك ما كتبته فى مجلة « الجماهير » الجديدة عن «جو لويس» .. مادة طيبة ، أول مقال سياسى عن الرياضة فى مجلاتنا ... ها .. ها .. !

وجعل يضحك ، وانتظرت ، وكنت أتوقع أن ألقى رجلاً من أصحاب الأفكار فإذا هو غير ذلك .

قلت لعله رجل أفعال ، لا رجل أقوال ، ولكنه لم يدلل على أنه كذلك أيضاً.

قال مهاجماً : لقد نبئت أنك صديق « لروس » .

فتمهلت قبل الجواب ، فقد كان توجيه السؤال تلميحاً ، وكنت أعلم أن « روس » موشك أن يقضى عليه الحزب بتهمة « مناهضة الزعامة » ، وإذا جاء سؤال كهذا عن رجل مهدد بالإقصاء من عضو بارز فى الهيئة الدولية الشيوعية فلا معنى له إلا أنه يريد أن يسألنى بطريق غير مباشر هل أنا مخلص للحزب أم لا .

قلت بصراحة : إن روس ليس بصديقى خاصة .

قال وهو يضحك ليخفف من النذير القاسى الذى يبدو على سؤاله : إذا لم يكن روس صديقك ، فكيف عرفته كل هذه المعرفة الوثيقة ؟؟

قلت : لقد كنت أكتب عن حياته ، فعرفته كما يعرفه سواى .

قال : سمعت بهذا أيضاً . واستضحك مرة أخرى ، وقال دعنى أدعك اختصاراً وبلا كلفة « دك » ؟؟ ها .. ها !

قلت : امض فى حديثك كما تشاء .

قال : يا دك .. إن روس من « القوميين » .

وسكت لحظة حتى تخف وطأة الاتهام ؟ فقد أراد بهذه العبارات أن يقول إن روس « متطرف » فى حملاته وهجومه ، ثم أردف يقول ضاحكا متهماً ساخراً :

ونحن معاشر الشيوعيين لا تروقنا هذه « القومية » الزنجية ، ولا نريد التهويل في شأنها .

قلت : ما مرادك بهذا ؟

قال مصارحاً : لسنا نريد الإعلان عن روس

قلت : إننا نتكلم عن شيئين مختلفين . يلوح لى أنكم فى قلق من تنويهى بروس والكتابة عنه لأنه خصمكم السياسى ، ولكنى لا أنظر مطلقاً إلى السياسة فيما أتناول من حياته ، وأقصه على الناس من ماضيه ، وإنما كل ما فى الأمر أن الرجل بدا لى مثالا للزنجى المهاجر فى عدة جهات من أخلاقه ونفسيته ، وقد بعثتُ فعلا قصة تقوم على حادث وقع له فى الحياة .

فهاج هائجه ، ومضى يسألنى قائلا : أى حادث ؟؟

قلت : محنة أصابته وهو فى الثامنة عشرة .

قال وهو يهز كتفيه : أوه .. لقد كنت أظنه حادثاً سياسياً .

قلت : إننى أصارحكم أنكم مخطئون ، إننى لا أقصد محاربتكم بما أكتبه ، إذ ليست لى مطامع سياسية ، هذا هو ما ينبغى أن تكونوا على يقين منه ، كل ما أريده هو تصوير الحياة الزنجية .

قال : وهل انتهيت من الكتابة عن روس ؟؟

قلت : كلا ، ولكنى تركت الفكرة ، حين رأيت أعضاء الحزب مستريبين بى ويخشون أن يتحدثوا لى عن ريبتهم .

فضحك وانثنى يقول : اسمع « يادك » إننا فى عَوَز إلى القوى ونواجه أزمة خطيرة .

قلت : ليس هذا غريباً ، فإن الحزب لا يفتأ يواجه أزمات .

فتلاشى ابتسامه وحدجنى بنظرة وهو يقول : هل أنت بنا مستخف ؟

قلت : كلا ، ولكن هذه هى الحقيقة ، ففى كل أسبوع ، وكل شهر لكم أزمة .

قال وهو يعود إلى الضحك والقهقهة والنخير : إنك لمخلوق ماجن ، ولكن أمامنا عملا لا بد من قضائه ، إننا شارعون فى تغيير الخطط ، إن الفاشية هى الخطر الذى يهددنا الآن بل يهدد الناس جميعاً .

قلت : أنا فاهم .

قال وهو ينخر من الربو : ومن المتعين علينا أن نهزم الفاشية وقد تباحثنا فى أمرك ونحن عارفون مقدرتك ، ونريد منك أن تعمل من أجلنا لأننا مصممون على أن نخرج من المدى الضيق الذى نعمل فيه إلى السعى فى إبلاغ رسالتنا إلى الكنيسة والطلبة والأندية وأصحاب المهن العليا والمتوسطين .

قلت برفق : لقد سمونى أسماء كثيرة ، ونعتونى بعدة نعوت ، لقد سبونى وشتمونى كما شاءوا ، فهل هذا هو الخروج من المدى الضيق ؟؟

قال : انس ذلك .

وكان ذلك منه اعترافا ، بل تلميحاً أيضاً بأن الشتم والسب سيستمران إذا أنا لم أطعه .

قلت بصراحة : لست أدرى هل أصلح لما تبغون أم لا .

قال : إننا نريد أن نعهد إليك بمهمة خطيرة .

قلت : ماذا تريدون منى أن أفعل ؟؟

قال : نريد منك أن تنظم لجنة تحارب الغلاء .

فقلت : الغلاء ! وماذا أعرف أنا عنه ؟؟

قال : شىء سهل .. تستطيع أن تتعلم وتعرف .

وكنت يومئذ أشتغل بتأليف قصة وقد بلغت نصفها ، وها هو ذا يريدنى على أن أحارب ارتفاع أسعار المواد الغذائية ، فلا عجب إذا رحت أقول لنفسى إنه لايحترم ما أنا ماض فيه .

قلت : اسمع أيها الرفيق نيلسون ، إن الكاتب الذى لم يضع إلى الآن شيئاً

حسناً خليقاً بالقراءة هو بالطبع كاتب مشكوك فى مقدرته ، وأنا اليوم من هذه الطبقة ، ولكنى أعتقد أننى على الكتابة قدير ، ولست أطلب حظوة خاصة ، ولكنى شارع فى كتاب أرجو أن أفرغ منه فى ستة أشهر أو نحوها ، فدعنى أقنع نفسى بأننى مخطئ فى محاولتى أن أكون كاتباً مجيداً وعندئذ سأكون معكم قلباً وقالباً .

قال : وهو يتحرك فى مقعده ويلوح بيده كأنما يذود عنه حشرة تطن فى أذنه : اسمع يادك .. يجب أن تتعلم كيف تخاطب الجماهير وتلمس نفوسهم .

قلت : لقد اطلعت على شىء مما نشرته ، ألا تراه كافياً للتدليل على أننى إنما تنقصنى الفرصة .

قال : إن الحزب لا يدخل شعورك الخاص فى اعتباراته .

قلت : بصريح العبارة : لعل الحزب لايعتقد أننى منه .

قال شاخراً ناخراً وهو يتأرنى بعينيه : كلا . لا تقل هذا ... إنك صريح أكثر مما ينبغى .

قلت : عيبى أننى أضع الأشياء كما أشعر بها ، وأريد أن يكون تصرفى معكم مستقيما فقد أصابنى من الحرب ما أصابنى .

وضحك نيلسون وأشعل لفافة .

وقال وهو يهز رأسه : إن عيبك هو أنك اختلطت كثيراً بمعاشر الفنانين البيض فى الجانب الشمالى ، حتى لتتكلم كلامهم ، وتتحدث حديثهم ، ولكن المتعين عليك أن تفهم قومك وتسايرهم .

قلت : وأنا مدرك أننى لن أستطيع فى الحقيقة الحديث معه : أظن أننى قد عرفتهم وفهمتهم . وأحسبنى قد تنقلت فى ثلاثة أرباع ديارهم فى الحى الجنوبى .

قال : ولكن ينقصك أن تشتغل معهم .

قلت : لقد كنت أشتغل مع روس فاتهمت بأننى جاسوس ...

قال وقد غير لهجته إلى الجد والحزم : اسمع يادك .. إن الحزب قرر أن تقبل هذه المهمة .

وعند هذا الكلام سكت . . فقد عرفت المراد ، فإن القرار هو أسمى تكليف يتلقاه عضو فى الحزب ، والتمرد على تنفيذه هو بمثابة التدليل على عجزه عن العمل ، والتوهين من قدرته وسلطته .

وكنت فى أعماق مقراً هذا الأمر من حيث المبدأ ، إذ كنت أعرف أنه من المستحيل على العمال أن يبلغوا حداً من القوة والسلطان السياسى ما لم تتوافر لهم وحدة ؛ فقد جعلهم الظلم الذى حاق بهم من قديم الزمان ، والانقسام الذى ظلوا قروناً يعانون ويلاته ، والخيبة والضلال والفساد والفوضى التى تناهبتهم عدة السنين ، قوما مستخفين مستهترين كما كنت أنا نفسى من قبل ، وتبين أخيراً أن وسيلة «الوحدة» التى توسلت الشيوعية بها هى الوسيلة الوحيدة لتحقيق النظام ، وروح الضبط والربط بين صفوفهم .

ومعنى هذا كله بإيجاز أن نيلسون سألنى : هل أنت شيوعى حقا أم لا ؟

وكنت أريد أن أكون شيوعياً ، ولكن على طريقتى ، بل كنت أريد أن أكيف إحساس الناس وأوقظ نفوسهم .

ولكنى لم أستطع أن أقول ذلك لنيلسون ، لأننى لو قلته لشخر فى وجهى ونخر ، فاكتفيت بأن أقول : سأتولى تنظيم اللجنـــة المطلوبة ثم أعهد بها إلى رجل سواى .

قال بحزم : ألا تريد أن تؤدى هذه المهمة .

قلت بثبات : كلا .

قال : أى عمل تريد أن تعمله إذن فى الحى الجنوبى ؟؟

قلت : أريد أن أنظم شئون الفنانين الزنوج .

قال : ولكن الحزب لا يريد هذا الآن .

فنهضت من مجلسى وأنا أعلم أنه لا ينوى تركى أنصرف إلا بعد أن أنظم اللجنة التى يريدها .

وقد هممت بأن أقول له إننى قد انتهيت من علاقتى بالحزب ، ولكنى لم أكن على استعداد لمواجهة هذه الخاتمة .

وخرجت من لدنه غاضباً من نفسى ، وغاضباً من الحزب ، على السواء .

وإذا كنت قد كسرت قرار الحزب ، فإننى أيضاً لم أقبله كلية ، فقد تهربت وأفلت محاولا أن أوفر وقتاً للكتابة ، ووقتاً للتفكير ...

— ١٠ —

وكانت مهمتى تتطلب منى حضور الاجتماعات إلى ساعة متأخرة من الليل ، والاشتراك فى المناقشات ؛ والتوفر مع غيرى من الشيوعيين على إرشاد أهل الحى الجنوبىّ وقيادتهم إلى الطريق السوىّ ؛ وقد بحثنا فى مشكلة المساكن ، والوسائل المثلى لحمل البلدية على السماح بجلسات علنية لسماع شكوى الزنوج من أحوالهم المعيشية .

وقد جلست أقرض بأسنانى من المضض والكمد ونحن جلوس نبحث فى تحديد تسعيرة للحم الخنزير ، متمنياً لو أنى كنت عندئذ فى مسكنى مخلداً للكتابة والتفكير .

وكان نيلسون أبرع منى وأكثر ذكاء ، فقد راح يواجهنى قبل أن يتهيأ لى المجال لمواجهته ، فدعانى ذات ليلة إلى لقائه مع « صديق » .

ولما وصلت إلى الفندق الذى عينه لى فى الحى الجنوبى بادر إلى تعريفى برجل قصير أصفر اللون ، يقلد فى مظهره نابوليون ، ويضع منظاراً فوق عينيه ، ويزم شفتيه كمن هو مشغول بالتأمل والتفكير ؛ وكان يختال فى مشيته ، ويتكلم ببطء وتدقيق محاولاً أن يحمل كلماته وألفاظه من المعانى أكثر مما تحمله ، حتى ليتحدث عن أتفه الأشياء بأرفع العبارات وأضخمها ؛ وعلمت منه أنه يدعى « سميث » ، وأنه من وشنطن وأنه يعتزم القيام بتنظيم « قومىّ » لتوحيد جميع الهيئات الزنجية حتى تتوحد الخطط والأعمال .

وكنا جلوساً إلى مائدة متقابلين ، وأحسست أنهما سيعرضان علىّ اقتراحاً كآخر حيلة فإذا لم أقبله قام العداء صريحاً بينى و بين الشيوعيين .

وأنشأ « سميث » يقول فجأة بلهجة « درامية » : اسمع يا رايت ، ما رأيك فى السفر إلى سويسرا ؟ ؟

قلت : أحبه ، ولكنى مرتبط هنا بعملى فى الوقت الحاضر .

وانبرى نيلسون يقول : يمكنك أن تتركه ، فإن هذا السفر أهم وأخطر شأنا .

قلت : وماذا أفعل فى سويسرا ؟ ؟

فقال « سميث » : ستذهب كرسول موفد عن هيئة الشباب ومنها تستطيع أن تسافر إلى الاتحاد السوفيتى .

قلت ، بصراحة : هذا هو أحب شىء إلى نفسى ، ولكنى أخشى ألا أستطيع إذ لا يمكن أن أترك العمل الذى أؤديه الآن .

وجلسنا نتبادل النظرات وندخن صامتين .

ورحت أسأل «سميث» قائلا : هل حدثك نيلسون عن رأيى ؟ ولكنه لم يجب بل حملق البصر في وجهى طويلا ، ثم بصق وهو يقول « رايت .. أنت مجنون ! » .

فنهضت ، وأعرض هو بوجهه عنى ، ولو أن انفعالا يسيراً آخر انتابنى فى تلك اللحظة على فرط غضبى لما ترددت فى استعمال قبضة يدى فى وجهه .

وضحك نيلسون وشخر .

قلت وأنا أرعش من الغضب : هل يحق لك أن تشتمنى هكذا ... ؟ ؟

ووقفت أتذكر كيف كنت فى أيام حداثتى أقاتل حتى تنزف الدماء ... إذا وجه إنسان لى كلاماً من هذا القبيل ، ولكنى لم أعد اليوم صبياً ، بل رجلاً ينبغى أن يتملك أعصابه ، ويتغلب على انفعالاته .

ورفعت قبعتى إلى رأسى ومشيت إلى الباب ، وأنا قائل لنفسى هدئ روعك ، ولا تترك الغضب يستحوذ عليك ... !

وقلت مخاطباً الرجلين : وداعا ... !

وحضرت الاجتماع التالى الذى عقدته « الخلية » ، وطلبت الكلمة فأعطيت لى على الأثر ، وكان نيلسون حاضراً ، وكذلك كان إيفانز وأوجرين .

ولما حان دورى للكلام نهضت فقلت :

« أيها الرفاق ...

« لقد ظللت خلال العامين الماضيين أشتغل مع أكثركم ، ولكنى وجدتنى فى فترة ما أواجه حرجاً فى علاقتى بالحزب ورابطتى ، ولهذا الحرج قصة طويلة لا يهمنى أن أتلوها الآن عليكم لأنها لا تحقق هدفاً ، ولا تجدى نفعاً ، ولكنى أصارحكم أننى وجدت حلاً لهذا الموقف وإنى لمقترح الليلة أن يحذف اسمى من قوائم الحزب ورجاله ، ولا تضطرنى خلافات نظرية إلى هذا القول الذى قلته اللحظة على أسماعكم ، ولكن الواقع أننى إنما أريد ألا أرتبط بعد اليوم بقرارات الحزب وأوامره ، وأحب أن أحتفظ بعضويتى فى تلك الهيئات التى تعمل تحت نفوذ الحزب وإشرافه ، ممتثلا لبرامجه المتعلقة بها ، ومذعناً لخططه . وأرجو أن تقبل كلماتى هذه بالروح ذاتها التى قيلت بها ؛ ومن يدرى لعلى فى يوم من الأيام مستطيع أن أجتمع بالزعماء وأتحدث إليهم عن المهمات التى أقوى على تأديتها وتنفيذها على الوجه الأكمل ... »

وجلست وسط صمت عميق .

وأرسل سكرتير الاجتماع نظرات مروعة نحو نيلسون وإيفانز وأوجرين .

وسأل السكرتير الجمع : هل يريد أحد مناقشة هذا البيان الذى أدلى به رايت ؟؟

وهنا انبرى نيلسون يقول : أقترح تأجيل مناقشته إلى وقت آخر .

وأخذت الأصوات فى الحال على اقتراحه وتقررت الموافقة عليه .

ودرت بعينى فى أرجاء القاعة التى خيم عليها السكون ، ومددت يدى لأتناول قبعتى ، وانثنيت أقول : أحب أن أنصرف الآن ...

فلم يقل أحد شيئاً .

ومشيت إلى الباب ، وخرجت إلى جوف الليـل ، وأحسست أن حملا ثقيلا انزاح عن كتفى .

لقد أصبحت حراً ...

وقد تصرفت تصرفاً لبقاً مستقيماً لا غبار عليه ، فلم أغضب ، ولم أثر ، ولم أفه بكلمات نابية ، ولا هاجمت أحداً ، ولا حنثت بعهد أو يمين .

وفى الليلة التالية جاءنى فى البيت زنجيان شيوعيان وادعيا أنهما يجهلان ما حدث فى الاجتماع ، فمضيت فى هدوء تام أشرح لهما ما جرى .

فقالا وهما يكشفان عن سرز يارتهما: إن قصتك للحادث لا تتفق مع رواية نيلسون.

قلت : وماذا يقول فى روايته ؟ ؟

قال : إنه يقول إنك مؤتمر مع جماعة من أتباع ترو تسكى ، و إنك دعوت فريقاً من الأعضاء فى الحزب الشيوعى إلى الاقتداء بك والخروج من الحزب .

فصحت مبهوتاً : هذا ليس بصحيح ... فإن كل ما قلته هو أننى طلبت إسقاط عضويتى ولم أثر حولها أية مسائل سياسية .

وجلست أفكر ملياً ، وأنا أسائل نفسى : ما معنى هذا كله ؟ ؟

ودرت نحوهما قائلا : أريد أن يكون انفصالى من الحزب جلياً واضحاً ، فاذا أبى نيلسون إلا المضى فى خطته هذه استقلت .

قالا : إنك لن تستطيع أن تستقيل .

قلت : ماذا تعنيان ؟ ؟

قالا : لا يملك أحد الاستقالة من الحزب الشيوعى !

فنظرت إليهما وضحكت .

قلت : هذا كلام مخرفين .

قالا : إن فى إمكان نيلسون أن يقصيك علناً ويقطع الأرض من تحت قدميك إذا أنت استقلت ، وسيظن الناس أن فى إخراجك من الحى الجنوبى شيئاً ارتـكبته أو خطأ اقترفته .

فعرانى الغضب .

هل بلغ الحزب من الضعف والشك فى ذاته بحيث لا يقبل ما قلته فى اجتماع « الخلية » ، ومن هـــذا الذى يضع هذه « التكتيكات » ، ويرسم هذه الخطط والتصميمات ... ؟ ؟

ولكنى فجأة هدأت ، إذ أدركت ما هنالك .

لقد أدركت أن هـــذه هى التكتيكات السرية الخفية التى كان يلجأ إليها الشيوعيون فى حركتهم السياسية على عهد القياصرة فى روسيا القديمة .

فقدرأى الحزب أنه مضطر إلى القضاء أدبياً علىّ لمجرد أننى لا أريد الارتباط بقراراته .

وتبين لى عندئذ أن زملائى إنما يمثلون رواية غريبة لا علاقة لها مطلقاً بحقيقة ظروفهم ومحيطهم .

قلت : نبئا نيلسون أننى والله لمحار به إذا هو أراد حربى ؛ أما إذا هو ترك هذا الأمر يقف عند هذا الحد ، فلا ضير ، وسيكون مجنوناً إذا ظن أننى لن أحاربه علناً ولن أناصبه العداء .

ولم أتحقق مما إذا كان كلامى هذا قد وصل إلى نيلسون أم لم يصل ، ولكنى لم أر ضجة تثار حولى فى المجامع ، وإن ثارت بين صفوف الحزب ذاته عاصفة هوجاء ضدى ، فقيل عنى « خائن » وشخصية متحولة متقلبة ، وإنسان فقد إيمانه .

ويعلم الله أن رفاقى عرفونى من قبل على حقيقتى ، وعرفوا أسرتى ، وعرفوا صحابتى ، وإملاقى الأليم وفاقتى ، ولكنهم لم يستطيعوا يوماً التغلب على خوفهم من الطريقة الاستقلالية التى كنت أعمل بها وأعيش ، وهى نزعة تأصلت فى نفسى ، واختلطت بروحى ودمى .

— ١١ —

ونقلتنى إدارة الترفيه من نادى الأحداث إلى المسرح الاتحادى للزنوج لأتولى قسم النشر فيه والإعلان .

وكانت تمر بى أيام يعضنى فيها الجوع بأنياب حداد ، من أثر المطاعن والمثالب المستمرة التى دأب عليها الرفاق كلما ورد ذكرى فى المجامع ، ولا كتنى ألسنة الناس ، ولكنى كنت أتعزى حول التهم المتبادلة ، والحملات المتكررة ، والثارات ، والانتقامات وأشباهها .

وكان المسرح الاتحادى الزنجى الذى عينت للدعاية والنشر له قد أخرج طائفة من الروايات العادية بعد صياغتها فى الأسلوب الزنجى وحشوها بمشاهد تمثل الغابات والخزعبلات وما إليها ، فكانت المرأة البيضاء التى تتولى إدارته ، وهى عجوز من طراز المبشرين والمبشرات ، تتناول رواية من الروايات التى تحوى أشخاصاً من البيض ، وتدور حوادثها فى القرون الوسطى فتعيد إفراغها فى شكل يتفق مع حياة الزنوج فى الجنوب مع زيادة تتصل بالحياة الأفريقية ومشاهدها . وأما الروايات العصرية التى تتناول الحياة الزنجية من النواحي الواقعية ، فكانت ترفضها بحجة أنها مثار جدل ، ومحل مناقشات وخلاف فى الرأى .

وكان المسرح يحوى قرابة أربعين ممثلا وممثلة من الزنوج ، وكلهم متلهف على دور يؤديه ، مقشوق إلى شخصية يندمج فيها ، وكلهم متذمر ساخط .

وقد فكرت فى الأمر ملياً ، فأحزننى أن أرى هذه المواهب المضيّعة ، وأدركت أن هناك مجالاً فسيحاً لإنتاج رواية زنجية جديرة بالتمثيل ، ولكن أحداً لا يحفل بذلك ولا يهمه ، ومضيت أدرس الموقف ، وأعرض الأمر على أصدقاء لى من البيض يتولون مراكز كبيرة فى الإدارة المشرفة على سير التقدم الاجتماعى ، وطلبت إليهم تغيير هذه المرأة البيضاء ، وأفكارها الغربية بانسان آخر يعرف الزنوج حق المعرفة ، وله بالمسرح خبرة حسنة فوعدونى أنهم فاعلون .

ولم ينقض شهر حتى نقلت المديرة البيضاء ، وانتقلنا بالمسرح من الحى الجنوبى إلى حى « اللوب » فى المدينة ، ووقع اختيارنا على مسرح من الدرجة الأولى .

ونجحت فى تزكية يهودى من أهل المواهب يدعى شارلز ديشم للتعيين فى مركز « المدير » .

وعقدت معه عدة محادثات وضعت خلالها النقط الرئيسية لما ينبغى أن نفعله ، وألححت فى أن يكون أول ما نخرجه حفلة من ثلاث روايات قصيرة ، كل منها فصل واحد ، ومن بينها رواية « أنشودة إلى الشمس المشرقة » التى وضعها « پول جرين » وهى فصل واحد شعرى قوى رهيب يعالج أحوال الزنوج فى الجنوب وكيف يعيشون جماعات مصفدة فى السلاسل ، مقرنين فى الأغلال .

وأسعدنى ما جرى وطبت نفساً بما تم ، فقد رأيتنى أخيراً فى مركز يسمح لى بالتوجيه والاقتراح والإرشاد ، ورؤية ما أشير به منفذاً كما أريد ؛ وكنت مقتنعاً بأن أمامنا فرصة نادرة لبناء مسرح زنجى صحيح لا زيف فيه ، فمضيت أنظم الدعوة إلى اجتماع عام ودعوت ديشيم إليـه ، وعرفته بالفرقة الزنجية وقلت لهم فى تعريفه إنه رجل يعرف المسرح وسيتقدم بهم إلى إخراج روايات ودرامات جدية بديعة .

وألقى ديشيم كلمة فى الاجتماع قال فيها : إنه لم يأت إلى المسرح ليدير دفته ، بل ليعاون الزنوج على إدارته بأنفسهم ؛ وكان كلامه سهلا بليغاً فتأثروا به ونهضـوا مصفقين له هاتفين .

وعندئذ وزعت نسخاً من « أنشـودة إلى الشمس المشرقة » على أفراد الفرقة جميعاً ، ووزع ديشيم الأدوار ، وعين موعـــداً لقراءتها معهم ، وجلست أستمتع بسماع ما هم قارئوه ، ولـكننى لم ألبث أن فوجئت بأمر أليم ، فقـــد مضى الزنوج يتلعثمون ويتعثرون فى قراءة أدوارهم ، وأخيراً كفوا عن القراءة جملة واحدة ، و بدا الرعب على وجه ديشيم ؛ ونهض زنجى منهم فقال : « اسمع يا مستر ديشيم إننا نعتقد أن هذه الرواية ليست لائقة ، ولا نريد أن نمثل مسرحية كهذه أمام الجمهور الأمريكى ؛ ولست أعتقد أن شيئاً من هذه الأحوال التى وصفت فيها قائم فعلا فى الجنوب ، فقد عشت فيه دهراً فلم أر العمال مصفدين فى الأغلال . . يا مستر ديشيم ، إننا نريد رواية تحببنا إلى الجمهور وتـكسبنا مرضاته .

فسأله ديشيم قائلاً : أى نوع من الروايات تريدون ؟ ؟

— وظهر أنهم لا يعرفون ، فذهبت إلى المكتب لأرجع إلى ملفاتهم ، فتبين لى أن أكثرهم قضوا حياتهم فى تمثيل روايات هزلية رخيصة ، لأنهم ممنوعون من تمثيل الروايات الجدية ؛ فلا عجب إذا هم اليوم برموا بهذا النوع خاصة ، وكرهوا أن يظهروا فى مسرحيات قد لا يرضون بها الناس ، وهم لهذا حائرون لا يعرفون أى نوع يؤثرونه على سواه .

وشعرت — ولو إلى حين — أن البيض قد يكونون على حق فى اعتقادهم أن الزنوج أطفال لا ينمون ولا يكبرون .

وأبلغ ديشيم الفرقة أنه على استعداد لإخراج أية روايات تريد الظهور بها ، ولكن القوم ظلوا جلوساً كالفيران المروعة ، لا يملكون قولا يعبرون به عن رغباتهم المبهمة ومطالبهم الغامضة .

ولما ذهبت إلى المسرح بعد أيام ، بهت أن وجدت الفرقة قد أعدت « عريضة » تطلب فيها إخراج ديشيم ، وتطلب منى توقيعها .

ولكنى رفضت التوقيع .

قلت : ألا تعرفون يا قوم صديقكم من عدوكم .

فحملقوا الأبصار صامتين .

ودعوت ديشيم وعقدنا اجتماعا .

قال : وماذا ترانى أفعل ؟

قلت : تترضاهم وتستشيرهم ، دعهم يشعروا أنه من حقهم أن يتظلموا من الأمر الذى لا يروقهم .

ورأى ديشيم النصيحة فى محلها ، فجمع أفراد الفرقة وقال لهم : إنه يحق لهم إذا شاءوا أن يقدموا أية عرائض ضده ، ولكنه يرى أنه فى الإمكان تسوية أى خلاف بينه و بينهم بكل سهولة ورفق .

وعندئذ انبرى أحدهم يسأله قائلا : من الذى أنبأك أننا سنقدم عريضة ؟ فنظر ديشيم إلىّ وتلعثم فلم يحر جوابا .

وصاحت فتاة سوداء فى الجمع قائلة : « إن فى المسرح جاسوساً ! » .

وعقب ارفضاض الاجتماع جاءنى وفد منهم إلى مكتبى فأخرجوا مديهم من جيوبهم وأشهروها فى وجهى قائلين : اخرج من هذه الشغلة بسلام وإلا فتحنا لك بطنك بهذه السكاكين ! .

فتحدثت فى التليفون إلى أصدقائى البيض فى إدارة التقدم الاجتماعى فقلت لهم : انقلونى فى الحال إلى عمل آخر وإلا مت قتيلا !

ولم تنقضِ أربع وعشرون ساعة حتى أخذنا أنا وديشيم أوراقنا وتصافحنا ومضى كل منا فى سبيله .

وقد نقلت إلى فرقة تمثيل نموذجية للاشراف على الدعاية لها ، واعتزمت أن أحتفظ بخواطرى وآرائى لنفسى ، أو أن أدونها عندى فلا أحاول نقلها إلى حيز التنفيذ .

- ١٢ -

وفى ذات مساء زارنى فى البيت جمع من الزنوج الشيوعيين ، وطلبوا أن يتحدثوا سراً معى ، فأخذتهم إلى غرفتى وأغلقت الباب .

قالوا : اسمع يادك ... إن الحزب يريد منك الحضور إلى الاجتماع فى يوم الأحد.

قلت : لماذا ، وأنا لم أعد عضواً ؟

قالوا : لا بأس من هذا ، ولكنهم يريدون منك أن تحضر .

قلت : إن الشيوعيين لا يكلموننى إذا لقيتهم فى الطريق ، والآن يطلبون منى حضور اجتماع لهم ، فما السر فى ذلك ؟؟

فحاولوا التهرب منى .

قلت : إذا لم تقولوا لى فلن أحضر .

فتشاوروا بينهم متهامسين وأخيراً قرروا أن يفصحوا .

قالوا : إن روس سيحاكم فى هذه الجلسة .

قلت : وعلام المحاكمة ؟؟

فعددوا لى جملة اتهامات سياسية زعموا أنه مدان فيها .

قلت : وما شأنى أنا فى هذا كله ؟؟

قالوا : ستعرف إذا حضرت .

فهجمت الريبة فى خاطرى ، أتراهم يحاولون جر قدمى إلى محاكمة لإبعادى .

قلت : لست بالساذج إلى هذا الحد ، إن هذه المحاكمة قد تكون لى .

فأقسموا أن لا نية لديهم فى محاكمتى ، وإنما كل ما يريده الحزب هو أن أشاهد محاكمة « روس » حتى أعرف « ماذا يكون مصير خصوم الطبقة الكادحة وأعدائها » .

وتولانى ، وهم يتحدثون معى ، ذلك الحب القديم لمشاهدة شىء جديد ، وقامت فى نفسى اللهفة على مشاهدة تلك المحاكمة ، ولكننى لم أشأ أن أجازف مخافة أن أقع فى الفخ ، وأكون أنا الشخص الذى تراد محاكمته .

قلت : استمعوا لى .. إننى برىء من التهم التى وجهها إلىّ نيلسون، فإن ظهرت فى هذه المحاكمة فقد أبدو غير برىء

قالوا : كلا .. لن يحدث شىء من هذا .. فهلا جئت ؟

قلت : ليكن . ولكن .. اسمعوا .. إذا أنا خدعت فلن أسكت .. بل سأقاوم وأناضل ... إننى لا أثق بنيلسون ، ولست سياسياً ، ولا أعرف كيف يقضى المرء الساعات فى حيك الدسائس ونسج المؤامرات .

وجرت محاكمة روس فى أصيل الأحد التالى .

ووقف رفاق من الشيوعيين حول قاعة الاجتماع فى خفية حراساً ورقباء ، وعين آخرون منهم على الأبواب وفى الدهاليز والشوارع المجاورة .

ولما وصلت أفسح لى الطريق .

وكانت أعصابى مرهفة متوترة

وكانت القاعدة المتبعة أنك إذا حواك اجتماع من هذا النوع فلن تستطيع الانصراف منه حتى ينفض ، خشية أن تذهب إلى البوليس فتنم عنه .

وكان روس المتهم جالساً وحده إلى منضدة فى صدر القاعة ، وهو شاحب متجهم الوجه ؛ فلم ألبث أن شعرت برثاء له ، ولكنى لم أتمالك نفسى من الشعور بأنه يلوح راضياً عن مجلسه هذا مستريحاً إليه ، فلعل ذلك فى عينيه خروج إلى النور ، وأن الخروج إليه خير من البقاء فى ظلام دامس وحياة معتمة .

ولم يلبث خاطرى فى محاولة معرفة سر كراهية الشيوعيين للطبقة المستنيرة أن عاد بى إلى القصص والروايات والكتب التى قرأتها عن الثورة الروسية ؛ فقد كان فريق قليل من السادات على عهد روسيا القديمة ، وجمع محدود من المتعلمين والمتكبرين وأهل الصلف والخيلاء يشغلون ملايين من الفقراء والجهال ، فى خدمة ضياعهم ، وطاعة أمرهم ، والنزول على حكمهم صاغرين ، فلاعجب إذا علق بأذهان الشيوعيين حين جاء أوانهم ، وأقبل عهدهم ، أن الخيانة قرينة العلم ، وأحسوا أن لا أمان « للمستنيرين » والمتعلمين .

ولكن لم يلبث الشيوعيون أن تبينوا أن فى العالم الغربى عنصراً آخر يخيفهم ويزعج بالهم وأعنى به عنصر « العصاميين » من الكتاب وأهل الأدب ، وأن الزنجى ذاته الذى يحيط به الجهل والاستغلال ، كما كان شأنى ، يستطيع إذا أوتى الإرادة والعزم والرغبة الصادقة أن يتعلم القراءة ويفهم العالم الذى يعيش فيه .

وهذا هو العنصر الذى لم يستطع الشيوعيون أن يفهموه .

وبدأت المحاكمة فى جو هادئ ، وبطريقة غير رسمية ، حتى بدا القوم وكأنهم جماعة من الجيران جلسوا للحكم على جار لهم سرق دجاجة أو فرخا ، وكان مسموحا لكل إنسان أن يطلب الكلمة ، فإذا طلبها أعطيت له ، وتركت الحرية مطلقة لمن يشاء كلاما ، وإن كان للاجتماع كيان خاص يبعث على الدهشة ، كيان يماثل فى عمقه الرغبة ذاتها التى تحدو الناس إلى العيش معاً ، والحياة فى ظل الوحدة والوئام ، والجنوح إلى السكينة والسلام .

ونهض أحد أعضاء اللجنة المركزية فوصف الموقف الدولى فى منطق رصين ، بغير انفعال وقول معزز بالوقائع ، ورسم صورة بشعة ، ولكن بارعة ، لعدوان « الفاشية » فى ألمانيا وإيطاليا واليابان .

وقد أقنعنى الباعث الذى حمل القوم على ابتداء المحاكمة على هذا النحو ، فقد تبين لى أنه كان من المتعين عليهم أن يبينوا الأثر المترتب على الجنايات التى اقترفها روس فى نظرهم ، ومدى صلتها بالبشرية وأثرها العام ، واقتضى هذا تصوير الإنسانية المعذبة فى صورة حية بارزة المعالم ، وكانت الصورة فعلا حقيقية . ولست أظن فى العالم كله هيئة أقدر من الحزب الشيوعى على معرفة دقائق العمال ومعايشهم ، ولا أكثر خبرة بتفاصيلها وجزئياتها ، لأن مصادرها مستقاة رأساً من العمال أنفسهم .

وعمد الخطيب الثانى إلى شرح الدور الذى يضطلع به الاتحاد السوفييتى ، فقال إنه الدولة العمالية الوحيدة فى هذا العالم ، ومضى يصف كيف يحيط الأعداء بها من كل جانب ، وكيف تحاول « تصنيع » كيانها ، ويعدد التضحيات التى تبذلها لمعاونة العمال فى العالم على شق طريق إلى السلام من ناحية السلامة الجماعية .

وكانت الوقائع المبسوطة فى المجلس صحيحة إلى حد ما ، ولم يقل أحد شيئاً خلال ذلك كله عن المتهم الذى جلس يستمع كبقية المجتمعين ، لأن الوقت لم يحن لإدماجه هو وجرائمه فى هذه الصورة البارزة لنواحى الصراع العالمى ومعالمه .

فقد اقتضى المقام أولا التعميم وبسط الحقائق المجردة أمام المستمعين حتى يستطيعوا أن يقيسوا على أساسه ، حكمة تصرفهم أو خطل عملهم على السواء .

وأخيراً نهض خطيب فتكلم عن الحى الجنوبى فى مدينة شيكاغو وسكانه الزنوج ، وما يعانونه من آلام ، وما يقاسونه من حرمان ، رابطاً ذلك كله بالصراع العالمى وأحداثه . وتبعه خطيب آخر فشرح المهمة التى يتولاها الحزب الشيوعى فى ذلك الحى ، وانتهى من ذلك ونحوه إلى إدماج الصور الثلاث . الصورة العالمية العامة ، والصورة القومية الخاصة ، والصورة المحلية بالذات ، فى « مأساة » شاملة

لصراع معنوى يشترك فيه كل فرد من المجتمعين ، ويحمل كل مستمع منه نصيباً .

وقد استغرق هذا التصوير الدقيق الشامل أكثر من ثلاث ساعات ، ولكنه على كل حال بث فى قلوب الحاضرين معنى جديداً للحقيقة والواقع ، معنى يتصل بحياة البشرية ودنيا الأرض والناس . ولست أعرف هيئة فى العالم كله أقدر من الحزب الشيوعى على إشعار الناس معانى الأرض والبشرية والحياة الدنيا ، اللهم إلا إذا استثنينا الكنيسة وأساطيرها الأولى وخرافاتها المتعددة .

وقبيل المساء بدأت التهم تكال لروس ، لا من جانب الزعماء أنفسهم ، بل على ألسنة أصحابه وأهل مودته بالذات ، الذين يعرفونه أكثر مما يعرفه الآخرون !

لقد كان اتهامهم إياه تدميراً له ، بل صواعق هوت عليه .

وبدا الرجل ذابلاً ذاوياً من فرط ما أصابه .

ولم تعد مشاعره تقوى على مغالبة وطأة هذا الموقف وحرجه .

فقد رأى الذين تولوا اتهامه إنما تكلموا عن طواعية ، واتهموه عن اختيار ، فلم يبعثهم عليه تخويف ، ولا حملهم عليه إرهاب . .

لقد مضوا بكل ما أوتوا من حرية يعينون وقائع ، ويذكرون تواريخ ، ويشرحون مشاهد ، حتى راحت أغلاطه وآثامه تتكشف فى رفق ، وكومة مساويه وأخطائه وضلاته تتحلل وتتناثر بقوة لا تدحض ، ومنطق ليس لمثله من تفنيد .

وجاءت اللحظة التى يتولى روس فيها الدفاع عن نفسه ، وكنت قد نبئت أنه اتفق مع صحاب له على الشهادة فى مصلحته ، ولكنى فى تلك اللحظة لم أره يستنصر أحداً أو يدعو شهيداً له ، يذود عنه ، وإنما نهض راعشاً ، وحاول أن يتكلم فخانه الكلام ؛ وكان السكون يسود المكان ، سكون كصمت القبور وسكينة الأجداث .

وبدا الذنب مسطوراً على كل قطعة من أديمه ، وراحت يداه ترتجفان ، فأمسك بحافة المنضدة ليتوازن على ساقيه فلا تخذله ركبتاه .

وامحت شخصيته من الوجود ، وفقد شعوره بالذات ، ولولا أنه ارتضى هذا

المشهد الذى حطمه، واشترك فى هذه الرؤية التى دمرته، لما بلغت به الذلة هذا الحد، ولما تضاءل وخنع كل هذا التضاؤل والخنوع.

قال بصوت خفيض عميق النبرات: «أيها الرفاق! إننى مدان بهذه التهم كلها ...» وأجهش بالبكاء.

لقد انتحب، ولم يكرهه أحد على القول، ولم يَسُمْه أحد عذاباً حتى يعترف هذا الاعتراف.

ولم يوعده أحد، ولم يهدده، بل كان طليقاً حراً، يستطيع الخروج من القاعة فلا يحضر بعد اليوم اجتماعاً شيوعياً آخر مدى الحياة...

ولكنه لزم مكانه، ولم يشأ منصرفاً، ولم يرد خروجا.

إن هذه الرؤية التى طالعته، رؤية عالم متحد، استقرت فى أعماق نفسه فلن تفارقه إلا إذا فارقته الحياة.

ومضى يتكلم، فوصف كيف أخطأ، وشرح كيف ضل، ووعد أن يصلح ما أفسد، و يثيب بعد ضلال.

وقد بدا لى وأنا فى مجلسى ذاك أن خلقاً كثيراً من الناس يظنون أنهم خبروا الحياة، ولا يريدون أن يصدقوا ما قيل لهم عن محاكمات «موسكو» ولكن ليتهم كانوا حاضرى محاكمة «روس»، هذه المحاكمة العجيبة المدهشة، إذن لصدقوا ما كان يساورهم الشك فيه، وأمنوا بما كانوا له من قبل مكذبين.

إن ورس لم يخدع لكى يحمل على الاعتراف.

ولكنه إنما أوقظ!

ولم يدفعه الخوف من الحزب، وإنما دفعه الخوف من العقاب الذى كان سيتقاضاه من نفسه إلى الحديث عن خطاياه.

لقد تكلم من قبله الخطباء، فمازالوا به حتى أبدلوه من عينيه عينين أخريين لينظر بهما إلى جرائمه، ويشهد بهما ذنوبه، ثم جلسوا ليستمعوا إليه وهو يقص عليهم ما فعل، وروى لهم ما كان منه.

لقد تلاشى فيهم جميعاً واتحد واندمج ، بغض النظر عن العنصر واللون ؛ فقد كان قلبه قلوبهم ، وكانت قلوبهم قلبه ؛ وحين يصل أمرؤ إلى هذا الحد من القرابة من الناس، والتلاشى فى الغير ، أوحين يبلغ المرحلة من هذه «الوحدة» أو«الوحدانية» أوعندما تجعله المحاكمة كذلك ، بعدأن ينفصل عنهم بأخطائه ، وينحرف عنهم بآثامه وأغلاطه ... عندئذ يحس أن لا معدى له عن النهوض بدافع من أعمق الدوافع المعنوية فى هذا العالم ، ليقول على رءوس الأشهاد : إننى مذنب ، فاغفروا لى ما فرط منى ... إننى التائب المنيب ..

لقد بدا لى هذا المشهد ، رائعاً مجيداً ؛ ولـكن لأن الحزب أنكرنى ، وكان أعمى جاهلا لحق ، لم ألبث أن أحسست أنه مشهد منكر ، ومنظر بشع .. !

إن عماهتهم عن معيشتهم المحدودة ، وحياتهم التعسة المقبورة ، للظلم البالغ الذى عانوه زماناً طويلاً قبل أن تأتى الشيوعية أو قبل أن يستمعوا لوعودها ، حملتهم على الظن بأنى مع أعدائهم عليهم ، وأنى خصم من خصومهم ؛ فإن الحياة الأمريكية أفسدت إحساسهم إفساداً أعجزهم عن التمييز بين الصديق والعدو ، والتفريق بين الحليف والخصم المبين .

ولو أنهم أوتوا سلطاناً فى الدولة لاتهمونى علناً بالخيانة العظمى وحكموا بإعدامى .

وكنت على يقين أنهم كانوا يشعرون بسبب هذا العمى الأسود الذى منوا به ، أنهم فى ذلك على صواب ، وأنهم لم يخطئهم فيه السداد .

وأحسست عندئذ أننى لا أستطيع البقـاء إلى النهاية ، وشعرت برغبة ملحة فى الخروج إلى الشارع ، والإفلات من هذا التوتر البالغ الذى استولى على أعصابى واستمكن منى .

فنهضت ومشيت إلى الباب .

واعترضنى أحدهم فهز رأسه منذراً بألا أنصرف حتى تنتهى المحاكمة .

قال : لا يمكن أن تنصرف الآن .

قلت غاضباً ، وقد علا صوتى من فرط الحنق أكثر مما كنت أريد : إننى خارج !

ولكنه وقف يحملق فى وجهى ملياً .

وجاء رفيق آخر يهرع نحونا .

وتقدمت خطوة إلى الأمام ، فلم يكن من هذا الأخير إلا أن أشار لصاحبه أن يخلى بينى لأنهم لا يريدون إحداث ضجة ، ولم أكن أنا أيضاً أريد إحداثها ، فتنحيا لكى أمرّ .

ورحت أهيم فى شوارع شيكاغو المظلمة ، ومضيت إلى مسكنى حزيناً مهموماً ، وجعلت أقول لنفسى مرة أخرى ، إنه ينبغى أن أروض خاطرى على العيش بمعزل والحياة بمنأى .

ولم أستشعر أية غضاضة أو مضض من تنكرهم لى ، و إقصائى عنهم ، ولا قامت بنفسى رغبة فى قضاء أيامى مردداً ما فعلوا بى شارحاً للناس ما أتوه .

ولعل ما تعلمته فى أيام حداثتى هو الذى أنقذنى من اتخاذ هذا المسلك الذى لا جدوى منه ولا نفع فيه .

ورقدت فى فراشى تلك الليلة وأنا أقول لنفسى «سأكون لهم ، و إن لم يكونوا لى» !

-١٣-

ومن المسرح النموذجى الاتحادى* نقلت إلى المشروع الاتحادى للكتاب وحملة الأقلام فمضيت أحاول كسب قوتى من وضع التقاويم وكتب « الدليل » ، وكان كثير من الكتاب المعينين فى هذا المشروع أعضاء فى الحزب الشيوعى ، وقد بروا بما تعاهدوا عليه من الامتناع عن الكلام مع « الخونة الناكثين بعهد الطبقة العاملة » فكنت أجلس فى المكتب بجوارهم ، ويتفق موضعى فى المطاعم بجانبهم ، وتحتوينى المصاعد معهم ، هابطين أو مرتفعين ، فكانوا يشيحون عنى بوجوههم ، ولا يوجهون إلىّ كلمة واحدة .

وقد رقيت بعد بضعة أشهر مشرفاً على المقالات ، وإذا بى أصطدم بمتاعب سياسية ففى ذات صبح دعانى المدير إليه فى مكتبه .

قال : اسمع يا رايت ، من هم أصدقاؤك هنا فى معشر الكتاب والمحررين .

قلت : لا أدرى ، ولكن لماذا تسألنى ؟؟

قال : يجب أن تعرف من هم ولا تبطىء .

قلت : ماذا تعنى !

قال : إن بعضهم يطلب فصلك بدعوى العجز وقلة الكفاية .

قلت : ومن هم أولاء ؟؟

فراح يذكر لى عدداً من رفاقى القدامى .

أى والله ، لقد وصل بهم الحقد إلى هذا الحد ، لقد حاولوا انتزاع اللقمة من فمى انتزاعاً .

قلت : وماذا تنوى أن تفعل بشكواهم ؟؟

قال ضاحكا : لا شىء ، وأظننى فاهماً ما يجرى هنا ، ولن أدعهم يفلحون فى طردك من هذه « الشغلة » .

فشكرته ونهضت لأمشى إلى الباب ، ولكنى وقفت لأواجهه ، إذ بدا لى فى لهجته ما يريب .

قلت : فى هذه « الشغلة » ، ماذا تعنى بهذا القول ؟؟

قال : هل تريد أن تفهمنى أنك لا تعرف ؟

قلت : أعرف ماذا ؟؟ إننى لا أدرك من هذا الكلام شيئاً .

قال : لماذا خرجت من المسرح الزنجى ؟

قلت : لقيت فيه متاعب ، لقد طردنى الزنوج منه .

قال بتهكم : ألا ترى أنهم كانوا فى ذلك مدفوعين .

فعدت إلى مجلسى ، وقد تولانى الفزع ، ونظرت إليه مبهوتاً .

قال : لا تخف من شىء هنا ، وامض فى عملك .

فغمغمت أقول : لا أكاد أصدق ما تقول .

قال : انس ما جرى بيننا .

ولـكن جرى ما هو أدهى .

ففى ظهيرة يوم من الأيام أغلقت منضدتى وهبطت فى المصعد ، ولما وصلت إلى الطبقة الأولى من المبنى ، شاهدت صفاً من المعينين للتجوال والمراقبـــة يروحون فى الشارع ويغدون ، وكان كثيرون منهم يحملون لافتات ، وفيهم صحب لى قدماء ، وهم يهتفون مطالبين برفع أجور الفنانين والـكتاب .

وفيما كنت أجتاز الباب سمعت صوتاً ينادى باسمى قائلاً : ها هو ذا رايت التروتسكى اللعين ...

نحن نعرفك يا ...

أرأيتم الخائن ... ها هو ذا ... !

وخيل لى لحظة أننى لم أعد حيا ... فقد وصل الأمر بى إلى سماع اسمى مقترناً باللعنات فى شوارع المدينة الثانية بين كبرى المدائن الأمريكية .

لقد هزنى هذا الحدث هزة لم أشعر بمثلها فى يوم ما .

ومرت الأيام .

ومضيت أؤدى عملى كعضو مجلس الإدارة المنتدب من النقابة التى ساعدتُ على تنظيمها ، وكان الحزب قد حاول جاهداً المعــارضة فى انتخابى لتولى الإدارة ، بل لقد راح رفاقى القدامى فى محاولتهم القضاء على نفوذى فى النقابة ، يحاولون القضاء على النقابة ذاتها .

وقبيل حلول أول مايو عام ١٩٣٦ قرر أعضاء النقابة الاشتراك فى الموكب العام .

وفى صباح ذلك اليوم تلقيت تعليمات مطبوعة عن الموعد والمكان اللذين سنجتمع فيهما للانضمام إلى العرض العام .

وفى الموعد المضروب بادرت إلى الموضع فتبين لى أن الموكب ابتدأ فعلا ، وحاولت الاهتداء إلى أعلام نقابتى فلم أعثر عليها وجعلت أذرع الشارع ذهاباً وجيئة سائلا عن قومى فلا أجد هادياً .

وأخيراً رأيت زنجياً يقول لى : آه ... إن نقابتكم مرت منذ خمس عشرة دقيقة فان كنت تبغى المسير ، فادخل الصف فى أى موضع تشاء .

فشكرته ورحت أخترق الجماهير المتظاهرة ، وإذا بى فجأة أسمع منادياً ينادينى ، فدرت بعينى لأرى من المنادى فوجدت عن يسارى قسم الحى الجنوبى مصطفاً يهم بالمسير .

ودعانى صديق قديم قائلاً : هلم إلينا .

فدنوت منه .

قال إذ دانيته : ألست سائراً فى الموكب ؟ ؟

قلت : لقد فاتنى اللحاق بنقابتى .

قال : يا أخى وماله ... إلحقْ بنا .

قلت : وقد تذكرت زيارتى الأخيرة لمركز الحزب وموقفه منى ، لا أدرى هل أفعل أم لا . . .

قال : هذا يوم أول مايو ... ادخل فى الصف !

قلت : أنت عارف ما جرى .

قال : هذا لا يهم ، كل إنسان اليوم فى الموكب مشترك ، فهززت رأسى قائلا : خير لى ألا أفعل .

قال : أخائف أنت ، هذا يوم أول مايو !

واجتذبنى من ذراعى فأدخلنى فى الصف بجانبه ، فوقفت أتحدث إليه ، وأسأله عن عمله وعن أصدقائنا .

وإذا بصوت يصيح : اخرج من صفوفنا !

فدرت بعينى ، و إذا بى أرى شيوعياً من البيض يرأس قسما من الحزب ، ويدعى « ساى بيرى » وهو فتى نحيف حليق الرأس .

قلت : إن هذا يوم أول مايو ، وأريد أن أسير فى الموكب .

فعاد يصيح بى : اخرج !

قلت : لقد دعيت إلى الانخراط فى الصف .

والتفتُ إلى الشيوعى الزنجى الذى دعانى ، ولم أشأ أن ألجأ إلى العنف ، ونظرت إلى صديقى فإذا به يشيح عنى لأن الخوف تملكه ، فلم أدر ماذا أنا فاعل .

قلت : إنك طلبت منى أن أنضم .

فلم يحر جواباً .

قلت ، وأنا أجذبه من ردن ثوبه : قل له إنك أنت الذى دعوتنى ، ولكن « ساى بيرى » عاد يصيح بى قائلاً : « إننى أطلب منك للمرة الأخيرة أن تخرج من صفوفنا » .

فلم أتحرك ... وإن كنت قد أردت ، ولكننى كنت فى تلك اللحظة نهباً مقسما لدوافع جياشة منعتنى من الحركة ، وشلت قواى .

وجاء شيوعى آخر من البيض لمساعدة « بيرى » ودنا هذا منى فأمسك برقبتى وراح يجرنى جراً ، ولكنى قاومت وإذا بهما يمسكان بى ، فحاولت التملص منهما وأنا أصيح بهما « اتركانى ! » .

ولكن الأيدى تكاثرت علىّ ، فاحتملتنى من الموضع الذى جمدت فيه ، وشعرت بأننى معلق فى الفضاء ، ولكنى أنقذت نفسى من الارتطام بالتشبث بطرف الإفريز حين سقطت على يدىّ .

ونهضت متراخياً واستويت على ساقىّ ، بينما وقف بيرى وصاحبه يحملقان البصر فى وجهى ؛ وتبين لى أن الصفوف الشيوعية من البيض والسود راحت تنظر نحوى بأعين باردة مستنكرة متجاهلة شأنى .

ولم أكد أصدق ما جرى ، وإن ظلت يداى تدميان وينبعث منهما ألم موجع .

لقد اعتدى علىّ فى الطريق العام شيوعيان من البيض ، ووقف الزنوج عن كَثَب ينظرون .

ولم أستطع الانصراف من ذلك الموضع ، وخلا ذهنى من كل فكرة أوخاطر .
ولكننى لم أشعر بنزوع إلى العدوان .

فقد كبرت ، وفارقت عهد الطفولة من زمان بعيد .

وبدأت صفوف الحزب الشيوعى الضخمة تتحرك فجأة ، رافعة أعلامها الحمر التى تحمل شارة المطرقة والسندان ، رمز الثورة ، مرفوعة خفاقة فوق الرءوس ، ومضى دوىّ الطبول يتردد فى الفضاء ، والعقائر ترتفع متعالية بالأغانى والأناشيد ، والأرض تهتز من وطأة الأقدام اهتزازاً .

ومرت قبالتى مواكب من رجال متجهمى السحنات ونساء عابسات مكفهرات ، بين بيض وزنجيات ، مستفيضين فى الطريق على أعين الجماهير .

وتابعت المواكب إلى سرة المدينة — حى «اللوب» — ثم انعطفت إلى المتنزه العام — جراند بارك بلازا — فجلست فوق مقعد خشبىّ .

جلست لا أفكر ، جلست عاجزاً عن أى تفكير .

ولكننى أحسست إلهاماً خفيا يولد فى أعماق ، وينبعث فى أغوار نفسى .

فقد توالت عليها موجات من أخيلة ، تعاقبت وتدافعت لتؤلف اتجاهاً واحداً ، ويجتمع منها إحساس واحد .

لقد انثنيت أقول لنفسى ، إنهم عُمْىُ الأبصار ، لقد أعماهم أعداؤهم بكثرة ما ألحوا عليهم به من الظلم ، وفرط ما احتملوه على أيديهم من البغى والطغيان .

وأشعلت لفافة من التبغ ، وسمعت أغنية يتماوج بها الفضاء :

« انهضوا يافريسات المجاعة ... ! » .

وعندئذ تذكرت الروايات التى وضعتها ، تلك الروايات التى خصصت فيها للحزب الشيوعى أدوار مجد وبطولة وشرف ؛ وقد سرنى أننى فرغت منها ، ولم تعد بحاجة إلى مراجعة أو تهذيب ؛ نعم ، لقد سرنى أنها انتهت ، لأنى أحسست فى أعماق قلبى أننى لن أستطيع بعد اليوم أن أكتب بذلك الأسلوب الذى كنت أكتب

به ، ولن أشعر بذلك الشعور الحاد المرهف الذى كنت أستشعره ، ولن أعبر بعد الآن عن الأمل الوثاب الغلاب فى النفس ، ذلك التعبير الحماسى البليغ الذى كنت أعبر به من قبل ، ولن أعود أسلم بالإيمان تسليما[1] .

وطرقت سمعى نغمات نشيد تقول ...

« إن عالماً أفضل ...

... يوشك أن يولد » !

وكانت المواكب لا تزال سائرة ، والأعلام لا تزال خفاقة ، والعقائر لا تكف عن إنشاد .

واتخذت سمتى إلى البيت وحيداً ، أى والله ، وحيداً منفرداً ، أحدث النفس قائلاً لها إن القلب الإنسانى هو فى كل هذه القارة الأمريكية العظيمة المترامية ، العامل الوحيد الذى قلما يفهمه الناس ، وإن الوسيلة التى تذلل للمرء أن يعيش عيشة إنسانية ، هى الهدف الذى قلّما يلتمسونه ، والمرمى الذى قلّما يتوخونه .

ولكن لعلى مستطيع أن ألقى شرارة فى وسط هذا الظلام البهيم ...

وسأحاول لا لأنى أريد ، بل لأنى مضطر أن أفعل إذا أردت أن أحيا ، وأبيت إلا أن أعيش .

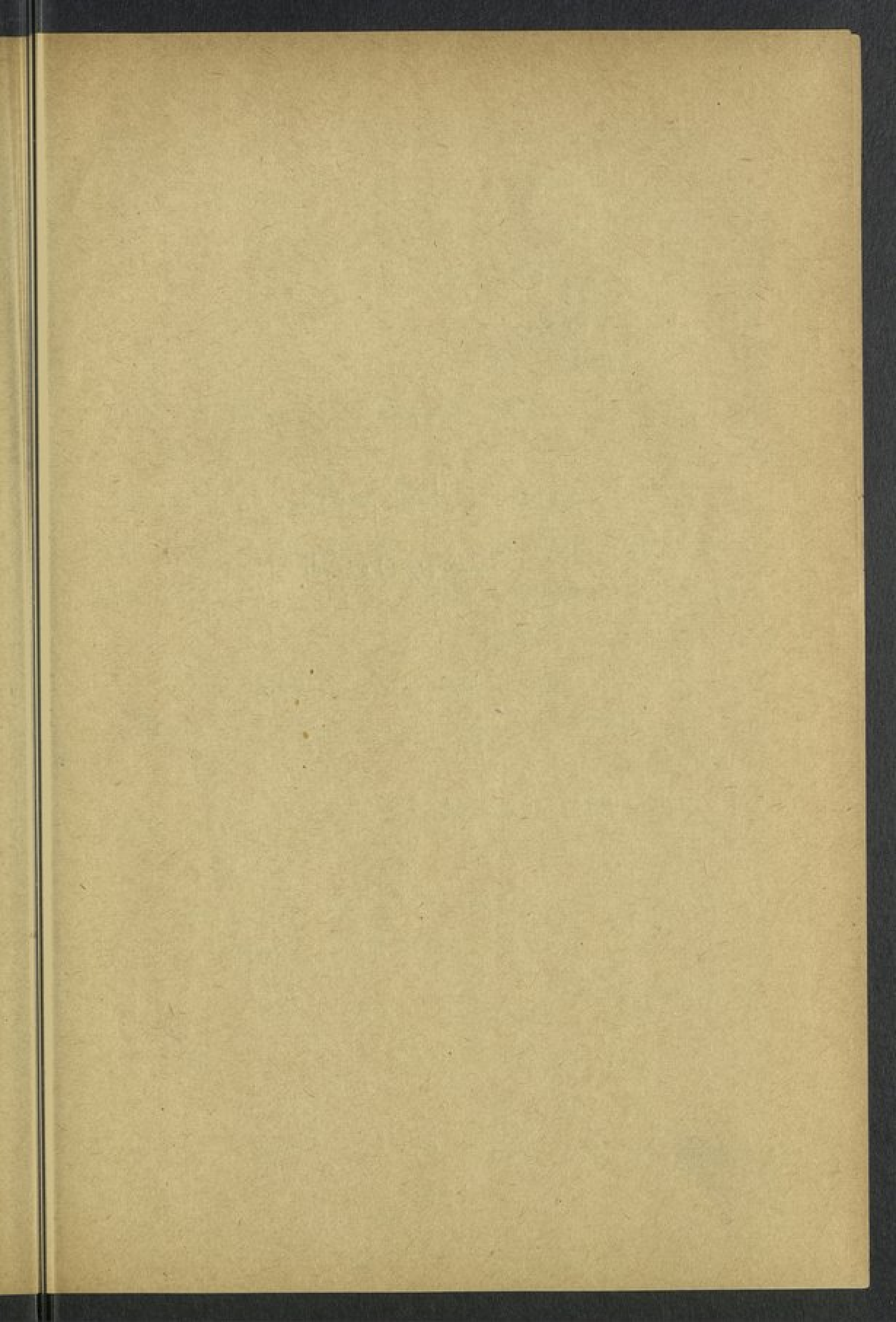
سألقى كلاماً فى وسط هذا الظلام ، وأبعث بألفاظ فى فحمته ، ثم أنتظر الصدى . فإن تردد ، بل إن بدا خافتاً ، ألقيت بكلام آخر ، أقصّ به ، وأسير وأناضل ، فى سبيل إشعار الناس بمعنى اللهفة والحرص على الحياة ، اللهفة التى تعض جوانحنا بأنيابها الحداد ، وإبقاء العنصر الإنسانى الذى لا سبيل للتعبير عنه ، حياً ماثلاً فى القلوب والأرواح ...

---

(١) انظر المقدمة . فقد اقتبس كروسمان هذه الفقرة من حديث « رايت » .

القسم الثانى

العابدون من بعيد



أندريه جيـــد

مقدمة بقلم « ايفيد ستاركى »

فى عام ١٩٢٠ استولى على أندريه جيد تطور بالغ المدى ؛ فقد انتقل من دور المفكر المنطوى على نفسه الذى عرفناه فى مؤلفاته الباكرة ، إلى دور الفيلسوف الهادئ الذى عرفناه فى كتبه الأخيرة ؛ فقد انصرف عن تعذيب نفسه ، وعدل عن إلحاحه القديم على تقصى الدوافع إلى الجريمة والإثم ، وأصبح الرجل الذى ظن أنه قد اكتشفه أخيراً فى أعماقه، وهو القائل «إننى أدع للمتناقضات جميعاً مداها فى نفسى تفعل بها ما تشاء» . وقد تخلص بالانطلاق من الصراع النفسى الذى كان متشبثاً به ، ومن إدمان التحليل الشخصى ، إلى البحث الموضوعى ، لا من ناحية مشكلة الجريمة والإثم والحرية الشخصية وحدها ، بل من مختلف النواحى والجهات .

وفى شهر يوليه عام ١٩٢٥ ، بعد فراغه من كتابه « المالّيون الضالون » ، نزح إلى أفريقيا ، ولم يعد منها إلا بعد عام من سفره ، وقد استبشع ما رآه فى المستعمرات الفرنسية الاستوائية من استغلال السادات البيض لأهلها الزنوج ؛ وحين رجع إلى وطنه كتب يقول «إن حزناً شديداً لن يفارقنى بعد اليوم» ؛ وكتب بعدئذ إلى صديقه « شارل دى بو » يقول: «لست أود الظفر بالسعادة لنفسى فحسب، بل أريد أن يصل إليها الغير كذلك ، وهذا هو السر فى أن شعورك بالسعادة ليس شيئاً مذكوراً ، فإن السعادة هى إسعاد الآخرين» .

وهكذا أصبح أندريه جيد نصير الضحايا والمستذلين ومعاشر المجرمين والجناة .. فهو يطالب الناس لهم بمعاملة أكثر عطفاً مما هم فى المجتمع واجدوه ، ونصير النساء ، فهو يطلب لهن المساواة بالرجال ، وبخاصة المساواة الروحية ، وأهل المستعمرات ، فهو

يدافع عن قضيتهم فى كتابين وصفهافيهما عقب عودته من أفريقيا ، وهما « رحلة إلى الـكونغو » ، و « العودة من بحيرة تشاد » ، وأخيراً « معاشر المحرومين فى الجماعة الإنسانية من كل امتياز » . وقد اعتنق عندئذ المبادئ الشيوعية وقصد إلى روسيا .

وقد رأيناه يعلن أنه كان شيوعياً فى أعماق قلبه طيلة الحياة ، وهو لايدرى ، حتى فى الفترة التى كان فيها أشد ما يكون مسيحية .

وقال فى « يومياته » إن ما أعجبه فى روسـيا هو إلغاؤها تلك الـكلمة التى حكمت على آدم بالشقاء ، وهى « بعَـرَقِ جبينك تأ كل خُـبزك ... » .

وكان هذا التحول لوناً جديداً فى فـكرة « الحرية الشخصية » لديه ؛ فقد كتب فى عام ١٩٣١ خلال المقدمة التى وضعها لـكتاب « أنطوان دى سان اكسبيرى » ، وهو «سرقة ليلية» يقول : « إنى لشاكر للمؤلف إلقاءه ضوءاً على حقيقة متناقضة فى ظاهرها ، وإن كانت لها أهمية نفسية كبيرة عندى ، وأعنى بهـا أن سعادة الإنسان ليست فى حريته ، بل فى قبول « الواجب » .

فقد كان هذا التحول الملحوظ عدولاً عن المعنى الشخصى الفردى للحرية ، ذلك المعنى الذى شرحه منذ ثلاثين عاماًمضت فى كتابه « الأغذية الأرضية » ، إلى ماراح أخيراً يتحدث عنه بقوله عنها « الحرية الممتهنة لا الحرية المهينة » [(١)] أو « حرية السيد لا حرية العبد » .

وقد رأيناه فى مسرحية « أوديب » التى وضعها عام ١٩٣١ يبين فى شخصية «البطل» ذلك الدمار الـكلى الذى يصيب المرء حين لا يقر شيئاً غير نفسه ، ولا يرتضى سوى ذاته ، ويجعل الحرية الشخصية غالبة على كل شىء عداها .

فقد بدأ « أوديب » فى تلك الرواية مزوداً بكل المزايا التى يعتقد « جيد » أن لا غناء للفرد الحر عنها ، وظهر فى البداية مختالاً فخوراً سعيداً لاتعوقه علاقات الأسرة

---

(١) الممتهنة : أى التى يمتهنها المرء ويستخدمها . وأما المهينة بفتح الميم ، فمن المهانة أى الذلة والإذلال .

ولا تحول دونه التقاليد والعادات المرعية ، وحيداً بنفسه منفرداً بذاته ، ولكنه في النهاية ينقلب مهزوماً مدحوراً ، لأنه إنما يحاول الاستغناء .

وقد اضطر «جيد» بعد هذه الهزيمة ، أو هذا الإفلاس، إلى الاعتراف بأن الإنسان إذا غَنِيَ بنفسه عن الله مهزوم لا محالة ، مقدور عليه الفشل والانتحار ، إلا إذا هو استعاض عن الله بفكرة أخرى ، أو عقيدة غير عقيدته .

لقد رأينا أوديب في النهاية يرفض الله ليؤمن بالإنسان ، كما شهدنا « جيد » ذاته يتطلع إلى الشيوعية ، ويعتقد أن الحرية ليست كافية في ذاتها ، بل إنها لتدمر نفسها ، إذا هي لم ترتبط بمثل أعلى لا يَمُتّ إلى «الأنانية» ولا صلة له بحب الذات ، أو إذا هي على الأقل لم ترتبط بواجب ما .

لقد دار جيد يومئذ بعينه ملتمساً شيئاً من الالتزام، وناحية من نواحي المسئولية وظن أنه واجدهما في الشيوعية .

لقد ظن أنه سوف يجد فيها ، مع الخدمة المثالية التي توافرت لها ، والنظام المتين الذي يلازمها ، أوفى تعبير للانسان ، وأصح صورة للحرية ، وهو في ذلك القائل « إن أكبر انتصار للفرد هو تخليه عن فرديته » كما قال فيما بعد في كتابه « الأغذية الأرضية الجديدة » عام ١٩٣٥ « إن كل مخلوق بشري لا هدف له إلا نفسه يعيش في فراغ أليم ... » .

ولم يكن اهتمامه بروسيا تطوراً جديداً عراه ، فقد كان يشتغل في وضع كتاب عن « ديستوفسكي » ، قبل نشوب الحرب الأولى ، وألقى في سنة ١٩٢٢ سلسلة محاضرات عنه بمناسبة ذكراه المئوية ، وقد تخيل يومئذ أنه قد بدأ يشهد من خلال الظلمة الدامسة التي غزت روسيا منذ قيام الثورة بريقاً من أمل وشعاعاً من رجاء ، فقد بدت روسيا له مضحية بذاتها لخلاص العالم وإنقاذ البشرية ، وإن كان بعد عشر سنين من ذلك التاريخ عاد يرى أنه من الجائز أن يكون هذا الخلاص قد تحقق بالفعل، وكان إلى ذلك العهد قد عرف بين الناس بأنه الكاتب الذي لا يريد أن يتورط ، ولا أن يتحيز ،

فإذا به المتورط بغير حرص ولا هوادة فى الإيمان بحلّ الشيوعية لمشاكل العالم ومتاعبه فكان ذلك منه نوعاً من التحول الدينى ، أو هو تحول عاطفى أكثر منه ذهنياً ، حتى لقد كتب فى يومياته يقول أشعر بأننى لست أخاً إلا لمن دخلوا الشيوعية من طريق الحب . . . وعاد فى عام ١٩٣١ فكتب قائلاً ، أود أن أرفع صوتى فى العالم عالياً بعطفى على الاتحاد السوفييتى ، وأرجو أن تسمع صرختى وأن يكون لها أثرها وأتمنى أن يطول بى العمر حتى أرى هذا المجهود الجبار منتصراً ، هذا المجهود الذى أرجو من أعماق قلبى أن يكلل بالنجاح ، بل هذا المجهود الذى أود أن أعمل له وأساهم فيه . .

وكان على استعداد للتضحية ببعض قداسة فرديته ، ولكنه لم يكن يرى لذلك ضرورة ملجئة .

ومضى فى سنة ١٩٣٢ يقول إننى لا أرى ثمة سبباً يدعو إلى وقوع اصطدام بين الفردية والشيوعية ، فسأظل مقتنعاً بالفردية ، ولكن من الخطأ أن يحاول بعض الناس إقامة فارق بين الشيوعية والفردية أو يظن أنهما على طرفىْ نقيض ، وأن الاعتقاد الثابت بأنه فى الإمكان أن يكون الإنسان بل فى الواقع يتحتم أن يكون « شيوعياً » وفردياً فى آن واحد ، لا يمنعه من التنديد « بالامتيازات » وحظوات « الوراثة » وجملة الأغلاط المقترنة « بالرأسمالية » التى لا يزال عالمنا الغربى متعلقاً بها والتى تسوق به قُدماً إلى الدمار ، وعساك تسأل لماذا أنا متلهف على الشيوعية مستشعر الحنين إليها؟ والجواب أننى مؤمن بعدالتها ، ولأنى متألم من المظالم القائمة التى يزداد ألمى منها اشتداداً حين أرانى أنا نفسى المحظوّ الممتاز ، ولأن النظام الذى نعيش تحته يلوح لى أنه لا يحمى الناس من شر ضروب الاستغلال وأسوئها ، ولأنى لا أرى بين معاشر « المحافظين » إلا أشياء ميتة أو فى طريق الموت ، ولأنه يلوح لى من الخطل البالغ التعلق بأمور أخذت أيامها ، ونعمت بالحظوة فى زمانها ، ولأنى مؤمن بالتقدم وأفضل ما سيكون ، على ما قد كان ، أفتسألوننى لماذا أحن إلى الشيوعية ... ؟؟

وأقول لكم إننى أحن إليها لأننى مؤمن بأننا سنتمكن بها من بلوغ أسمى حدود الثقافة ولأن الشيوعية هى التى تستطيع ، بل فى الواقع يجب ، أن تجلب الينا نوعا جديدا ، بل نوعا أفضل من الحضارة .

وكان « جيد » يعتقد أن الشيوعية المفهومة على وجهها الصحيح توجب تشجيع « القيم » الفردية حتى يتسنى لها الظفر من كل فرد بأحسن ما لديه .

وقد بعث فى عام ١٩٣٥ برسالة إلى الشيوعيين فى مؤتمر الكتاب السوفيت يقول فيها « على الطريق السلطانى » للتاريخ ، ذلك الطريق الذى يتحتم على كل بلد ، وينبغى لكل أمة ، أن تستقيم إن عاجلا أو آجلا ، قد تولى الاتحاد السوفيتى الزعامة ، وسار فى الطليعة ، وسط مظهر رائع ، وفى مشهد مجيد ، فهو اليوم يضرب لنا المثل على المجتمع الجديد الذى كنا نحلم به ، ولا نجرؤ على الأمل فيه ، ومن المهم فى عالم العقل والذهن أن يعطى الاتحاد السوفيتى المثل الطيب ، ويرسم القدوة الحسنة ، وقد أصبح لزاما عليه أن يدلل لنا على أن الفكرة الشيوعية العليا ليست كما يحب أعداؤها أن يرسموها ، مجرد «طوبَوِيّة» كقرية من قرى النمل ، بل من واجبها اليوم أن تنشىء فى عالم الفنون والآداب « فردية شيوعية » ، إذا سمحتم لى أن أربط بين هاتين الكلمتين على هذا النحو ، وإن كان الخطأ المألوف أن يظن أنهما على طرفى نقيض ، وليس من شك فى أنه لم يكن بد من انقضاء فترة من الزمن فى حمل الجماهير على الإيمان ، وحفز الكافة إلى الدخول أفواجا فى الحظيرة ، ولكن الاتحاد السوفيتى قد اجتاز الآن هذا الدور ، فلا سبيل إلى انتشار الشيوعية اليوم إلا بمراعاة طبائع كل فرد وخواص فطرته . فإن المجتمع الذى يتشابه فيه الأفراد عامة غير مطلوب ، بل أريد أن أقول إن تحقيقه ضرب من المستحيل ، والأدب بالأحرى ، فكل صاحب فن هو بالضرورة « فردىّ » مهما تكن أراؤه الشيوعية من القوة ، ومهما يكن تعلقه بالحزب مكيناً ، لأن « فرديته » — أو استقلاله الذاتى — هى وحدها التى تمكنه من تأدية عمل نافع ، وإسداء خدمة للمجتمع ؛ وأعتقد أن ذلك الخوف الذى لا يعترى

غير العجزة والأوكال ، وأعنى به الخوف من التلاشى فى الجماهير ، هو خوف أحمق ، وإشفاق سخيف ، وفزع لا يخلو من خطر .

إن الشيوعية بحاجة إلى شخصيات قوية ، كما أن هذه الشخصيات واجدة فى الشيوعية حجتها وقوتها و بأسها ... » .

وقد طُـلِب إلى «جيد» فى الاجتماع الذى عقدته فى باريس عام ١٩٣٥ « رابطة البحث عن الحقيقة » أن يدافع عن آرائه فقال : إننى أعتقد أن المسيحية بما أوتيت من توفيقات وضروب تسامح ، وتيسيرات ، قد أفلست ، وقد سبق أن كتبت ، بل أنا أعتقد اعتقاداً جازما ، أن المسيحية لو أنها عمت الدنيا حقيقة ، ونفذّت حقاً تعاليم المسيح ، لما احتجنا اليوم إلى «الشيوعية» ولما قامت فى العالم مشكلة اجتماعية مطلقا .

وقال بعدئذ بسبيل البحث فى الشيوعية ومناقشة مبادئها: إذا كنت لم أجد تناقضاً بين مركز الجماعة ومركز الفرد ، فما ذلك إلا لأن التناقض ليس إلا نظريا ومنتحلاً مفتعلا ، وهذا ما أصبحت من أمره على يقين ، فلم يكن «ماركس» هو الذى قادنى إلى الشيوعية ، فقد حاولت جهدى قراءته ؛ ولـكن جهدى ذهب سدى ، وإن ظللت على المحاولة مثابراً ، ولـكن لم يبق فى نفسى خالجـة من الشك فى أن نظريته ليست هى التى أحالتنى إلى صف الشيوعية ، وإنما الذى قربنى منها ، ونادانى إليها من أعماق قلبى هو المركز « الممتاز » الذى أستمتع شخصياً به ، فقد بدا لى هذا أمراً لا يرتضيه العقل ، ولا يمكن التسامح فيه أو احتماله ، واتفق لى يوما أن أتحـدث مع أحد الذين نجوا من نكبة الباخرة « لابور جونى » فقال لى إنه كان موفقاً فى الظفر بمكان له فى زورق من زوارق النجاة كان يحوى عدداً من الركاب المنقذين ، ولو أن الزورق احتمل راكباً آخر فوق هذا العدد لانقلب وهوى فى اليم مغرقا ، وأن الذين وقفوا نجياً على ظهر الزورق مسلحين بالمدى والبلطات راحوا يقطعون بها أيدى الذين كانوا يحاولون التعلق بجوانبه ، والوثوب من اليم إليه ..

وقد أصبح الشعور بأننى واحـد من أولئك الذين احتواهم الزورق وتهيأت لهم

النجاة ، بينما راح الذين من حولى غرقى فى البحر الساكين ، إحساساً لا أحتمل تصوره ، وصورة لا أستطيع قبولها ، والناس يجادلوننى ، ولكنى لست من الخبرة بحيث أجيب الجواب المقنع ، وأرد الرد الذكى البديع ، ولكنى لا أزال متشبثاً بأمر واحد ، وهو أننى لا أستطيع أن أرتضى مكاناً فى زورق لا نجاة به إلا لعدد محدود من الناس ، ولو أنى ضمنت على الأقل أن الذين أنقذوا هم الخيرة والأحاسن ، لهان الخطب ، ولكن الذى يغضبنى أشد الغضب أن يقول لى أحد الناس : ما الذى يدعوك إلى الشكوى والتذمر ، يجب أن تسلم بأن الركوب فى زورق النجاة مريح ..!

وهكذا أصبح « جيد » يستحى أن يكون إنسانا مكفول الموارد ، خجلانَ من أنه لم يحتج يوما إلى العمل بيديه ، أو لم يضطر إلى الحصول على قوته بعرق جبينه ، بل لقد أمسى ذلك كله فى نفسه شعوراً بالذلة والمنقصة .

وقد ذهب إلى روسيا على أمل أن يستطيع الاتحاد السوفييتى أن ينتج أبدع أزاهر الحضارة دون حاجة إلى استرقاق العقول ، واستعباد الأذهان ، ودون الانحدار بأية طبقة إلى درك العبودية والرق ، أو حرمان احد من منافع الحضارة وخيراتها .

ذهب إلى روسيا وهو يدرك أن العالم الجديد المنشود قد يتطلب التضحية بكثير مما هو فى ذاته طيب ، وأن القيم الأخلاقية والأقيسة الفنية قد تتوارى ، ولو إلى حين ، فى سبيل الظفر بكسب اجتماعىّ موقوت أو ربح مادىّ ، ولم يكن يمانع فى أن الإنسان لا يمكن أن تتحسن أحواله أدبياً وذهنياً ، إلا إذا أزلنا المساوئ الاجتماعية ، وقضينا على الأغلاط والعيوب ، والاستغلال ، وغيّرنا النظام الاجتماعى كل التغيير ، وأصبح الرجل الذى كان إلى ذلك العهد يتحاشى أن يدين بمعتقد من المعتقدات أو يعتنق مذهباً من المذاهب ، على استعداد لقبول « الماركسية » حتى حين ، و إن كان مدركا حق الإدراك أنها قد تكون خطرة كأية عقيدة سواها ، إذا أمعن المرء فى اعتناقها ، وأفرط فى أخذها مأخذ الجد ، بل لم يكن « جيد » ليعارض فى قول

القائلين إن الماركسية إذا تيسر التدليل على صلاحيتها وجدواها وتسنى إثبات أن لا غناء عنها ، فى سبيل قيام النظام الاجتماعى الجديد ، فلا بأس عندئذ من قبولها ، ولا ضير مطلقاً فى ارتضائها . وهو فى ذلك القائل قد يكون من الحكمة والصواب التضحية ببعض روائع الفنون اذا كان فى التضحية بها تحقيق هذا الهدف ، وان كان على مر الأيام قد عاد يرى أن الثمن كان فادحا ، وقد تبين له فى عام ١٩٣٧ أن ليس ثمة فارق بين ما رآه مكتوبا على الجدران بأحرف غلاظ فى ايطاليا ، وما كان قد سبق له أن شاهده فى روسيا ، بل كانت الشعائر والكلمات السائرة واحدة فيهما ، وهى « آمنوا ، وأطيعوا ، وناضلوا .. » حتى لقد كتب يومئذ فى « يومياته » يقول: إن هذه العبارات المكتوبة على الجدران فى إيطاليا كان ممكنا أن تكون منقوشة سواء بسواء على الجدران فى موسكو ، فإن الروح الشيوعية لم تعد متعارضة مع الروح « الفاشية » أو مختلفة فى شىء عنها .

وقد اعتقد جيد فيما بعد أن حلم السوفييت وأمله المنشود ، ونعنى به قيام دولة « دكتاتورية » كان مثلا أعلى قاهراً باغياً ، لا يسمح فيه عن وجود أقليات مسترقة مستعبدة ، بل يفكر فيه الجميع تفكيراً واحداً ، وهو أدهى وأنكى ، وهو فى ذلك يقول: وعندما يغنى التخت كله غناء موحداً ، لا يبقى ثمة معنى للكلام فى « الانسجام » وتنتفى مسألة « التوافق النغمى » !

وظهر بعد الحرب تطور آخر فى فكرة الفردية والحرية عند « أندريه جيد » ، وهذا المظهر هو الانحراف عن فكرة الحرية الكلية الطليقة غير المقيدة بتبعة أو مسئولية ، تلك الفكرة التى كان ينادى بها فى شبابه ، والعدول أيضاً عن فكرته الأخرى ، الحرية الممتهنة ، أو الحرية الخادمة — لا الحرية المهينة أو الذليلة ، التى كان يقول بها فى كهولته ، فقد مضى أخيراً يقول إن الحرية المطلقة تدمر الفرد والمجتمع إذا لم ترتبط أوثق الارتباط بالتقاليد والنظام ، ولم يعد يومئذ يطالب بإحداث تغييرات أساسية ، وإنما كتب خلال الحرب فى كتابه « محادثات وهمية » يقول إنه

إذا كانت الحضارة لا تعتمد إلا على الذين يضعون نظريات انقلابية أو ثورية فسوف تنقرض وتفنى لأن بقاء الثقافة حية يقتضى قيام تقاليد مستمرة متطورة على الأيام .

وقد رأيناه فى أحدث كتبه ، وهو « تيزيه » عام ١٩٤٦ يصف كيف يستطيع الفرد القوى الواسع الحيلة الشجاع أن يعود سالماً من « التيه » إذا هو تعلق بالخيط الذى كان يربطه بالماضى ؛ وليس يخلو من الفائدة أن نلاحظ التطور الذى طرأ على فكرة هذا الكتاب منذ بدأ يفكر فيه قبل إخراجه بثلاثين عاماً ؛ فقد كان يومئذ يرى أن الخيط الذى كان يربط « تسيوس » « بأريادن » جعل يسحبه عائداً به إلى ماضيه ، إلى الموضع الذى جاء منه وإلى النساء اللاتى سيظللن إلى الأبد بمثابة « الفرملة » للدافع الذى يدفع الرجل منا إلى التقدم والمضى فى طريقه ؛ ولكنه عاد فيما بعد يتخيل « تسيوس » وهو يدخل « التيه » غير مطمئن إلا لشىء واحد ، وهو خيط إخلاصه المستمكن من أعماق نفسه ؛ وأخيراً رأيناه يصوره مستطيعاً الإياب لسبب واحد ، وهو تشبثه بالخيط الذى كان يربطه بماضيه ، خيط العادات والتقاليد . وقد راح « يادلوس » يقول له وهو منطلق إلى « التيه » عد إليها — ومراده بذلك أريادن رمز « التقاليد » — وإلا ضاع الباقى كله ، وضاع معه كل ما هو خير ... إن هذا الخيط هو الحلقة التى ستربطك بالماضى ، عد إليه ، وثب إلى نفسك ، إذ لا شىء يمكن أن ينبت من لا شىء ، فمن ماضيك ومن حاضرك ينشأ مستقبلك ، ويتجسم مصيرك ... »[١]

وقد رجع « جيد » إلى الفكرة ذاتها فى المحاضرات التى ألقاها بسبيل ذكرى « برايس » فى أكسفورد خلال شهر يونيه عام ١٩٤٧ ، فقد اقتبس من شعر « فرجيل » الأبيات التى يصف فيها « إينياس » وهو هارب من « طروادة » وهى تحترق مع أبيه الشيخ وهو محتمله فوق كتفه ، قائلا فى تفسيرها إنها ينبغى أن تحمل على محمل الرمز

(١) يشير هنا إلى أسطورة يونانية عن الملك « تسيوس » وكيف أحبته « اريادن » ابنة الملك مينوس ، وبخيط عرفت كيف تخرجه من « التيه » .

والاستعارة ، فإن إينياس لم يحمل أباه على كتفيه فحسب ، وإنما كان يحمل الماضى بجملته؛ ونحن بالمثل هاربون من الحضارة المحترقة حاملين ماضينا المسيحى ، لأن حضارتنا المسيحية قائمة على قدسية روح الفرد ونفسه البشرية ، وكان من المتعين علينا أن نحرص عليها من الفناء .

وقال جيد فى محاضرته إنه قد تبين له أن الحضارات التى جاءت من قبل إنما قامت ثم على الدهر انقرضت ، ولكنه لا يعتقد أن حضارتنا مقضى عليها بالفناء إذا نحن ارتضينا التبعة الملقاة علينا من جانب تقاليدنا وماضينا ؛ وقد تكون مدنية الثقافة الغربية محترقة ، ولكن فى إمكاننا مع ذلك أن نحافظ على أغلى ما فيها من جوهر ، ونحرص على أعز ما فيها من صميم .

وقال إنه لا يزال ينادى « بالفردية » غير نادم ، ولا يفتأ يستنكر بكل ما فيه من قوة تلاشى المسئولية الفردية فى الحكومة أو السلطة المنظمة ، أو تواريها فى عملية التخلص من الحرية ، الذى أصبح عصرنا يوسم بطابعه ؛ وقد مضى ينكر أيضاً المذاهب الحديثة ، ونظرية الأدب المرتبط بالعقائد والمثل العليا المختلفة ، ولا يؤمن بالنظريات العديدة التى سيأتى عليها زمن تتوارى فيه ، فلا يبقى لها من أثر ، كما اختفى من قبل أمثالها على مر السنين ، وإنما ظل الفرد وحده هو القائم لا فناء له ولا انقراض .

كان هذا هو اتجاه تفكيره فى عام ١٩٤٧ ، ولكن قبل هذا العهد بخمسة عشر عاماً ، حين كان يناصر الشيوعية ، جعل يقول فى «يومياته» إن تحولى إلى الشيوعية يشبه الإيمان بدين أو اعتناق ملة ، فإن كيانى كله قد اتجه نحو هدف واحد لا ثانى له ، وكل خواطرى أصبحت تعود بى حتى على كره منى إليه ؛ ويلوح لى فى هذه الحال السيئة التى وصل إليها العالم الحديث أن خطة الاتحاد السوفييتى هى البشير بالنجاة . إن كل شىء حولى يقنعنى بصحة هذا الرأى ، ويغرينى بقبوله ؛ أما حجج خصومى فلا تقنعنى ، ولكنها تغضبنى ، ولو اقتضى نجاح الاتحاد السوفييتى منى بذل حياتى لبذلتها فى سبيله غير متردد . وأنا أكتب هذا فى سكينة نفس ، وهدوء عقل ،

و إخلاص تام ، لحاجتى الشديدة إلى ترك هذه الشهادة من بعدى على الأقل إذا عاجلنى الموت قبل أن أزيد الأمر بياناً ، والتعبير شرحاً وجلاء ... !

وقد سافر إلى روسيا فى شهر يونيه عام ١٩٣٦ وهو مفعم الخاطر آمالا ، ولكن تلك الآمال لم تلبث أن خابت ، فعاد من روسيا يقول لقد كانت رحلتى إلى روسيا السوفييتية أليمة ، فقد أتيتها نصيراً متحمساً ، ومتشيعاً مقتنعاً مؤمناً ، لكى أعجب بمشهد عالم طريف ، ودنيا جديدة . وقد عرضوا علىّ لإغرائى وكسب رضاى ، كل الامتيازات التى أمقت قيامها فى العالم القديم وأجتويها أشد الاجتواء » .

ولم يصل جيد إلى «الشيوعية» من طريق « ماركس » ولكنه وصل إليها من طريق « الإنجيل » ، فإذا به عند مقامه فى روسيا لا يجد فيها من هذا الإنجيل شيئاً ؛ وقد احتفل به فى كل موضع نزل به ، وأحيط بترحيب بالغ فى كل مكان احتواه ، لأنه كان كسباً عظيما للقضية الشيوعية ، بوصفه أكبر كاتب أوربى فى عصره ، ولما عرف عنه من أنه رجل نزيه ومفكر أمين صادق النزعة ؛ وقد أغدق الروس عليه جميع المناعم والامتيازات التى تشاهد فى الحضارة الحالية المتدهورة ، ولكنه لم يكن بحاجة إلى إحراق البخور له والتسبيح بحمده والتناهى فى تكريمه لأنه لم يذهب إلى الاتحاد السوفييتى ابتغاء مغنم مادى ؛ واشد ما ريع حين رأى فى كل مكان تلك الهوة السحيقة القائمة بين المنعمين والمحرومين ، ورأى ذلك الاسترقاق الفكرى ذاته الذى كان ينفر منه فى أوربا و يستنكره ؛ وتبين الكتب التى وضعها بعد رجعته ككتاب « عودة من روسيا السوفييتية » ، وكتاب « على هامش رحلتى إلى روسيا[1] » مدى خيبة الأمل التى أحس بها وانقشاع الغشاوة التى كانت على عينيه ؛ وقد رأيناه فى هذين الكتابين يبدى إعجابه بالشعب الروسى ذاته ، و يظهر المودة والعطف ، فقد فتنه مشهد الوجوه الباسمة ، ورأى الولدان الناعمين السعداء ، ومراكز الرياضة واللهو ، والإقبال البالغ على التعليم ، وجو الأمل الذى يعيش الشعب فيه ؛ ولكنه بهت

(١) نشرا فى بريطانيا بعنوان « أوبتى من روسيا » و « خواطر أخرى – عن رحلتى » .

لمشهد ضروب الظلم التى بدت لعينيه ، والنصيب الضئيل الذى تتلقاه الجماهير من أهل الفاقة لقاء صبرها وقوة احتمالها وجلدها ، وساءه منظر أفراد الشعب فى ثيابهم البالية وأطمارهم البادية ، ورداءة السلع المعروضة فى الحوانيت ووقوف الناس ساعات طويلة صفوفاً حتى تحين أدوارهم فى سبيل شرائها ، كما نفرت نفسه كل النفور من امحاء كل أثر فى البلاد لحرية النقد والرأى .

ومن هذين الكتابين ، وبموافقة جيد نفسه ، استطعت أن أضع القصة التالية ..

اندريه جيد

قصته كما يرويها بنفسه

روى «هوميروس» فى شعره كيف جاءت « ديميتر » Demeter الإلهة العظيمة فى سبيل هيامهـا وضلتها فى المدائن للبحث عن ابنتها ، إلى بلاط الملك « سيلوز » متنكرة فى زى مرضع ، فلم يعرفها أحد ، ولم يدرك القوم خافية أمرها ، وعهدوا إليها بوليد جديد لـكى تكفله وهو الوليد « ديموفون » Demophoon فـكانت عادتهـا إذا الليل جن ، وغُلِّقت الأبواب ، وهجع كل من فى القصر وتولاهم السبات ، أن ترفع الطفل من مهده الدافئ الوثير ، فتضعه عارياً فى فراش من جذوات فحم متأججة ، بقسوة ظاهرة ، وإن كان مبعثها فى الواقع حب عظيم ، ورغبة ملحة فى تحويل الوليد إلى إله معبود .

وكانت إذا ألقت به على ذلك الفراش المستعر ، تحنو بحب عليه ، كأنما تحنو على صورة مجسمة للبشرية المرتقبة ؛ وكان الوليد يحتمل حرارة النار ، ووقدة الجذوات صابراً ، حتى أصبح قوياً شديد البأس باهراً مجيداً ، إلى حد يفوق كل أمل ، ويجاوز كل حلم .

ولـكن « ديميتر » لم يقيض لها استـكمال تلك التجربة الجريئة ، فقد دخلت « ميتانيرا » أمه ذات ليلة عليها فى غرفة الوليد لتطمئن عليه ، فلما شهدته على تلك الحال ، دفعت بالمربية جانباً وألقت بالجذوات بعيداً ، طارحة معهـا تلك الفضائل الخـارقة التى كانت تطويه على هذا الضرب من التأديب ، وأنقذت الطفل مضحية بالإله ... !

ومنذ بضع سنين كتبت عن حبى للاتحاد السوفييتى وإعجابى ، لما يجرى فيه من

تجربة منقطعة النظير ، ألهب التفكير فيها مشاعرى وأثار فى صدرى أكبر الآمال ، إذ رجوت أن تسفر عن تقدم عظيم وخير كثير ، ودوافع تغمر العالم كله ، وتسرى فى الدنيا بأسرها ؛ وكان بديعاً أن يحيا المرء فى هذه الآونة من الزمن ليشهد هـذا الميلاد الجديد ويهب حياته كلها له ، فلا عجب إذا أنا مضيت فى أعماق جوانحى أربط مصيرى باسم الثقافة والأدب والفن بمصير ذلك الاتجاه .

وقد أعلنت بعد أربعة أيام من وصولى إلى روسيا فى جنازة جوركى فى الميدان الأحمر بموسكو أن مصير الثقافة مرتبط فى تقديرى بمصير الاتحاد السوفييتى ، وقلت إن الثقافة قد ظلت زمناً طويلا وقفاً على الطبقة الممتازة ، وكان تطورها يقتضى أوقات فراغ ، فكانت فئة من المجتمع تكد وتكدح ، لكى يتيسر لعدد يسير من البشر الاستمتاع بالحياة ، بينما كانت حدائق الثقافة ، ورياض الفنون والآداب ملكا خاصاً مسوراً محتجزاً لا أمل فى دخوله إلا لأذكى الأذكياء ، وأشد المستنيرين الذين وجدوا فى الطفولة ما يقيهم شر الفاقة ، وتيسر لهم من الحداثة ما يحميهم ألم الحاجة والحرمان . ولست أنكر طبعاً أن الثقافة لا تقترن حتما بالثراء ، وأن أمثال موليير وديدروه وروسو فى الأدب الفرنسى قد نهضوا من عُرْض الأمة ، وارتفعوا من صفوف الشعب ، ولكن قراءهم كانوا أهل نعمة ، وإخوان لهو وفراغ . وحين هزت «ثورة أكتوبر» جماهير الشعب الروسى وأيقظتهم من رقدتهم قال القائلون فى الغرب ، واعتقد الناس فى كل مكان ، أن هذه الموجة الدفاقة ستكتسح الفنون جميعاً ، وذهبوا يتساءلون قائلين ألا يصبح الأدب خطراً بالغاً إذا هو لم يعد بعد اليوم مزية تختص بها طبقة دون سائر الطبقات ؟؟ وكان الجواب عن هذا الاتهام هو أن الكتاب فى مختلف ربوع العالم ودوله إنما اتحدوا وتضامنوا بدافع الاعتقاد الجازم بأنهم يؤدون واجباً لا بد منه . ولسنا ننكر أن الثقافة مهددة بخطر ، ولكن هذا الخطر ليس آتياً من هذه القوى الثائرة المتمردة ، بل هو بالعكس آت من جانب الذين يحاولون إخضاع تلك القوى ، وتحطيم بأسها ، وخضد شوكتها ، فإن الحرب هى أشد خطر يهدد الثقافة ،

تلك الحرب التى تدفعنا إليها العوامل القومية التى توحى بها الكراهية ، ويبعثها الحقد والحسد ؛ وقد أصبح من واجب تلك القوى الثورية الدولية العامة أن تحمى الثقافة من الأذى ، وترفع من شأنها ، وتعزز مكانتها فى هذا العالم ؛ فلا غرو إذا أنا اعتقدت أن مصير الثقافة مرتبط بمصير الاتحاد السوفييتى ، وأن هذا المصير سيجد الذائدين عنه والمدافعين ...

كان هذا الخطاب الذى ألقيته يومئذ فى بداية زيارتى لروسيا ، بل فى الوقت الذى كنت لا أزال أعتقد ، أو بالحرى كنت لا أزال من «السذاجة» بحيث أعتقد ، أنه فى إمكان المرء أن يتباحث بجد فى مسائل الثقافة مع الروس ؛ وليتنى أستطيع البقاء على اعتقادى ذاك ؛ فاذا كنت فى بداية الأمر قد أخطأت فمن السداد أن أعترف بخطئى وشيكاً ، لأننى مسئول عن أولئك الذين قد يضلهم رأيى فى بلادى ويصور لهم الباطل فى صورة الحق فلا يصح أن يمنعنى من الاعتراف بالخطأ زهو ، أو تحول بينى وبينه كبرياء ، وإن كنت منهما المقل على كل حال ، فان هناك مسائل أهم كثيراً من شخصى ، ومن كبريائى ، ومن الاتحاد السوفييتى ذاته ، ما دام مستقبل البشرية ومصير الثقافة فى خطر .

وبدا لى كل شىء عجيباً فى طوفتى بروسيا وتنقلى فى أرجائها ، فقد استطعت من اتصالى المباشر بالعمال فى مصانعهم ومعاملهم ومراكزهم الرياضية أن أنعم بلحظات سرور بالغ ؛ ولست أعرف بلداً يسهل فيه توثيق العلاقات بين الناس قدر سهولته فى الاتحاد السوفيتى ، ولا يروح أعمق ولا أشد حرارة منها فيه ؛ فان الصداقة سريعة التكوين ، حتى لتكفى النظرة الواحدة أحياناً لإيجاد أسبابها ، وتمهيد مطالبها ، ولا تلبث أواصر العطف والمودة أن تنمو وتتعزز ؛ وأعتقد حقاً أن المرء لا يستمتع فى أى بلد آخر بمثل ما يستمتع به فى الاتحاد السوفييتى من الشعور بالروابط البشرية ، والحب الأخوىّ ، والانبعاث السريع إلى المودة والألفة ؛ حتى لقد أحسست جوارحى تستفيض ، والدموع تطفر من عينىّ من فروط السرور — دموع المودة

والحب . وكان الأطفال الذين شاهدتهم فى المعسكرات حسنى التغذية والتعهد ، و بدوا لعينى معززين مكرمين سعداء ، تفيض أعينهم ثقة وطمأنينة وأملا ؛ وتجلت لى هذه السعادة المشرقة ذاتها على وجوه العمال فى المراكز الرياضية حيث يجتمعون فى المساء بعد الفراغ من عملهم، وقد أصبح لكل مدينة فى روسيا اليوم مركز رياضى وروضة أطفال ؛ وشاهدت ، كما شاهد خلق كثير غيرى من الزائرين ،معامل وأندية وميادين ألعاب نموذجية ، حتى لقد عجبت لها العجب كله ، وسرنى أن أجد الإعجاب بكل ما حولى مستولياً على نفسى ، وأن أبعث سواى على مشاركتى فيه و إقناع الآخرين به ، فإذا أنا استنكرت اليوم كل ما كنت بالأمس مأخوذاً به ، فلابد من أن تكون هناك أسباب قوية حملتنى على هذا الاستنكار .

ولم أبدأ أرى الأشياء على وضوحها إلا حين تنحيت عن الاستعانة بوسائل النقل الحكومية ومضيت أتنقل وحدى فى البلاد لكى أتمكن من الاتصال رأساً بالشعب ، وكنت قد قرأت من الكتب الماركسية ما يمكننى من معرفة دخائل روسيا وخوافيها، ولكنى كنت قد اطلعت أيضاً على عدة روايات عن رحلات ملأى بالمدائح ومعاذير كثيرة مفعمة حماسة وشفاعة لما فيها من نقص ، وكان وجه الخطأ فى مسلكى وتصرفى من أول الأمر أننى كنت أصدق كل ما أسمعه من المديح ، وأن كل ما كان من الجائز أن يفتح عينى ويبصرنى بالواقع كان يقال لى بلهجة الحقد أو فى صيغة النقمة والاستياء ، فكثيراً ما يأبى أصدقاء الاتحاد السوفييتى أن يروا فيه ما يسوء ، أو على الأقل يأبون الاعتراف به ؛ ولكن الحقائق كثيراً ما تقال أيضاً بحقد ، والأكاذيب بحب ولطف . وأنا رجل رُضت خواطرى على أن أتشدد وأدقق ما أمكن حيال الذين أحب دائما أن أرضى عنهم ، ومن رأيى أن الاكتفاء بسماع المديح وحده ليس بالوسيلة المثلى للتعبير عن الرضى ، والتدليل على الارتياح ؛ وأعتقد أنه من الخير للقضية التى يمثلها الاتحاد السوفييتى أن أتحدث عنه بغير تكلف ولا ادعاء ولا تحفظ واعتبار ، وليس فى نفسى شخصياً ما أشكو منه خلال رحلتى فى بلاده ، رغم كل تلك التعليلات

الناقمة الساخطة التى انتحلت فيما بعد لتفنيد ماقلته وتسفيه ما نشرته ، من وجوه النقص ومواضع الانتقاد ، ورغم قولهم إن انتقادى إنما جاء نتيجة استياء شخصى وتذمر خاص ، وهو قول جد سخيف وأبعد ما يكون من الواقع ، فلم أتنقل يوماً فى حياتى بذلك الترف الذى أحاط فى روسيا بى ، ولا كنت يوماً أوفر متعة ، وأكثر تكريماً ؛ ففى كل مكان وجدت أفخم السيارات لمركبى ، وإذا سافرت فى القطار خصصت مركبة لمنزلى ، وأفردت لى الفنادق أبدع الحجرات ، وقدمت لى أطيب المآكل والوجبات ، ولم يكن يقدم لى إلا ما هو أبدع وأفخم وأطيب ، ولله أى استقبال كنت فى كل موضع أجده ، وأية حفاوة تلك التى لقيتها أينما نزلت ؛ فقد كنت أبداً موضع التكريم والترحاب ، وكان القوم يرون كل هذا قليلا فى حق ، ويسيراً لمثلى ؛ حتى لقد عدت وأنا حافل الذاكرة بآيات الحفاوة التى شهدتها والحظوات التى ظفرت بها ؛ ولكنها مع ذلك ظلت تذكرنى أبداً بالامتيــــازات والفوارق التى كنت أرجو أن أرى « المساواة » فى مكانها ، والمعدلة قد حلت فى روسيا محلها ؛ وحين هربت من كبار الموظفين ومضيت أختلط بالعمال تبين لى أن أكثرهم يعيشون فى أبشع صنوف الفاقة فى الوقت الذى كنت أجلس فيه إلى مأدبة فاخرة كل ليلة ، وأرى الخوان حافلا بالأطايب ، ومختلف «المشهيات» حتى لتكفى لإشباع النفس قبل أن يبدأ الطعام ذاته ، وهو عشاء من ستة ألوان منوعة ، يستغرق المرء فى الجلوس إليها عـدة ساعات ، ولم أترك ولا مرة واحدة حراً أدفع قائمة حساب ، وليس فى إمكانى أن أقدر نفقات هذه المـآدب ، ولـكن صديقاً لى أوتى علم الأسعار فى روسيا أنبأنى أن الشخص الواحد فى هذه الولائم يكلف مائتى روبل أو ثلثمائة ، بينما كان العامل الواحد من العمال الذين لقيتهم لايتقاضى من الأجور أكثر من خمسة روبلات فى اليوم ، وهو القانع بالخبز الأسود والسمك المجفف ، ولم نكن فى مقامنا بها ضيوفاً على الحكومة فى الواقع ، وإنما كنا فى ضيافة مؤسسة غنية تدعى جمعية المؤلفين السوفيتيين ، وكلما فكرت فيما أنفقت علينا ، وكنا ستة أضياف ، يصحبنا الأدلاء والمشرفون ، ويجالسنا مثل عددنا من كبار

الموظفين ، أدركت أنهم كانوا ينتظرون منا لقاء المال الذى أنفقوه علينا غير ماوجدوه ، وأظن أن بعض هذا السخط الذى أبدته جريدة « البرافدا » مرجعه إلى هذا الكفران الذى كان منى بصنيعهم .

ولا ريب فى أنه كان من الطبيعى أن يحسنوا وفادة الضيف ما استطاعوا ، وأن يشهدوه على أحسن مافى بلادهم ، ولكنى مع ذلك ذهلت وعجبت لما لمسته من الفارق البعيد بين هذا الوجه من الخير الذى يستمتع به الأكابر ، و بين نصيب الكافة وحظ العامة ، أو هـذا البون الشاسع بين المناعم والامتيازات ، و بين الفاقة البالغة ، والفقر المدقع ؛ فلا غرو إذا كان إعجابى بالاتحاد السوفييتى والعظائم التى حققها هو الذى سيجعل انتقادى شديداً ، ومؤاخذاتى قاسية ، لما كنا نرتقبه منه ، وما حملنا على التعلل به ، والأمل فى بلوغه ؛ فقد كنت مطمئناً إليه ، معتمداً عليه ، فلم يكن أشد ما فجعنى أن أرى الهدف لم يستكمل ، بل أن أشهد فيه كل ما كنت أجده فى وطنى وأحاول منه هرباً ، تلك الامتيازات التى كنت أرجو أن أراها ملغاة إلى الأبد .

ومن ذا الذى يستطيع يوماً أن يقول أى بلد كان الاتحاد السوفييتى فى تقديرى لقد كان عندى أكثر من مجرد بلد مختار ، وقدوة مثلى ، وباعث وحى ، ومهبط إلهام ... كان عندى الأمل الذى كنت أحلم به أبداً، والضالة التى كنت أنشدها، كان شيئاً تتجه إليه لهفتى ، وتهفو إليه فكرتى ، بلداً كنت أتصور أن المثل الأعلى يسير فيه قدما نحو التحقيق .

ولكن كان لزاماً على الناس مع ذلك كله أن يذكروا دائماً أنه كان فى دور البناء ، ومرحلة التكوين ، وأننا حاضرون مخاض المستقبل ، ومولد الغد المرقوب ، فلا يخلو الاتحاد السوفييتى من محاسن ومساوئ ، أو قل من أحسن الحسن ، وأسوأ السوء ، حتى ليتنقل المرء فيه من الإشراق البالغ إلى الإظلام الشديد ، والعتمة الدامسة ، وهو فى نقلته هـذه الحزين القلق المروع ، وقد تم له أن ينجز الشىء الكثير ، فملأ به صدورنا اغتباطاً ، وهذا هو بلاشك ما جعلنى أتشدد وأدقق ، فقد بدا لى من أول

الأمر، أنه قد تخطى أشد العوائق صعوبة فانبعثت نفسى بكل جوارحها إلى المساهمة معه والتفانى فى نصرته ، كأنما قد ارتبطت به باسم البشرية المعذبة على بكرة أبيها ، وأحسست أننى قد اندمجت بكليتى فيه ، فلم أفكر مرة فى أنه قد يمنى بالإخفاق ، أو يعاجله الفشل .

وكان إعجابى موجهاً بنوع خاص فى روسيا إلى الانبعاث غير المألوف نحو التعليم والثقافة ، ولكن المحزن أن التعليم الذى يتلقاه الشعب لايتعدى تلقينه الزهو والتفاخر بالحاضر والإيمان المطلق بالاتحاد السوفييتى، وأن الثقافة إنما ترمى إلى هدف واحد ، وهو تمجيد هذا الاتحاد والتسبيح بمجده ؛ فهى ليست ثقافة نزيهة مجردة من الهوى ، ولا هى تثقيف للعقول ، وتربية لملكة الحكم على الأشياء ، فإن النقد لا وجود مطلقاً له فى تلك البلاد . ولست أجهل أنهم يجعلون من انتقاد أنفسهم استعراضاً، و يتظاهرون به تظاهراً ، حتى لقد اعتقدت فى بداية الأمر ، ورجوت أن يؤدى هذا النزوع إلى نتائج طيبة إذا هو طبق التطبيق الصادق الصحيح ؛ ولكنى لم ألبث أن أدركت أن النقد فى روسيا لايتعدى البحث فيما إذا كان هذا الأمر أو ذاك متفقاً مع سياسة الحزب أو غير متفق لا أكثر ولا أقل ، لأن هذه السياسة لا سبيل إلى مناقشتها أو انتقادها، وإنما كل ما فى الأمر لايتجاوز البحث فى مدى اتفاق أية فكرة أو رأى أو تصرف مع تلك السياسة المقدسة أو مبلغ اختلافها معها ، وهى حال ذهنية ليس ثمة أخطر منها على الثقافة الصحيحة ، ولا أشد أذى لها ؛ فلا غرو إذا ظل أفراد الشعب فى جهل تام بكل ما يدور خارج بلادهم ، بل أدهى من ذلك وأمر ، أن يقال لهم إن كل ما فى الخارج دون مثيله فى الداخل بمراحل ؛ والعجيب أيضاً أنهم شديدو الاهتمام برأى الأجانب فيهم ، مع قلة اكتراثهم بما يجرى وراء حدود بلادهم ، وأكبر ما يعنيهم معرفته هو هل ترى الناس فى الخارج معجبون الإعجاب الكافى بهم ؛ كما أن أخشى ما يخشونه ألا يعرف الأجانب الشيء الوافى عن مواهبهم وكفاياتهم لأنهم لا يطلبون منهم معلومات أو وقائع عن مشاهداتهم فى ربوع بلادهم ، بل يطلبون مديحاً، ويسألون ثناء ، ويقتضون تنويهاً وتمجيداً .

وقد اتفق لى أن زرت مركزاً جماعياً نموذجياً من أبدع المراكز التى من هـذا القبيل فى الاتحاد السوفييتى وأكثرها نجاحاً وتوفيقاً ، ودخلت عدة بيوت فيه ، وليتنى أستطيع أن أصور لـكم فكرة عن الأثر الأليم الذى أحدثه فى نفسى مشهد كل بيت منها ، ذلك الأثر المتشابه العام الذى قام فى خاطرى ، وأعنى به انتفاء الحرية الفردية كل الانتفاء ، والخلو التام من مظاهر الاستقلال الذاتى ، فى كل بيت منها قطع الأثاث القبيح ذاته ، وصورة ستالين بعينها ولاشىء غير ذلك ؛ فلا حلية أخرى ، ولا زينة من الزينات ، ولا متاع خاص من الأمتعة ، بل يصح تبادل بيت بآخر دون أن يشعر الساكن بأى تغيير ، وكان للسكان بالطبع أيضاً مكان للتسلية المشتركة ، أو ندوة واحدة للهو والرياضة ، فكانوا ينفرون من بيوتهم لأنها أشبه شىء بالمغارات وأدنى إلى الـكهوف ، ملتمسين الترويح عن أنفسهم فى « النادى » ، وما من شك فى أنه من السهل توفير السعادة لهم بتضحية فرديتهم ، من طريق «التماثل والتوحيد» ولـكن هل يمكن أن يسمى فقدان « الفردية » أو هذا « التماثل العام » ، تقدما ، وهو الآن فى روسيا الاتجاه الـكلى ، والهدف المنشود .

لست أعتقد ذلك ، وإن كان المسلم به فى روسيا السوفييتية أنه ليس ثمة غير رأى واحد فى أى موضوع مهما يكن شأنه ، أو وجه الحـكمة منه ، وأن هذا الرأى هو الصحيح ، حتى لقد دأبت جريدة « برافدا » على أن تبين للشعب فى كل يوم ما هم بحاجة إلى معرفته ، وما يتحتم عليهم تصديقه ، أو التفكير فيـه ، وقد أدهشنى ألا أرى فى الصحف الروسية حين أقمت بتلك البلاد أى ذكر للحرب الأهلية فى أسبانيا التى كانت يومئذ مثار قلق بالغ فى الأوساط والأندية الديموقراطية ، وقد شرحت دهشتى الأليمة للمترجم الذى كان يصحبنى فلاحظت عليه بعض الارتباك لسؤالى ، ولـكنه شكر لى ملاحظتى وقال إنه سينقلها إلى الجهة المختصة . وفى مساء اليوم ذاته جرت على العشاء العام الذى أقيم لنا خطب كثيرة ، ولم نـكد ننتهى من شرب نخب الأضياف والمضيفين جميعاً ، حتى نهض أحد الذين جاءوا معى من الـكتاب

والأدباء ، وهو « جف لاست » واقترح بالروسية أن نشرب فى صحة الفوز الذى أحرزه الحمر فى الجبهة الأسبانية ، فصفق الجمع وهم مرتبكون قليلاً تصفيقاً ضعيفاً ، وهتفوا فى جفوة وفتور ، واقترحوا على الأثر أن نشرب نخب « ستالين » . ولما جاء دورى رفعت رأسى مقترحاً نخب السجناء السياسيين فى ألمانيا ، فقوبلت هذه الفكرة بهتاف متواصل وتصفيق عاصف ، فكان الرد عليه شرب نخب « ستالين » مرة أخرى ؛ فقد كان الجمع قد لقنوا من قبل الاتجاه الذى ينبغى أن يتخذوه إزاء ضحايا « الفاشية » فى ألمانيا فلم يترددوا فى الهتاف عالياً حين ذكر الأمر لهم ؛ أما عن المسألة الأسبانية فلم تكن جريدة « البرافدا » قد أعلنت بعد ماذا ينبغى أن يكون الموقف إزاءها ، ولهذا لم يجرؤ القوم على إقرار شيء لم ينبهوا إلى الوجه الصحيح فيه ولم يعرفوا الاتجاه الذى ينبغى اتجاهه بسبيله .

ولم تمض بضعة أيام أخرى ونحن فى « سباستبول » حتى شعرنا بموجة عطف مكتسحة تنبعث من الميدان الأحمر فى موسكو ، وتغمر من طريق « البرافدا » جميع أنحاء البلاد .

وهكذا ألفت عقول الناس فى روسيا هذه الوحدة العامة حتى أصبح الامتثال لها طبيعياً مسهلا لا عناء فيه ، وأصبح المتحدث إلى روسى واحد كالمتحدث إلى أهل روسيا أجمعين ، وهكذا ألفت النفوس هذه الحالة حتى لا أعتقد أنها أثر من الرياء أو نفاق المنافقين .

ولم يعد اختفاء « الرأسمالية » من روسيا على العمال فيها بخير أو نفع ، ولم يسق إليهم الحرية التى كانوا لها ناشدين ، فلتدرك الطبقات الكادحة فى خارج الاتحاد السوفيتى هذه الحقيقة كل الإدراك . ولست أنكر أنهم لم يعودوا ألعوبة فى أيدى أصحاب رءوس الأموال وحملة الأسهم والسندات ، يستغلونهم كيف يشاءون ، ولكن الواقع أن الاستغلال ، لا يزال قائماً ، وإنما أصبح مقروناً بأعجب الوسائل وأمكرها وأشدها التواء بحيث لم يعد القوم يعرفون من هم الملومون فيه ومن هم الذين

يؤاخذون عليه ، فإن معظم أفراد الطبقة الكادحة يعيشون تحت مستوى الفاقة ، بينما أتاحت أجورهم التى لا تسمن ولا تغنى من جوع الفرصة لزيادة مكاسب العمال « الممتازين » أو معاشر الخانعين المسلمين بكل ما يطلب منهم ، القائلين « نعم » فى كل شىء ، ولا يسع المرء إلا الدهشة من فرط الاستخفاف الذى يبديه أهل السلطان نحو الذين من دونهم والخنوع والذل اللذين يظهرهما هؤلاء لأولئك ، أو دعنى أقل اللذين يبديهما الفقراء ومعاشر المكدودين، وأنا أسلم جدلاً بأنه لم تعد فى روسيا طبقات ولا فوارق ، ولكن الواقع أن فيها فقراء ، بل أنهم فيها الكثرة البالغة ، وكنت أرجو ألا أجد منهم أحداً ، أو بعبارة أصح، لقد ذهبت إلى روسيه لكيلا أجد للفاقة فيها أثراً ... ولكن الفاقة هناك يعبس فى وجهها ، وتقابل بالإعراض والتجهم والاشمئزاز ، حتى ليخيل للمرء أنها الفاقة الأثيمة الناشئة فى أحضان الإجرام ، فلا تثير شفقة ، ولا تبعث على العطف والإحسان، بل ينظر إليها بعين الإزراء والاحتقار، وما أولئك الذين يتراءون متكبرين مزهوين إلا الذين اشتروا كبرياءهم وتوفيقهم بثمن هذه الفاقة العامة ، وعلى حساب هذا الفقر الشامل .

وليس معنى هذا أننى أعارض فى تباين الأجور ، بل بالعكس أننى مقر بوجوبه ، معتقد أن لا مفر منه ، ولكنى أرى أنه من المتعين إيجاد وسيلة للتخفيف من حدته ، والتقريب بين حدوده وفئاته ، وأخشى أن يكون معنى ذلك كله الرجوع إلى نوع من «البرجوازية» العمالية المرفهة أو بعبارة أخرى ، الشبيهة بالبورجوازية «المحافظة» التى كانت بالأمس قائمة ، والتى تمثل إلى حد بعيد « البروجوازية » الصغيرة ، التى نشاهدها فى بلادنا ، لأنى أرى الأعراض والبوادر فعلا ظاهرة ؛ ولست أشك فى أن جملة عيوب « البورجوازية » وشرورها ومساويها لا تزال كامنة فى نفوس فريق كبير من الروس ، رغم الثورة الأخيرة ، لأن الإنسان لا يمكن إصلاحه من الظاهر فحسب ، بل ينبغى أن يكون الإصلاح أيضاً من القلب ، فلا عجب إذا أحسست قلقاً شديداً كلما رأيت الغرائز البورجوازية تجد تمليقاً وتشجيعاً من الاتحاد السوفييتى ، وشاهدت

الأعشبة القديمة تعاود الظهور ، ولمحت بوادر نوع جديد من « الارستقراطية » أخذ يطفو على وجه الحياة ، وإن لم يكن يمت كثيراً إلى نظام « الطبقات » القديم ، ولكنه أرستقراطية على كل حال . وليتها كانت أرستقراطية « التماثل » والتشابه والمحاكاة . ومن يدرى فلعلها متحولة بعد جيل أو نحوه إلى أرستقراطية « المال » .

فهل ترون مخاوفى مبالغاً فيها ...؟؟

أرجو مخلصاً أن تكون كذلك ...

ولما زرت سوتشى Sotchi تولانى العجب البالغ من كثرة المصحات « والاستراحات » التى كانت يومئذ تشيد للعمال فيها ، فقد بدت لى بهيجة للغاية ذات حدائق فاخرة وحمامات خاصة متناثرة على الشواطئ الرملية . ولا ريب فى أن تخصيص هذا المظهر من الترف لمعاشر العمال عمل جدير بالثناء . ولكن الواقع أن الذين يستمتعون به هم فى الأغلب من أهل الطبقة الجديدة الممتازة .

ولست أنكر أن الذين يحتاجون إلى الراحة والعلاج مفضلون على سواهم ولكن على شرط أن يكونوا من المقربين إلى سياسة الحزب المؤمنين على خططه و برامجه ، و إنه لمحزن أن يتبين المرء فى ذلك الموضع أن الذين يستخدمون فى بناء تلك الدور لا يتقاضون غير أجور صغيرة ولا يسكنون غير معسكرات حقيرة مظلمة ..

و إذا كنت معجباً الإعجاب كله بالاستراحات التى رأيتها تبنى فى « سوتشى » فماذا عسى أن أقول عن الفندق الذى نزلت به فى « سينوب » المجاورة لسوكوم .

فقد كان يفوق بمراحل كل بناء عداه حتى لا يصح أن يقارن إلا بأفخم الفنادق فى الخارج وأوفرها راحة وترفاً ونعماء ، فقد كان بكل غرفة فيه حمامها وشرفتها ، وكان الأثاث من أبدع الرياش شأناً والطعام لا يقل عن مثله فى فنادق الدرجة الأولى فى أى بلد كبير .

وكانت بجواره مزرعة نموذجية تتولى إمداده بإنتاجها وتحوى مرابط للخيل ، ومداود للبقر وزرائب للخنازير وتقافيص للدجاج مزودة بأحدث الأجهزة .

ولكنك لا تكاد تجتاز النهر الذى يقوم هناك بمثابة حدود المزرعة حتى يواجهك صف من الأكواخ الحقيرة يعيش فى كل غرفة صغيرة منها أربعة أشخاص لقاء أجر يقدر بروبيتين فى الشهر عن كل ساكن .

ولئن كانت دكتاتورية الطبقة الكادحة التى طبلوا لها كثيراً وزمروا لم تتحقق بعد ، فلا تزال ثمة دكتاتورية أخرى من نوع ما ، دكتاتورية و « البيروقراطية » السوفييتية ، ومن المتعين على المرء أن يدرك هذه الحقيقة ولا يدع الظواهر تخدعه ، فإن هذه النتيجة لم تكن الضالة المنشودة ، والشىء المأمول ، بل يصح لك أن تقول إن هذا هو آخر شىء كان منتظراً ، حتى لم يعد العمال يظفرون بحرية انتخاب ممثليهم للدفاع عن مصالحهم المهددة ، فإن الانتخاب الحر سواء منه العلنى والسرى، سخرية وتزييف ، إذ ليس للناخبين غير حق واحد ، وهو انتخاب الذين انتخبوا مقدماً لهم وعينوا لهم تعييناً ، وهم يخدعون وتكم أفواههم ويشد منهم الوثاق، حتى كادت المقاومة تستحيل . وقد أجاد ستالين « اللعبة » وأصبح الشيوعيون فى جميع بقاع العالم يهتفون به معتقدين أنهم قد كسبوا بقيام الاتحاد السوفييتى على الأقل نصراً مجيداً ، وأصبحوا يسمون الذين لا يوافقونهم خونة وأعداء الشعب ، وإن كان هذا قد أدى فى روسيا ذاتها إلى « خيانة » من نوع جديد . فإن الوسيلة المثلى للظفر فيها بالترقيات هى أن يصبح الفرد « مخبراً » فإن كنت فيها كذلك ، فقد أمنت شر البوليس ، وظفرت بحمايته ما دمت فى خدمته . ويوم تضع قدمك فى هذا الطريق السهل المنحدر لن تنفع صداقة ، ولن يجدى ولاء . فى منعك من الإسفاف أو إمساك قدميك من التردى ، بل لن تلبث أن ترى نفسك منحدراً إلى الدرك الأسفل ، هابطاً الوهدة السحيقة بغير إرادة أو نضال . وكانت النتيجة أن أصبح كل امرئ مستريباً بالآخر ، حتى لتؤدى أبسط الملاحظات . ولو من أفواه الأطفال والصبية . إلى الدمار ، وتعجل بالخراب ، فلا غرو إذا رأيت كل إنسان فى حذر متوجساً لا يطمئن إلى أحد . ويخشى أن يذهب فريسة الشبهات .

وقد سبق لى خلال مطافى فى روسـيا مشاهدة المدينة النموذجية « بولشيفو » الفريدة فى نوعها ، لأن جميع سكانها من قدامى المجرمين ونزلاء « الليمان » من سطّائين ونشالين وقتلة وسـفاكين ؛ وكانت قد بدأت كمستعمرة صغيرة يقضى فيها المحكوم عليهم مدد عقوباتهم اعتقـاداً بأن المجرمين ليسوا إلا مرضى أو مصـابين باختلال عصبىّ يصح علاجهم بالرفق والعطف والرياضة النفسية وإعادتهم إلى الحياة الطبيعية ، حتى يصبحوا مواطنين صالحين راضين ، ولـكنها لم تلبث أن نمت وأصبحت مدينة زاهرة لا تحوى مصانع فحسب ، بل تقوم فيها المـكتبات العـامة والمصحات والأندية .

وقد لاحت لى عند زيارتها من أحسن التجارب التى قامت فى الاتحاد السوفييتى ومن أنبل أفكاره ومشروعاته ، ولـكننى تبينت فيما بعد مالم أكن به من قبل عليما ، وهو أن جماعة « المخبرين » الذين سبق لهم أن خانوا زملاءهم المساجين وأبلغوا عنهم السلطات ، هم وحدهم الذين يعطون « امتياز » المقام فى هذه المستعمرة « النموذجية » فهى وقف عليهم لا يشاركهم فيها أحد ...

فهل يمكن أن تنحدر الأخلاق إلى هذا الدرك ، وهل يمكن أن تصـل الخسة الإنسانية إلى هذا الحد .. ؟؟

وقد بدا لى أن العـامل الروسى فى المصنع مربوط بمصنعه ، كما يربط العامل الزراعى بالمزرعة الجماعية سواء بسواء ، فإن هو يوماً أراد أن يترك عمله لسبب خاص ، كأمل فى تحسين أحواله ، أو تعلل على الأقل بتخفيف بلاء عيشه ، أو من رغبة فى النقلة والتغيير لا أكثر ولا أقل ، فقد استهدف لخطر بالغ ، وهو ألا يجد عملاً ما ، فى أى مكان آخر ؛ لأنه إنما يشتغل فى مصنعه كسجين ، بل إن هو ترك المصنع وبَـقِىَ فى المدينة ، حُـرِم من المسكن الذى يعطيه عمله فى المصنع الحق فيه ، ومن أشد المشقة عليه أن يجد مسكناً سواه ، مع أنه كان يدفع أجر المسـكن الذى أعطى إليه ، وسيتبين له أيضاً أنه بخروجه من المصنع سيخسر جزءاً كبيراً من أجوره ومجموع الأرباح المتجمدة له فى المزرعة الجماعية .

أما إذا رأت السلطات ذاتها أن لا مندوحة من نقله فلن يستطيع رفض النقل ، فلا هو حر فى الذهاب حين يشاء ولا فى البقاء حيث تتركز علاقاته وصلاته ومصالحه .

وإذا هو لم يكن من أعضاء الحزب ، فسوف يتخطاه من هم أعضاء فى الترقية ، ولكن ليس كل من يريد الظفر بالعضوية يعطاها ، فضلا عن أن كل إنسان لم يؤت مطالبها من الملق والدهان والرياء والخنوع .

ولكن إذا حالفه الحظ وفاز بعضوية الحزب فلن يستطيع أن يستقيل منها إلا إذا رضىَ لنفسه فقدان جميع الامتيازات والمنافع والفوائد التى تعود عليه من عمله ، وقد يتعرض أيضاً للانتقام منه والتشفى والمراقبة .

وهم يتساءلون قائلين لماذا يفكر أحد فى ترك الحزب مادام الانتماء إليه يتيح له منافع مادية كبيرة لقاء مجرد الطاعة والإذعان ؛ بل لعمر الله لماذا يريد أن يفكر لنفسه ويستقل برأيه مادام الإجماع قائماً على أن كل شىء على أتم مايرام ، وخير مايرجى ...؟ إن تفكير المرء لنفسه استهداف للاتهام بأنه يشتغل ضد الثورة ، فان كان عضواً فى الحزب تعرض للطرد ، ومن يدرى ، فقد يرسل إلى سيبريا .

وأدهى من ذلك وأنكى أن هذا العصف بالبشرية ، أو هذا التعقب لما فيها من خير وفضيلة يجرى غيرملحوظ من أحد ، وأن الذين يختفون أو يحملون على الاختفاء ، هم من أروع الشجعان وأشد الناس حرصاً على استقلالهم ، ومن بين الذين برزوا من عرض الجماهير وارتفع ذكرهم من صفوف الكافة ، وأبوا الامتثال وأنفوا من التفاهة والصغار ، وأصروا على أن يعيشوا كرماء على أنفسهم ، وأن هؤلاء المبعدين وهم ألوف ، ممن يشق عليهم أن يحطموا ويمتهنوا الكرامة البشرية ، وينحنوا ركعاً ساجدين للسلطان ، يخيل لى أنى أسمعهم فى الظلام المحيط بى ؛ وإن صيحات أولئك الضحايا الذين لا عِدَاد لهم لتوقظنى من هجعتى فى صميم الليل وهدأته ، وإن الصمت الذى أرغموا على التزامه هو الذى يحفزنى اليوم إلى الكلام ، والتفكير فيهم هو الذى يدفعنى إلى كتابة هذه السطور . ولشد مايروح عرفانهم فى خاطرى قدراً لوأن كلماتى هذه تبلغ

أسماعهم ، ولشد ما يكون عذوبة فى نفسى وأثراً ، وأزكى ما يلوح فى أنفى عطراً ، من أى بخور تحرقه لى « البرافدا » ، وأى ند ترسل لى أنفاسه الزكية ؛ فلست أجد أحداً يتوسط لهم ، ولا أرى لهم من ولىّ ولا نصير ، فإن المسئولين عن العدالة والحرية ملجمون لا يفوهون ببنت شفة ، وجماهير الشعب عمى الأبصار لا ينظرون .

وإذا رفعت صوتى فى سبيل الذود عنهم ، قيل لى ، باسم كارل ماركس أيضاً ، إن إجراءات الإبعاد والنفى ، وفاقة العمال ، وإلغاء حرية الانتخاب ، ليست سوى تدابير مؤقتة ، وهى الثمن الذى لا مفر من دفعه لقاء الخير الذى أصبناه من ثورة ١٩١٧ .

ولكن الواقع أنه من المؤلم كل الإيلام أن يرى المرء ذلك الخير بمختلف ضروبه ، ذلك الخير الذى اشترى بأشد الآلام ، واقتنى بأفجع المآسى ، ذاهباً على هذا النحو مبدداً ، لا يجد حريصين عليه ؛ وقد آن للقوم أن يفتحوا أعينهم على هذه الخيبة المريرة التى انتهت إليها كل تلك الآمال الكبار التى كنا نرجوها مخلصين . وكان من الجائز أن يتسامح المرء فى انتفاء كل أثر للحرية الشخصية ، وحرية التفكير ، فى روسيا اليوم ، لو أنه لمس فيها دليلاً على أن سير التقدم المادى مطرد تدريجاً ، أو بخطوات بطيئة ؛ ولكن العكس هو الواقع ، بل الحقيقة أن القرائن قائمة على أن شر أنواع الرأسمالية وأسوأها أخذت تعود إليها ، وتستقر فى ربوعها ، وأن تلك البورجوازية الصغيرة التى سبق لى التحدث عنها ، والتى أخشى كثيراً من نفاقها ، هى فى رأيى ، مناهضة للثورة أشد المناهضة ، وإن كان ما يسميه القوم كذلك ليس فى الحق غير تلك الروح الثورية ذاتها ، أو ذلك التيار المتدفق عينه ، الذى اكتسح فى البداية الجسور المتداعية التى كانت تقوم فى عهد القيصرية البائدة ؛ وليس شىء أحب إلى النفس من أن تعتقد حقاً أن الحب لا يزال يملأ منهم القلوب إلى حِفَافِيها ، والرغبة فى استتباب العدالة لا تزال مكينة منها ؛ ولكن للأسف لم تكد الثورة تتحقق ، حتى توارى ذلك كله وتلاشى ، وأصبحت تلك الرغبة الكريمة التى كانت تلهم نفوس الثائرين الأولين ، مجرد آلات صَدِئة لم تعد نافعة ولا صالحة ، بل الآن وقد استقرت الثورة ،

فقد بدأت تتنازع الأمر والعدالة ، وتصطرع مع الحرية والمساواة ؛ وأضحى الذين لا تزال الروح الثورية مشتعلة فى جنوبهم ، والذين يعدون هذه الامتيازات والترخيصات المتعاقبة المتوالية انحرافاً عن المبادئ ، وتهاوناً بالأسس ، لا يجدون من أحد توقيراً ، ولا يصيبون احتراماً ، بل قد يقضى عليهم ، ويتخلص فى النهاية منهم ...

أفليس من الخير إذن الكف عن المغالطات ، والمماحكات ، والاعتراف بأن وحى الثورة قد انقطع ، ولم يبق مطلوباً من الناس غير الطاعة والخضوع والإذعان ؛ بل أصبح المطلوب هو مجرد التأمين على كل ما تفعله الحكومة أو تأتيه ، وأمسى أقل اعتراض عليها أو انتقاد لها يجر صاحبه إلى أقسى العقاب ، ولا يلبث أن يقضى عليه القضاء الأخير ؛ وبات الناس من أكبر كبير فيهم إلى أصغر صغير فى هذا البلد الذى تغيرت قواعد الاجتماع فيه يمتهنون أشد الامتهان ، ويساق بهم مساق الأنعام ، فان أبدى أحد منهم استقلالاً برأى ، أو انفراداً بعمل ، أحيط به وأبعد إبعاداً ، فلا ينقضى وقت طويل ، حتى لا يبقى فى ذلك الشعب الباسل الذى طالما استحق حبنا ، واستولى على إعجابنا ، غير معاشر التعصبيين والاستغلاليين والجلادين والضحايا .

لقد أصبح العامل الصغير المستقل طريدة تُتعقّب ، وقنيصة تُجاع وتُعذّب ، ثم تتحطم فى النهاية وتستأصل استئصالا . ولست أحسب بلداً ، حتى ولا فى ألمانيا الهتلرية ذاتها ، بلغ الحد فيه من حرية العقل والروح ، وإخضاع النفوس ، واشتداد الإرهاب ، مبلغه فى الاتحاد السوفييتى ؛ ولكن كبت المعارضة فى بلد ما أو قمع حرية الرأى ، أمر خطر كل الخطورة ، بل هو دعوة إلى الإرهاب ونداء إلى الطغيان . ولست أنكر أن تشابه الناس فى التفكير من شأنه أن يغنى عن الحكومة كثيراً من المتاعب ، ولكن هل فى إمكان المرء إزاء حال كهذه أن يتحدث عن الثقافة ..؟؟

إن الحكمة الحقيقية هى فى الاستماع لآراء المعارضة ، بل فى تشجيعها ، حتى مع منعها من الإضرار بالصالح العام .

إن الإنسانية مركبة ، وليست مقطوعة من قدّ واحد ، فكل محاولة لتبسيطها

وتجنيدها وتسخيرها ، بل كل محاولة من الظاهر لإخضاع كل شئ ، وكل إنسان ، لمقياس واحد ، ستظل أبداً محفوفة بالخطر ، مخوفة العاقبة ، شديدة الأذى .

أما حال أهل الفنون فى روسيا فأسوأ وأنكى من حال سائر المواطنين ، وأعتقد أن قيمة الكاتب الحقيقية هى من ناحية قوته الثورية ، أو بعبارة أدق ، من ناحية معارضته وجوهرها وحقيقة مرادها ؛ إذ لست من الحماقة بحيث أعتقد أن الذكاء والمواهب العقلية والفنية وقف على اليساريين دون سواهم ، والفنان الكبير هو بالضرورة «المخالف» للغير ، المتأبى على التشابه والتحاكى ، وأن من واجبه أن يسبح ضد تيار زمانه ... ولكن ماذا عسى أن يحدث على الأيام فى روسيا السوفييتية إذا تم للدولة الجديدة القضاء على كل نزعة إلى المعارضة عند معاشر أهل الفنون ، وماذا ترى سيحدث للفنان حين لا يجد إلى المعارضة سبيلا ؟؟

ألا يبقى يومئذ أمامه غير مجاراة التيار ... ؟؟

إن الفنان سيتمكن بلا شك ، ما دام النضال مستمراً ، والنصر لا يزال يقتضى الكفاح ، من قيادة الثورة ؛ بل إنه سيناضل ويساهم فى الجهاد ، ليؤكد النصر المرتقب ، ويضمن الفوز المنشود ؛ ولكن ماذا سيحدث عندئذ ... ؟؟

هذا هو السؤال الذى يقلق بالى من جانب الاتحاد السوفييتى ، بل هو السؤال ذاته الذى جعلت ألقيه على خاطرى قبل ذهابى إلى روسيا ولم أجد عنه جواباً مقنعاً .

وماذا سيكون أيضاً من شأن الفنان الذكى اللبق المبتكر حقاً ...؟؟

لقد حدثنى رسام لقيته فى روسيا أن اللباقة والذكاء والابتكار لم تعد مطلوبة فى البلاد ، وقال إن « الأوبرا » لا تجدى العامل نفعاً ، ولا قيمة لها عنده ، إذا هو عند انصرافه من الملهى لا يجد منها فى خاطره نغمة يستطيع ترديدها ، أو لحناً يصفر به تصفيراً .

ومضى فى حديثه يقول : إن المطلوب اليوم هو الشىء البسيط السهل المفهوم .

قلت معترضاً : ولكن روائع الفنون ، مما أصبح فيما بعد محبوباً من الشعب ،

شائعاً بين الناس ، لم يقدر حق قدره فى بداية ظهوره أو لم يرض عندئذ غير فئة قليلة أو نخبة من الصفوة .

قال : إن بتهوفن نفسه لن يستطيع فى بلد كالاتحادالسوفييتى مداركة الفشل إذا هو أخفق فى البداية ، فأولاً يتعين على الفنان هنا قبل كل شىء أن ينتهج سياسة الحزب وخططه ، وإلا عدت أسمى منتجاته أمثلة من « الشكليّة » البحت ، وهى الكلمة التى شاعت اليوم فى روسيا للتعبير عن كل ما لا يُعْنَون مطلقاً بسماعه أو مشاهدته ، لأننا نعتزم خلق فن جديد خليق بالشعب الجديد الذى أصبحناه .

قلت : إن هذا يقتضى من جميع الفنانين أن يكونوا «محاكين» ولكن خيارهم وأكثرهم ابتكاراً لن يقبلوا الإسفاف بفنونهم إلى هذه الوهدة ، ولن يرتضوا الانحناء لهذا الطغيان ، فلا يسعهم غير التزام الصمت ، والكف عن الإنتاج ، فلا يكون نصيب القادة والزعماء الذين يرغبون فى النهوض بالثقافة وتمجيدها ، ورفع شأنها ، إلا الاحتقار والسخرية والإزراء من هذه الثقافة بالذات .

فأجابنى محدثى بقوله إننى إنما أتكلم على هذا النحو « كبورجوازى » وإنه من ناحيته مقتنع بأن الماركسية التى آتت فى عدة ميادين وحقول أطيب الثمرات ، قادرة أيضاً على إنتاج طيب فى ميدان الفنون ، وإن الحائل الوحيد دونه إلى الآن هو الأهمية البالغة التى لا يزال أهل الفنون أنفسهم ينسبونها إلى الأشكال والقوالب البالية منها .

وكان محدثى هذا قد بدأ يرفع الصوت شيئاً فشيئاً ، كأنما يلقى محاضرة ، أو يتلو درساً محفوظاً ، فلم أستطع على الإصغاء إليه صبراً ، وتركته وانصرفت دون تعقيب .

ولكنه جاءنى فى غرفتى يوماً آخر فقال إنه فى أعماق قلبه موافق على ماقلت ، ولكنه كان يعرف فى الردهة أن هناك آذاناً تسترق السمع عليه ، وإنه منتو قريباً عرض ألواحه ورسومه فى متحف ، فهو بحاجة إلى معونة السلطات ورضاها .

وكان الرأى العام فى روسيا عند ذهابى إليها لم ينته بعد من حل لخلاف طويل ،

وجدل عنيف ، حول نظرية « الشكلية » فى الفنون ؛ وحاولت جهدى أن أفهم مؤدى هذه الكلمة ومدلولها فتبين لى أن المنتجات الفنيـة التى اتهمت بها إنمـا هى موجهة إلى فنانين عمدوا إلى تغليب الشكل على المعنى ، والصورة على الجوهر، والمظهر على المدلول ؛ بل يصـح لى أن أضيف أن هناك مدلولاً واحداً ظفر بالتقدير ، وعد خليقاً بالعنـاية والاهتمام ، واعتبر الفن الصحيح المنشـود ، وما عداه داخل فى باب « الشكلية » أو فن الصور الظاهرة ، أو « الأشكال والتهاويل » ، لأنه لايتجه هذا الاتجاه بالذات ؛ ويكفى أن يتمكن الفنان من حمل الناس على البكاء ليدرك الناس أن هذه هى الروح التى توحى النقد فى الاتحـاد السوفييتى . ولعل هذه « الطائفية » كانت يوماً مجدية من الناحية السياسية ولـكن لا يمكن أن تسمى « ثقافة » ، لأن الثقافة تتعرض للخطر فى كل حين إذا انتفت حرية الانتقاد . وكل إنتـاج فنىّ فى روسيا محكوم عليه بالفناء إذا لم يتبع سياسة الحزب وتعاليمه . وليس الجمال فى نظرهم إلا شذوذاً « بورجوازياً » ، وإذا لم ينتهج الفنان هذا النهج ، مهما تكن مواهبه ، ومهما يرتفع بفنه ، فسوف يظل خاملا منكوراً مهمـلا ، لا يعترف الناس به ، إذا فرضنا أنه سيجد عملا أو يسمح له بالإنتاج . أما إذا هو « امتثل » فالجزاء نصيبه والإغداق عليه مكفول ، والمديح إليه مسوق . ومن السهل أن تدرك أى فائدة تعود على الحـكومة من إفراد فنان بالعطاء والنوال ، لأنه يسبح بحمد العهد الحاضر والثناء بالخير عليه . ومن السهل أيضاً أن تدرك مدى الفائدة التى تعود على الفنان ذاته إذا هو رضى التغنى بمديح الحـكومة التى تغدق عليه وتسخو فى الجزاء .

ولعل الـكاتب هو فى روسيا أكثر المنتجين والصناع وأرباب المهن حظوة ، وأوفرهم قسطاً من التدليـل ، حتى لقد أدهشتنى المزايا التى عرضت علىّ وروّعت خاطرى ، وبت يومئذ أخشى أن أقع فريسة الإغراء ، وأن أذل للرشوة والفسـاد . وما ذهبت إلى روسيا لأحظى بمزايا ، أو أظفر بمنافع وفوائد ، وكان ما شاهدته من مختلف صنوفها وعديد ألوانها فاتناً يسترق القلب ، ولـكن هذا لم يمنعنى أن أنتقد ،

لأن أشد الحظوة وأكبرها قدراً إنما يستمتع فى روسيا بهـا الـكتاب أكثر من استمتاعهم بمثلها فى أى بلد آخر من بلاد العالم ، وإنما تعطى لقاء التفكير فى الحدود التى ترضى السلطات عنها ، والأفق الذى تجيزه ؛ وكان هذا وحده كافياً لتنبيهى إلى الخطر ، وتبصرتى بالعاقبة ، فأخذت يومئذ حذرى ، وناديت حكمتى وصبرى ، لأن الثمن المطلوب نظيرها هو التخلى الـكلى عن كل نقد حر ، أو معارضة صريحة .

وتبين لى أن عضواً بارزاً من أعضاء المجمع العلمى أفرج عنه أخيراً، وكان قد زج به فى غيابة السجن ، لا لذنب اقترفه سوى اسـتقلال الرأى ، وحرية الحـكم على الأشياء ، وكان العلماء الأجانب كلما حاولوا الاتصال به ، قيل لهم إنه مريض معتكف مع أنه فى السجن يومئذ مقيم .

وقيل أيضاً إن آخر فُـصِـلَ من « أستاذيته » وحرم من كل تسهيلات كان من قبل يجدها فى المعمل ، لا لشىء سوى أنه أبدى آراء علمية لا تجارى تيار العقيدة السوفييتية ، حتى لقد أرغم على أن يكتب خطاباً مفتوحاً إلى الرأى العام يتراجع فيه عنها اتقاء الإبعاد ، وخشية من التشريد . وأنت تعلم أن من خواص الطغيان عجزه عن احتمال الاستقلال الفكرى ، ورضاه عن المهانة والاستضعاف والخنوع ، والويل للمحامى الروسى الذى ينهض فى ساحة القضـاء للمرافعة عن متهم تريد الحـكومة إدانته ، مهما تكن مرافعته من العدالة بمكان .

إن ستالين لا يسمح بغير المديح والاستحسان والتحبيذ ، ولن يلبث أن يجد نفسه محاطاً بقوم لا يملـكون تبصرته بخطأ ، أو تنبيهه إلى ضلة ، إذ ليست لهم آراء على الإطلاق .

إن صورة ستالين أصبحت تشاهد فى كل مكان ، واسمه أمسى على كل شفة ، وإزجاء المديح إليه ظاهر فى كل خطبة أو كلام .

أفذلـكم كله نتيجة العبادة ، أم ثمرة الحب ، أم وليد الخوف العام . . . ؟ ؟
من يدرى ... !

وأذكر وأنا فى طريقى إلى « تفليس » مجتازاً بلدة « جورى » التى ولد فيها ستالين ، أننى رأيت من المجاملة أن أبعث إليه برسالة شخصية عرفاناً وشكراً على الترحيب الصادق الذى لقيناه فى بلاده وكرم الضيافة الذى وجدناه أينما حللنا ، وبدا لى أن هذه فرصة لن تتاح مرة أخرى ، فأوقفت المركبة أمام دار البريد ، وسلمت مكتب التلغراف رسالة أقول فيها « يحدونى المرور « بجورى » فى سير رحلتنا العجيبة أن أبعث إليك ....

وهنا أمسك عامل التلغراف عن القراءة وقال إنه لا يستطيع أن يبعث برسالة كهذه ، لأن توجيه الخطاب بالضمير المفرد هكذا لا يكفى فى حق ستالين ، بل هو أسلوب لا يليق ، فلا معدى من إضافة شىء آخر ، وأقترح أن يكون ذلك قولى مثلا « إلى زعيم العمال » أو « مولى الشعب » .

ولكن ذلك بدا لى سخيفاً فقلت له إن ستالين بلا شك يسمو على المَدَق ، ولكن قولى هذا لم يُجْدِ معه نفعاً ، فقد أبى أن يرسل البرقية ما لم أوافق على تعديل نصها .

وقد تبين لى مع الأسف أن هذه « الرسميات » بعض العوامل التى ستساعد على إقامة حاجز منيع بين ستالين ورعاياه .

وكثيراً ما اضطررت إلى إجراء حذف أو تعديل فى نصوص الخطب التى ألقيتها خلال رحلتى ، فقد قيل لى مثلا إن كلمة « المصير » ينبغى أن تُشْفع بنعت جميل كقولى « الباهر » كلما أشرت فى خطبى إلى مصير الاتحاد السوفييتى ، كما طلبوا منى يوماً أن أحذف صفة « العظيم » إذا جاءت نعتاً لأحد الملوك ، قائلين إن الملوك لا يمكن أن يكونوا يوماً « عظماء » .... !

ودعيت وأنا فى لينينجراد إلى إلقاء خطاب فى جمعية للطلاب وحملة الأقلام فعرضت مسودة الخطبة على اللجنة التى تتولى تنظيم الاجتماع ، ولكنها أبلغتنى أن ما سوف أقوله لن يبدو مقبولاً ولا مستحسناً لأنه يخالف تعاليم الحزب وسياسته . وقد أدى

ذلك إلى متاعب وصعاب كثيرة حملتني في النهاية على العدول عن إلقاء الخطاب ، وكان نصه كما يلي :

« كثيراً ما دعيت إلى إبداء رأيي في الأدب السوفييتي المعاصر ، ولهذا أحببت اليوم أن أشرح سر رفضي إلى الآن إبداءه حتى أجلو بعض العبارات التي أدليت بها في الميدان الأحمر بموسكو بمناسبة تشييع جنازة « جوركي » ، فقد تحدثت عندئذ عن المشاكل التي أولدها نجاح الثورة ذاته ، وأثارها انتصارها قائلا : إنه من حسنات الاتحاد السوفييتي ومآثره الخالدة أنه هو الذي أوجد تلك المشاكل وهيأ لها السبيل حتى ننظر فيها وندرسها ، ولا يخفى أن مصير الحضارة متصل وثيق الاتصال بالحل الذي ستهتدي روسيا إليه ؛ وهـذا هو ما يجعلني أعتقد أنه من الخير والفائدة أن أثيرها في هذا المقام من جديد فأقول إن الجمهرة ، حتى وإن شملت خير العناصر ، مطبوعة على الاستخفاف بكل جديد أو دقيق من روائع الفن ومنتجاته ، فلا تقدر إلا كل ما يسهل فهمه ، أو بعبارة أخرى كل ما هو عاديّ مألوف ، ولـكن لا يصح لنا أن ننسى أن للثورة « كليشهات» ولوازم وشئوناً عادية كما « للبورجوازية» ، وأن ما يضفي الخلود والجودة على أي عمل فني ، لا يأتي بالضرورة من الثورة ، ولا هو حتما من آثارها ، أو صورة من أفكارها ، مهما تكن هذه الآثار والصور سامية الأهداف نبيلة الغايات ، وإنما يحيا العمل الفني ويخلد بفضل ما فيه من ابتكار وقوة خلق وإنشاء ، وبما يثير من مسائل أو يخلق من مشاكل ، أو يرد به عليها ، أو يستبق إليها بالجواب ؛ وأخشى أن الـكثير من المنتجات الفنية المشبعة بأنقى التعاليم الماركسية والتي لاقت النجاح اليوم لهذا السبب وحده ، سيبدو غداً للأجيال الخالفة «مطبوخاً» أو يحمل « رائحة » المعمل ، فإن الآثار الأدبية التي تتغلب على أحداث الزمن ، ولا يتطرق إليها النسيان على الدهر ، هي التي تسمو على عقول المعاصرين والآراء الشائعة لديهم . واليوم وقد أصبحت «الثورة» هي المنتصرة المظفَّرة ، فقد بات الفن في خطر بالغ ، لا يقل عن أي شيء عداه في أشد عهود الطغيان وأكثرها عصفاً واستبداداً ،

وأعنى به خطر «الأرثوذكسية» . وما أحوج الفنان فى عهد الثورة المظفرة إلى الحرية ، لأن الفنون إذا لم تتوافر الحرية التامة لها فقدت معانيها وقيمتها ، وما دام هتاف الجماهير واستحسانها معناه النجاح والفوز ، فإن الشهرة والصيت البعيد سيذهبان إلى المنتجات الفنية التى يستطيع الجمهور فهمها بغير محاولة أو جهد ؛ وكثيراً ما ساءلت نفسى ترى لو أن «كيتس»[1] أو «بوديلير»[2] أو «ريمبو»[3] كانوا فى روسيا اليوم ، فهل نحسبهم سيروحون فيها مجهولين منكورين ، كما كانوا فى عصورهم ، بسبب قوة ابتكارهم ، وفضل استحداثهم ، وندرة مواهبهم . إننى لا أعطى أكثر اهتمامى إلا لمعاشر الفنانين الذين سخر الناس فى أول الأمر منهم واحتقروهم وأهملوا شأنهم ، أمثال كيتس و بوديلير وريمبو وأشباههم ممن ستوليهم الأجيال القادمة نعمة الخلود على الزمان . ولعلكم قائلون إننا لسنا اليوم بحاجة إلى هؤلاء ومن لف لفهم ، لأن كل ما ينطوى عليه تاريخهم من دلالة لا يعدو القول بأنهم إنما صوروا المجتمع المنحط المنقرض الذى كانوا ثمراته المحزنة . وقد تقولون إنهم إذا لم يستطيعوا كسب الإعجاب العام ، فإن الضير عليهم ، والخير فى ذلك لنا ، لأننا لن نجد لديهم شيئاً جديداً نتعلمه ، ولن نصيب منهم طريفاً نتزكى به ؛ وإنما الذين يستطيعون اليوم هدايتنا و إرشادنا وتثقيفنا هم معاشر الفنانين الذين يشعرون فى العهد الجديد بأنهم من صميم أهله ، ونفوسهم متماثلة مع روحه ، أو بعبارة أخرى ، الذين يقرون العهد ويتملقونه ويترضونه ، ولكنى شخصياً أعتقد أن المنتجات الفنية التى تقوم على المديح والاسترضاء والملق هى آثار لا قيمة لها إطلاقاً ، من الناحية الثقافية ، وأن من واجب الثقافة إذا أرادت التقدم والاطراد أن تتجاهلها وتنكر وجودها .

أما الأدب الذى ينحصر جهده فى تصوير المجتمع ، فقد سبق أن بسطت لكم

---

(١) شاعر انجليزى مبدع عاجله الموت فى شبابه .
(٢) شاعر فرنسى معروف .
(٣) شاعر فرنسى ملهم عاش شريداً جوالا لا يستقر على حال .

رأيى فيه ، فان البقاء على إدامة التأمل الذاتى والإعجاب بالنفس قد يكون مرحلة من مراحل التطور بالنسبة لمجتمع ناشئ ، وأمة فتية ، ولكن من المحزن حقاً أن تظل هذه المرحلة هى الأولى والأخيرة فلا يتقدم المجتمع منها مطلقاً إلى مرحلة تالية ... »

هذا هو ما كنت أنوى أن أقوله فى خطبتى .

وما دام الإنسان مضطهداً مديساً مغلوباً على أمره ، وما دام الظلم الاجتماعى قائماً لإخضاعه و إذلاله ، فلا يسعنا غير عقد الأمل على البراعم التى لم تظهر بعد فى الأرض الخصيبة ، أو الكامنة الخصب ، أرض الطبقات الكادحة الحارثة المكدودة ، مثلنا فى ذلك كمثل الذين يعلقون كبار الآمال على الأطفال حين يشبون على الطوق ، فلا يكون منهم عندئذ غير رجال عاديين مألوفين ، أو كثيراً ما يذهب بنا الظن إلى أن الجماهير إنما تتألف من أفراد نشأوا من طينة أرق وأفضل من طينة بقية أفراد البشرية المخيبين للآمال ، وأعتقد أنهم لا يمتازون إلا بشىء واحد عنهم ، وهو أنهم أقل فساداً ، وانحطاطاً من سواهم ؛ وإنى لأشهد اليوم فى الاتحاد السوفييتى بوادر « بورجوازية » جديدة تنمو وتتطور من بين صفوف هذه الجماهير التى لم تجرب بعد ، وأرى فيها العيوب والمساوى ذاتها التى لدينا ، إذا لم تكد ترتفع فوق مستوى الفاقة حتى أضحت تحتقر الفقراء ودبت عقارب الغيرة فى نفوس أفرادها ، واستولت على المتع والمناعم التى كانت محرومة منها أمداً طويلا ، وأمست تعرف كيف تظفر بها ، وكيف تحفظها وتصونها ، فلا تفلت من أيديها ، فهل هؤلاء القوم حقاً هم الذين صنعوا الثورة ....؟؟

كلا . وأيْمُنُ الحق ... إنهم فى الواقع معاشر الذين استغلوها لمنفعتهم ، وأحالوها إلى مصلحتهم ، بدوافع الأنانية وحب الذات ، وقد يكونون إلى الآن أعضاء فى الحزب الشيوعى ، ولكنهم لم يعودوا شيوعيين فى أطواء جوانحهم ، وأعماق قلوبهم .

ولست ألوم الاتحاد السوفييتى على أنه قد أخفق فى تحقيق أكثر مما قد حقق . لأنى أعتقد أنه لم يكن فى الإمكان أحسن مما كان ، لأن البلاد بدأت من

درك سحيق ، وكانت قبل الثورة فى أعمق وهدة ، ولـكنى ألومه على مدى الخـدعة التى استمرأها ، والدعوى الضخمة بأن الحالة فى روسيا مما يحسد عليه ، وتطيب النفس له ، فإن زعماً كهذا من البلد الذى كان مناط آمالى ، ومعقد إيمانى ، أليم لنفسى محزن لخاطرى .

وألوم الشيوعيين فى فرنسا ، وفى كل مكان كذلك ؛ ولست بلائم أولئك الذين خُدِعوا لحسن نيتهم ، وسلامة طويتهم ، وإنما أنا لائم الذين كانوا يعرفون أكثر من سواهم ، أو الذين كان أولى بهم أن يعرفوا ، ولـكنهم أبوْا إلا أن يـكذبوا على العمال فى الخارج ويغرروا بهم ، وإن ظلوا طيلة الوقت يلتمسون تحقيق أهداف سياسية .

ألم يئنِ للعمال خارج روسيا السوفييتية أن يدركوا أن الحزب الشيوعى أضلهم وغرر بهم ، كما أضل من قبلهم العمال فى روسيا ذاتها ..؟؟

ولو أنى وجدت بارقة أمل فى تحسن الأحوال وصـــلاح الأمور فى الاتحاد السوفييتى ، للزمت الصمت ، رغم ما هو فيه من سوء يبعث على الأسف ، ويورث الهم والحزَن ؛ ولـكنى رأيت من الواجب أن أتكلم علانية ، وأصارح بالحقيقة جهرة ، لأنى وصلت إلى مرحلة الاعتقاد الجازم بأن الاتحاد الســوفييتى هابط رويداً المنحدر الذى كنت أرجو أن أراه صاعداً فيه ، راقياً إليه ، ولأنه راح يتخلى لأسباب مموهة ، ودوافع براقة خادعة ، عن الحريات واحدة فى إثر واحـــدة ، تلك الحريات التى اكتسبها بفضل الثورة العظيمة بعد متاعب جمة وإراقة دماء ، ولأنى أراه يجرر فى أذياله إلى حافة الفوضى الأحزاب الشيوعية القائمة فى الأقطار الأخرى .

ولن يحول بينى وبين الصراحة شىء ، ولا الولاء الحزبىّ ذاته ، لأنى ؛ أضع الحق فوق الأحزاب ، وأعلم حق العلم أنه ليس فى التعاليم الماركسية شىء يقال له « الحق » أو الحق المطلق على الأقل ؛ وإنما الحق فى تقديرها نسبى ، ولـكنى أعتقد مع ذلك أنه من الإجرام فى أمر خطير كهذا تضليل الناس والتغرير بهم . ومن الأمور

الواجبة بغير إبطاء أن ينظر الناس إلى الأمور كما هى ، لا كما يودون أن تكون ، وكما كانوا يرجون .

إن الاتحاد السوفييتى قد خدعنا فى أعز أمانينا ، وبين لنا كيف يمكن أن تزل بالثورة الصادقة البريئة القدم فى الرمال الخادعة . والسباسب اللينة الكاذبة .

إن المجتمع « الرأسمالى » قد عاد فاستقر ، وقام طغيان جديد مكانه ، طغيان رهيب مَاحِقٌ مستغل توافرت فيه كل ما فى العبودية من حقارة ومهانة وذل .

لقد فشلت روسيا ، كما فشل « ديموفون » [1] فى أن يكون رباً معبوداً ، ولن تنهض الآن من نيران هذه المحنة السوفييتية ...

---

(١) ديموفون هو الوليد الذى جعلت ديميتر فى أساطير اليونان تربيه فى المهد على الاكتواء بالنار وتضع له فى السرير جذوات متقدة ، لكى تجعل من بشريته ألوهية ، ولكن أمه اكتشفت الأمر فأنقذت به الإنسان ، وضحت بالإله . انظر استهلال أندريه جيد لقصته .

لويس فيشر

كانت تقوم فى خاطرى وأنا شاب فى فيلادلفيا قبل نشوب الحرب العالمية الأولى، صورة مرتبكة المعالم لروسيا « مهزوزة » الأجزاء، ولم أكن يومئذ قد رأيتها، أو رأيت سواها ، من البلاد الأجنبية ، ولكنى قرأت طائفة كبيرة من روايات تولستوى ، ودستوفسكى وترجنيف و بعض القصص القصيرة التى كتبها جوجول وجوركى ، كما هزت مشاعرى « مذكرات ثائر » التى وضعها البرنس بيتر كروبوتكين الفوضوى الروسى الكبير ، بماحوت من أخيلة ، ومبادئ سامية ؛ وسخط إنسانى، وكان الأدب الذى ألفت فى شبابى قراءته عن الرحلات والمخاطرات ، يشمل قصص الثوار البواسل الذين خادعوا الموت بالفرار من مناجم الملح فى أصقاع سيبيريا ، وكان أبواى قد ولدا فى بلدة صغيرة تدعى « شبولا » خارج حدود مدينة « كييف » ، فكانا يحدثاننى عن المذابح التى كان « الموزيق » — أو الفلاحون الروس — يقترفونها وهم ثملون ملحون على « الفودكا » نازفو الألباب من صهبائها الباطشة ، فكانت روسيا تلوح لى من ذلك كله « خاماً » وشرقية ، وتبدو لخاطرى متحضرة وغير متحضرة ، متعلمة وأمية ، وقد تناثرت فى أرضها بارقات من ثقافة ، ورواء قيصرىّ ، وثراء ضخم ، وسط ظلمة مترامية المدى ، وفاقة ضاربة الأطناب .

وهكذا ظل العالم الممتد خلف حدود أمريكا فى خاطرى أشبه بصورة واهية الظلال ، قاتمة المعالم ، إلى بداية الصراع حيال امبراطور ألمانيا ، ونشوب الحرب واشتراكى فيها ، فقد حجبا عنى كل شىء حتى الأحداث الجسام ذاتها من اعتزال قيصر الروس العرش ونزوله عن الدست للحكومة الموقوتة فى شهر مارس عام ١٩١٧ ومولد النظام السوفييتى فى شهر نوفمبر منه ، فان هذين الانقلابين لم يتركا فى ذاكرتى أثراً ما عند وقوعهما ، ولو أحدثاه لما استطعت يومئذ أن أفهم سر التجاء البلاشفة إلى إسقاط حكومة كرينسكى الموقوتة التى وصفها لينين بقوله إنها جملت

روسيا « أكثر بلد فى العالم حرية » ولا أن أدرك الأسباب التى حملتهم على التخلى عن تأييدها لمصلحة « ديكتاتورية » مؤكدة .

ولما عدت إلى بلادى فى عام ١٩٢٠ بعد انتهاء خدمتى العسكرية فيما وراء البحار اشتد بى الشغف بمعرفة سر نشأة الحرب العالمية الأولى وأسباب نشوبها فعكفت على دراسة عدة مؤلفات ومجلدات فى هذا الشأن بأقلام كتاب من مختلف العناصر والجنسيات ، وكانوا جميعاً مختلفين فى النتائج ، وإن اتفقوا جميعاً على توزيع جريرتها توزيعاً واسع النطاق يجعل روسيا القيصرية ، والنمسا والمجر ، فى مقدمة الدول التى تحمل أكبر التبعات عن إثارة نارها ، ثم تتلوهما ألمانيا ففرنسا ثم بريطانيا .

وتبين لى من دراستى أن هؤلاء الباحثين يعتقدون أن جميع الدول العظمى كانت متفقة بمعاهدات سرية على تقسيم الدول الصغيرة الضعيفة فيما بينها أشلاء موزعة ، وأن دوافع التوسع الاستعمارى أدى فى النهاية بها إلى التنازع ، فلم تلبث أن قامت الحرب كنتيجة لذلك الصراع المستمر .

وبدأت المجلات الأسبوعية الحرة فى نيويورك تنادى عندئذ بأن مؤتمر الصلح فى فرساى إنما أقام عمله على هذه المبادئ الاستعمارية الخبيثة ذاتها ، وأن الساسة كانوا رغم نصائح الرئيس وودرو ويلسون ومشوراته السامية ، أشد اهتماماً بالكسب الإقليمى والمادى منهم بإيجاد حلول كفيلة بإقرار السلام .

فلا عجب إذا جعلنى موقفى من الحرب والسلام على استعداد لقبول سخط البلشفية على الغرب وحملتها عليه ، فقد ذهبت موسكو تندد بما كان فى مؤتمر الصلح من عمليات الضم والتقسيم والإلحاق ، وتستنكر مسألة « التعويضات » ، وتنذر بأن ذلك كله بذور حرب عالمية أخرى .

وكنت أعرف طالباً يدرس العلوم الهندسية فى جامعة بانسلفانيا ويتكلم الروسية . فراح يبين لى ما تضمنته المذكرات الشائكة الساخرة المرة التى وضعها شيشرين وزير خارجية السوفييت من التنديد بالحكومات « البورجوازية » لتدخلها بغير موجب

ولا مبرر فى الحرب الروسية الأهلية لتأييد الرجعية وأنصار القيصرية حيال البلاشفة الثائرين ، وكيف كان هؤلاء يكافحون قوات أكبر منهم بأساً ، وأشد بطشاً ، ويتحدون العالم القديم لأنه أبى أن يسمح بمولد عالم جديد ، وكيف كانت روسيا تحارب قوات عرفت كيف تضرم نار الحرب ، ولم تعرف كيف تقر السلام !

وقد أحسست يومئذ دافعاً قوياً يحفزنى إلى معرفة أوربا هذه التى استطاعت أخيراً النجاة من حرب عالمية ، وثورة ، فادخرت بعض مواردى ، وسافرت إلى الخارج فى شهر ديسمبر عام ١٩٢١ كمراسل حر غير مقيد بجريدة معينة .

وكانت أوربا يومئذ فى حال سوأى ، وأمر مَرِيج ؛ فقد استحال أبطال الحرب الأقوياء الجسوم إلى متسولين شُرَّد يهيمون فى شوارع المدائن البريطانية يسألون الناس وهم طائفون بالمعازف والقيثارات « والأرمونيكات » أو يغنون وينشدون ، أو يتجولون لبيع أقلام الرصاص ؛ وكانت صفوف من المقاعد فى مسارح لندن ملأى بالنساء دون بعولهن ، لمصرعهم فى الخنادق ، أو دون أحد من الرجال ، لأنهن لن يرتضين منهم أحداً ، لأن الذين كانوا مصبحين لهن بعولا ، أمسوا رقوداً تحت أطباق الثرى فى ساحات فرنسا والفلاندرز ، وكان مكسيم جوركى يومئذ يناشد العالم أن يبادر بالأغذية لإطعام خمسة وعشرين مليوناً من الجياع الساغبين فى روسيا .

وقد كتبت من بولونيا فى شهر يناير عام ١٩٢٢ عن « الجوائح » التى لم تدع أحداً ينجو من مخالبها ، كما وصفت التيار الجارف فيها من الوطنية المستعرة والنعرة القومية المتناهية ؛ وكانت بولونيا رغم ما اصطلح عليها من عدة المشاكل الداخلية لا تزال محتفظة بجيش يستنفد مواردها ، ومصرة على ضم « فيلنا » Vilna إليها .

وقضيت شطراً من الشهر التالى فى النمسا ، وكتبت إلى جريدة « نيويورك بوست » فى أول مارس من العام ذاته أقول : « إن فينا التى طالما تسامع الناس عن مرحها وبهجة الحياة الليلية فيها أمست تلوح قاتمة كلما أرخى الليل سدوله ، وقد غمرتها بلادة غريبة وجمود عجيب ، وتضاءلت الأضواء فى شوارعها ، وإن كانت

الأنوار والحياة وأبواق السيارات وأصوات القصف والرقص والغناء فى المشارب والثياب المهفهفة لا تزال بادية فى أحيائها المليئة بالحانات والقريبة من دار « الأوبرا» والمسارح الكبيرة والفنادق الفخمة .

وقد تحطمت الواجهات الزجاجية الضخمة فى عدة بنوك ومتاجر ومطاعم وفنادق خلال المظاهرات العدائية التى جرت أخيراً ضد المضاربين .

أما ألمانيا التى استطاعت بفضل ضخامة مساحتها وعديد نواحيها ومركزها فى وسط أوربا أن تخيف أو تفسد أو تغزو مناطق مترامية فى أوربا ، كما تمكنت من تعزيز مناطق أخرى وتقويتها وبعث النهضة فى ربوعها، فقد أمست تعانى «كابوساً» مستمراً من التطاحن الحزبى بين الملكيين والجمهوريين، وتشكو من التضخم النقدى وآثاره السيئة » .

وفى المؤتمر الدولى الذى انعقد فى جنوه خلال شهر أبريل من العام ذاته لم يقو المنتصرون الغربيون على نسيان ما كان ، أو أخذ المسيئين بالغفران ، أو الدعوة إلى الوحدة بينهم والوئام ، فراحوا يدفعون بروسيا ، أو « المنبوذة » الثائرة ، وألمانيا الطريدة بعد الحرب ، إلى التحالف ، وعقد حلف سياسى تجارى ، بل لقد حملوا هؤلاء المطرودين المنبوذين إلى التسليح والتعاون عليه سراً بينهم .

لقد كانت أوربا يومئذ لا تزال مبهوتة مذهولة تقطر دماء من أثر الحرب الأولى ، وهى مع ذلك كله تسير متخبطة إلى حرب أخرى ، بينما لبث المواطنون والساسة يقلبون أكفهم أسفاً ويأساً .

وكنت فى ذلك الحين لا أزال أقرأ وأسمع الكثير عن روسيا السوفييتية ، وأعلم أن البلاشفة يمجدون الإنسان ويعززونه ، ويرثون له ، عارضين عليه الأرض والخبز والسلام والعمل والمسكن والطمأنينة والتعليم والصحة والفنون والسعادة ، ويناصرون مبادئ الإخاء الدولى الذى يجمع أشتات الكادحين والمكدودين ، ويقولون إنهم سيقضون على التمييز العنصرى والاستغلال والظلم وقوة الثراء وحقوق الملكية والجشع

الأقليمى ؛ وقد راحوا يفاخرون بأنهم حرروا بولونيا وفنلندة ودول البلطيق من حكم الروس ، وتخلوا عن امتيازات القيصر فى الصين ومناطق نفوذه وامتيازات الزيت الممنوحة له فى إيران .

فلا غرو إذا مضى المظلومون فى هذا العالم وأنصارهم يرون فى السوفييت رسل عهد جديد فى التاريخ .

لقد رأينا يومئذ دولة تشغل مساحتها سدس الكرة الأرضية تنضم إلى خطيب الشوارع فى أصائل الأحاد وتتكلم كلامه ، وتتحدث بلغته ولسانه ، وشهدنا لأول مرة فى التاريخ حكومة تحقق أحلام المصلحين ومحطمى الأصنام والرواد الأولين فى الأجيال الماضية .

لقد سرت فى البشر هزة ، واستولى الرعب على نفوس أصحاب الامتيازات ، والتقاليد ، ورجال العسكرية ، والأباطرة ، والمزهوين بلونهم على سائر بنى البشر ، والجامدين على الأوضاع القائمة ، فلم تلبث مخاوفهم أن أثارت الآمال الكبار فى نفوس الآخرين .

وكان أبدع ما فى البلشفية « عموميتها » ، فهى لم تقترح إدخال تغييرات معينة فى روسيا فحسب ، بل رمت أيضاً إلى ماهو أوسع نطاقاً ، وأتم شمولا . رمت إلى إلغاء الحروب ، والقضاء على الفقر ، والآلام ؛ فلا عجب إذا رأينا صغار الناس فى كل بلد من عامل أجير ، وكاتب مفكر ، وذكى مستنير ، قد شعروا يومئذ بأن حدثاً خطيراً جرى فى حياتهم ، حين بدأت جذور الثورة تتأصل فى أرض روسيا وتربتها . والواقع أن ذلك العطف العام الذى أحاط بالبلشفية فى تلك الأيام كان مرجعه إلى السخط على سير الأحوال فى البلاد الأخرى ، أكثر من مرده إلى معرفة حقائق الحال فى روسيا ذاتها ؛ فإن أكثر الناس كانوا يومئذ يجهلون ما حدث فيها ، ولا يعرفون شيئاً عما كان يجرى تحت النظام البلشفى الجديد ؛ وإن مضى كل إنسان يتحدث عنها بحرارة ، ويتحمس فى الحديث عنها كل الحماسة . ووقع ما كان منتظراً ، إذ جمل

المنتمون إليها ، الداخلون فى حظيرتها ، يعتمدون فى الغالب على وعودها ، و يعتذرون عن « المتاعب » التى وجدتها فى طريقها ؛ بينما ذهب الناقمون منها المتربصون بها ينتقدونها على أنها لم تحقق من تلك الوعود شيئاً .

ولم يلبث هذا الجدل القائم بين أنصارها وخصومها أن أثار فى نفسى الرغبة فى الظفر بالحقائق من مواردها ، والعلم من مظانه ، فذهبت إلى موسكو من برلين فى شهر سبتمبر عام ١٩٢٢ وأنا لا أعرف كلمة واحدة من الروسية ، ولا أعلم إلا القليل من أمر النظام السوفييتى ، و إن كنت أحنو على أمانيه ، وأعرف مع ذلك أن الأحوال فيه سيئة، وأننى لست مسافراً إلى « المدينة الفاضلة » ولا أنا حاج إلى مكة المكرمة .

وكانت ثورات الفلاحين واشتداد المجاعة وموات الإنتاج قد أرغمت الحكومة السوفييتية فى ربيع عام ١٩٢١ على وضع سياسة تدعى « السياسة الاقتصادية الجديدة » وهى خطة ترمى إلى إقرار الرأسمالية الأهلية ، وتبيح منح امتيازات لرءوس الأموال الأجنبية .

وهكذا وجدت البلشفية نفسها لضعف نظامها مجتذبة إلى الخلف ، مردودة إلى الحافرة ، محمولة على الرجوع إلى القهقرى . وقد اعترف لينين نفسه بالردة ، ولم يكن يخفى يوماً النكسات ؛ فلم يلبث الباعة المتجولون الصغار أن انتشروا كالجراد فى أحياء موسكو ولينينجراد وكييف والمدائن الأخرى سارحين بثياب داخلية وأقمصة وجوارب ونعال مطاطية ومشدات للخصور وسلع فضية وكل ما يخطر بالبال من البضائع القديمة والمصنوعات البسيطة . و بدأ الريف يضج بطلاب الإثراء العاجل ، وعمدت الحكومة ذاتها إلى تشغيل دور لهو وميسر ضخمة ، ومطاعم فخمة ، وحانات بديعة ، وكاباريهات لرتاد الصفوة ، حيث تقدم المآكل الشهية التى لا سبيل للمواطنين العاديين إلى الظفر بمثلها .

ولم يكن شىء من هذا يبدو لعينى ضرباً من الشيوعية ، أو وسيلة جديدة من وسائل الحياة ، أو أسلوباً يمت إلى هذه المبادىء ومعانيها . والظاهر أن الغريزة

« الرأسمالية » قوية عرمة ، فلم تلبث أن وثبت إلى العمل على نداء السياسة الاقتصادية الجديدة ، حتى لقد رحت أسائل نفسى أترى الثورة قد خمدت جذوتها ، وانطفأت وقدتها ؟ ولكن معاشر الشيوعيين يجيبون بالسلب ، وإن كان الواقع يدل على أن الماديات ليست برهاناً قوياً على وهن البولشفية ، وإنما روح الشيوعيين هى الدليل والبرهان .

وكان الحزب الشيوعى هو أبرز هيئة فى روسيا السوفييتية حتى ليشبه نظام « الأديرة » إذا ذكرنا التقشف ومطالبه ، والتفانى المطلوب من أعضائه وعترته ؛ فقد جعلته تقاليده ، وهى الطاعة المطلقة ، والسرية ، والنظام المتين ، والضبط والربط ، أشبه ما يكون بهيئة « عسكرية » ، وكان يبدو كأنه « الدينامو » المحرك ، أو الكلب الراصد الحارس المترقب ، أو هو وحى النظام الجديد وإلهامه ، وكان مصدر كل سياسة توضع وكل خطة تنتهج ، والمظهر الأوحد للسلطة السياسية وإن لم يباشرها فى الظاهر ، أو يمارسها بالفعل ، تاركاً قيادها للحكومة البيروقراطية ذاتها ، مكتفياً بالتوجيه والرقابة والإشراف ؛ وذلك لأن توزيع المهام على هذا النحو من شأنه أن يمنع من إغراء المناصب الكبيرة ، وفتنة السلطان ؛ وكان أكثر الموظفين فى الحكومة أعضاء فى الحزب ، ولكن عشرات المئات من الشيوعيين البارزين كستالين وزينوفيف وبوخارين لا يتقلدون مناصب فيها ، واعتاد معاشر الشيوعيين أن يتنادوا فيما بينهم بكلمة « الرفيق » وأن يتقاضى السواد الأعظم منهم مرتبات قليلة جعلتهم يعيشون عيش الشظف والزهد والنقاء كما كان دأب أهل « أسبارطة » فى الإغريق الغابرين ، وكانت واجبات الشيوعى تفوق امتيازاته عدداً ، إذ كان الحزب ينتظر منه أن يكون مثالاً للحمية ضد الدين والولاء الأسمى والخلق الكريم والتفانى السياسى ، وكانت المخالفات تعاقب بشدة ، وتجد صارم الجزاء .

وكانت روسيا يومئذ تنبض نشاطاً « ديناميا » وتمتلئ حركة ودأباً ، وبدت المدائن مزدحمة بخلائق طارئين عليها من الغابات وحقول القمح ، والشباب باد فى كل

ميدان ، ظاهر فى كل مشهد ؛ وكان لينين قد بلغ فى عام ١٩٢٢ الثانية والخمسين ، وتروتسكى الثالثة والأربعين ، وستالين مثله ، وزينوفيف التاسعة والثلاثين ، وكانييف فى السن ذاتها ، وبوخارين فى الرابعة والثلاثين ، و « رادك » فى السابعة والثلاثين .

وكانت رحى الثورة لا تزال تطحن الطبقات الحاكمة القديمة وتسحقها سحقاً ، وتدع المجال فسيحاً لبروز قوات جديدة ، وعناصر فتية ، وكان هؤلاء اعترافاً بالصنيع ، وفرحاً بالسانحة ، على استعداد لقبول النظام المكين ، والعمل الشاق والتضحيات المطلوبة .

وكانت المجاعة لا تزال تعض بأنيابها الحداد خلائق كثيرة ، فى مناطق عدة ، وأصقاع مترامية ، وكانت الوجبة الواحدة تكلف ملايين من « الروبلات » ، فقد تجاوز التضخم النقدى فى روسيا أعراضه الرهيبة فى ألمانيا ذاتها ، وراح أسوأ وأبشع أثراً ؛ فلم ألبث أن فزعت لمشهد الفاقة الموروثة التى زادتها الحرب العالمية اشتداداً ، وجاءت الحرب الأهلية والثورة فجعلتها تتفاقم شراً وويلا ، ولكن النظام ذاته وأنصاره لم يبدوا تشاؤماً من هذه الحال ، ولا أظهروا مخافة وإشفاقاً ، ولا عراهم منها يأس أو رهق .

وكانت الحماسة ذات عدوى عامة ، والحمية تسرى فى كل مكان ، فجعلت أسائل نفسى لماذا تحاول الحكومات الأجنبية ، ويحاول الساسة والمراسلون الأجانب فى موسكو ، الوقوف فى وجه أمة عظيمة كهذه تريد أن تخرج من الحمأة التى هوت من قبل إليها ؛ وكنت قد ولدت ونشأت فى بيئة الفاقة ، فلا غرو إذا أنا بدافع الغريزة رحبت بكل سعى يراد منه استئصال الفاقة واجتثاثها من أصولها ، ولم أنكر على البلاشفة مصادرتهم الممتلكات الخاصة ورءوس أموال الأفراد وتأميم الأراضى ، بعد أن جاءت الثورة فقطعت كل صلة بالماضى ؛ وكان هذا هو أكبر فتنتها ، وأبدع ما يجذب الأرواح إليها ، فقد كان الماضى مظلماً ، وراح السوفييتيون يتلمسون طريقهم وسط الظلمات ، فى أرض لم يرتدها من قبل مرتاد ، نحو هدف لم يشهده شاهد ، وغرض لم يتخيله قبل اليوم متخيل .

فلا غرو إذا أنا أعجبت بشجاعتهم ، ولم يكن فى إمكان أحد أن يشك فى نزاهتهم ، أو يستريب بإخلاصهم .

وكانت النزعة « الدولية » بلا ريب فى رأس قائمة المزايا والفضائل والمحاسن التى اجتمعت للشيوعية وأهلها ، فكثيراً ما رأينا الحدود الوطنية تنشأ نتيجة السرقة وثمرة العدوان، بل لطالما كانت الوطنية نفسها مثيرة الحروب، والمنافسات الاقتصادية، وموقدة نار العدوان والبغضاء بين الشعوب ، وهى فى الحق ضرب من «العنصرية» ونعرة الأجناس ؛ ولكن معاشر البلاشفة كانوا يعدون جميع العناصر متساوية وإن تباينت ، أنداداً وإن اختلفت ، حتى ليعيش فى روسيا مائة عنصر من هذه العناصر أو تزيد ، وينتصر فيها للذين ظلمتهم فرص التاريخ، والاعتبارات الجغرافية ، على الذين أصابوا دونهم حظاً من الرقى، وأوتوا نصيباً من الحضارة والعرفان، بينما راحت البلشفية فى الخارج تعترف بالتقسيمات « القومية » وإن التمست إنشاء مجتمع شيوعى « دولى » ، يستطيع الغلبة عليها ، ويهيئ السبيل إلى سلام عالمىّ مستقر مكين .

وتبين لى أن أغلب الأمم ظالمة لروسيا الجديدة معادية لها متحيزة ضدها ، وبدا لى أن مجموعة الديون « الميتة » وإعادة ملكية الأراضى والمؤسسات « المؤممة » ، وصب جام العداوات الفكرية ، والكراهيات النظرية ، كانت أهم وأخطر فى أعين الساسة الرأسماليين من العمل على قيام صلات أدبية ، وأواصر سياسية ، وروابط اقتصادية مع البلاشفة ، من شأنها أن تعجل بإقرار السلام واستكمال دور النقاهة والإبلال العام .

وإن المرء حين يتحدث إلى أصدقائه من السوفييت لايلبث أن يستنكر حماقات البلشفية وبلاهاتها ، ولكنى فى رحلاتى إلى أوربا وأمريكا وجدت الناس منقسمين إلى معسكرين متعارضين : معسكر الأنصار المؤيدين ، ومعسكر الخصوم المناهضين ، فلم أستطع الانضمام إلى هؤلاء على أولئك ، لأن أمانى روسيا الجوهرية بدت لى أكثر فتوناً ، بعد رؤية « البلادة » العامة التى كانت يومئذ ضافية على عهد

هاردنج — كولدج فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ومشاهدة الشرود المستولى على أوربا ، وتخبطها على غير هدى فى ذلك الحين ، وخضوع الديموقراطية المترنحة المذبذبة فى إيطاليا « لفاشية » موسولينى وسلطته ، وتضييع الاشتراكيين الألمان الفرصة الفريدة التى سنحت لهم بعد الحرب للتخلص من ماضى ألمانيا وجماعة اليونكرز العسكريين ومثيرى الحروب ورجال الصناعات المحتكرين ، حتى لقد بات خاطرى لا يرتضى الانتقادات الشديدة التى كان الديموقراطيون الاشتراكيون يوجهونها إلى البلاشفة الذين قضوا « فعلا » على أنصار الملكيين من الساسة والاقتصاديين فى روسيا، وجعل من العسير على تفكيرى أن أعد « الديموقراطية الاشتراكية » تعويضاً عن الرأسمالية أو بديلاً منها .

ولم ينقض وقت طويل حتى أدركت أن اختيارى قد وقع ؛ فإن الاختيار ، كما لا يخفى ، إنما يكون بين أمرين ، وإن الأمر الآخر هو البديل من الأول والمستعاض عنه إذا كان ميسوراً ، وقد اخترت الرياح الجديدة الجارفة على الهواء الراكد الفاسد ، وآثرت الرواد حسنى النية على معاشر الفاشلين المخفقين الذين ثبت إخفاقهم .

لقد أحببت السوفيت لأنهم كانوا « تجربة » فى سبيل مصلحة الجمهرة التعسة المنكودة الكادحة ومن أجل خيرها وإسعادها ، ولأنهم قضوا على اختصاصات الأقوياء المعدودين ، وامتيازات الصفوة القلال ، ولأنهم كانوا ضعفاء البأس ، مستهدفين لخصومة المحافظين فى مختلف أنحاء العالم ومعارضة الرجعيين والجامدين .

وكانت هذه العوامل المحببة والاعتبارات الجاذبة وليدة استعداد فى نفسى من البداية ، جعلنى ، وأنا لا أكاد أشعر ، نصيراً للاتحاد السوفييتى وأحد أشياعه الصادقين .

ولا ريب فى أن وقوف المرء بجانب قضية ما هو أشد تقييداً وسلطاناً على النفس من أى شىء سواه ، اللهم إلا العلم بوقائع مشينة تتصل بها ، ومعايب تشوب جلالها فى خاطره ؛ وكما يعجز المنطق فى الإيمان الدينى عن زحزحته ، لأن التسليم بعقيدة

دينية ليس وليد عملية منطقية ولا ثمرتها ، بل كما يتحدى الإخلاص الوطنى ، والحب الشخصى ، جملة من الحجج ، وحشداً حاشداً من البينات والبراهين، لم تلبث الجاذبية التى اجتذبتنى إلى السوفييت أن فصلت بينى وبين أحداث الزمن كل الانفصال ، واستقلت بى كل الاستقلال ، فجعلت أنظر إلى التطورات التى تبدو ضارة بروسيا ، باعتبارها مجرد عوارض وقتية سريعة الزوال ، أمام ما سيظهر قريباً من أحداث أبلغ منها دلالة ، وأصدق منها منقلباً ، وأحسن منها مرداً .

وقد ألفت يومئذ أن أدرس الأحوال متقصياً متدبراً وأرويها أميناً مخلصاً ، وكانت أحياناً غير مشرفة للبلشفية ، ولا حسنة فى حقها ، ولكن ذلك لم يكن ليوهن علاقتى بالنظام السوفييتى ، أو يزعزع إيمانى بعصيرها الباهر وغدها المأمول .

ونشرت لى جريدة « نيو يورك نيشن » فى ٤ مارس عام ١٩٢٥ مقالاً بسبيل « السجناء السياسيين فى عهد البلشفية » تحدثت فيه عن « إما جولدمان » ، و« أليكسندر بركمان » ، وهما فوضويان دوليان معروفان زارا روسيا فى عام ١٩٢٠ — ١٩٢١ ، وقلت إن السجون فى تلك الفترة كانت أملأ منها اليوم بالسجناء السياسيين، وكان هؤلاء خلالها يجدون معاملة أقسى مما هم الآن واجدوه ، وإن إما وبركمان كانا يعرفان هذه الحقائق جد المعرفة لأنهما كانا يستمتعان بحرية الانتقال ، ويصطحبان فريقاً كبيراً من خصوم البلشفية ، وكان هؤلاء يحيطونهما علماً بما يجرى ، ويحملان إليهما أنباء ما يقع ، ولكنهما مع ذلك كله لم يريا بأساً من مناصرة الشيوعيين والسعى فى ضم الفوضويين الجدد إلى البلشفية ، أو بعبارة أخرى إن الاعتقالات السياسية إنما تبدو لك إن كنت للسوفييت نصيراً شائبة تشوب الشعار الناصع الجميل الذى تحرص عليه ، ولكنها لا تلبث كلما زالت الغشاوة عن عينيك ، وانطفأ البريق الذى كان يفتنك ، أن تصبح سلاحاً فى يدك ، تحارب به روسيا ، وتشهره عليها كل الإشهار .

وقد انتقد أليكسندر بركمان ذلك المقال الذى كتبت .

فبعث من برلين يقول : « لقد كان استعدادى النفسى طيباً نحو البلاشفة ، كما

كان حالى فى العام الأول من مقامى فى روسيا ، وقد نازعتنى رغبة صادقة فى المعاونة على عملهم ، ومناصرتهم ، فلم أدع فرصة سانحة إلا انتهزتها لإقناع زعماء الشيوعية بأن انتهاج سياسة التسامح ، والأخذ بمكارم الأخلاق ، حيال خصومهم السياسيين من حزب اليسار أنفع وأجدى على الثورة من التنكيل بهم والتعسف فى حربهم ، بل لقد ظللت بعد قطع كل صلة بينى و بين البلاشفة ، وانصرافى عنهم إلى غير رجعة ، وعقب حركة التطهير التى جرت فى كرونستاد ، أحاول جاهداً أن أحملهم على تغيير سياستهم إزاء السجناء الثوريين ... » .

وهكذا أيد بركمان فكرتى ، فقد كان نصيراً للسوفييت وإن كره منهم معاملتهم الوحشية للمعتقلين السياسيين ، ثم جاءت الوسائل التى تذرعوا بها لإخماد فتنة البحارة فى جزيرة كرونستاد القريبة من بطرغراد فأحنقته على النظام السوفييتى كله ، لأن « حمام الدم » الذى جرى فى تلك الجزيرة نقل معاملة السجناء السياسيين من موضع احتجاج خاص إلى سبب يحمل على النقد والهجوم ، وأكبر الظن أن قسوة موسكو على أولئك السجناء هى التى أضعفت من « مناعة » بركمان حيال صدمة أنباء الوحشية التى جرت فى « كرونستاد » ، فلم يصبح خصماً للبلشفية إلا بعد « حمام الدم » ، ولم ينقلب عدواً مبيناً إلا بعد حركة التطهير .

إن الفيصل فى الأمر إذن هو حادث « كرونستاد » ، فقد كان من الجائز قبل وقوعه أن يتردد المرء بعاطفته ، أو يتشكك من جهة خاطره وتفكيره ، فى فضل هذه القضية وحقيقة شأنها ، بل من المحتمل أن يرفض الاقتناع بها جملة ، ويأبى إقرارها كلية ، ولكنه مع ذلك لا يرتضى مهاجمتها .

أما أنا فلم يقع فى طريقى حادث من هذا النحو عدة سنين ، وإنما جعلت خلالها أزن بفكرى وعقلى الباطن النظام السوفييتى وزن المدقق الحكيم ، وكانت قراءتى للميزان بالطبع مرتهنة بما أضعه فى الكفة المقابلة ، وكان جلياً لى فى عام ١٩٢٤ أن الدولة السوفييتية استخفت بالنوازع البشرية ولم تدخلها مطلقاً فى حسابها ، فلم تجعل

الحرية أيقونة مقدسة كما هى فى الغرب ، وإنما جعلت إعطاء الجماهير حرية اقتصادية أسمى من ذلك هدفاً وأنبل غرضاً ؛ وراح الشيوعيون على هذا النحو يبررون انتفاء حرية الصحافة ويشرحون الدوافع التى اقتضت قيام إدارة للشرطة السياسية ، وإن كنت أعتقد أن هذا لا يمكن أن يصلح مبرراً ، لأنى أستنكر إهدار الحرية الشخصية لأنها كانت عندى أعظم شأناً وأكبر قدراً من أى شىء سواها .

وقد قلت فى مقالى الذى أسلفت الإشارة إليه إن هدف البلاشفة هو قيام « مجتمع جديد » ، وإن قيامه نقياً مطهراً من شوائب الاستغلال يرجح دون شك بانتفاء حرية الصحافة ووجود البوليس السرى .

لقد كان الأمل فى السوفييت يملأ خاطرى ، ويستثير خيالى ؛ وكانت تعهدات الحكومة السوفييتية والشيكات المحررة منها للدفع فى تواريخ مؤجلة ، ولو إلى عشر سنين ، قرائن أخطر شأناً من قلة الإنتاج الصناعى مثلا وافتقاره إلى الكفاية والإتقان ؛ فلا غرو إذا لم يلبث ماضيها السيئ وخططها للمستقبل البديع أن اجتمعا لتكييف الحكم على حاضرها ، وكان المستقبل لرءوس الأموال السوفييتية ، فقد عرض البلاشفة أن يبيعوا لأى إنسان سندات وسهوماً فيها ، وكانوا يصورون كل مشروع جديد من مشروعات السنوات الخمس كخطوة شاقة ولكن ضرورية فى سبيل الصعدة نحو العالم الجديد ؛ وكيف كان ممكناً أن تشكو من قلة البطاطس مثلا وأنت تبنى صرحاً ممرداً للاشتراكية ؟؟ أفلا تستغنى عن الزبد مثلا لكى تشيد القناطر الضخمة والمشروعات الهندسية الرهيبة التى ستوفر القوى الكهربائية وتزيد إنتاج الصلب نمواً ، فلا تكون النتيجة بعد ذلك كله إلا وفرة فى الزبد ، بل الكوثر منه والفيض العميم ..؟؟

وقد عرف السوفييت الأثر البالغ الذى يحدثه الحلم العظيم ، ونشوة الأمل الضخم ، وكلما مر الزمان عليه فأصبح ماضياً ، مضوا يحاولون إحياء الإيمان بأن النفع سوف يأتى ، وأن الخير على الدهر قادم ، بل راحوا فى أواسط عام ١٩٣٠ يأمرون الكتاب جميعاً بأن يعتبروا الحاضر كأن لم يقم ، والمستقبل كأن قد قام ، حتى عرفت هذه النزعة بقولهم « الرياليزم الاشتراكى » !

وكان فسيفولود إيفانوف ، وهو قصاص سوفييتى معروف ، يضع قصة عن الحياة فى مصنع ضخم جديد للسيارات فى جوركى ، ورأى أنه من الخير أن يقيم فيه حتى يلم بموضوع روايته كل الإلمام ؛ وخطر له ، وهو فى المصنع مقيم ، أن يقرأ شطراً من القصة على جمع كبير من العمال فيه ، وكان الجزء الذى قرأه عليهم وصفاً للمتاعب التى يلاقيها العمال فى الرواح والغدو مسافات طويلة فى « الأتوبيسات » القديمة ، عبر طرق وعرة ودروب يشق فيها المسير .

و بدأ القوم يسألونه .

قالوا : متى تنتهى من كتابة القصة ؟؟

قال : ستة أشهر .

قالوا : ستستغرق مراجعتها ومراقبتها إذن بضعة شهور أخرى ، كما سيقتضى الطبع فترة مماثلة ، أى أن كتابك لن يظهر قبل انقضاء عام ، ولكن ستكون لنا قبل منصرمه طرق معبدة « وحافلات » جديدة وعمارات ذوات طبقات صغيرة لسكننا بجوار المصنع ، فلماذا لا تصف هذه الطرق والمركبات والمساكن كأنها بالفعل قائمة ؟؟

ومرضت ذات مرة فى موسكو واستطالت بى العلة عدة أسابيع ، فكانت « ماركويسكا » زوجتى تقول للأصدقاء الذين بدأوا بعد فترة من احتجابى يسألون عنى « إنه أحسن كثيراً وإن لم يعرف ذلك بعد » وهى عبارة مقصودة جرت على نحو من « الرياليزم » الاشتراكى الذى حدثتكم عنه ، لتكون على سبيل « الدعاية » فى باب « التعلل بالمستقبل » .

فقد أصبح « التعلل » هو العامل النفسى الذى يمسك بقلوب الشباب ذوى الطموح و إبائهم ، و يربط على أفئدتهم ، و يغريهم بالصبر والتجلد ؛ بل لقد فعل ذلك وأكثر منه فى نفوس الذين كانوا يتمنون أن يروا النظام الجديد ماضياً فى سبيله نحو تحسين أحوال البشر والنهوض بالإنسان من وهدته الحاضرة ، فكانوا يرون فى التقدم قيد شبر أو فتر ، أميالاً عدة ، ونهضة طيبة مباركة .

وكنت أتحمس لأعمال الإنشاء ويهيج لها خاطرى ، وأكبر ظنى أن حماستى لها ترجع إلى ما كان يعتمل فى دخيلة نفسى من الإيمان بالنهضة والتقدم ، فقد اشتد تحمسى لما رأيت من إقدام الروس على إنشاء المصانع الضخمة ومحطات توليد القوى الكهربائية وبناء المدن الجديدة ، لأننى رحت أنظر إليها من خلال منظار الأمل « ومِجْهر » التعلل والرجاء ، ومضيت أعتقد أنها بداية برنامج عظيم سوف يغير وجه هذا البلد التَعْس ويرفع أقيسة المعيشة بين أهله ، ويدلل على أن حكومات الشعب تستطيع أن تعمل للشعب عامة ، وتسدى إليه الخير شاملاً كاملاً .

وبدأت الإحصاءات والأرقام المدللة على نمو النهضة الصناعية فى الاتحاد السوفييتى تملأ أعمدة الصحف ، فكانت بمثابة اللحن البديع فى موسيقى « الاشتراكية » والحفل الافتتاحى فى « مباركة » الحياة الجديدة ؛ وقد كنت فى روسيا حين بدأ التفكير فى إنشاء مصنع ضخم لصنع الجرارات الزراعية فى خاركوف ، وأخذ العمال فى تمهيد الأرض التى سينهض البناء عليها ، وكنت أزور الموقع مرة فى كل ستة أشهر ، وعدت بعد إتمامه أتفقد أرجاء المصنع مرة فى العام ، وأحسست يومئذ أننى بعض أجزائه ، وأن روحى متصلة به ، وخاطرى أبداً فيه .

وكذلك أمسى الخزان القائم على نهر « الدنيبر » قطعة منى ، حتى لقد مضيت مع كبير المهندسين السوفييتيين فيه أتسلق الصخور القوائم على مجراه عند ما سحبت المياه منه ، وعدت بعد خمسة أعوام أجوس خلال نواحيه فى سيارة وأشهد جداره الضخم القائم فوق تلك الصخور الشُمّ ، وأنا أشعر يومئذ بأن السوفييت قد أنشأوا شلالاً ضخماً « كنياجرا » ليمدوا به ملايين من الخلائق بالضوء والدفء والسلع الاستهلاكية التى لا غناء عنها لحياتهم .

وعند ما نسف النازيون شطراً من ذلك الخزان ، أحسست جرحاً أليماً من فعلتهم فى جوانحى .

وكانت محطات توليد القوى الكهربائية فى الخارج ، والمصانع المتعددة الأنواع ، صامتة لا يسمع لآلاتها أزيز ، ولا لدولابها حركة ، فقد ألقت الأزمة المالية فى أمريكا وركود التجارة فى عام ١٩٢٩ بملايين من الناس فى وهدة اليأس ، وهاوية الفاقة ، فأعان ذلك على ترجيح كفة السوفييت ، حتى لقد ذهب إليها الاقتصاديون والباحثون فى الدول الرأسمالية لدراسة خططها ومناهجها والبحث فى مدى إمكان تطبيقها والأخذ بها فى بلادهم .

وبجانب برنامج « التصنيع » لم تلبث الحكومة السوفييتية أن أغذت المسير فى سبيل تعميم « المزارع الجماعية » ، وكانت مهمة واحدة من تلك المهام التى اضطلعت بها تكفى لاستنفاد طاقة أى حكم واستنزاف جهد أى عهد من العهود ، ولكن البلاشفة استطاعوا الاضطلاع بها جميعاً فى وقت واحد ، وبدأوا فى عام ١٩٢٩ ينفذون تدابير من شأنها أن تدمج المزارع الصغيرة التى لا يقل مجموع الزراع المالكين فيها عن مائة مليون مزارع ، فى شبكة الزراعة الجماعية .

وكانت هذه الزراعة هى الانقلاب الأول فى نظام الحرث والزرع منذ تحرير العبيد فى أوربا على عهد الأقطاع القديم وتحويلهم إلى زراع أحرار لا سلطان عليهم لأحد من السادات والمتجبرين .

وكان المأمول من المزارع الجماعية أن تكفل مزيداً من الإنتاج ، وكما حل المصنع الآلى محل الصانع اليدوى فى القرون الوسطى ، جاءت « الكولخوز » — أى المزرعة الجماعية — لتحل محل الزارع المستقل الصغير ؛ فلا عجب إذا بدا هذا النظام « الجماعىّ » فى الزراعة « كنقطة تحول » فى تاريخ البشرية ، ولا بدع إذا راح البلاشفة ، بتلك الروح « الدرامية » التى امتازوا بها ، يحشرون هذا الفصل الجديد فى « باب » التطور الاجتماعى خلال بضع سنين ، ولا غرو إذا مضى المراقب الأجنبى فى تلك البلاد يهنئ نفسه بهذا الحظ السعيد النادر الذى أوتيه ، وهو أن التاريخ أخذ يُصْنَع بعينه وسمعه !

ولكن الزراعة الجماعية لم تلبث أن بدت « كرونستاد » أخرى فى أعين فريق كبير من الأجانب الذين يعطفون على النهضة الروسية ، وعدد لا يحصى من المواطنين السوفييت أنفسهم ، فقد تبين لهم ، قبل أن يتبين لى ، أن هذا النظام ليس إلا ضرباً بارعاً من الاستعباد فى القرن العشرين ، بل استعباداً بالجملة يراد به حمل الفلاح على العمل تحت أعين بضعة أفراد مختارين من الشيوعيين فى القرية ، ويقصد منه أن يظل المسكين « عالة » على الدولة فى العُدَد والبذور ومعظم دخله .

وكان طبيعياً أن يلاقى التأميم الزراعى على هذا النحو مقاومة عنيفة موحشة مترامية المدى من معاشر الفلاحين ، وقد رأينا جميعاً ما فعلت الحكومة السوفييتية حيالها ، فقد نفت جموعاً جامعة من « الكولاك » أو الزراع الموفقين من الأرض وألقت بهم فى معسكرات « السخرة » ؛ ولكن هذا النفى بالجملة لم يحطم المقاومة القائمة فى القرى فقد أبى الفلاحون الفقراء استيقاق ماشيتهم إلى المزارع «الجماعية» ، وعمدوا إلى ذبحها وأكلها ، أو بيعها ، قبل أن يستسلموا للضغط ويرتضوا الدخول فى حظيرة المزرعة الجماعية ، حتى لقد لبثت روسيا عدة أعوام تعانى نقصاً فى الماشية ، وقلة فى الخيل ، واضطرت السلطات إلى الاستعانة بمختلف جميع وسائل القوة والإكراه على استياق الفلاحين إلى المزارع الجديدة ؛ وكثيراً ما كانت وحدات من الجيش الأحمر تغشى القرى وينتقل جنودها من كوخ إلى آخر لإكراه القوم على تكوين « كولخوز » أو مزرعة جماعية ، وتهديدهم بالنفى إلى سيبريا أو التركستان إذا هم أصروا على الاستقلال بزراعة أرضهم .

وبهذه الوسائل وأمثالها سيق بالكثرة الساحقة من الفلاحين الروس إلى هذه المزارع ، ولكن فريقاً كبيراً منهم ما كادوا يدخلون حظائرها حتى تململوا منها أو راحوا « يعرقلون » جهودها الجماعية احتجاجاً على الإفراط فى فرض الضرائب عليهم ؛ أو لبقية أمل فى عدول الحكومة عن المزارع لإخفاقها ؛ وقد رأينا كيف أدت هذه العوامل فى أوكرانيا إلى المجاعة التى ضربت أطنابها فى عام ١٩٣١ — ٣٢

وفتكت بعدة ملايين من أهلها ، وأفنت قرى بجملتها ، وجعلت ثمن تهور البلشفية وعنادها فادحاً غالياً .

وقد زرت عشرات من هذه المزارع فى أوكرانيا والقرم والقوقاز وشمال روسيا فى الفترة بين ١٩٢٩ و ١٩٣٦ وكانت تبدو أكبر وأفضل كثيراً من تلك المزارع الصغيرة التى رأيتها قبل ذلك بعدة سنين ، فقد اختفت منها الأسوار المقامة من العوسج وتوارت الخيران والأخاديد ، وظهرت فيها الآلات الحديثة وأقيمت رياض الأطفال ومعاهد الحضانة ، وقال الموظفون إن غلة الأرض زادت ، وأن تجارب البذور ، وتحسين الإنتاج والحرث بالآلات الكهربائية وغيرها من المستحدثات العلمية التى لم تكن تخطر للفلاح يوماً ببال أصبحت وفيرة متداولة .

ولكن هل تساوت المحاسن والمساوئ ، وهل يعدل الأمل الموعود الثمن المدفوع فى سبيله ... ؟؟

لقد بدأت أشعر بقلق ، وأخذتنى الحيرة من جميع جهاتى ، فمضيت أسائل نفسى أترانى رحت أمجد الصلب والكهرباء ، ونسيت الإنسان ذاته .

إن كل ما فى العالم من أندية ومدارس وكتب وجرارات وأنوار كهربائية وطرق ودروب معبدة لن تزيد شيئاً على العالم الذى كنت أحلم به ، إذا كان النظام الذى أثمرها فاسداً بعيداً من الخُلُق خلياً من البشرية .

فلا عجب إذا بدت نقط سوداء تلوح فى نسج الخيال الذى قام فى خاطرى من ناحية السوفييت ونظامهم ؛ وقد عمد البلاشفة فى شهر يونية عام ١٩٢٨ إلى إعداد المسرح لأول محاكمة رهيبة من محاكماتهم فى موسكو ، وأعنى قضية « شاختى » التى اتهم فيها نحو خمسين مهندساً من كبار المهندسين السوفييت بالتخريب والجاسوسية ، وقد حضرت الجلسات من أولها الى آخرها فى بهو « الأعمدة » المشهور ، ولم أدر ماذا أصدقه ، وما الذى أكذبه ؛ ولكنى صدقت جزءاً وعجبت للبقية . ولشد ما تفاقمت ريبى وشكوكى حين رأيت شرطياً من هيئة البوليس السرى مسلحاً بالبندقية

وقد ركبت فيها « السونكى » وهو يقتاد إلى المحكمة رجلا يدعى « موخين » فيقف فى مكان « الشهود » ، ولا أزال إلى هذا اليوم ذاكراً اسم ذلك الرجل وثوبه الأسود ووجهه اللحيم الشاحب المستدير ، فقد مضى يشهد على متهم يدعى « رانبوفتش » وهو شيخ جاوز السبعين من العمر ، كان يناضل فى نفى التهمة عنه نضالاً بارعاً حيال النائب العام « كريلنكو » ، وهو فى القضية يصول ويجول ، ولا يكاد أحد من هول حججه وبراعة مرافعته يعرف كيف يقهره ، ولهذا سيق بهذا الشاهد « موخين » لإثبات التهمة وتأييد الحكومة فى موقفها ، وكان من قبل فى السجن عدة أشهر بتهمة لا علاقة لها بهذه القضية ، وقد راح بعد حلف اليمين يعلن أنه سلم رانبوفتش رشوة له وأخرى لتوزيعها على المتهمين .

فلم يكد رانبوفتش يسمع هذا القول منه حتى مشى نحوه فلم يبق بينهما غير قيد شبر ، وراح يحملق ببصره فى وجهه ، قائلا : عمن تتكلم ... أعنّى أم عن أحد سواى ... ؟؟

قال : أتكلم عنك ...

فصاح رانبوفتش به قائلا : لماذا تكذب ؟؟ ومن الذى طلب إليك أن تقول كذباً ، وأنت تعلم أنك لم تعطنى مالاً .

فاشتد شحوب موخين وازداد وجهه اصفراراً وعاد يردد قصته كمخلوق يردد أقوالاً ، فرض عليه أن يقولها ، أو كآلة حاكية مسخرة ؛ وعندئذ عاجله الشرطى ، فاقتاده إلى الخارج ، وبدا النائب العام كريلنكو مطرقاً ، كأنما قد أسقط فى يده ، ولم يبق من شك فى أن « موخين » إنما كان يمثل دوراً اخترع له فى دار الشرطة السرية اختراعاً .

وقد تحدثت بعد ذلك فى هذا المشهد الذى رأيته مع كبير من رجال وزارة الخارجية الروسية ، وكان يعرفنى حق المعرفة . فلم يستطع أن يمارينى فى أكذوبة ما جرى واصطناعه .

ولو أن حادث هذا الشاهد كان فردياً لهان الأمر ، ولم ينطو على أية دلالة بالغة ، ولـكن هيهات أن يعد كذلك ، لأن البوليس السرى الذى أعد مشهده كان قد اشتد فى البلاد نفوذه ، واتخذ لنفسه سلطات جديدة ، أو على الأصح سلطاناً عرفياً لا يعرف قانوناً ، ولا يوقر قضاء ، ففى شهر يناير عام ١٩٢٨ قبض على ليون تروتسكى وأبعد إلى آسيا الوسطى ، وكانت جريمته خلافه السياسى مع ستالين ؛ وكانت هذه المشاورات والخصومات قبل الثورة وفى عهد زعامة لينين تعرض على الحزب الشيوعى وهو وحده الذى يفصل فيها من طريق المناقشات وأخذ الآراء ، أما الآن فقد أصبح المسدس فى يد البوليس السرى هو الحكم الفيصل !

لقد كان استخدام البوليس فى إنهاء كل نزاع على السـياسة هو « واترلو » الحزب ، والمعركة الفاصلة التى انهزم فيها ، بغض النظر عما إذا كان الحق مع تروتسكى أو مع ستالين ؛ وقد عدت إلى تقاريرى ومذكراتى فتبين لى أننى لم أنحز إلى هذا أو ذاك فى تلك العهود .

وقد استتبع الاسـتعانةَ بالشرطة على هذا النحو اعتقـادُ الذين أوتوا القوة فى أيديهم أنهم قد أوتوا معها الحـكمة . فلم يسع المخالفين لهم إلا أن آثروا السلامة على المجاهرة بالرأى . ولم يلبث خراب الذمم أن انتصر على الأمانة والنزاهة والصدق .

ولم تغب عنى هذه الظاهرة ، وإنما غاب عنى يومئذ أنها بداية التدهور الذى أثمر اليوم هذا المين والإفك الذى نراه ، وأدى إلى هذا الصمت السائد الذى نشهده . ولم يكن بد أيضاً من أن تساعد هذه الظاهرة على ظهور « الزعيم » .

وقد نفرت نفسى من هذا التمجيد الذى رأيته لمكانة ستالين ، والمديح الذى يزجى إليه ، والملق المترامى من حوله ؛ فقـد راحت الدعايات التى كان هو بالذات مسئولاً عنها تصوره للناس فى صورة الزعيم « المعصـوم » الرحيم العليم المبدع الذى صنع كل شىء حسن فى روسيا ، جاء بكل خير ، ومنه كانت تستفيض البركات والأنعم والطيبات . أما الأغلاط والمحن والنكبات والهزائم والنكسات ، فلم تكن بالضرورة إلا من عمل « المخربين » و « والتروتسكيين » وأعداء الشعب وخصومه ... !

وقد رحت أصبُّ جامَ غضبي على هذه العبادة الجديدة لشخص ستالين فى مقال كتبته فى موسكو ونشرته فى نيويورك عام ١٩٣٠ ، وحملته تبعة ذلك كله ، وسميت هذه الظاهرة أسوأ التسميات ، فقلت إنها « مناقضة للبلشفية » ، وإن كانت فى الواقع « بلشفية » صميمة ، لأنها النهاية التى لا مفر منها للدكتاتورية ؛ فقد رأينا موسولينى وهتلر يتوليان حركة مماثلة فى باب المدح الذاتى ، وإملاء التسبيح والحمد والتمجيد ؛ ولكنى فى ذلك الحين لم أكن أعتقد أن فساد ذوق ستالين ، وسوء سلوك البوليس السرى ، من الجرائيم الفتاكة القاتلة ، وإنما كنت أحسبهما « دُمَّلَيْن » فى جسم سليم كان مع ذلك يشيد المدائن وينشئ القيم الجديدة ، وكنت أعتقد أن ما ينفع الناس سيمكث فى الأرض ، وأن ما لا خير فيه عارضٌ لايلبث أن يزول ، ومضيت أضع كل شىء فى الميزان ، ولكن الأمل الذى كان يداعب خاطرى شوّه حكمى على الأمور ، وجعلنى لا أقسط فى الوزن ، ولا أعدل فى الحكم ، لأن الرؤية ذاتها لم تؤثر فى الإيمان .

ولعل انكشاف الواقع لخاطرى كان بطيئاً ، ولكن لم تعرض يومئذ لى مشاهد « كرونستاد » ، ولو وقعت لمنعنى « حمام الدم » الذى أقامه هتلر فى ألمانيا عام ١٩٣٣ من التخلى عن الإيمان بالاتحاد السوفييتى ، فقد مضى النازيون يعلنون جهرة مذهبهم وهو « الفأس » — وفى ذلك كان هتلر يقول « سنطيح بالرءوس » ؛ وإلى جانب الفأس « الفورر » وألمانيا المترامية النطاق ، والمناهضة للسامية ، والعداء للشيوعية ، ولو نجحوا فى هذا السبيل ، لهوت البشرية إلى درك الوحشية ، والدم ؛ وقد أعان الشيوعيون هتلر على الوصول إلى ذروة الحكم وقوة السلطان ظناً منهم أن القضاء على مراكز الديموقراطية سيذلل لهم فى النهاية النضال حيال النازيين ، وهو خطأ منهم لا يغتفر ، وسوء تقدير لا علاج له .

ولم يكد « النازيون » يستولون على ألمانيا ، حتى انقلب الشيوعيون الألمان عليهم ، بينما ظلت حكومة السوفييت عاماً على الأقل مترددة لاتدرى أتقدم أم تحجم .

قبل أن تنضم إلى الصراع ، ولم تتنبه الدول الرأسمالية إلى خطر هتلر إلا بعد ذلك بوقت طويل .

وقد رأينا ليتفينوف وزير الخارجية السوفييتية عندئذ يوجه حركة قوية نحو تحالف ضد الفاشية لكى يمنع الحرب ، وينبرى فى جنيف ليسلخ أديم الذين كانوا يحاولون تهدئة خاطر هتلر وتمليقه ، ومصانعة موسولينى واليابان ؛ وكان نجاحه فى إقناع الصحفيين والمنادين إلى « المسالمة » غير معوض عن فشله فى تغيير خطط الحكومات البورجوازية المحافظة النهَّازة للظروف ؛ وقد أصبح اسم « ليتفينوف » رمزاً ، ولا يزال كذلك ، للسخرية من أولئك الذين كانت ولا تزال حجتهم أن المعتدين الفاشيين هم وحدهم الذين أثاروا الحرب العالمية الثانية ، فقد كان لهتلر أعوان بين الدول الديموقراطية كان لهم أثر إيجابى أو سلبى فى دفع العالم إلى الحرب .

إن محاربة هتلر تبدو خيراً وأحكم من محاربة الاتحاد السوفييتى ، ما دام الأخير يشن نضالاً عالمياً على الفاشية والحرب معاً ، فلا عجب إذا رأينا النقاد الذين دأبوا فيما مضى على انتقاد موسكو يخففون من هجماتهم ، ويضمون صفوفهم لتكوين جبهة شعبية من الأحرار والاشتراكيين والشيوعيين .

وتحسنت أحوال المعيشة فى روسيا تحسناً محسوساً فى الفترة بين عامى ١٩٣٤ و١٩٣٥ ، وإن كان تحسنها ضئيلا إذا قيس بمستواها فى البلاد الأخرى ، ولكن الروح المعنوية والمبادئ والمثل العليا بين الشيوعيين كانت آخذة فى التدهور والوهن ، حتى لقد أحال تدخل البوليس السرى فى مشاجرات ستالين واختلافاته فى الرأى مع اليساريين واليمينيين المعارضين ، الحزب الشيوعى إلى شىء أشبه بخاتم من المطاط فى يد الطاغية . يبصم به ما يريد . ويطبع به مايشاء . فقد طغت بيرقراطيته إلى جانب بيرقراطية الحكومة ذاتها . فأولدتا المتملقين والمداهنين وخربى الذمم والمستهترين والجبناء ، وكان باعث كل كلمة تقال ، أو فعلة تفعل ؛ فى أعلى الأوساط وأدناها على السواء ، يرجع إلى الخوف ، أكثر منه إلى الفكر ، ومرده إلى المصلحة الشخصية

أكثر منه إلى المصلحة العامة ، وكان كل إنسان له رأى مخالف فيما مضى أو عاد يفوه بكلمة صريحة قد تحدث أثراً فى النفوس ، يتلقى زيارة من الشرطة فى الثانية من الصبح ، ولا يلبث أن يضم إلى « بناة الاشتراكية » فى مجاهل سيبريا والمناطق المتجمدة الشمالية .

فلا غرو إذا شهدنا قناصى الفرص ، الحذرين ، الحريصين ، الخائفين ، سواء فى هيئة الحكم ، وصفوف الحزب ، والنقابات وغيرها من الهيئات ، يقدرون مواقع أقدامهم قبل الخطو ، ويتلفتون يمنة ويسرة ، ويجاهرون بالولاء مجاهرة ، ويرددون فى أنغام رتيبة ألفاظ الدعاية الحكومية وعباراتها ، ويلتمسون عن ذلك كله العزاء ، فى العيش المترف ، والحياة المليئة بألوان البذخ ومظاهره ، فهم يأكلون ويشربون ويرقصون ويلهون ، على قدر ما يجيز التسامح فى الأقيسة ، ويبيح التراخى فى التطبيق .

وجعلت « الكرملين » تنادى بأن المساواة هى « فضيلة بورجوازية » ولكن لا شك أيضاً فى أنها ليست فضيلة « سوفييتية » فان المسافة بين أغنى الأغنياء ، وأفقر الفقراء ، لم تلبث أن تجاوزت الحدود المعروفة عن الرأسمالية المتناهية ، وأصبح العمل « بالقطعة » عاما، واستحالت النقابات مجرد هيئات « على الورق » — أو صورية — بينما أمسى مديرو المصانع والإدارات « القواد الأفذاذ » المنفردين ، الذين يستأجرون ويفصلون ويحددون الأجور .

وفى عام ١٩٣٤ أطلق شاب يدعى « نيقولايف » النار على سرجى كيروف فقتله ، وكان هذا « الرابع » فى ترتيب رؤساء النقابات فى لينينجراد ، وإذا بالبوليس السرى يعدم مائة وثلاثة فى الحال ، وكان هؤلاء سجناء من عدة أشهر قبل مصرع كيروف ، وتلا هذا الإعدام بالجملة على هذه الصورة إبعاد زينوفيف زميل لينين من البلاد ومعاقبة رؤساء البوليس السرى فى لينينجراد .

وأحسست فى أعماق ملالة وتبرماً . حين رأيت الدولة « السوفييتية » التى كان

محكوما على مثلهـا نظرياً أن « تذبل وتموت » قد ترامت حتى استحالت إلى «غول» بشع ضخم مشنوء الخلقة موحش رهيب ؛ وشاهدت هذه الحـكومة البلشفية ذاتها مواصلة فى الخارج السعى لإقامة كتلة من « السلامة الجماعية » حيال العدوان الفاشى ، ولـكننى كنت أشعر بأن هذا كله لا يكفى ، حتى لقد كتبت يومئذ أقول فى سياق رسالة نشرتها صحيفة نيو يورك نيشن : « أعتقد أن صبغ الاتحاد السوفييتى بالصبغة الديموقراطية[1] من شأنه أن يضعف خصوم السلام » . ورحت فى ذات مساء أقرأ هذه العبارة وأنا فى موسكو من مسودة رسالتى على قسطنطين أومانسكى مدير إدارة الصحافة فى وزارة الخارجية الروسية ومساعده بوريس ميرنوف ، فأمن هذا عليها ، بينما مضى الآخر ، وهو أومانسكى الموظف الصُلب المتشدد يقول إنها ليست فى محلها .

وقد أعدم ميرنوف فيما بعد بسبيل إحدى المحاكمات ، وأصبح أومانسكى سفيراً فى وشنطن والمكسيك ، وإن كان قد لقى حتفه بعدعشرة أعوام أو قرابتها فى حادث سقوط طائرة أحاطت به ظروف غامضة ....

والواقع أن الديموقراطية داخل روسيا كانت ستروح ملائمة كل الملاءمة ، متسقة كل الاتساق ، مع سياسة التعاون على صون السلام مع الديموقراطيات الغربية حيال هتلر ؛ ولو تحقق ذلك لها ، لاستطاعت روسيا أن تؤيد العناصر المناهضة لفكرة « المسالمة » فى بريطانيا وفرنسا وتناصرها فى التخلص يومئذ من أشباه نيفيل تشمبرلين وأشياع ديلادييه ، ولتحاشت حركة التطهير التى تولاها ستالين ، وتجنبت المحاكمات الـكبرى التى جرت فى موسكو فأوهنت روسيا اقتصادياً وعسكرياً . بل لو أن ذلك تحقق لما وقعت روسيا ميثاقها مع هتلر فى عام ١٩٣٩ ، وبعبارة أخرى لعرفت روسيا كيف تمنع نشوب الحرب التى أعان السوفييت الطغاة على التعجيل بها .

ولست أشك فى أن ستالين عاقل ، إذا نحن استثنينا الدوافع القاهرة إلى الحماقة

---

(١) فى الأصل استعمل الكاتب لفظة جديدة ، وهى « دمقرطة » الاتحاد السوفييتى ، وهى فعل مشتق من « ديمقراطية » .

التى تلازم نظامه ، وقد توافرت البوادر على أنه كان عليما بأمر الأزمة الداخلية التى ترجع أسبابها إلى اشتداد الطغيان ووهن الإيمان ، فقد بدد البلاشفة التراث الروحى الذى خلفته الثورة ، فلم يأت عام ١٩٣٤ حتى توافر الخبز فى البلاد ، ولكن الناس لا يعيشون على الخبز وحده ، وبخاصة إذا كانت موافاتهم به غير مضمونة ، ولا مستقرة ، واحتاج هذا النظام إلى حوافز جديدة تحبب الشعب إليه ، وتخفف من وقع السياسة التى رسمت أخيراً ، لمنح امتيازات واجبة للجيش والشرطة والمهندسين والطبقة الاستقراطية فى صفوف «الكادحين» وكبار الموظفين فى الدولة «البيرقراطية» الذين يتألف منهم الحرس المأجور لهذا النظام الجديد .

ولكن لم يكن ثمة من حوافز جديدة ، ودوافع مبتكرة لم تجرب من قبل ، يتيسر للعهد البلشفى الالتجاء اليها ، غير « القومية » والحرية .

فعمد ستالين إلى تجربة الأولى .

ولم يكن أمام الدكتاتورية ، بعد أن بددت الأحلام الزاهية التى تتطلع الحوافز إليها على الأيام ، غير شىء واحد ، وهى أن تتولى عن الغد بوجهها ، وتنظر إلى الماضى وتحصر كل همها فيه .

وكان هذا هو جوهر السياسة « القومية » التى انتهجتها الكرملين فى ذلك العام ...

وقد شهدنا الثورة النازية تبدأ بتمجيد ماضى ألمانيا ، ورأينا الثورة البلشفية تنتهى بتمجيد ماضى روسيا .

لقد كان لروسيا ماض عظيم ، وكان أبطاله خصوماً للقيصرية وعليها متمردين ؛ أما هذا الدور الجديد فلم يعمد إلى تمجيد ذكرى أولئك الثائرين ، وإنما راح يمجد القياصرة ، من أمثال « إيفان الرهيب » ، وبطرس الأكبر ، وكاترين العظيمة ، ويشيد بذكر الأمراء القيصريين ، والقواد الذين حاربوا الثائرين ، أشباه « سوفاروف » ، وانثنى ينتزع رهبان القرون الوسطى وأحبارها من وسط خيوط

العناكب التى نسجت حولها لنفض الغبار عنها وإعادة تجميلها ، وإزجائها فى صور القديسيين والأولياء الوطنيين، وحث الناس على تقديسهم ، وكانوا من قبل قدأوحى إليهم أن يبغضوهم ويولوهم المقت الشديد ؛ فلاعجب إذا بات الناس من هذا التناقض مبهوتين ذاهلين ، ولم يكن من هذه « المهازل » إلا أن زادت فى حرج أزمة الإيمان التى كانت قد بدأت حين قيل للناس إن تروتسكى وغيره من مؤسسى الحركة الثورية « فاشيون » ؛ ويوم يقال عن تروتسكى إنه « فاشى » وعن إيفان الرهيب إنه بطل سوفييتى ، لا تلبث أقيسة الحكم الثابتة أن تتوارى ويصبح الناس متلددين حيارى لايدرون بماذا يؤمنون وبماذا يكفرون، فقد ينقلب الذين كانوا فى مطلع النهارملائكة إلى أبالسة قبل أن تغيب شمسه ، وليس لبلبلة الأفكار على هذا النحو غير نتيجة واحدة ، وهى شيوع النفاق ، وقبول ما يهبط الوحى به من قباب الكرملين بغير تفكير ولا مناقشة ، وهى حال قلقة لا يأمن الناس فيها على نفوسهم ، ولا تطمئن بهم حياة .

وكانت الروح القومية الجديدة « روسية » صرفاً ، فقد عمد الكتاب الذين يمشون مشية « الأوز » إلى إعادة كتابة التاريخ للتدليل على أن روسيا القيصرية لم تكن « سجن الأمم » كما كان الشيوعيون من قبل يقولون فى وصفها ، وجعلت دراسة اللغة الروسية إجبارية على سائر الأقليات ، وأعيدت مخلفات القيصرية ومظاهرها الخارجية التى طالما سخر البلاشفة منها وانتهكوها ، ودعوها آثار الماضى البغيض ، وظهرت من جديد الألقاب الجديدة التى كانت تمنح للضباط و « الشعائر » التى كانت توضع على الأكتاف .

وكان هذا مولد الفكرة الجديدة « روسيا فوق الجميع » التى راحت القومية الجائحة ، المتوثبة بعد بضع سنين أخرى تمحو بها فكرة « الدولية » ، وتؤثرها عليها، كشعار وطنى لروسيا الحديثة ، كما أدت الفكرة الجديدة إلى الاستعانة بالكنيسة كأداة محلية ، ووسيلة فى الخارج ، لخدمة أغراض الحكم وتحقيق مراميه ، وإلى ظهور قواد

عظام تملأ صدورهم الأوسمة ، ويلوحون أشبه « بجورج » أشكالا ومظاهر وقدوداً ، وإلى ظهور الروح الاستعمارية السوفييتية ، وليدة القوميـة ، وإلى الدعاية والترويج للجامعة السلافية ، وهى نزعة لا تقل عن « الجامعة الجرمانية » شراً ونكراً .

لقد كانت البلشفية ثورة على ما تركته القيصرية من تراث سيء ، فى مختلف النواحى المادية والثقافية والنفسية ، ولـكن مالبثت القيصرية أن دلت على أنها مافتئت تقاوم وتكافح ، فلم يتقدم العالم الخارجى إلى معاونة العهد الجديد على دحر العهد القديم .

ولهذا كله تولانى العجب العاجب من جنوح البلشـفية إلى النهل من آبار القيصرية « الـكدرة » ، وشعرت باشمئزاز بالغ ، فقد كان ارتباطى القوى بالنظام السوفييتى يعود إلى « دوليته » ونظرته التقدمية ، وتطلعه إلى الغد المرقوب .

وجرى التهامس بين الناس فجأة فى عام ١٩٣٥ ، بأن النيـة متجهة إلى وضع دستور ديموقراطى جديد ، وما إن حل العام التالى حتى تحقق الهمس ، وأعلن النبأ ونضجت الفكرة .

دستور ستالين ...!

لى الله ...! لقد أمسكت بالنبأ من قرنيه ...!

فقد أردت أن أصدق به وأومن ، لأننى لم أشأ أن أتخلى عن قضية وضعت فيها مثل ما وضعته من مدخر روحى ، ورأس مال عاطفى .

ومن يدرى لعل ستالين قد فطن يومئذ إلى أن الشعب ظمآن إلى منهل الحرية ، فقد كانت له ، كما قال لينين ، فى الفترة القصيرة التى تولى كيرنسكى فيها الزمام ، وتقلد السلطان ، بل فى الحق لقد كان الشعب يستمتع منها فى عهد القيصر نيقولا الثانى بنصيب أوفر مما أصابه تحت حكم البلاشفة .

والآن وقد تم القضاء على جميع العناصر المعادية فى الاتحاد السوفييتى بلا أمل فى رجعة أو مآب ، فقد أصبح فى وسع ستالين بلا أدنى خطر على النظام ذاته أن يمنح الشعب وثيقة جديدة للحرية ، قد تثير الحماسة مرة أخرى ، وتستعيد الحمية الماضـية ، فيذلل بذلك مهمة الحكم فى الإدارة والإنتاج .

لقد أردت أن أؤمن بأن الدكتاتورية الخيِّرة المنبعثة عن سامى الدوافع ونبيل الأغراض يمكن أن تتخلى عن طغيانها ، وتتحول عن غاشم سلطانها ، وتسلك مسلكاً جديداً .

ولكن لم يفتنى حين وضع الدستور المرتقب ما فيه من نقص وعيب ؛ فقد أقام وثيقة حقوق ، ولكنه لم يعين أداة تنفيذية لتحقيقها ، ولا سلطة قضائية لحراستها وضمانها .

وقد تحدثت فى ذلك إلى « كارل رادك » Radek عشية صدور الدستور .

وكان رادك كاتباً سوفييتياً يشار إليه بالبنان ، وأحد أصحاب لينين ، وعضواً فى اللجنة التنفيذية للحزب ، وزميلاً لستالين ، ومحدثاً بارعاً لا يشق له غبار ، حتى ليعرف كيف يرد على كل سؤال ، ويجيب عن كل أمر ، وقد يلقى سؤالاً ويبادر بالجواب عنه ، قبل أن يتمكن المسئول من الرد عليه .

قلت له فى هذه المناسبة : إن مسألة الدستور هى فى الواقع مسألة « الأوجبو » — أى البوليس السرى — .

فصمت دقيقتين كاملتين ، وهو يذرع الحجرة ذهاباً وجيئة ، ثم انثنى فى النهاية يقول : « لك حق ! » .

وكان ستالين يومئذ متعباً من البوليس السرى متضايقاً ، فقد حاول على عهد رئيسه « ياجودا » الذى حكم عليه بالإعدام فيما بعد بسبب مطامعه أن يصبح رأس الديكتاتورية وذراعها فى وقت واحد ، وأن يسمى دولة فى الدولة ، فلم يلبث ستالين أن عمد يومئذ إلى تطهيره .

ولكن هل تراه مستطيعاً أن يقص من أطرافه ، ويكبح من جماحه ، ويجرده من سلطانه وسلاحه ..؟؟ وبذلك يتيسر له أن يجعل الدستور حقيقة واقعة تبعث الأمل فى التحسين والإصلاح .. لأنه إذا لم يفعل بقيت وثيقة الحرية التى حملت اسمه مجرد « رمز » لإحداث تأثير فى نفس العالم الخارجى ، وظل سهماً فى

كنانة المهيج السوفييتى المحترف ، ووسيلة لتضليل الناس فى الداخل والخارج على السواء .

وإذا بالآمال التى كانت تداعب خاطرى وأنا أحاول جمع الأدلة والقرائن على صدق إيمانى ، وقوة يقينى ، أن تحطمت بِدَداً ، وتلاشت وشيكا ؛ فان هيئة البوليس السرى لم يكبح جماحها ، ولم ترد عن غيها ، ولم تجرد من سلاحها ، وإنما غربلت غربلة ، ولم يتجاوز الأمر مجرد « تنقية » أضفيت عليها حقوق جديدة ، ورفعت سلطات أخرى ، على حساب الوثيقة والدستور .

وكانت محاكمات موسكو الصاخبة فى أعوام ١٩٣٦ و ٣٧ و ٣٨ قد أعدت فعلا عدتها ، ولم يكن الشعب خلالها يشهد إلا جزءاً يسيراً من مصارع الألوف الذين مضى البوليس السرى يقتلهم برصاصه ، مصوباً نيرانه إلى رقابهم من الخلف فى المحابس والسجون ، بغير محاكمات .

لقد كانت تلك المحاكمات والمصارع الرهيبة ، تناقضاً غريباً مع مزامير الدولة وأناشيدها فى مديح « الدستور الجديد » !

وكان الظلام قد بدأ من قبل يلقى ظلاله القاتمة ، فلم ينتصف عام ١٩٣٦ ، ولم تكد تبدأ المحاكمات ، حتى أحسست أن الليل مقبل ، والظلمة مدلهمة ، وشعرت بأننى لم أعد أبغى المقام فى روسيا السوفييتية .

وكان فى الإمكان أن أظل يومئذ على حماستى لما أخذت المصانع الجديدة تضطلع به من جسام الأعمال ، وما أدخل على الزراعة من حديث الوسائل والأساليب ، فقد كنت أحب الشعب السوفييتى ، وأرجو أن يظفر على الأيام بوفرة من الأحذية والمساكن والنور الكهربائى ، وكان قد بدأ فعلا يظفر بزيادة فى عدد المدارس وعناية بالصحة والعلاج ، ووفر من الرفاهية .

لقد كانت الروح المعنوية قوية فى روسيا حين زرتها لأول مرة ، وإن لم يكن ما حققته الثورة يومئذ شيئاً مذكوراً .

لقد كانت الروح العامة روح تفان مثالى ، وتضحية سامية ، و إقدام جرىء ، وشجاعة ثائرة ، وكانت الشيوعية رمزاً للثورة والانقلاب .

وأما اليوم ، بعد تسعة عشر عاماً من مولد النظام البلشفى ، فقد قتل الخوف المقيم الذى يبرره الإرهاب العام ، روح الثورة ، وأسكت الأصوات الناقمة ، وقضى على تلك الشجاعة المتمردة ، وحل الاستهتار وطلب السلامة والأمان محل التفانى والتضحية ، وقام فى موضع النضال فى سبيل المثل الأعلى ، العمل للمصلحة الخاصة ، والمجد الذاتى ، وحلت محل الروح الحية المتوثبة ، روح المجاراة الميتة ، والمداراة السقيمة ، والأوضاع البيرقراطية ، وترديد العبارات المصطنعة ، وتكرار « الكليشيهات » المزيفة المفتعلة .

وقد جالت هذه الخواطر الغوامضة فى نفسى ، واستولى أشباهها على مشاعرى ، ورأيت من جماعة الموظفين قوماً كانوا صحاباً لى لا يترددون أحياناً فى الكلام معى ، أو التلميح لى ، قد عادوا يصمتون ، ويخلدون إلى السكوت ، أو إذا هم تكلموا لم يخرج كلامهم من القلب ، وفقد العمل الصحفى فى موسكو ما كان له من حماسة ، وما كان يقدمه إلى المرء من عزاء وترضية .

فما الذى يغرينى بالعيش فى بلد كهذا ويحبب إلى نفسى الثواء فيه ...؟؟

وفى ذلك الحين بالذات — أى فى شهر يوليه عام ١٩٣٦ — نشبت الحرب الأهلية فى أسبانيا .

فقد عمد الجنرال فرانشيسكو فرانكو ، بمعونة فريق من العسكريين الرجعيين ، وحزب الفلانج الفاشى ، وجماعة الملكيين ، والارستقراطيين الموسرين ، وكبار أصحاب الأراضى ، إلى تنظيم حملة عدوانية على الحكومة الحرة الديموقراطية المستنيرة وليدة الانتخابات الشرعية فى البلاد .

وكان الشعب الأسبانى قد ظفر بمحبتى و إعجابى خلال زياراتى لأسبانيا فى عام ١٩٣٤ وربيع ١٩٣٦ ، فقد رأيت الأسبان قوماً مثقفين ؛ حتى وإن كانوا أميين جائعين ساغبين ، وأدركت أن بهم فتوناً وولوعاً بالظهور بمظهر الأمة «الديموقراطية»

وهو تكلف يثير الاشمئزاز ويبعث النفور إذا لم يكتسب شيئاً من الروعة ، ولم تتوافر له الهيبة البالغة .

وقد عرفت فيهم الاهتمام بالشكليات ، ويؤثر عن امرأة أسبانية قولها « إنا لنؤثر أن نموت قياماً على سوقنا ، على أن نموت ركعاً جاثين ... » .

ولكنهم مع ذلك عاشوا قروناً عدة على رُكبهم ؛ مستذلين ، تصرعهم الفاقة ، ويطحنهم الظلم والاستبداد ، وتخضعهم طبقة عليا من الحكام المتخلفين ، استطاعت حجز الثورة الفرنسية عن دخول بلادهم ، وتولت فى عام ١٩٣٦ التجربة ذاتها ؛ فحاولت حجز مبادئ القرن العشرين عنها ؛ وهذا هو ما كان فرانكو يريده من عدوانه وهجومه ، فلا عجب إذا هو تلقى على الأثر من هتلر وموسولينى عدة وعتاداً وأعواناً ومناصرين .

وما لبثت أسبانيا أن أصبحت الخط الأمامى للقوات المناهضة « للفاشية » ولشد ما سرنى أن أغادر روسيا لأكون عن كثب من المعركة .

لقد تسلل الموت إلى روسيا فى فحمة الظلام ، ولكنه جاء إلى أسبانيا من الامام ، وتحت الشمس ، وفى وضح النهار .

وقد حزنت أسبانيا ، ولكنها ظلت نبيلة مترفعة سامية ... ؟

وأرجأت الحرب الأهلية الأسبانية خروجى على الشيوعية وتمردى ، لأنها شغلت بالى ، واستنفدت نشاطى ، واستحوذت على قواى ، وإن ظل الاتحاد السوفييتى ماثلا فى مخيلتى ، وبقيت أفكر فيه عن بعد وأسترجع ذكرياتى فيه .

ولعل صراع الجمهورية فى أسبانيا حيال الفاشية كان الذروة التى انتهى إليها السمو السياسى ، والنبالة المثالية ، فى النصف الأول من القرن العشرين .

لقد كان العطف الخارجى على روسيا السوفييتية حتى فى أنضر السنين ، وأحسن العهود ، عطفاً سياسياً ، أو فكرياً ؛ فقد مضت البلشفية تثير عواطف حادة فى نفوس أنصارها فى الخارج وجوانح المتشيعين لها فى مختلف البلاد ، ولكنها لم تثر فيهم غير

قليل من ذلك العطف الرفيق والحدب الرفيع الذى أثارته أسبانيا الوفية لمهد الجمهورية الصادقة الولاء لقضيتها الوطنية .

لقد كان أنصارها يحبون الشعب الأسبانى ، ويقاسمونهـا على مضض محنتها ، مستعينين بالرصاصة والقنبلة ، أو صابرين على الشظف والمسغبة والجوع .

وكان الفارق بين العاطفتين أن النظام السوفييتى أصاب موافقـة فكرية ، وأن النضال الأسبانى جعل الناس مواسين له فى أعماقهم، متأثرين له بأرواحهم ومشاعرهم، وزاد فى هذا العطف أن أنصار الجمهورية كانوا أبدا الجانب الضعيف فى هذا النضال المستعر ، وظلوا طيلة المعركة الخاسرين المندحرين ، وكان أصحابها وأنصارها يخشون كل الخشية أن تنتهى قواها ، وتضمحل ، مُنّتها فتستسلم وتستكين .

ولن يستطيع أحد أن يدرك مدى الفرح بالنصر وكثرة الأسى والحزن على الهزيمة ، فى نفوس الملايين من المشتركين من بعيد فى تلك الحرب الأهلية وتقلباتها ، غير الذين عاشوا مع أسبانيا بأرواحهم فى تلك الفترة الدامية ، فترة الثلاثة والثلاثين شهراً التى سلختها ، من شهر يولية عام ١٩٣٦ إلى شهر مارس عام ١٩٣٩ .

وقد تبين لى بعد متابعة الموقف عدة شهور أن الـكتابة عن ذلك النضال الخطير من ناحية مصير الحرية البشرية والسلام العالمى لا تكفى ، فبـادرت إلى التطوع فى صفوف « الفرقة الدولية » وكنت أول أمريكى فعل ذلك .

وعيننى أندريه مارتى الزعيم الشيوعى الفرنسى الذى كان يتولى قيادة تلك الفرقة فى وظيفة « الـكوارترماستر » ، أو ضابط المؤن « والتعيينات » ، ولـكن لم يلبث وجود رجل مستقل مثلى فى الفرقة أن بدأ يقلق باله ، فنقلنى إلى عمل آخر ، وهو العمل الذى ظللت أؤديه إلى أن انهارت الجمهورية وتداعى بنيانها .

وكنا جميعاً مقتنعين بأن الحرب الأسبانية هى المعركة الأولى من الحرب العالميـة الثانية التى اقتربت ساعتها وحان اشتعالها ، وكانت ألمانيا و إيطاليا تنظران إليها هذه

النظارة بالذات وقد استخدمتاها لتجربة أسلحتهما وتدريب رجالهما ، وكسب حليف لهما فى شبه الجزيرة الاستراتيجية ، وهو أهم من الهدفين الأولين وأخطر شأناً .

ولكن بريطانيا وفرنسا وأمريكا ، بقصر نظرهن على غير المألوف منهن ، ودافع « باثولوجى » عجيب نحو تعذيب أنفسهن ، مضين يبذلن كل ما أوتين من قوة وجهد لتدمير تلك الجمهورية الديموقراطية ، التى كانت ستصبح لولا ذلك كله شريكتهن الصادقة ، ونصيرتهن المخلصة الجليلة النفع فى الحرب ضد الفاشية .

أما المكسيك ، وروسيا السوفييتية وحدها دون الدول العظمى ، فجعلتا تمدان الحكومة الموالية للجمهورية بالأسلحة وتزودانها بالخبراء ولم تكن مساعدة موسكو لها تكفى لتمكينها من كسب النصر ، وكانت روسيا قد لجأت إلى بذل تلك المعونة ، عقب تخلى تشمبرلين رئيس وزراء بريطانيا ، ودلادييه رئيس وزراء فرنسا عن سياستهما المسالمة حيال النازى ، والفاشية ، وفرانكو ، ولولاها لأمكن منع الحرب العالمية الثانية ، أو تيسر الظفر للديموقراطيات بحصن منيع فى أسبانيا يتسنى لها أن توجه الحرب منها ، ولكن بريطانيا وفرنسا عجزتا عن إنقاذ تشيكوسلوفاكيا فى محادثات ميونخ خلال شهر سبتمبر عام ١٩٣٨ بل تركتاها ، حتى نزع منها سلاحها وحردت من مقومات النضال تجريداً ، و بدا يومئذ جلياً أنهما لن تنقذا الجمهوريين فى أسبانيا ، وما لبثت البوادر أن أوحت بأن الجمهورية الأسبانية مقضى لا محالة عليها ، فأقلت روسيا من المعونة ، وتولت عن التأييد والإمداد .

والتقيت فى الجبهة والمطارات والمستشفيات ومقر القيادة ، والدور والمساكن الخاصة ، بفريق كبير من الروس الذين أوفدوا لبذل أقصى ما فى مكنتهم من المعونة للجمهوريين وما رأيت فى الحرب الأسبانية أحداً أشد منهم دأباً ، ولا أكثر منهم إقداماً ، ولا أبهر قتالاً ، ولا أصدق تفانياً وولاء ، حتى ليخيل لى أنهم مضوا يسكبون فى ذلك الصراع الرهيب تلك القوة العاطفية الثورية المستحصدة التى لم تعد تجد أمامها مجالا فسيحاً فى روسيا ذاتها .

وكان هذا هو بعينه إحساس عدد لا يحصى من الأشخاص فى الاتحاد السوفييتى، فقد كانوا يرجون أن تكون أسبانيا وسيلة روحية « لنقل الدم » إلى البلشفية بعد ذبولها، وأداة لعلاجها من خمودها ، و إنطفاء جذوتها الماضية .

ولكنى فى سفرتى إلى موسكو عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ لرؤية زوجى وولدى وجدت الأفق القاتم أشد قتاماً مما تركته ، وأفحم سواداً ، وأبصرت ستالين ورئيس شرطته الجديد «يزهوف» ممعنين فى مذابح تشمل كبار الشيوعيين وصغارهم، وتطيح بالموظفين والمهندسين العسكريين والفنانين والمستنيرين والأجانب من الشيوعيين وأعضاء النقابات والمشرفين على المزارع الجماعية ممن استهدفوا لنقمتها أو أخذوا بالشبهات أخذاً .

لقد راح النظام البلشفى يوئد العقول الكبيرة فيه وكان الناس يتكلمون مخافتين، ويتحادثون هامسين ، ولم يعد أحد منهم مطمئناً على نفسه من كلمة سوء تقال عنه ، أو كيد يكاد له ، فتنتهى حياته فى غيابة السجن ، أو يجد أسوأ من ذلك منقلباً، وكان كل امرئ بالآخر متظنناً ومنه متوجساً ، وكل إنسان فى أعين سواه جاسوس ، بل لم يكن المالقون أنفسهم يومئذ مطمئنين .

ولو أنى جاهرت يومئذ بالخروج لخسرت صلاتى بالروس الشجعان الباهرين فى أسبانيا، وأضعت كل فرصة أمامى للعمل مع زعماء الجمهوريين فى سبيل قضيتهم ، وكان الشيوعيون الأسبان يومئذ قد اكتسبوا قوة بالغة فى المعسكر الجمهورى فلو أنى ظهرت عندئذ بمظهر الناقد لروسيا السوفييتية لنفروا منى، ولم يرحب أحد فيهم بى، ولهذا اقتصرت على التحدث مع «نجرين» رئيس الوزراء ونفر من أصدق أعوانه عن الأحداث البشعة التى كانت تجرى فى روسيا ، وتحذيرهم من قيام ديكتاتورية فى أسبانيا .

ولكنى مع استنكارى للسياسة الداخلية فى روسيا ، كنت بسياستها الخارجية معجباً ، فقد كانت معاونتها للجمهوريين فى أسبانيا تناقضاً ظاهراً مع مسلك الديموقراطيات وتصرفها الأحمق ، ومناصرتها المعيبة لفرانكو ، تلك السياسة التى كانت تدعوها إلى الامتناع عن التدخل .

وتبين لى أن الفظائع التى تقع فى داخليـة روسيا ، والفساد الذى طرأ على البلشفية من جراء «القومية» سينتهيان بها إلى إفساد علاقاتها بالعالم الخارجى ، وإن كان الدور الذى قامت موسكو به فى أسبانيا قد خفف من حنقى عليها ، وقلل من نفورى النفسى منها ، إن لم يـكن قلل من نفورى الفـكرى ، فلم ألبث أن ترددت فى الهجوم ، وأمسكت عن المجـاهرة بالاستنكار والتنديد .

وكانت الـكفتان اللتان رحت أزن فيهما الحسنات والسيئات متعادلتين، بحيث لو زيدت شعرة واحدة على كفة روسيا ، لـكانت هى الـكفة المرجوحة ، أما الآن فقد أُلقِىَ طن كامل فى الـكفة المقابلة .....!

وكان رجال الجمهورية الأسبانية قد بدأوا يجمعون الأدلة التى تثبت التدابير التى اتخذها السوفييت حيال الأفراد الروس الذين اشتغلوا فى أسبانيا ، قبل أن يتم لفرانكو النصر على الشعب الأسـبانى فى شهر مارس عام ١٩٣٩ ، فـكانت الحـكومة السوفييتية من حين إلى آخر تستدعى واحداً أو أكثر من أولئك المجـاهدين والأنصـار الذين أعانوا الجمهوريين ، فلا يكاد يعود إلى بلاده حتى يختفى ولا يبقى له أثر ، حتى اقتنع الجمهوريون الأسبان فى نهاية الأمر بما توافر لديهم من الوقائع الثابتة والأدلة الدامغة ، بأن أكثر العسكريين والمدنيين الروس الذين عملوا فى أسبانيا ، إن لم يكن كلهم ، قد أعدموا أو نفوا عند مآبهم إلى بلادهم .

فقد أعدم الجنرال جوزيف الذى كان يتولى الدفاع عن مدريد ، وقبض على جريشين الذى كان أول رئيس أركان حرب فى الجيش الأسبانى ، ونفى ستاشفيسكى مندوب السوفييت التجارى فى أسبانيا عام ١٩٣٧ — ٣٨ وكان شيخاً بولونياً من كبار الثوريين ، ومستشاراً اقتصادياً يتمتع بمكانة مرموقة عند نجرين رئيس الوزراء ، كما أعدم مارسل روزنبرج أول سفير روسى لدى الحـكومة الجمهورية فى أسبانيا ، وجيكيز مستشاره ، وأنطونوف أفسينكو ممثل السوفييت فى « قطالونيا » وهو الذى هاجم « القصر الشتوى » الذى كان يملـكه القيصر فى شهر نوفمبر عام ١٩١٧ واستولى عليه باسم الثورة البلشفية فى إبان مطالعها .

ومن الذين شملهم الإعدام أيضاً الجنرال أوريتسكى الذى كان يتولى الإشراف على شحن الأسلحة للجمهوريين الأسبان ، وميشيل كولتسوف مراسل جريدة « برافدا » الذى كان يوافى ستالين وفوروشيلوف بأنباء الأسبان مباشرة .

وليس هذا التعداد للضحايا إلا قائمة يسيرة لأسماء الذين لم يعد أحد يراهم أو يسمع بنبئهم منذ كانوا يعملون فى أسبانيا ؛ ومن يدرى فلعلهم احتبلوا فى الشرك الذى نسجه ستالين ورئيس شرطته يزهوف ، وقد يكون سر مصارعهم أنهم كانوا يعرفون أكثر مما يجب عن حقائق الأحوال فى الخارج .

وقد عيب علىّ أننى لم أعلن خروجى عند هذا الحد أو قبله ، ولعله كان واجباً ، فلم تكن يومئذ تخالجنى شكوك فيما حدث وأسبابه ، وكنت على يقين أنه لا ينتظر أن يدخل تحسين ما على سياسة السوفييت ومناهجها .

ولكنى انتظرت ولبثت صامتاً ، ما دام ذلك جائزاً ....

ولم يلبث ميثاق التحالف بين السوفييت والنازى أن وقع فى ٢٢ أغسطس عام ١٩٣٩ ، وهو الميثاق الذى ألزم الحكومة السوفييتية أن تتخذ السبيل الذى اتخذته من ذلك الحين ، فرأيت أن الساعة قد حانت لأعلن ... الخروج !

ولم يكن هذا الميثاق اتفاقاً على كسب الوقت ، ولكنه كان اتفاقاً على كسب إقليمىّ ، فقد تبين من « البروتوكولات » السرية المتصلة به ، التى أعلنت بعد الحرب وأذيعت ، أنه ينص على تقاسم الأراضى التى قد يتعرض الروس والألمان منها للعدوان كمناطق نفوذ ، وظهر بعد ذلك كيف بدأت روسيا خططها العدوانية التى أكسبتها اليوم امبراطوريتها المتداعية ، وجعلت مشكلة البشرية تزداد اشتدادا واستعصاء .

لقد كان ذلك الميثاق مقبرة البلشفية « الدولية » ، وحجر الزاوية فى بناء البلشفية « الاستعمارية » .... !

ولم يدلل ذلك سوى أن روسيا البلشفية أصبحت مقبرة البلاشفة ، ولست أجد فى نفسى عطفاً على نظام يتخلى عن أصوله ، ويغدر بصانعيه ومؤسسيه .

وقد كان التوسع القيصرى من قبل توسعاً طولياً وعرضيا ، أو بعبارة أصرح ، توسعاً إقليمياً ، فقد مضى يفتح أقاليم ، ويغزو ربوعاً ، وهو غير آبه بتحسين أحوال الناس ورفع مستوى عيشهم .

وجاء ستالين أيضاً يحذو حذو القياصرة آل رومانوف الغابرين ....

لقد راح يبنى على أكتاف الكادحين والفلاحين الذين أصارهم « قوميين » ، وعلى هتاف المستنعجين والمستنيرين القابعين ، وصيحات الاستحسان من الملَقة المنافقين نظاماً قومياً ضخماً ، بل نظاماً استعمارياً ، رأسمالياً ، عسكرياً ، يتولى هو فيه مكان المولى المعظم ، والسيد المطلق فى عبيده الأرقاء ، ويتولاه من بعده من هو على الأيام خالفه ...

فليت شعرى كيف يسوغ لأحد يعنى بأمر الشعوب ويحرص على السلام ، ويتوخى كل ما يجدى على البشرية ، أن يؤيد نظاماً كهذا أو يناصره .

أفيكون التأييد لأن الفساد أصاب صميم العالم الديموقراطى ... ؟؟

إن فى إمكاننا أن نحارب هذا الفساد ونكافحه .

ولكن ماذا فى وسع المواطنين السوفييت أن يفعلوا إزاء هذه النوازع « الاستالينية » ؟؟

لقد رأيت خلقاً كثيراً يعجبون لأمرى كيف لم أبادر بإعلان خروجى ، بعد أن رأوا الظلام الدامس يغمر روسيا بأسرها ، ولكنى لا أحس هذا الإحساس نحو الذين لا يزالون مترددين كما كنت ، فلا أعيب عليهم البقاء ، ولا أعجب لترددهم .

فقد كان ذلك الميثاق إيذاناً لى بالخروج ، بينما رأيت غيرى لا يغادرون « القطار » حتى شهدوا روسيا تغزو فنلندة فى شهر سبتمبر عام ١٩٣٩ .

إن تحديد المرء لساعة خروجه رهن بعدة عوامل موضوعية ، وأخرى نفسية ؛ ففريق قد بلغ بهم استنكار الجرائم التى ترتكب فى العالم الرأسمالى حداً أعماهم عن جرائم البلشفية وفشلها و إفلاسها ، وفريق آخر ليس بقليل ، عمدوا إلى استغلال عيوب الغرب ومساويه لصرف الأنظار عن فظائع موسكو ومنكراتها .

ووصفتى أنا للناس هى : التخلى عن الجانبين ، أو رفض كلا الرأيين .

إن صاحب الفكر الحر، المتخلص من سائر القيود الاقتصادية والتحيز الفكرى ، يستطيع أن يولى ظهره لمساوى العالمين ، ويحاول بتحسين شأن العالم الذى ينتمى إليه أن يقيم عالماً يتوافر له السلام ، والرخاء ، والأخلاق ، ولا تلبث الدكتاتوريات القائمة على كلا جانبى « الستار الحديدى » الذى يدعونه أن تختنق ويسرع إليها الفناء .

وهذا يستتبع إثارة سؤال حاسم ، وهو إلى أين يذهب جموع الذين أفلتوا من أغلال الحزبية الشيوعية ، وزالت عن أبصارهم غشاوتها ، حين يجدون أنفسهم أحراراً ناجين .. ؟؟

إن « كرونستاد » ليست المنتهى ، فأولى بها أن تكون « وقفة » على الطريق المؤدية إلى نقطة انتهاء أفضل من الدكتاتورية وأحسن منقلباً .

ففى كرونستاد ، وسط الشيوعيين القدامى ، وبين أمثالى من أنصار السوفييت الذين لم يكونوا فى يوم من الأيام شيوعيين ، صنف من الناس يصح أن ندعوه الفريق « المتأثر » من طريق الإلزام النفسى ، والتأصل العاطفى ، فهو بتغير وجهة نظره ، أو سوء ماشهده ، وتنكر ماراآه بعينه ، قد يتحول عن « الاستالينية » وأثرها فيه ، ولكن لا تزال لديه العيوب ذاتها التى دفعت به إلى المعسكر البلشفى أول مرة ، فهو يتخلى عن الشيوعية فكرياً ، ولكنه يظل مع ذلك بحاجة إلى بديل عاطفى منها ، لأنه لا ينى بضعفه فى أعماق نفسه ، وافتقاره إلى السلامة ، وحاجته إلى فكرة مواسية ، ومبدأ يجد فيه الراحة والعزاء ، وكتيبة ضخمة يمد فيها خطوه ، وينشر فيها جناحيه — أن ينجذب إلى قطب جديد من « العصمة » ، والألوهية ، والشىء الذى يحسبه قد وصل إلى مرتبة « اليقين » ، فيتشبث بما يبدو له من الظاهر قوياً موحداً متماسكا لا اختلال فيه ، وكثيراً ما يهجر الشيوعية لأنها ليست مأمونة كل الأمان ، ولا مستقيمة كل الاستقامة ، بل ملتوية متراوحة ، لا تحقق له الاستقرار الذى ينشده ، وحين يجد دكتاتورية جديدة ينطلق فى محاربة الشيوعيـــة بذلك العنف ذاته الذى تحارب

الشيوعية به ، والتجبر الذى تستخدمه ، والتعصب الذى تلجأ إليه ، فهو « شيوعى خصم للشيوعية » .. !

وقد رأينا « دوريو » الزعيم الشيوعى الفرنسى ، والعضو فى اللجنة التنفيذية « للدولية » الثالثة ، ينقلب « فاشياً » ويحارب الشيوعية حرباً « دينية » عنيفة موحشة ، وشهدنا « لافال » الشيوعى القديم ، ورئيس الوزارة السابق فى فرنسا ، يتحول فيما بعد إلى مناصرة « النازية » والمبادئ الرجعية .

وقد انقلب عدة ألوف من الإيطاليين والرومانيين والمجريين والبولونيين، الذين كانوا من قبل فاشيين ونازيين ، إلى حظيرة الحزب الشيوعى القومى فى بلادهم ، والطيور على أشكالها تقع .

ولن تجد يوماً الرجل المتشبث بصاحب السلطان ، بسبب الإلزام النفسى ، أو ما يعتمل من الإرغام فى أعماقه ، هاجراً ستالين إلى نقيضه غاندى .

ويوم يعجز القائد العام عن اقتضاء التفانى التام من جنوده ، لا يلبث أن يقنع بأن يكون « قائداً » كسائر القواد الآخرين ، ويوم يذبح الجندى فى فرقة «العاصفة» الملايين من بنى قومه تذبيحاً ، لا يتخلى عن الإرهاب ، وإنما يتولى هو الإرهاب بنفسه ، لأن الدافع الوحيد عنده حيال الدكتاتورية ليس سوى الرغبة فى أن يكون هو الدكتاتور ، لا فريسته ..!

والذين ينطلقون من « كرونستاد » — أو خاتمة المطاف مع الشيوعية — بعد زوال الغشاوة عن أبصارهم ، واستنكارهم لما لمسوه منها ، لا يلبثون إذا كانوا من هذا الصنف المولع بالسلطة ، أو هذا الصنف «القوميسارى» ، أن يتجهوا نحو ديكتاتورية أكثر نجاحاً ، فليست نقطة « الانتهاء » أو « كرونستاد » عندهم سوى انتقال ولاء ، وما هى بتحول قلبى ، ولا تغير فكرى بحال . وإنما يصبح «الخروج» مجدياً كبير الأثر جليل النفع ، حين يكون رفضاً لجميع وسائل الدكتاتورية وأساليبها ، وتحولا إلى المبادئ الديموقراطية واتجاهاتها .

وإن تجد دكتاتورية فى العالم منطوية على شىء من الديموقراطية ، وليست فى الدكتاتوريات إطلاقاً بذور الحرية .

ولم أكن أفهم ذلك فى تلك السنين التى كنت فيها مناصراً للسوفييت ، وإنما كنت يومئذ أعتقد أن وقف إطلاق الحريات إلى حين من شأنه أن يمكن النظام السوفييتى من التقدم بخطوات اقتصادية سريعة ، وعندئذ يعيد الحريات كما كانت .

ولكن ذلك لم يحدث، وتبين أن الدكتاتورية السوفييتية ظلت مقفرة من البقول والأغذية ، لأنها قد ظلت مقفرة من الحريات ، إذ لا سبيل إلى ضمان مادى ، ولا إلى ديموقراطية اقتصادية ، ما لم تتوافر الديموقراطية السياسية . وإن اعتقال ملايين من الخلق فى معسكرات السوفييت وسجونه عقب انصرام ثلاثين عاماً على بداية الثورة لهو فى الحق سخرية من كل ادعاء بأنه توافرت فيه الديموقراطية السياسية والاقتصادية . وليس ثمة أيضاً أقل بادرة على أن هذه الدولة « البوليسية » آخذة فى الذبول والفناء ، بل بالعكس ، كل تطهير فيها يخلق ساخطين جدداً ، ويستوجب تطهيراً آخر ، وهكذا ينقلب التطهير غير المشروع سلاحاً دائماً فى يد الدكتاتور ضد الشعب .

ولا تتواتى الحرية فى ظل الدكتاتورية . إذ ليست هناك حقوق ثابتة لا تبديل فيها ولا تحويل . فإن للدكتاتور من كثرة القوة . وللفرد من ضآلتها . ما يبيح للأول أن ينزع أى حق يعطيه . ويسترد أى شىء هو واهبه . فإن حق العمل مثلاً قد يكون معناه اليوم حق العمل فى المصنع بأجر . وقد يكون غداً ضرورة ملجئة إلى العمل فى معسكر اعتقال لقاء « جراية » لا تغنى من جوع . وليس للفرد من يستعديه لكى ينصفه . لأن الدكتاتور هو السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية . والسلطة القضائية موسدة فى واحد بذاته . وليس من شك فى أن الشعوب السوفييتية الدءوب الذكية تستحق أحسن من ذلك . وتعرف أكثر من ذلك . لأنه من السهل أن يحب الإنسان الحرية . ولكن ما حيلتهم . والإرهاب على السنين متزايد ...؟؟

ورأيت مناصرتى للسوفييت مؤدية بى أيضاً إلى الوقوع فى خطأ آخر. وهو الاعتقاد

بأن نظاماً يقوم على المبدأ القائل بأن الغاية تبرر الواسطة ، قد يخلق عالماً أفضل ، أو إن شئت قل إنساناً أحسن حالا .

ولكن الواقع أن الوسائل المنافية للأخلاق لا تنتج إلا غايات منافية لها ، وأناساً منافين لمبادئها ، فى البلشفية والرأسمالية على السواء .

إن الغايات من نحو مال أو ترقية أو نجاح هى فى ذاتها وسائل لغاية لا تفتأ ترتد وتتراجع ، ومن هنا رأينا أكثر الحياة عند الأفراد تتألف من وسائل ، وكل حياة يقل فيها نقاء الوسائل وطهرها وبهجتها فى سبيل تحقيق مستقبل طبيعى أو خارق للطبيعة ، من شأنها أن تحيل العيش تَعْساً قذراً كدراً لا هناءة فيه .

إن الدكتاتورية مستوية على بحر من الدماء ، وأوقيانوس من الدموع ، وعالم من الآلام ، وهى كلها نتائج وسائلها القاسية فكيف إذن يتواتى لها أن تكفل الرغد أو الحرية أو الطمأنينة ظاهرة وباطنة . . ؟ ؟ بل كيف يتهيأ للخوف والإرغام والكذب والعسف أن تصنع إنساناً أحسن حالا ...؟؟

لقد علمتنى الأعوام التى قضيتها فى مناصرة السوفييت أنه لا يصح لامرئ يحب الناس ويريد السلام أن يناصر دكتارية ما ، وأن قيام نظام اجتماعى ينادى بالحرية ولكنه مع ذلك يحِدُّ منها لبس سبباً يبرر اعتناق مذهب يدمر الحرية تدميراً ، ويقضى عليها قضاء مبرماً ، بل من الخير أن يعمل على إزالة القيود المضروبة على الحريات بأنواعها من شخصية ، وسياسية ، واقتصادية ، وهى القيود الملموسة فى الديموقراطيات جميعاً ، وتغذيتها بمبادئ غاندى وتعاليمه ، وفى مقدمتها احترام الوسيلة ، والإنسان ، والحقيقة ...

واليوم وأنا أعود بالخاطر إلى الماضى لا ألبث أن أتبين أننى إنما توليت يومئذ بوجهى شطر روسيا السوفييتية لأننى ظننت أن فيها الحل المطلوب لمشكلة القوة ، وقد رأينا العلم يضع القوة المتزايدة على مر الزمن تحت تصرف الإنسان ، فلا يدرى كيف يفعل بها ، وليست مشكلة القرن العشرين الكبرى سوى مشكلة ضبط القوى الشخصية ، والجماعية ، والوطنية . فى العالم الحديث ، وكيفية الإشراف عليها

وتوجيهها ، وأحسب قبولى لروسيا السوفييتية جاء يومئـذ وليد سخطى على القوة التى يكسبها الإثراء والرغد ووفرة المـال لأصحابها فتعطيهم سلطاناً على البشر ، وكنت فى شبابى قد قرأت كتاب هنرى جورج «التقدم والفقر» . وأُشربت روحى المبادئ التى راجت فى عهد « تيودور روزفلت » . ومذاهب الأحرار والشعبيين التى كانت جزءاً من تراث كل أمريكى فقير فى تلك الأيام ، ولم تلبث روسيا السوفييتية أن ظهرت عقب ذلك كله منادية بأنها ستحطم إلى الأبد قوى السادات المالكين ، والشركات الضخمة ، وتقضى على المستغلين والرأسماليين القضاء الأخير .

وأنا إلى الساعة لم أغير موقفى إزاء أخطار القوة المتناهية ، ولم أعدل عن رأيى ، وإنما أدركت الآن أن البلشفية ليست هى المخرج ، لأنها فى ذاتها جماع القوى المسيطرة على الإنسان الباغية الحاشدة ، وإن غضبى لتغلى مراجله كلما ذكرت المظالم التى تنصب على رءوس السكان المساكين فى مناطق الفحم بولاية بنسلفانيا التى نشأت فيها ودرجت من الطفولة ، لأن شركات التعدين فيها هى التى تملك مساكن العمال ، وتتولى بنفسها إدارة المتاجر والحوانيت ، وما الاتحاد السوفييتى فى الحق إلا شركة ضخمة تشرف فيها الحكومة على جميع الأعمال ، وتملك جميع الدور ، وتدير جميع المتاجر ، والمدارس ، والصحف وما إليها ؛ ولا سبيل إلى الفرار منها . وإن كان للفرار من مناجم بنسلفانيا وسلطان شركاتها سبيل لمن يشاء فراراً .

لقد وُصِفَتْ «روسيا ستالين» بأنها « دولة بوليسية» . ولكن ذلك بعض الشر أو أهونه ، فإن الكرملين لا تتوسل إلى إخضاع الناس بقوة البوليس والسجن وحدهما . بل بقوة أكبر من ذلك ، بتلك القوة الملازمة للملكية كل عمل اقتصادى والاستيلاء على إدارته .

وما الشركات الضخمة بأنواعها فى الدول الرأسمالية إلا أقزام إذا قيست بذلك

« الاحتكار » السياسى الاقتصادى «المامونى»[1] الذى يتمثل فى الدولة السوفييتية إذ ليس لقوته الضخمة نقض ولا إبرام ، مادامت مظاهر القـوة كلها موسدة فى دكتاتورية الحـكم وطغيانه .

فلا عجب إذا علمتنى روسيا أن نقل الملـكية من أيدى الأفراد إلى أيدى الحـكومة ليس وحده الطريق إلى الحرية وتحسين مستوى العيش ، لأنه إذا آلت الملـكية كلها إلى الحـكم ، وقضى فى عملية نقلها على الطبقة الوسطى التى أصبحت عاملاً حاسماً فى حضارتنا الصناعية الحديثة ، فلا فائدة من ذلك ولا كسب ، بل فيه حقاً الخسار المبين .

إن العالم بحاجة إلى توازن فى القوَى السياسية والاقتصادية على السواء ، فلا يصبح حزب . ولا تمسى طبقـة ، ولا حكومة ، ولا مجموعة شركات ، مستأثرة بكل قوة . لا يستطيع أحد لها تحدياً . ولا ينهض حيالها ناهض .

وقد رأينا روسيا السوفييتية مفتقرة إلى هذا «التوازن» وهذا هو سر الدكتاتورية فيها وجوهرها . بل هذا هو علة التصرفات العرفية التى تبدو من الحـكومة السوفييتية فى الخارج والداخل فيما يتصل بالعمال والفلاحين والموظفين والشيوعيين والموسيقيين وأرباب الفنون ومن إليهم .

وليس فى إمكان روسيا حل مشكلة القوة لأنها فى ذاتها أقبح مظاهر المشكلة وأسوأ وجوهها .

ومن واجب كل رجل بعد تنحيه عن مظاهر الدكتاتورية أن يعمل فى سبيل قيام ديمقراطية تتوزع القوى فيها بحيث لا يتسنى يوماً لحـكومة تستند فيها إلى الأغلبية . ومن باب أولى لا يتيسر لأيه جمـاعه من الجماعات . أن تحتكر القوى احتكاراً وتستأثر بمظاهرها استئثاراً . والزعيم الحـكيم الأريب من يقدر على كبح جماح القوة التى تتواتى له . ويعرف كيف يعدل فى استخدامها .

---

(١) نسبه إلى «الماموث» وهى الحيوانات الضخمة التى كانت فى بداية الخليقة .

ومن المتعين على كل رجل يتحول عن الشيوعية ، وكل معتذر متشفع قديماً لروسيا السوفييتية أن يتطوع فى « الجهاد » من أجل الظفر بالحرية التامة لكل من يخالفونه فى الرأى ، والمذهب ، والدين ، والعنصر ، واللون ؛ فإن أسمى ذرى الثقافة أن يستطيع المرء أن يعيش فى سلام مع من يختلف معه ، و بغير ذلك لاقيام لشىء غير نكد الحياة وصَلَف الطغيان .

وأخلق بالذين كانوا فيما مضى أنصاراً للسوفييت أن يظاهروا « دولية » لا دخل فيها « للقوميات » والنزعات « الوطنية » ؛ وقد يأتى يوم نرى فيه « القومية » بغير حاجة ، سواء من الناحية النظرية أو العملية ، إلى النزاع مع « الدولية » . ولكن فكرة قيام بلد منعزل كحصن أمان ، أومعقل رأسمالية ، أو قلعة اشتراكيين ، أونصير للفضيلة ، هى التى تحول فعلا دون نمو العاطفة الدولية .

أما أن ينادى اللسان إلى حكومة عالمية ، بينما يطفر القلب فرحاً لكل توسع عسكرىّ أو نجاح مادىّ تصيبه بلاده ، فخير لهذا اللسان أن يخرس .

إن كل مستمسك « بالعنصرية » أو العزلة ، وكل كاره للشعوب الأجنبية ، لخصومة قائمة ، أوعداوة ماضية ، أو محتملة الوقوع ، ليس بدولىّ ، وإن زعم أنه كذلك . إن هو إلا نصير لفكرة الحكومة العالمية على الورق فقط ، والقلب من اليقين والإيمان بها خلاء .

وسيأتى على الناس يوم لا تجد فيه أمة ناعمة مستمتعة بنجاح وحدها ، إذا هى لم تشارك غيرها فيه . وهيهات لن تتوافر لك هناءة ولا طمأنينة ولاسلام إذا كان جارك فى الشارع الذى تسكن فيه أو على بعد ألوف الأميال منك ، معذباً شقياً .

وأهم من ذلك كله ، أن الواجب على المتنحى عن الجانبيْن ، والمستنكر لمساوئ الدكتاتورية ومساوئ الديموقراطية على حد سواء ، أن يحصر همه جميعاً فى أمر « الإنسان » . فإن مختلف الأهداف ، من استقلال وطنىّ ، ونظام دولىّ ، وتقدم اقتصادىّ وعلمىّ ، وسلامة قومية ، وحرص على الرأسمالية ، و إقامة حكومة اشتراكية

ونحوها من المقاصد والغايات ليست شيئاً فى الجوهر واللباب ، بل كل معانيها فى صلتها بمصالح الأحياء من الرجال والنساء والأطفال الذين هم الوسائل التى يتحقق بهـا كل شىء فى هذا العالم .

وقد ينسى المرء من فرط حميته وحماسته لفكرة من الأفكار ، أو مذهب من المذاهب ، أمر هؤلاء بتاتاً ، أو قد يحسب أنه فى إمكانهم أن ينتظروا ، أو يخيل له أنهم لا يحفلون ولا يعبأون .

وقد يذهب الظن بالمرء . وهو فى شغل شاغل ببعض المثل العليا . أنه من الجائز التضحية بجيل من الأجيال فى سـبيل مصلحة الأجيال الخالفة . ولـكن التضحية بالناس قد تصبح عادة فى الجيل الثانى أو الثالث .

لقد كنت وأنا أناصر السوفييت أظن أننى بذلك أخدم البشرية .

ولـكنى من ذلك الحين فقط اكتشفت حقاً الإنسان ...

فهو الوسيلة والغاية معاً . والواسطة والهدف على السواء ...

ستيفن سبندر

لبثت بضعة أسابيع عضواً فى الحزب الشيوعى البريطانى خلال فترة الشتاء بين أواخر عام ١٩٣٦ وأوائل عام ١٩٣٧ . وسرعان ما انتهت عضويتى عقب انضمامى . فلم أتلق يوماً دعوة إلى حضور الخلية الشيوعية فى «هامر سميث» حيث كنت أقيم، ولا دفعت رسوماً غير الرسوم الأولية التى دفعتها عند قبول عضويتى .

وكنت قبيل انضمامى قد نشرت كتاباً عنوانه « خطوة أخرى بعد مذهب الأحرار» وقد وقع اختيار نادى الكتاب «اليسارى» عليه ليكون « كتاب الشهر» .

وكانت حجتى فيه أن فى فكرة حزب الأحرار عن حرية الفرد ثلمة ظاهرة . فقد رأيناهم أحياناً يتحدثون ويكتبون كأنهم مؤمنون بوجوب ترك الحرية الفردية مطلقة بلا حد ولا قيد . وأحياناً أخرى بوجوب إطلاق الحرية بين الأنداد بالسواء. وكان رأيى أن الأحرار استطاعوا فى القرن التاسع عشر ، خلال فترة التوسع فى آفاق التجارة البريطانية ، أن يوفقوا بين التنافس الحر بين أصحاب العمل ، و بين الإصلاح المطلوب للعمال ، دون تعريض موقفهم لتناقض ظاهر ، ولكن لم يعد فى إمكانهم عام ١٩٣٠ عقب حرب عالمية أشاعت بعد انتهائها الركود وزيادة التعريفة الجمركية والبطالة، وقامت على أثرها حركات فاشية فى أوربا ، أن يناصروا فكرة إطلاق الحرية للعمال وأصحاب الأعمال على السواء ، بل أصبحوا مضطرين إلى إقامة فكرة الحرية على أساس العدالة الاجتماعية والحد من الاستغلال .

وقد أشرت على الأحرار فى كتابى الذى أسلفت ذكره بوجوب تأييد العمال ، وقبول الضرورة الملحة . وهى محاربة « الفاشية » . والدفاع فى الوقت ذاته عن الحرية الفردية فى التعبير . وكنت أقصد من هذه العبارة « حرية القول » والحرية الشخصية .

لقد كانت مهمة الأحرار تعليق حرية الفرد على محاربة الفاشية. ومواجهة الوسائل

التي قد تكون ضرورية لتحقيق القوة . أو بعبارة مختصرة وضع قضية الحرية بجانب قضية العدالة الاجتماعية . ونقل الحرية الفردية من الرأسماليين إلى مصلحة العمال .

وقد أثار كتابي كثيراً من البحث والمناقشة ، وكان بين الذين كتبوا لي بسبيله المستر « هاري بوليت » فقد دعاني إلى لقائه فذهبت ذات أصيل إلى مكتبه القائم في دارالحزب الشيوعي بقرب محطة « شارنج كروس » .

وكان المستر بوليت رجلا صريحاً تسترْوِح النفس إليه ، ويسكن الخاطر إلى أحاديثه ، وكان قصير القامة ، ضئيل الجسم ، محمر الملامح ، أسود العينين ، تحت حاجبين غزيرين ، فلم يلبث سمته هذا أن ذكرني « بجورج روبي » .

وقد بادرني بمصافحتي وأنشأفي الحال يقول « لقد شاقني كتابك ، والذيأدهشني منه الخلاف بين طريقة تناولك للشيوعية ، وبين طريقتي ، فطريقتك أنت فكرية محض ، وأما أنا فقد أصبحت شيوعياً لأني شاهدت بعينيْ رأسي جرائم الرأسمالية في موطني ودياري ، ورأيت أمي تذهب لتعمل في طاحون ، فلا تلبث الأحوال التي كانت تعمل فيها أن عجلت بمصرعها ... »

وقال إن هناك وجهاً آخر للخلاف بيننا ، وهو أنني لا أظهر في كتابي كراهية للرأسمالية ولا أطوي النفس منها على بغضاء ، وأنه يؤمن بأن كراهيتها هي القوة العاطفية التي تدفع الحركة العمالية إلى الأمام .

واعترض على انتقادي لمحاكمة بوخارين وغيره في موسكو . فكان جوابي أنني غير مقتنع بأن المتهمين لم يكن لهم من ذنب سوى معارضتهم لستالين ، ولكنه خالفني في هذا الرأي أشد الخلاف وقال إن المحاكمة كانت من حسن حظهم لأنهم لم يكونوا يستحقون منها شيئاً .

ومضى يقول إننا وإن اختلفنا في مسألة هذه المحاكمات فلا نزال متفقين على ما بدا من الشيوعيين من المناصرة والتأييد للجمهورية الأسبانية .

وقال إن لديه فكرة ، وهي أن نتفق على ألا نتفق . ولكن ذلك لا يمنع مطلقاً

من انضمامى إلى معاشر الشيوعيين لمناصرتهم فى قضية الأسبان ، وأنه لا بأس من أن أكتب فى صحيفة « الديلى وركر » مقالاً أنتقد فيه تصرفات الشيوعيين وأن أنضم فى الوقت ذاته إلى الحزب .

فقبلت ما عرضه ، وتلقيت بطاقة العضوية من الحزب ، وظهر مقالى فى تلك الصحيفة ، ولكنه لم يلبث أن أثار حنق الشيوعيين فى اسكتلندة وشمال انجلترا ، وسرعان ما نسيت عضويتى وعفا الزمن عليها العفاء .

وقد أصاب «بوليت» فى قوله إن الأسباب التى حملتنى على أن أكون شيوعياً لا صلة لها بى كعامل ، ولكن كانت هناك سلسلة من الأحداث جعلتنى أحاول التوفيق بين أفكارى والانخراط فى الحزب .

وهذه الأسباب تعود إلى عهد طفولتى ، فإن أشد ما أثر فى نفسى يومئذ من قراءة « الإنجيل » هو قوله إن الناس جميعاً سواسية فى عين الله ، وإن يسار الأقلين هو ظلم للأكثرين .

ولم يكن إدراكى للمساواة بين الناس قائماً على فهم أحوال الجماهير ، بقدر قيامه على الشعور بالوحشة ، والإحساس بالعزلة والانقطاع .

ولا أزال أذكر كيف كنت أسهر الليل مفكراً فى أحوال البشر ، ومهبط الإنسان إلى هذه الأرض بغير طلبه ، ودون سؤاله ، وانطوائه على نفسه ، غريباً عن بقية البشر ، بحاجة إلى الحب والعطف ، مواجهاً فى النهاية أجله ، ملاقياً على الأيام منيته .

وإذا صح أن الإنسان إنما يولد فى هذه الدنيا ليكون « روبنصن كروزو » طريحاً على جزيرة منقطعة ، فمن الظلم البيّن ألا يكون الناس جميعاً أحراراً فى اقتسام ما أفاءته الطبيعة فى هذه الدنيا عليهم ، ومن الجور البالغ أن يكون فيهم قوم محرومون من ارتياد العالم الذى ولدوا فيه ، يقضون طيلة حياتهم فى أكواخ محبوسة كأنها مقابر الأحياء .

وكان يبدو لى — ولا يزال يبدو — أن حالة كل إنسان فى هذه الحياة ينبغى أن ترجح فى الاهتمام بها . ووجوب علاجها ، على سائر الاعتبارات المبررة لقيام الطبقات والفوارق بين الناس .

ولكنى لم أكن أعدنى «ثوريا» لمجرد مساورة هذه الخواطر وأشباهها لنفسى ، فقد كانت أفكاراً « مسيحية » ، وكان عملى بها مقتضياً أن أهب كل ما أملكه للفقراء ، وأن أعيش عيشة فلاح فى الهند أو الصين .

وكان الشيوعيون يلوحون لى قوماً بشعين كأكلة اللحوم البشرية ، أو كالذئاب الضارية ، يريدون أن يدمروا مدائن العالم ويعيشوا على تلها ، فقد أشربت نفسى أفكار عشيرتى وأصحابها واعتقادهم أن الثورات نكبات كالزلازل ، وأن الاشتراكيين ليسوا سوى خلق أقل خطراً من الشيوعيين . كما لقنت أن أتحاشى النزوع إليهم ، وأن أعتقد أن الذين يتزعمونهم مجانين أو فى مرتبة أحط من مرتبة البشر ...

ولما بلغت السادسة عشرة دخلت مدرسة لندن النهارية ، فالتقيت فيها بمعلم وفتى أو فتيين من الاشتراكيين . وكان المعلم قد خدم فى الحرب واشترك فى نادى ١٩١٧ ، واعتاد قراءة « الديلى هيرالد » ، فكان رأيه أن الاشتراكية ليست عهد إرهاب أو حماقة ، ولكن معناها تأميم الصناعات حتى تنتج سلعاً وموارد ثروة تتولى ملكيتها الأمة بأسرها لا بضعة أفراد فيها ، وإزالة التنافس المبنى على طلب الربح والكسب . لأنه يؤدى إلى الخصومة الدولية والتزاحم التجارى ، ومن ثم يسوق إلى الحرب ، وتوفير التكافؤ فى الفرص لجميع الصبيان والشبان من مختلف الطبقات فى التعليم والعمل .

وكان هذا مطابقاً لفكرتى الأولية عن العدالة الاجتماعية . وكان لى فى المدرسة صديق يدعى «موريس كورنفورث» ألف قراءة روايات برنارد شو وكتابة مسرحيات لا تقل عنها إجادة وحذقاً .

وكان كورنفورث قد أوتى ذهناً يستطيع أن يشرح الأشياء وينسقها فى نظام من الأفكار ، وسلسلة من الخواطر ، فلم ينقذنى من الكاثوليكية الانجليكانية

إلا ليلقى بى فى تيار « البوذية » ، وكان « نباتياً » اعتاد أن يمشى ثلاثين أو أربعين ميلا فى اليوم فى مترولاند كلما حلت أواخر الأسابيع .

وكان له رأس أشعث ، وكلبه أشعث الشعر مثله . وهو يومئذ المسيطر على المناظرات والمناقشات فى حلبة المدرسة وندوتها ، والعاكف على نظم الشعر وكتابة الرسائل ، وتأليف الروايات .

وكانت الاشتراكية عندى وعنده أحد الموضوعات المتعددة التى نعنى بها ، كمذهب الرسم « التعبيرى » الحديث والمسرح و « الباليه » . والرقص ، والشعر بل لقد كانت الاشتراكية فى الواقع ضرباً جديداً من السلوك ، كاستعمال أربطة العنق الحمراء ، و إرخاء اللحى على نحو ما كان برنارد شو يفعل .

وهكذا مضيت وأنا فى أكسفورد أتقبل بسهولة الرأى الذى كان يراه أكثر الصحاب فيها واللدات ، وهو أن الفن ليس له أدنى صلة بالسياسة ، ورحت أحذفها من قائمة آرائى الحديثة فى مختلف الشئون ، وآمنت بالفن لذاته .

واليوم تلوح لى أعوام ١٩٢٨ و ٢٩ ، بل ٣٠ أيضاً هادئة ، رفرفت السكينة بجناحيها عليهن ، وكان من السهل فى أكسفورد أن ينسى الفتى منا مظالم البشر ، أو على الأقل يحسب أنها ليست من شأن « الشاعر » .

و بقيت يومئذ اشتراكياً على النحو الذى يبقى عليه بعض الناس كثالكة ؛ و إن لم يصلوا يوماً ، أو يقفوا فى المحراب ، أو يحوموا صحن الكنيسة ، إذ حسبهم أن شيئاً من « الأرثوذكسية » استقر وجمد فى أعماق أذهانهم وهم عالمون بأنه فى عقولهم قائم ، وأنه قد يذوب فى يوم من الأيام فيتركهم فى غمرة فيضان جائح ، و إن بدا فى الساعة الراهنة منقطع الصلة بأعمالهم وتصرفاتهم .

وذهبت لأقيم فى ألمانيا بعد مغادرتى أكسفورد ، فلم يلبث الشعور بالبشرية كنضال اجتماعى أن استيقظ فى نفسى ؛ وقد كان أكثر ما لقيت من الشبان الألمان أو كلهم فقراء يعيشون على اللقمة ، و يحيون من اليد إلى الفم ، على نزر يسير من

المـال ، ورزق طفيف محدود ؛ وكان الناس على اختلاف طبقاتهم شاعرين بوطأة الهزيمة والتضخم النقدى وعقابيل الحرب ونتائجها ، وكان كثير من الموسيقى والرسم والأدب الشائع فى عهد جمهورية « فيمر » صوراً تعبر عن روح ثورية ، أو عن رثاء للفقراء والمحاويج ، حتى ليخيل إلينا أن أعين الضحايا والصرعى فى عالم بعد الحرب تحملق فى ألواح الرسامين الألمان الذين يعتنقون المذهب « التعبيرى » فى الفنون .

وكنت فى ألمـانيا غريباً ، وكان أول أثر فى نفسى لهذا الشقاء العـام فى تلك البلاد عطفاً بالغاً على أولئك الضحايا الذين عصفت بهم الأزمة التى بدأت عام ١٩٣٠ .

ولـكن على فرط تأثرى بمشهد المتعطلين الذين راحت أبصارهم محملقة من حوافّ الأفاريز ، لم يكن شـعورى يومئذ متجاوزاً حدود الشفقة ، ولم أكن أملك لهم غير الأسف والرثاء ، لأننى كأجنبى كنت أشعر أننى خارج ألمانيا ، ولـكن لم تكد الأزمة تسرى إلى بريطانيا وسواها من البلاد حتى بدأت أدرك أن هذه الأزمة هى مرض من أمراض « الرأسمالية » راح ينتشر كالوباء فى أرجاء العالم كله و بقاعه .

ومضيت رويداً أقتنع بأن العلاج الأوحد لمشكلة المتعطلين — إذا أخرجنا الحرب من الحساب — هو قيام مجتمع دولى تستثمر فيه موارد العالم لمصلحة شعوبه جميعاً وأممه .

وجاء إلى برلين صديق دعاه « ايشروود » Isherwood فى كتابه عن حياته الخاصة « الليوث والظلال » Lions & Shadws — شالمرز ، فدعانى كريستوفر فى ذات يوم إلى لقائه ، وكان شالمرز قد انضم من عهد قريب إلى الحزب الشـيوعى ، وذهب فى رحلة سياحية إلى روسيا لم تتجاوز بضعة أيام ، وقد عطف على برلين عند رجعته منهـا ...

وكان يلوح قـزَماً أسمر اللون فى ربيع الشباب ، أصاب ملاحة ظاهرة ، و بدا أخا وسـامة تأخذ العين ، وكان ينظر إلى الأشياء نظرة الرقيب الحارس المتحفز الذى لا تأخذه غفلة ، ولا ينثنى عن متابعة ، حتى لتستقر منه العين عليك وهو يحدثك ،

أو يستمع إليك ؛ ويبدو جامعاً بين المرح والمجانة ، وبين الرزانة والوقار ، فى آن واحد .

فلما سألته ما خطب روسيا وأحوالها ؟ مضى يرسل بصره بعيداً ، ويقول بلهجة امتزجت فيها السخرية بالغموض : « إنها أجمل بلد فى العالم ! » .

ولو أن شالمرز عاش فى جيل آخر غير جيله لكان أكبر الظن قسيساً فى الريف يجد الإلهام الشعرىّ حتى فى مغالطات الأرثوذكسية ومفارقاتها ، كما تكون الأزهار مختبئة بين العوسج فى بعض الأزقة والدروب .

وذهبت ذات أصيل معه للرياضة فى أرجاء برلين ، ولم نسر غير بعيد حتى أخذنا نتحدث عن الشيوعية ، وكان لشالمرز رأى صريح واضح فيها ، فقد مضى يقول إن البطالة والحرب وأكثر مساوى العصر وآثامه ، ومنها الغيرة الجنسية ، ومشاكل الكتاب وأرباب الأقلام ، راجعة إلى الرأسمالية ، وإن العلاج الوحيد منها هو إلغاؤها وإقامة الشيوعية مكانها ، وإنه من المتعين فى المجتمع أن يتوافر التعاون مع العمال الذين أدركوا خطر طبقتهم ، وبين المرء ونفسه يتحتم أن يأخذها بالحزم والإرادة .

وكان يقول إن هناك قوماً فى المجتمع الحاضر لا يروقهم التعطل ، ولا يحبون الحرب ، بل قد يطيب لهم أن يتخلوا صادقين عن مصالحهم فى سبيل إزالة هذه المساوى والآثام ، ولكن جهودهم ذاهبة أدراج الرياح ماداموا مرتضين المجتمع البورجوازى وأصوله وقواعده لأن الرأسمالية معناها حتما التنافس بين الطبقات والأمم ؛ وليس الذى يعمل ضد اتجاه هذا النظام مع قبوله له فى الوقت ذاته وارتضائه إلا كمن يحدث جدولاً صغيراً من الماء لراحة ضميره أمام تيار نهر جارف ، وليس أمامه إذن من سبيل غير أن يتخذ المرء « جانب التاريخ » فيعمل على تغيير اتجاه التيار ذاته جملة واحدة . وهو عمل باهظ ، وكفاح بالغ ، ومن يتولّه لا ينظر فيه إلى الوسائل الماضية التى استعان بها الناس من قبله ، إلا من ناحية مدى أثرها ، ومبلغ كفايتها ، ولا يفكر

فى المصاير التى انتهوا إليهـا ، فإن التاريخ لم يعبأ يوماً بأمر الذين لم يكونوا « فى جانبه » .

وكان التاريخ فى تعبير صديقى «شالمرز» هو بالطبع «الثورة العمالية» ودكتاتورية الكادحين ، وقيام الشيوعية لأنها ستقضى على مساوى الحاضر وآثامه ، وتنشئ عالما حراً على السنين .

وكان « شالمرز » يحلم حقاً بقيام هذا العالم ، فلا عجب إذا هو كان صادقاً فى منزعه ، مخلصاً فى طلب السعادة لبنى البشر .

ولـكنه لم يكن يلقى بالاً إلى المظالم وصنوف « القسوة » التى اقترفها «التاريخ» فى طريقه ، ولا يتأثر بها ، ولا يريد أن يستمع إلى قصتهـا وحديثها ، بل لا أظننى ظالماً له إذا قلت إن تلك المظالم كانت تروقه ، وترضى سخريته ونزعته الأدبية ، وروح التهكم المسكينة فيه .

وقد أقام خاطره ونيته واتجاهه على اتخاذ سبيل « ثورية » ، ومضى ينظر إلى النتائج التى قد يؤدى هذا السبيل إليها ، من مكان سحيق ؛ وكان كل ذهنه متأثراً بالمستقبل ، مصروفاً إليه ، حتى ليبدو الحاضر وما يحدث فيه ، أمراً لا يستحق العناية منه ، ولا هو مباليه ، كما لو أنه مصير قوم قضت عليهم الزلازل منذ مئات السنين .

لقد كان يعيش بروحه وخاطره فى المستقبل ، وما الحاضر عنده إلا ماض رهيب يسبق الثورة ، وكان كل مايطلبه من نفسه ومن الذين رضوا لأنفسهم الانضمام إلى « جانب التـاريخ » أن يتوفروا بكل قواهم ، ويتفانوا بكل عقولهم وخواطرهم ، ويكرسوا كل تصرفاتهم وفعالهم ، فى سبيل إيجاد مجتمع مطهر من فروق الطبقات ، فلم يكن ليتردد فى إخضاع الحاضر كله لعمل تمليه مقتضيات المستقبل ومطالبه .

وما لبثت أن شـعرت بتشكك نفسى حياله لأنى صارحته بأنى أكره العنف وأوثر حرية التعبير ، على ماعداها ، فى هذا العالم ، وقلت له إننى مع ذلك أريد انقلاباً ثورياً يكفل قيام مجتمع عادل دولى ، دون تدمير حرية الفرد وتحطيمها .

فلم يكد يسمع هذا القول منى حتى أخرج قصبة التبغ من فمه وقال بلطف : « يا غاندى ...! » .

وكنت قد تحدثت إليه فى أمر « عصبة الأمم » فمضى يقول إن المبادئ الخيالية التى من هذا القبيل ، والنظريات المثالية التى تحتضنها هذه العصبة لن تفعل شيئاً فى سبيل إلغاء الحروب ، فإن هذه العصبة ليست سوى مجموعة من الدول الاستعمارية أرادت أن تستغلها كوسيلة لوقاية ذاتها إن لم تكن تريد منها أن تمد فى نطاقها ، وتنمى مواردها ، وتزيد فى سيادتها وسلطانها ؛ وكانت الأمم التى استخدمت العصبة هى بذاتها أدوات التسلح ونصيراته ، وليست العصبة فى الحق إلا تحالفاً على الروس ، فكل حديث اليوم عن التسلح على ضوء النظام الحاضر هراء وكلام لا طائل تحته ...

ودار بعض الحديث بيننا على القصة ، فكان شالمرز كخلق كثير من الكتاب الشيوعيين يرى أنه بشيوعيته قد قطع الأرض من تحت قدميه ، فلم يعد له غير الإيمان بالثورة ، وأنه أحد « البورجوازيين » الذين عناهم البيان الشيوعى بقوله إنهم هم الذين « انتقلوا » إلى صفوف الكادحين ، وأن هذا المركز لا بأس به من الوجهة السياسية ، لأن أكثر زعماء الثورة جاءوا من عُرض البورجوازيين، ولكن الأمر يختلف من جهة « الفنون » فإن «حساسيته» البالغة التى استمكنت منه منذ طفولته هى نزعة « بورجوازية » فى جوهرها وصميمها ، فلا أمل له فى اكتساب عقلية عمالية من طريق الإرادة ، والرياضة السياسية ؛ ولو أنه فعل ، لواجهته مشقة كبيرة ، وهى أن الطبقة العاملة هى فى الجملة وعقب الثورة أكثر « بورجوازية » من البورجوازية ذاتها ، خلا فريقاً قليلاً من العمال « الشاعرين بتأثير طبقتهم » ، وقد رأينا العمال غير حافلين بالقصص « البروليتارية » ؛ ولا تنس أيضاً أن تأليف قصة ثورية تهاجم الرأسمالية مشكلة فنية ، لأن المشتغلين بالسياسة والذين لا يفكرون إلا فى السياسة ، معنيون بالترويج والدعايات ، أكثر من عنايتهم بالفن المبنى على التجربة والملاحظة ، ومايستوجبه حتماً من إبراز العوامل المثبطة والعوامل المشجعة على السواء .

وكان شالمرز فى أحاديثه معى يعترف بهذه المشاق صراحة ، ويقول على سبيل الشرح النظرى « لست أعتقد أن قصة تحوى بطلا من العمال ورأسمالياً شريراً ليست من القصص الشيوعية الحسنة ، وقد تفضلها قصة تحوى أشخاصاً رأسماليين من ذوى العطف والطوية الحسنة وآخرين من الشيوعيين الساخطين المتبرمين الناقمين ، على أن يذهب السياق فيها إلى التدليل على أن هؤلاء هم الذين على حق ، وأن أولئك هم المخطئون ، ولست أنكر أن الحزب طبعاً لن يرحب بقصة من هذا الطراز » .

وكان رأى شالمرز فى قصة تصور هؤلاء الشيوعيين الناقمين ، وهم يبررون التطور التاريخى حيال الرأسماليين الطيبين الضالين بسبيل « التاريخ » ، أنها ليست سوى مثل يصور أدق التصوير موقف الشيوعى الفكرى المستنير ، فهو يضع كل إيمانه فى « آلية » التاريخ لأنه حتى وإن تحقق على أيدى أشرار ، وبوسائل أسيئة ، فسوف يجعل الناس فى النهاية أخياراً ، كما رأينا النظام الرأسمالى يدفع اعتباطاً جميع المقاصد الطيبة فى طريق الحرب والدمار ، وإن كان معاشر الشيوعيين لا يروقهم أن تبسط أمامهم حقيقة العقيدة الشيوعية على هذا النحو الصادق الصريح .

وكان هنرى بوليت قد نبأنى أن أبدع قصة ثورية فى نظره هى قصة « جاك لندن » « الكعب الحديدى » !

وانقضت بضع سنين على هذا الحديث الذى جرى بينى وبين شالمرز ، وعرض لى بعد ذلك فى عام ١٩٢٧ أن أسأله عن رأيه فى سلسلة المحاكمات الروسية الأخيرة التى شملت بوخارين ورادك وغيرها ، فتردد لحظة وأطلق بصره بعيداً كأنما ينظر إلى شىء قصى ثم طرف بعينيه ومضى يقول « لقد كثرت هذه المحاكمات حتى تركت التفكير فيها من زمن طويل » .

وكذلك قرر فى نفسه ، وارتضى الوسائل الحالية ، لأن كل أمله كان مركزاً فى شىء واحد ، وهو الغد ...!

وكان شالمرز يجمع بين الإيمان بالتطور التاريخى الذى لا يخطىء ولا يضل ، كما

يقول ماركس ، وبين إيمان غريب ، بل إيمان « متصوف » بالعمال، فقد كان يعتقد أنهم يمثلون المستقبل وأنهم سوف يزدهرون فى حضارة أفضل لو أتيحت الفرصة لهم .

ولست أشك فى أنه لم يكن متطيراً بشىء ، أو موجساً من ناحيـة ، تتصل بوسائل الشيوعية وأساليبها ، اللهم إلا قوله إن المجتمع « البروليتارى » المتطهر من الطبقات ، فى عالم عمالى جديد ، سوف ينمو ويترعرع فى التربة ذاتهـا التى حرثت بوسائل الدكتاتورية الكادحة .

ولا يخفى أن فى هذا الإيمان عنصراً من «الصوفية» ، ولعل هذا هو سر فتنة الشيوعية وسحرها فى خاطر المستنير ، فإن الإيمان بالعمل السياسى والقوى الاقتصادية وأثرها فى إطلاق سراح طاقات جديدة فى هذا العالم ، هو إيمان من شأنه أن يقوى نفس صاحبه ، ويطلق سراح طاقته ، ويثير قوى جديدة فى نفسه ، فلا يعود يشعر برثاء لضحايا الثورة أو شفقة على صرعاها ، بل قد يعد الشفقة بمثابة عرض ظاهر من أعراض رغبة «رجعية» لديه فى الفرار من لوازم الثورة ومطالبها ؛ وفى وسع المرء أن يحتفظ بإيمانه بأهداف الإنسانية ومقاصدها العليا ، وأن يتجاهل فى الوقت ذاته وجود ألوف مؤلفة من الناس فى معسكرات الاعتقال وغيابة المحابس ، وألوف آخرين فى أعمال « السخرة » يكدحون مستذلين . وإنه ليتسـاءل : ألهؤلاء حقاً وجود ؟؟ وسواء كان لهم وجود ، أو لم يكن، فإن الزعم بوجوده ليس إلا دعاية «بورجوازية» ، فلا مناص إذن من أن ينكر أن فى روسيا معسكرات اعتقال أو معسكرات للمسخرين ، فقد أصبحوا «أصفاراً» فى حجة المؤمنين بأن الحاضر للنضال ، والمستقبل للشيوعية ، وهو عالم سيصبح كل إنسان فيه على الدهر حراً ؛ فإن اعترف امرؤ بينه وبين نفسه بوجود تلك المعسكرات وأولئك الضحايا ، فلا منـدوحة له عن اعتبارهم تضحيات لا بد منها فى سبيل نصرة القضية ونجاحها ، ولا معدى له عن القول بأنه من الضعف « الإنسانى » أن يكثر الناس من الكلام عن الضحايا ، وإنما كل ما يجب هو أن يضع المرء الهدف نصب عينيه ، فلا يلبث بذلك أن يتخلص من الشعور بالاستنكار

والقلق اللذين يلازمان عقلية الأحرار ، وإن كان شعوراً لا جدوى منه ولاخير فيه ، على كل حال .

ولا تنس أيضاً أنه إذا كانت للشيوعية ضحايا ، فللرأسمالية ضحايا أكثر منها عدداً ، وإلا فما بال الملايين من المتعطلين ، فى أيام السلم ، والملايين الآخرين الذين يقتلون فى الحروب ، أليس هؤلاء جميعاً ضحايا التنافس الرأسمالى وفريساته ؟؟ أو ليست الرأسمالية نظاماً يقوم على التضحية بالملايين حتى لينمو عدادهم كلما نما شأنها واستطال أمدها ؟

أما الشيوعية فنظام ستنعدم فيه الضحايا ما دام الكل فيه شيوعيين فى مجتمع غير مقسوم طبقات ولاموزع طرائق ، وماضحايا اليوم إلا ضحايا الثورة ، لاضحاياها هى بالذات ، ويوم تنجح الثورة ، وتذوى دكتاتورية «البروليتاريا» ، تقل الضحايا بطبيعة الحال ، لأن الشيوعية ليست بحاجة إلى استغلال الطبقات ، وإنما كل ماتقتضيه هو تعاون الناس جميعاً على قيام عالم أفضل .

وقد مضيت خلال الأعوام التى توالت بعد عام ١٩٣٠ أحاجٌ نفسى على هذا النحو وأناقش خاطرى ، وكان شعورى بالإثم يعزز حججى ، وكانت استرابتى بأن ذلك الجزء منى الذى يرثى لضحايا الثورة وصرعاها ، إنما يناصر خفية الرأسمالية ويؤيد مساويها وشرورها التى أفدت أنا شخصياً منها وانتفعت .

وكانت البذور التى غرسها شالمرز فى خاطرى بحملاته على عصبة الأمم ، والنقد الضمنى الذى وجهه لى حين وصفنى بأننى من شيعة « غاندى » ومريديه . . قد تركتنى فى الأشهر التالية أعتقد أن جميع الأعمال العامة ، وكثيراً من التصرفات الخاصة والشخصية ، نوعان : أحدهما من أجل الشيوعية ، والآخر ضدها . وأن الدوافع « الشخصية » لا صلة لها مطلقاً بالنزوع « الموضوعى » إلى إتيانها ، فإن من يعمل مع الفقراء ، ويجاهد لخيرهم ، ويود صادقاً أن تتحسن دنياهم ، وينصلح عالمهم ، قد يكون من الناحية « الموضوعية » ضد العمال إذا جعل الذين يشتغل لخيرهم راضين

بمجتمع رأسمالى قانعين ببقائه واستمراره . والواقع أن القسيس الفقير ، والمساعد فى الخدمات الاجتماعية ، هما من صنائع الأغنياء وأدوات الرأسماليين ، سواء بسواء .

ولكنى آمنت اليوم بأنه من الجائز أن يتولى حكم بلد من البلاد زعماء يؤمنون إيماناً صادقاً بأنهم من الاشتراكيين . ولكنهم مع ذلك لا يريدون استخدام الوسائل القاسية العنيفة التى تتذرع الثورة بها ، وأن هؤلاء الاشتراكيين قد يجدون أنفسهم يوماً فى مركز تتعرض فيه الاشتراكية للخطر من جانب الرأسماليين الذين وطنوا نفوسهم على تدمير سمعة البلاد فى الخارج ، على أمل أن يتمكنوا بذلك من تدمير سمعة الحكومة الاشتراكية أيضاً ، فلا يسعها عندئذ غير قضاء لبانة الرأسماليين ، أو الالتجاء إلى الوسائل العنيفة لتحطيم الرأسمالية .

وقد أثبتت لنا الأحداث التى وقعت فى عام ١٩٣٠ أن الديموقراطيين الاشتراكيين أمثال « برون » وسيفرنج فى بروسيا ، ورمزى مكدونالد فى بريطانيا ، رفضوا حين رأو أنفسهم أمام أحد هذين الأمرين ، أن يتخذوا الثورة فعمدوا إما إلى اتخاذ الأمر الآخر ، أو لجأوا إلى الاستقالة والتخلى عن الحكم .

وقد مضيت أعرض حالتى الخاصة على التحليل ذاته الذى طبقته على أولئك الاشتراكيين الرسميين ، فجعلت أسائل نفسى ما الذى أريده حقاً وأبغيه .. ؟؟ هل ترانى فى هذا المجتمع ألهو على سبيل الترف الملازم لمركزى بالتظاهر الخداع المغالط لحقيقة نفسى بأننى أحب لغيرى ما أحبه لنفسى ، وأبتغى لهم التوفيق ذاته الذى أصبته ، والحظ عينه الذى أنعم به ؟؟ وهل ترانى على استعداد لقبول عالم اشتراكى ، إذا أنا صحوت من نومى فجأة فى يوم من الأيام فوجدت أن ذلك قد تحقق بغير ألم ، ونفذ بغير عنف ، أو أنا على استعداد لتأييد الوسائل التى قد تحقق هذا الهدف ، أو ارتضى قيام فترة « انتقال » قد تكون مرهقة كل الإرهاق بل شراً من الرأسمالية وأسوأ منقلباً . وقد يطول عليها الأمد ثم تنتهى إلى الهدف الذى يريده الاشتراكيون ويشتهونه ؟؟ وإذا أنا لم أرتض الوسائل التى ستجلب الاشتراكية ، أفلا تكون

أفكارى وآرائى مجرد مخادعة لنفسى ورثاء لها ، وحلماً مبرراً لتفكيرها ، وأمنية مغالطة لنزوعها ، دامامت الاشتراكية اليوم شيئاً آخر غير « الاتحاد العالمى للدول الاشتراكية » ، وما دامت مجرد الوسيلة التى قد تحقق الهدف ، مهما تكن من السوء والجفوة والعنف ... ؟

ولما سألت نفسى كل تلك الأسئلة ، وجدتنى مضطراً إلى الاعتراف بأن ما أريده حقاً وأبتغيه هو أن يعيش غيرى العيش الذى أعيشه ؛ ولكنى لا أرتضى الانضمام إلى العمال ، لأنه مطلب لا يروقنى ، وعمل لا أحسنه ، وأمنية أنا عن تحقيقها العاجز ؛ فلا أجرؤ على التفكير فى إضاعة « الاستقلال » الشخصى الذى أدين به لمركزى فى المجتمع « البورجوازى » ؛ ولكنى برياضة خيالى استطعت بعد لأى أن أبلغ حالة عقلية يتيسر لى فيها أن أقول لنفسى إننى مرتض تأييد الثورة ، حتى وإن اقتضت ضياع هذا الاستقلال، فإن ذلك لايختلف عن خسارتى الشىء الكثير إذا أنا دعيت إلى صفوف القوات فى حرب من الحروب ؛ ولكنى مع بلوغى هذه الحالة الذهنية لم ألبث أن واجهتنى احتمالات مزعجة لا صلة لها بمصلحتى الشخصية .

فقد عجزت عن التسليم بأنه لا معدى عن حرمان الغير من حرية التعبير عما يعتقدون أنه الحق إذا كان هذا الحق مخالفاً للحدود العرفية التى حددتها الدكتاتورية العمالية للحرية ومداها ، ولم أستطع أن أعتقد أنه من « الرجعية » السياسية الإيمان بالله ، أو التمسك بآراء وأفكار فى الطبيعة والإنسانية ، ليست فى عرف « ماركس » « علمية » ، لأن ماركس يبنى تحديده للوسائل « العلمية » على إنكار وجودها فى البحث الحر .

إن الشيوعية فى نظر المستنير السليم النية هى صراع الضمير ، وفى فهمها على هذا النحو بيان لعدة أمور ، وشرح لجملة مسائل ، ومنها أن الشيوعيين الذين يأتون أعمالاً قد تبديهم لغيرهم سفلة مستهترين ، قد يكونون فى الواقع مخلصين الإخلاص كله ؛ مثلهم كمثل السفن الملقية مراسيها ثوابت مزدوجة فى كلا مقدمها ومؤخرها ، وسط

تيارات متقاذفة تجعل السفن الأخرى تتمايل ذات اليمين وذات الشمال مترنحة ، وماهذه المراسى المزدوجة إلا الحلم الذى يداعب خواطرهم ، حلم المجتمع المتخلص من الفوارق والطبقات ، والأمل فى الغد المرتقب . وأما التيارات المتعارضة التى تزعج ضمائر الأحرار فهى هذه الهواجس التى تنتاب الأذهان من جهة الوسائل التى لا غناء عنها لتحقيق أهداف الشيوعية ومراميها ، ومعرفة آلام الألوف من الناس الذين ليسوا شيوعيين .

ويبين لنا هذا الضمير الشيوعى المكين المطمئن من هاتين الناحيتين سر الندم والأسف اللذين يبديهما أحياناً غير الشيوعيين نحو الشيوعيين الأقحاح الذين استقرت ضمائرهم بالساحل وألقت مراسيها المزدوجة ، ورسخت رسوخا ، فإن للضمير المستقل سلطاناً غلاباً ، وأثراً فعالاً بالغاً ، وهذا هو الذى يضفى على الشيوعى رهبة ، ويوحى إلزاماً ، ويجعل إيمانه بالشيوعية سخرية وتعييراً لكل من يدين بمذهب الأحرار ، ويترنح ضميره ويتمايل من مبدأ إلى مبدأ ، وهاجس إلى هاجس ، فتراه حيناً مؤيداً حرية كاتب قد يكون مجرداً من الضمير ، أو من شيعة « السيرياليزم » ، وحيناً آخر مناصراً قسيساً كاثوليكياً ، وحيناً ثالثاً أستاذاً فى السجن .

وليت شعرى أية قوة تلك التى يملكها الضمير الذى لايعيرنا بالشرور والعيوب فحسب ، بل يعيرنا ببعض الفضائل أيضاً ، كرثائنا للمظلومين بغياً وعدواناً ، أو حبنا لصديق ليس حزبياً متطرفاً ؛ أى قوة لضمير كهذا يقول لنا إننا مستطيعون إذا نحن اتخذنا موقفاً سياسياً معيناً اليوم ، أن نبلغ مركزاً ضخماً مكيناً كالصخر يغطى على كل ماضينا ، بغير غضاضة علينا ولامقارفة إثم ، ولا عسير محاولة ، بل بمجرد تحويل شخصيتنا كلها إلى مادة أولية تستغلها الأداة الحزبية لمصلحتها.

ليس ثمة شىء أسهل ولاأيسر من التوكيد بأن الهواجس والشكوك التى تخالج نفس الرجل المؤمن بمذهب الأحرار — مهماتكن هذه الهواجس حسنة النية ، والمراد منها طيباً — إنما تتجاهل الخير العام ، والصالح الاجتماعى ، بل ما أبسط وأهون من القول بأن هذه الهواجس ليست فى الواقع غير « نقط أمامية » على خط الدفاع عن

« البورجوازية » ، وأن الرجل حسن النية قد يدافع عن القوى التى جلبت أكبر النكبات على العالم ، ورمته بأفدح الخطوب ...؟؟

وقد أسلفت عليك الحديث عن تلك «الصوفية» العجيبة ، أو الإيمان الغريب الذى يؤمن العمال به ، وهو أنهم كطبقة سيخلفون البورجوازية . وهى «الصوفية» التى لا أشك فى أنها قد أحدثت أثرها فى نفس « شالمرز » ولكن فكرة «العمال» ذاتها لا يزال لها أثرها فى الصراع المحتدم فى أعماق ضمير الشيوعى المستنير . فقد يروح رغم إيمانه بالحرية الفكرية يسائل نفسه « لماذا ينبغى للعمال أن يتدخلوا فى حريتى؟ » فإن ما يطالب به ملايين العمال فى المناجم والألوف المؤلفة من الصناع والفلاحين هو شىء آخر غير الحرية فى ترقية شخصياتهم ، وتنمية قيمتهم ؛ إنهم يطالبون باستتباب السلام ، ووفرة الخبز ، وتحسين مستوى العيش ؛ فإذا كانت التضحية بحرية بضعة ألوف من المستنيرين هى الثمن الذى ينبغى أن يدفع فى سبيل خير الملايين ، فقد تتعين التضحية بها، إذ لعمرى ما قيمة شخصية كاتب متحمس يجلس فى مقهى كافيه دى فلور ، ويقضى الوقت فى التحدث عن « الوجودية » ، فى نظر الفلاح الهندى ، أو الحمّال فى الصين ..؟؟

إن المستنيرين ليسوا عمالاً، كما مضى هنرى بوليت يحدثنى ، فلا معنى للبحث فى أمرهم ، ما دام موقفهم لا يتجاوز حدود « النظريات » ، بل لقد تأثروا بالفاشية أشد التأثر ؛ وكان انتصار هتلر عام ١٩٣٣ هزيمة للحرية الفكرية فى ألمانيا ، وخطراً يهددالحرية فى كل مكان، وجعلت اليهود والمستنيرين على حد سواء ، قوى سياسية ، لمجرد أنهم مستنيرون ويهود لا أكثر ولا أقل ؛ وكان وجه الخطر من انتصار هتلر على الحرية العامة أنها تمس حرية الأقليات العنصرية ، وحرية العلماء فى استنتاج نتائج دون النظر إلى اعتبارات السياسة وظروفها ومواقفها، وحرية الشاعر والرسام فى التعبير عن أدق مشاهداته ، وألصق الأحاسيس بدخيلة نفسه . وقد شاهدت فى ذلك العهد أفلاماً روسية كفيلم «الأرض» وفيلم «بوتومكين» والأم ، والأيام ، التى هزت

العالم ، والطريق إلى الحياة ؛ وهى جميعاً من أوفر المنتجات الفنية فى العالم براعة و إثارة للحماسة ، وقرأت كتباً وبحوثاً لموريس هنداس ولويس فيشر وغيرهما ، وهى جميعاً تنوه بالتقدم الاجتماعى الكبير فى الاتحاد السوفييتى ، وتبين لى أيضاً أن النقد الذى قرأته يومئذ عن روسيا وصدقته لأول وهلة لم يكن سوى دعاية ضدها ، وجاء نشر الدستور السوفييتى فبعث فى النفس الأمل فى قيام عهد جديد فى روسيا يتوافر فيه نصيب كبير من الحرية .

وأما اليوم وأنا أكتب هذه السطور ، فيبدو لى أن ذلك كله كان فى الواقع سخرية أو حلماً كاذباً لأن الاستالينيين اليوم إنما يمثلون الخطر ذاته الذى كان أشياع هتلر فى عام ١٩٣٣ ، يهددون به الحرية الفكرية و إن لم يكن ذلك جلياً ظاهراً فى ذلك الحين ؛ وكان الغالب على الظن إلى قبيل مقتل « كيروف » أن روسيا توشك أن تظفر بقسط كبير من الحرية بدليل ما كان ملموساً يومئذ فى المسرح من التطورات السريعة ، وما بدأ يدخل من التحسين على السينما والموسيقى ؛ ولست أنكر أن الذين كانوا عندئذ يزورون روسيا بواسطة الهيئات السياحية ظلوا تحت رقابة شديدة وحراسة مطبقة ، وعيون تترصد لهم ؛ ولكن روسيا لم تكن مع ذلك معزولة عن بقية العالم ، لأن الدعاية المتهوسة التى كان المناهضون للثورة يوجهونها أفادتها كثيراً على كل حال ، بإثارتها جواً كثيفاً من الضباب جعل من المتعذر على الرقيب المجرد من الهوى أن يقبل ما يقال ضدها و يروى عنها ، وعلى ذكر الدعاية أقول هنا إن الدعاية ضد الشيوعية دلت على أنها أجدى ما تكون على ستالين وأكبر نفعاً من أية دعاية استعين بها منذ قيام الثورة البلشفية .

فلا عجب إذا رأينا اليهود والمستنيرين أو معاشر « الكتبة » الذين أبت عليهم أذهانهم « المستنيرة » أن يرتبطوا بأى علائق طائفية ، أو صلات حزبية ، مضطرين إلى البحث عن حلفاء لهم وأنصار ، وحين خاب أملهم فى الديمقراطيات تحولوا بوجوههم شطر الحركة العمالية ، وراحوا يوازنون بين مساوىء التعطل بالجملة وعيوب

« الفاشية » وويلات الحروب ، وبين سيئات الشيوعية وآثامها ، فلم يلبث الأمل أن مضى يداعب أحلامهم فى أن تكون الشيوعية علاجاً يعين على إزالة هذه السيئات ، ووضع حد لهذا المنكر العظيم ، حتى لقد شهدنا كاتباً حراً كالمستر « فورستر » يكتب قائلا إن الشيوعية هى العقيدة السياسية الوحيدة التى يقوم عليها الأمل فى الغد المرقوب ، وإن استطرد يقول إنه لا يرضى لنفسه أن يكون شيوعياً ، وهكذا تحولت الحياة الفكرية فى عام ١٩٣٠ إلى جدل مستطيل حول « الوسائل والغايات » .

ولكن الذين أسهبوا فى ذلك الجدل المحتدم المصدع للرءوس ، راحوا على الأيام ينظرون إلى الأمر نظرة مختلفة ، فقد أزعجتهم الأزمة الاقتصادية فى ذلك الحين ، وجاء انتصار هتلر فبدد دعواهم أنهم يعيشون فى عالم أخذ التعصب يقل فيه ، ورأوا اضطهاد اليهود فثارت الشفقة فى نفوسهم ، واحتدم الغضب ، واشتد السخط .

وليس من شك فى أن الحرب الأهلية فى أسبانيا كانت الطامة الكبرى فى عام ١٩٣٠ وذروة البلاء والسوء ، وكانت النتائج التى قد تسفر تلك الحرب عنها تلوح فى أسبانيا ذاتها ، وأعين الشعب الأسبانى نفسه ، أكثر تعقيداً وتشعباً مما كانت تبدو فى تقدير الذين يعيشون خارجها ، وقد يكون ثمة بعض الحقيقة فى قول « آرثر بريانت » Arthur Bryant إن الأسبان فى كلا الجانبين المتحاربين كانوا أشد كراهية للذين هرعوا إلى معونتهم منهم لخصومهم الأسبان ، وأعدائهم المواطنين ؛ ولكن أسبانيا كانت تبدو أمام العالم كله يومئذ المسرح الذى تمثل عليه مأساة الصراع بين الفاشية وخصومها .

وجعل تدخل موسولينى وهتلر ، ثم روسيا ، والفرقة الدولية ، فى الحرب الأسبانية فى ذلك العهد مدار الصراع العام فى أوربا لاستنقاذ روحها ، فقد ثار القواد الأسبان فيها على حكومة انتخبها الشعب ، فما إن عجز الثائرون عن تعزيز ثورتهم ، وأقبلت قوات من الخارج لتساهم فى النضال ، حتى أصبحت المقاومة الجمهورية ذاتها قضية الديمقراطية ، ومقاومة الثوار ، قضية « الفاشية » .

وكان هذا الوجه من التفكير هو الذى تحارب من أجله إيطاليا وألمانيا وروسيا والفرقة الدولية على التربة الأسبانية ، وإن اشترك الأسبان فى الصراع لنصرة كلا الجانبين .

وقد تحول الصراع بين الفاشية الأوربية والحركة المناهضة لها إلى « مأساة » تمثل على المسرح الأسبانى كأنها بعض الروايات التمثيلية الدامية ؛ وما لبثت النزعة العاطفية الغريبة التى ركبت فى نفوس الأسبان والجنوح الذى طبعوا عليه نحو الأمثلة العليا ، وحدة المزاج التى عرفوا بها ، ومشاهد الطبيعة ذاتها فى بلادهم ، أن خلعت على الحرب لوناً بارزاً ، وزادتها شدة واستعاراً ، وأضفت عليها لوناً من الشعر لم يكن لها من قبل ، وما كان لها من بعد .

لقد كانت تلك الحرب قبل كل شىء حرباً لايزال الحساب فيها والاعتبار للفرد وعاطفته ونزعاته واستقلاله عن الوسائل الميكانيكية، بل فى الحق لقد كانت من ناحية ما حرب فرد فوضوى أو حرب شاعر ، وقد رأينا خمسة على الأقل من خيرة كتابنا الشباب يهبون لها أرواحهم كما وهبها لها الشعراء من مختلف البلاد ، وهذا هو ما اجتذب إليها المستنيرين وفتنهم بها فتوناً .

ولم يلبث الصراع القائم بين الفاشية والديمقراطية بعد سقوط الجمهورية ، أن أمسى صراعاً كان الحساب فيه والاعتبار للجيوش والآلات والبيروقراطيات أكبر من حساب الأفراد .

وكنت قد شخصت إلى جبل طارق فى المراحل الأولى من تلك الحرب ، وزرت أوران وطنجة ، ولشد ما كانت دهشتى لمشهد الحمية التى كانت تسود الناس فى المجامع لنصرة الجمهورية الأسبانية ومظاهرتها ؛ وما أحسبنى رأيت فى حياتى اجتماعاً كالذى حضرته فى طنجة ، فقد رأيت عدة مئات من أشد خلق الله فاقة ، وبينهم المقعدون والكسيحون والعمى ، يستمعون فى حماسة بادية على سحنهم إلى الخطباء الذين كانوا يدافعون عن قضية الجمهورية .

لقد بدا لى فى هذا المشهد بريق من الولاء والأمل المشع ، جعلنى أتمثل فى خاطرى الجموع الحاشدة التى وصفها « الإنجيل » .

وكنت أينما أذهب فى غمار تلك الحشود الشيوعية أستشعر روعة بالغة من مشهد ثقتهم وطمأنينتهم وحسن سلوكهم ، وفى «أوران» وسط الضجيج والعجيج والعربدة الشائعة فى الميناء ، كان الشيوعيون الذين ألفوا الاختلاف إلى مقهى صغير يلوحون كأنهم فى عالم مختلف عن عالم المدينة كل الاختلاف .

وعلى النقيض من الأثر الحسن الذى قام فى نفسى من مشهد معاشر الشيوعيين ، كان إحساسى من ناحية الموظفين ورجال الأعمال الذين يمثلون مصالح الدول الديموقراطية فقد تبين لى أن أكثر الذين لقيتهم من هؤلاء كانوا يؤيدون فرانكو ، وفى وسعى أن أضرب عدة أمثلة ، ولعل أشملها ما شاهدته فى طنجة التى تتولى الإدارة فيها لجنة « دولية » تتألف من وزراء ينتمون إلى عدة دول كبريطانيا و إيطاليا وأسبانيا وبلجيكا وفرنسا ؛ وكان « بريتو دل ريو » الوزير الأسبانى الذى يمثل الجمهورية منبوذاً من الآخرين ، أو منقطعاً عنهم .

ولما ركبت سيارة « تاكسى » وطلبت إلى السائق أن يذهب بى إلى دار المفوضية الأسبانية ، راح يتبع إجراء معيناً ، ويأخذنى إلى دار البريد ، وهى يومئذ مقر رياسة الجنرال فرانكو ، ورأيت المدعوين إلى حفلة « كوكتيل » فى المفوضية البريطانية يتحدثون عن الوزير الأسبانى قائلين إنه قلما يحدث أن يتخذ رجل طيب مثله الجانب المخطئ ، وهم يعنون به جانب « الجمهورية » فى بلاده ، ذلك الجانب الذى يمثل الحكومة الشرعية التى اعترفت الحكومات الأخرى بها .

ولما زرت بريتو دل ريو فى النهاية وجدته جالساً مع رجلين من أعوانه وموظفيه معزولاً عن الحياة « الرسمية » فى طنجة ، التى كان عضواً فى حكومتها .

وفى جبل طارق وصف لى موظف بريطانى متقاعد الموقف وصفاً صريحاً جلياً ، تخالطه سخرية مرة لم يكن يقصدها ، فقد ذهب يقول لى إن الشىء الذى لا يفطن

إليه الناس فى بلادنا هو أن الجمهوريين الأسبان ليسوا كديموقراطيينا ؛ ولو أنك ذهبت إلى الشارع هنا وسألت أول عشرة من العمال الأسبان تلقاهم ، أى الجانبين فى بلادهم يناصرون ، لقالوا لك جميعاً ، إنهم يناصرون الجمهوريين . إن هذه ليست فكرة الديموقراطية عند البريطانيين مطلقاً ، وهو مايريده تسعون فى المائة من الشعب ..

وبدا لى أن الموظفين البريطانيين فى جبل طارق لا صلة لهم بالأسبان الذين يريدون الجمهورية ، وأنهم لا يعرفون غيرالذين يشتركون فى الصيد ، وأنهم سمعوا منهم روايات شتى عن الفظائع التى يقترفها الجمهوريون ، وينكرون علمهم بشىء عن وحشية الآخرين .

وبعد أن زرت برشلونه ومدريد وبلنسية مرة أخرى بعد زورتى الأولى ، اشتركت عند عودتى إلى الوطن فى مظاهرة مناصرة للجمهورية الأسبانية ، وألقيت خطباً وانضممت إلى عدة لجان ، وحملت فى ذات مرة مع بعض الكتاب الآخرين لافتات خشبية كتبت عليها هتافات مؤيدة للجمهورية ، ومضينا نخترق بها شارعى أوكسفورد وريجنت .

وكانت تلك الأيام هى الفترة التى قامت فيها الجبهة الشعبية ، وكانت العوامل العاطفية التى أوقدت هذه الحركة وأكسبتها الحياة، بعثاًغامراًلفكرة الأحرارومشاعرهم وإن لم يكن فى بريطانيا يومئذ أحد من الأحزاب يمكن أن يقبل على تلك الحركة ويناصرها إلا معاشر الشيوعيين ؛ فقد كان حزب العمال لا يزال متأثراً لم ينقه بعد من غدر رمزى ماكدونالد وخيانته ، فلا عجب إذا استغل الشيوعيون هذه الحركة التى أعادت الحياة إلى مبادىء الأحرار ، وإن ظهرت فى صورة المناهضة للفاشية .

وكان بين المستنيرين والكتاب من أمثال فيكتور جولانكز وجون ستراشى وجورج أورويل(١) وآرثر كوستلر وفورستر ، فريق لا يترددون فى

(١) مؤلف « مزرعة الحيوان » ، وهو كتاب أجراه على ألسنة البهائم ككتاب كليلة ودمنة ووصف فيه روسيا الشيوعية أبدع وصف ، وقد نقلته بقلمى إلى العربية أخيراً « بعنوان أسطورة الحيوانات الثائرة » وسيظهر قريباً .

مجاراة الشيوعيين والذهاب مذهبهم فى مقت الفاشية ومقاومتها ، والدفاع عن الحرية والعدالة الاجتماعية ، كما رأينا خلقاً كثيراً ممن لم يكونوا شيوعيين يبذلون قواهم فى سبيل تأييد الجمهورية الأسبانية مؤمنين بأنها « قضية الديموقراطية » .

ولو أن الشيوعيين أقبلوا على الجبهة « الشعبية » بذلك الإيمان القوى الذى أقبل به الاشتراكيون والأحرار عليها لامتدت حركة ديموقراطية من أقصى اليسار إلى وسط الأحرار ، ولظفرت بتلك الحمية والسماحة وسعة الخيال التى كانت ثورات الأحرار فى سنة ١٨١٨ مقترنة بها ؛ ولكن القدر الموكل بالشيوعيين قضى بألا يفكروا فى شىء غير تأليف جبهات متحدة ليتولوا الرقابة عليها من الداخل ، وهكذا راحت قوى الأحزاب تتأثر بالحزب الأوحد الذى كان يلح فى إعلان رغبته فى الوحدة ويرفع الصوت عالياً فى مناشدتها .

وكانت أزمة ١٩٣٠ الاقتصادية ، ونكبة جمهورية « فيمر » ، وسقوط «فيينا» الاشتراكية — وهى الأحداث التى شاهدتها من الخارج — قد اضطرتنى يومئذ إلى قبول مكان لى فى الشيوعية وإن لم يتعد الناحية النظرية الصرف ، فمضيت فى أشعارى وفى كتابى «خطوة أخرى بعد مذهب الأحرار » أقرر أن الشيوعية ضرورة عقلية عاطفية ، ولم يلبث إلحاح بوليت على فى وجوب المعاونة والعمل فى أسبانيا أن دفعنى إلى الحزب الشيوعى دفعاً .

ولكن أسبانيا مع ذلك هى التى ورطتنى فى أولى تجاربى العملية واشتغالى بالسياسة مع سواى ، كما تجاوزت بى هذه الخطوة التى جعلتنى عضواً فى الحزب إلى ماوراءها ، بل إلى خارج الحزب ذاته ، فلم ألبث أن بدأت أدرك أنه إذا كانت الشيوعية هى القوة المنظمة الموجهة التى تكمن خلف مناصرة الجمهورية الأسبانية ، فان قوة الجبهة الشعبية ونشاطها الحقيقى ، إنما يتغذيان بتأييد الذين يحترمون فيهم مذهب «الحرية» وأقيسته ؛ بل لقد فطن الشيوعيون أنفسهم إلى أن ما جعل أسبانيا جهاداً وشعاراً ، أو عملا ورمزاً ، فى القرن العشرين ، هو بذاته الذى جعل لعام ١٨٤٨ وانقلاباته

خطره البالغ وعظيم شـأنه فى القرن التاسع عشر ، ونعنى به أن الجمهورية لم تكن شيوعية ، حتى لقد رأينا معاشر الشيوعيين يعلنون ذلك من البداية ، ويجاهرون به رغم محاولتهم استغلال الموقف والإفادة منه ، وينكرون فى غضب قول القائلين إنها شيوعية ، ويقولون إنهم إنما فعلوا ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن ذلك من قبيل الدعاية الحسنة ، بينما مضوا فى تصرفاتهم وتدابيرهم يحاولون جاهدين تكذيب تلك الدعاية ومناقضتها ، والاستيلاء على السلطة فى أسبانيا والإشراف على الهيئات التى كانت تجلب المعونة إليها من الخارج .

وما لبث الأحرار وهم الأخيار حسنو النية أن وجدوا أنفسهم بدافع من حلفائهم الشيوعيين ، رغم مناصرتهم للجبهة الشعبية ، مواجهين صراعاً نفسـياً ، أو صراعا فى أعماق الضمائر ، أحدث صـدعا بالغاً فى صفوف المناصرين للجمهورية ؛ فإن الحرب الأسبانية كانت يومئذ فى أعين الشيوعيين مرحلة من مراحل نضالهم فى سبيل الوصول إلى القوة والسلطان ، وليس ثمة عجب أن يصبحوا عندئذ القوة المحركة فى الجبهـة الشعبية وأسبانيا خاصة ، لسيطرة فكرة واحدة على عقولهم ، ولشدة تعصبهم لرأيهم ، ووحدة اتجاههم ؛ بل كانوا أيضاً القوة التى تكبح القوى الأخرى وتمسك بها ، وهى القوى التى كانت فى النهاية أكثر حيوية منهم ، لأنها أكثر تشعباً ، وأشـد اهتماماً بالحرية ، والاستقلال فى الرأى ، ومختلف ضروب التعبير ووسائله .

ويكاد كل ما كتب عن الحرب الأسبانية يصـور « البعث » الذى طرأ على مذهب الأحرار ، ولم يصب الشيوعيون منها شيئاً ، لأن « أورثوذكسيتهم » كادت تقتل البحث فى الأفكار السارية ، والآراء الشائعة ، وتعمى العين عن مشاهد تشعب الأحداث وتعقدها ؛ وكانت أفضل الـكتب التى وضعت عن الحرب — وهى كتب مالرو Malraux وهمنجواى Hemingway وكوستلر وأورويل — مفعمة بوصف المأسـاة الأسبانية من وجهة نظر الرجل الذى يدين بمذهب الأحرار ، وهى شاهدة على الشيوعيين وما اقترفوه من أغلاط وآثام .

وقد رأيت خلال زيارتى الثانية لأسبانيا كيف استطاع الشيوعيون الرقابة التامة على « الفرقة » الدولية وكان أفرادها قد جندوا على « حس » الجبهة الشعبية المنتمية إلى الجمهورية ، فإذا بالشيوعيين يركزون فى أيديهم جميع العناصر الديموقراطية المختلفة التى كانت الفرقة تتألف منها ، وكان هذا التركيز إلى حد ما مثلاً من الأمثلة على ما كان الشيوعيون يفعلونه فى أسبانيا ، والوسائل التى كانوا يتوسلون بها ؛ وكان هدف هذه الخطة فى داخل الجيش الجمهورى دعوة الأحزاب إلى تأليف جيش تندمج فيه سائر الهيئات السياسية وتشكيلاتها ولجانها وشعبها ، لكى ينتزعوها فى النهاية ويظفروا بالرقابة على الجيش بجملته .

وقد وقعت أحداث أليمة فى الفرقة الدولية من أثر سيطرة الشيوعيين عليها ، ولا أزال أذكر حادثة منها ، فقد التقيت عند زيارتى للجبهة فى مدريد بفتى انجليزىّ لا يتجاوز الثامنة عشرة وكان يدعى ل ... وقد حدثنى قائلاً إنه جاء إلى أسبانيا وهو معتقد أن الفرقة الدولية لا تقل إيماناً بمذهب الأحرار عن الجمهورية ذاتها ، ولكنه ما لبث أن فقد إيمانه بها حين تبين له أن الفرقة واقعة فى قبضة الشيوعيين ، ولم يكن يحبهم أو يجد فى نفسه جنوحاً إليهم ؛ وبدا لى حين ناقشته أنه لم يكن قد فكر يوماً فى الشيوعية قبل مقدمه إلى أسبانيا ، فسألته هل يأذن لى أن أحاول إعادته إلى بلاده فلم يشأ أن يدعنى أفعل شيئاً من ذلك ، وراح يشير بيده إلى طرة التل المشرف على الوادى حيث كنا نقف وهو يقول « إننى سأظل إلى آخر حياتى أمشى فى كل صباح هنا ذهاباً وجيئة حتى أقتل يوماً وأذهب من هذه الدنيا ... » .

وقد ذهب قتيلا بعد ذلك بستة أسابيع ...!

ولما عدت إلى انجلترا كتبت مقالاً نشرته جريدة « نيوستيتسمان » أحتج فيه على الدعاية التى حملت الشبان والفتيان الصغار على التطوع فى صفوف الفرقة الدولية دون أن يشرح لهم أحد أنها هيئة عسكرية يتولى الشيوعيون الهيمنة عليها .

وقد أغضب ذلك المقال معاشر الشيوعيين ؛ فقد لقيت بعد بضعة أسابيع من

تاريخ نشره وأنا فى « بلنسية » مراسلاً لإحدى الصحف الشيوعية ، فقال إنه رأى المقال وإن ما كتبته عن أسبانيا صحيح ، ولكنه مضى يقول إن المهم هو أن يكتب المرء ما يعتقد أنه خير سبيل إلى تحقيق الأهداف التى يراد بها كسب الحرب ، وظفر الشيوعية ؛ وكان يناقشنى برفق ومودة بالغة ، مظهراً ذلك النوع من الاستخفاف بآلام الضحايا الذين يذهبون فداء لقضية صادقة ومبدأ قويم .

وكان سلوك الشيوعيين فى الفرقة الدولية يشابه سلوكهم ذاته داخل الجمهورية ، ولا يختلف أيضاً عن سلوكهم فى أمر الدعاية ، فقد ذهب دعاتهم ينسبون أحداث القتل والمجازر إلى الفاشيين ، ويصورون الجمهوريين فى صور الملائكة ، ويصفون الذين يقولون إنهم كانوايقتلون الناس، ويرتكبون الفظائع بأنهم « فاشيون » أيضاً .

وهذه الصورة هى التى نفاها مالرو فى قصته ، وكذبها « همنجواى » فى روايته ، وهما القصتان الوحيدتان البارزتان عن الحرب الأسبانية .

وهناك مثل آخر على سذاجة الدعاية وفسادها ، وهو استغلالها لمقتل « لوركا » .

ولم يكن الرجل شيوعياً ، ولكنه كان « كاثوليكياً » فر إلى « فرانكو » فى بداية الحرب ، فقتله الفاشيون وعمد الشيوعيون إلى استغلال مصرعه على هذه الصورة لأنهم يكرهون « الهراطقة » الأحياء ، ولكنهم قد يستغلون الموتى منهم ، ما دام مصرعهم لم يكن على أيديهم ؛ وقد ينتفعون بالخادم القديم للتدليل على أن معاشر الشيوعيين قوم سماح ، وأن خصومهم قوم قباح ضيقو الأعطان .

فلا عجب إذا كان وصف « لوركا » بأنه كاثوليكى محافظ ، بل رجعى ، لم يغضبهم مطلقاً ولم يسوءهم ، ما دام فرانكو هو المسئول عن مقتله ، بل كانوا بلا شك سيغضبون لو قيل عنه إنه « أحمر » ؛ فقد كان الشيء الوحيد الذى لا يغتفر عندهم ولا يقبل سماحة ، هو أن يقال إن هناك غموضاً حول ظروف موته .

وقد لاحظت وأنا فى أسبانيا أن أكثر الشعراء الأسبان كانوا مستحيين من هذه الدعايات التى روجت حول الوفاة .

وكان شراً منها وأسوأ تلك الحملات والدسائس وقالة السوء التى كانت توجه إلى الهيئات المنتمية إلى الجمهورية الـكارهة للشيوعيين . فقـد كان القضـاء على جماعـة التروتسكيين وجماعة « البوم » Poum والتشهير بجميع أفرادها وتصويرهم كفاشيين وصمة عار فى جبين الجمهورية عند سائر الذين لم يكونوا شيوعيين .

وقد حدثنى بعد الحرب قائد أسبانى فقال إنه يعتقد أن الدعايات الشيوعية أضرت بقضية الجمهورية أكثر مما نفعتها فإن قضيتنا كانت من الحق والسداد بحيث لا يعجزنا شىء عن قول الحقيقة بسبيلها .

وهذا قول حكيم ، ورأى صائب ، فإن الدعاية التى تصور أصدقاءها بيضاً ناصعى البياض ، وأعداءها سوداً فاحمى السواد ، لا تقنع أحداً سوى الذين صدقوا بها من قبل وسكنوا إليها ، ولا تجد مصدقين جدداً ، ولا تصيب مؤمنين ، لأنها من الوجهة الإنسانية غير قابلة للتصديق ، إذ هى ترسم الأحداث البشرية كأنها أمور « مجردة » لا يعتقدها غير العمى الذين لا بصيرة لهم ، وتُستَنفَر نفوس الذين يعطفون على القضية ولـكن أعينهم مفتحة .

وكثيراً ما أدت الدعايات الشيوعية ضد الجمهورية الأسبانية إلى تنفير الذين كانوا مخدوعين بها ، و إحداث رد فعل قوى فى نفوسهم، فقد لقيت فى بلنسية رجلاً يصور المخدوعين الذين زالت الغشاوة عن أعينهم أدق تصوير ، فقد كان صحفياً أمريكياً يراسل صحيفة بريطانية كبيرة ، ويعد بلا شك من أكبر العاطفين على الجمهوريين ، حتى لقد جعل يجلس فى ردهة فندق فيكتوريا ليقرأ صحيفته، ويبدى الغضب والاستياء مما يقرأه كل يوم فيها من فيض الأنباء التى يبعث بها زميله المراسل الآخر الذى يقيم مع فرانكو، وقلة الأنباء التى يرسلها هو إليها، لما يتناولها المحرر به من البتر والاختصار والاقتضاب ، حتى لا يبقى منها إلا على النزر اليسير .

وأقبل الرجل فى ذات يوم بتلك البراءة التى يمتاز أحياناً بها أذكياء الأمريكيين يسألنى هل ارتكبت حقيقـة حوادث القتـل الـكثيرة التى وردت الأنبـاء عنها فى

بلنسية و برشلونة وقيل إن الجمهوريين هم مرتكبوها ؟ فقلت إنه لايبعد أن تقترن كل حرب ثورية بأعمال عنف وقسوة .

قال بسذاجة : لماذا ينكرون إذن ما هو واقع ؟ أفلا تهز هذه الفكرة إيمانك بالجمهورية ؟

قلت : مطلقاً . إن إيمانى بها لن يزول إلا إذا اعتقدت أن هذه الوقائع صحيحة فعلاً .

وقد ذهب صديقى الأمريكى بعد بضعة أسابيع إلى برشلونه ، وكان مقدمه إليها فى الوقت الذى بدأ الشيوعيون فيه يتخلصون من جماعة « البوم » ، فلم يسعه إلا تكذيب كل ما كان الشيوعيون ينسبونه باطلاً إليهم ، وغادر أسبانيا ، وانقطع عن مناصرة الجمهورية .

وفى شهر يولية عام ١٩٣٧ حضرت مؤتمر الكُتّاب الدولى الذى انعقد فى بلنسية ومدريد ؛ وكان «أندريه جيد» قد نشر يومئذ كتابه «عودتى من روسيا السوفييتية» وهو سجل يومى للحوادث التى رآها الكاتب فى زيارته ؛ ولو أن كتاباً مثله وضع عن أمريكا ، أو بريطانيا أو إيطاليا أو فرنسا لما أثار تعليقات كثيرة ، ولا أحدث استياء شديداً ، ولكنه كان يتناول الأحداث فى روسيا ، ويصف بجانب الكثير الذى ظفر بمديحه ، طغيان ستالين ، والجو المشبع بالريبة والمخاوف الذى كان يسود البلاد ، ولم يرق الكاتب ، بل استنفره وأوغر صدره ، فلم يلبث أن أطلق الشيوعيون فى جميع أرجاء العالم صرخة مدوية كصيحة أم من رؤية طفلها المدلل يتلقى تأنيباً شديداً من أحد المارة فى الطريق ؛ وإذا بالكاتب الكبير الذى ذهب لتحية أرقى ديموقراطية فى العالم ، يصبح فى نظرهم فاشياً ، منحطاً ، خائناً ، وتتناوله صحفهم بالتشهير والسباب إلى حد شنيع ، بدا لى يومئذ شيئاً لا أستطيع له تصديقاً .

ولم يكن للروس الذين حضروا ذلك المؤتمر من مظهر بارز اللهم إلا من ناحية صلفهم واضطراب عقولهم ، وهياج أذهانهم ، وكلما خطب منهم خطيب لم يتناول الأدب

فى شىء من البحث المستفيض ، أو الدراسة الوافية ، و إنما جعلوا يسخرون من تروتسكى و يستهزئون بأندريه جيد ، و يمدحون ستالين والشيوعيين ، ثم يجلسون .

ولم أر إيليا أهرنبرج ولا إليكس تولستوى ولا كولتزوف ولا أحداً سواهم يقول شيئاً فى المؤتمر أو المجالس الخاصة ، يمكن أن يثير نقاشاً بين المندو بين الآخرين ، ولم تكن لهم آراء مبتكرة ، ولا خواطر مستقلة ، وكانت كل براعة كولتزوف السخرية من كتاب أندريه جيد ، و إن كانت هذه الموهبة الساخرة لم تنقذه من الاختفاء والخمول عند عودته إلى روسيا .

وقد ذهبت فى جلسات المؤتمر أبين للمستمعين كيف أن الناس لا يريدون أن يؤمنوا بما يكرهون أن يؤمنوا به ، وكنت قد ركبت فى سفرى من بلنسية إلى برشلونة عند عودتنا من المؤتمر سيارة كان بين ركبها أيضا شاعر شيوعى ، وسيدة قصصية ، وصاحبة لها من الشاعرات ، وكان مجلسى فى المقعد الأمامى بجانب السائق ، وهو رجل مرح ظريف راح يحدثنى مباهياً بأنه أطلق النار خلال الحوادث التى وقعت ضد حزب « البوم » على خمسة أناس فقتلهم غيلة فى شوارع برشلونة .

و بينما كنا منتظرين على الحدود انبرت القصاصة تقول وهى تلوح كأنها أشبه بمؤدبة ، أو مربية ، ولا تفتأ تردد كلما أرادت شرح رغباتها وسر ميولها ومشيئاتها ، « لقد كان ذلك منى إيثاراً و بعداً عن الأنانية أيها الرفيق » ، تقول إننا لم نشهد فى الأيام العشرة التى انعقد فيها المؤتمر ، وخلال رحلتنا فى ربوع أسبانيا ، دليلاً واحداً على أن سلوك الجمهوريين لم يكن كاملا . فلم أستطع أن أتمالك من ترديد ما سمعته من السائق قبل لحظة ؛ فلم يكن من القصاصة والشاعر والناظمة إلا أن حملقوا فى وجهى غضاباً مبهوتين ، وتبادلوا النظرات ، وتولوا فى صمت معرضين .

وكان فى مدريد كاتب انجليزى أصبح « قوميساراً » سياسياً ، وكان يبدو شحيحا كثير الحركة ، فجعل يقول إن بذلة « النفر » العسكرية التى كان يرتديها هى مثال الارتجال الفاشى فى الجانب الجمهورى ، وكان أولى به أن يرتدى بذلة ضابط عظيم ؛

وكان من عادته أن يقبل بالحديث على الروائية ، والشاعرة ، والشاعر ، وعلىّ أنا أيضاً ، فيمضى فى الفندق يشرح لنا سر الحرب الأسبانية ودوافعها ، والعوامل التى أدت إليها ، وكانت أحاديثه تدور جميعاً حول نغمة واحدة ، وموضوع بعينه ، وهو أن الشيوعيين هم وحدهم المتحدون ، وسط هذا الانشقاق الظاهر بين أنصار الحكومة وفى الجيش والفرقة الدولية ، وأنهم كلما حثوا الآخرين على الاتحاد ، استطاعوا السيطرة على القوات الموحدة والإمساك بزمامها ، فاذا رأيتهم فى بعض الأحيان يمتنعون عن الحث عليه ، فما ذلك منهم إلا لأسباب « استراتيجية » معينة .

وكان احتجاجى فى بعض الأحيان بأن هذا النوع من الاتحاد لم يكن اتحاداً فى شىء ، ولكنه خيانة وغدر بتلك الأحزاب ، ومحاولة إحداث انشقاق داخلى فى صفوفها ، لا يحدث غير حملقة عتاب ، وحدجة تأنيب ، من صاحبتنا الروائية ؛ وكان الكاتب القوميسار فى العادة ينبرى لى فيردد للمرة المائة قوله إننى العاجز عن التفكير الصائب والشرح الحكيم .

وكان الرأى الذى تمسكت به هو أن الشيوعيين هم « تاريخياً » الحزب الذى اتخذ مكاناً حقيقياً بين الأحزاب ، وأنهم إذا تكلموا عن « الوحدة » أرادوا توحيد الجماعات المنحرفة وتوجيهها نحو السبل الصحيحة إلى التطور التاريخى وهم يرددون أبداً قولهم إنهم الحزب « الديموقراطى » الأوحد الذى يريد توحيد جميع قوى التقدم ، فإن قلت لهم إنهم إنما يفعلون ذلك ليغدروا بالأحزاب الأخرى ، ويشيعوا الانقسام فى صفوفها ، قيل لك إن هذه حجة « فاشية » لأن الشيوعيين يعتقدون فعلا أنهم يؤلفون جبهة من الشعب ، فإن فكرت غير ذلك كنت شيوعياً « رديئاً » ، وقد كان الكاتب القوميسار مثلا من الأمثلة التى وصفها « جورج أورويل » فى قصته « ١٩٨٤ » لمعاشر الذين يفكرون تفكيراً « مزدوجاً » ، وهو كقولهم أيضاً « إن الشيوعيين هم أنصار الحرية والديموقراطية والجبهة الشعبية ، وإن كانوا فى الوقت ذاته يحملون حملة شعواء على « الأحرار » والاشتراكيين والفاشيين ، ويعملون فى سبيل القضاء عليهم ، كما قضوا على جماعة « البوم » فى أسبانيا » .

وكنت فى ذلك الحين قد استقر بى التفكير على رأى قد يكون ظاهر أجلياً ، ولكنه فى الواقع كان كبير الأثر فى تطورى الفكرى بسبيل السياسة ومسائلها، وهو أن الناس جميعاً لا يتعلقون بالحقائق إلا على فترات منقطعة متباعدة ، فلا يمسكون بها أبداً، ولا يقبضون عليها جملة واحدة ، وأن كل ماهو « حقيق » عندهم لايتجاوز بضعة شئون تمثل مصلحتهم وتجدى عليهم خاصة ؛ وأما الأشياء الأخرى التى لا تقل عنها فى الواقع نصيباً من الحقيقة ،فتلوح لهم مجرد نظريات، وكلام مطلق، فإن هم اعتزموا المضى" فى عمل معين ، كان كل ما يعين على تحقيقه ، أو يسعف فى تنفيذه ، صادقاً حقيقاً فى تقديرهم ، وكل مايتعارض معه نظرى مطلق لايمت إلى الحقيقة بسبب ؛ وما أصحابك إلا الحلفاء ، فهم لذلك مخلوقات حقيقية من لحم ودم، لهم من المشاعر والعواطف مثل ما لك ؛ أما أعداؤك فهم قوم مستعبون غير معقولين ، ولا ضرورة لحياتهم، أووجودهم، حتى لتود أن تمحوهم من هذه الدنيا محواً .

ولا يخفى أن مجانبة هذا المنحى فى التفكير تستوجب توافر العقلية « القضائية » التى تحسن الحكم على الأشياء ، وتتجرد من الذاتية فى تحقيق المسائل ودراسة الأمور؛ وقد آلمنى أن ألاحظ فى أيام الحرب الأسبانية أننى أنا ذاتى كنت أفكر على هذا النحو ، وأتبع ذلك المنحى ؛ فكلما رأيت صوراً لأطفال قتلهم الفاشيون أحسست رثاء مختلطاً بغضب ، وشفقة مزيجة بحنق وهياج ؛ وكلما كان فرانكو يتحدث عن فظائع الحمر ، كنت أغضب وأستنكر كيف تسول لبعض الناس نفوسهم أن يقولوا كذباً ، ويرووا روايات باطلة ؛ وما ذلك إلا لأننى فى الأولى كنت أرى جُثثاً، وفى الأخرى أسمع كلاماً ؛ ولا أحسبنى تعلمت يوماً أن أتجنب نقد نفسى ، فلا عجب إذا أنا اكتسبت رويداً بعض الاشمئزاز من الطريقة التى يشتغل بها عقلى والاتجاه الذى يتخذه خاطرى ، وتبين لى أننى لم أكن أعبأ بقتل الأطفال وتذبيحهم إطلاقاً، إلا إذا عبأت بكل طفل يقتل ، وعنيت به دون تحيز ؛ وكان شعورى فى أعماق ذهنى بالاشمئزاز عند معرفة نبأ فريق من القتلى ورؤية الدعاة وهم يتخذونه أداة لدعايتهم ،

وحطباً ووقوداً لترويجاتهم ، ولـكنى كنت أبدى الاستخفاف الشديد بتلك الجثث الأخرى التى سقطت فريسة للجمهوريين .

وإذا صح رأيى ، وهو أن الناس جبلوا على التفكير المجرد دون أن يزنوا الحقائق البشرية التى تتأثر بعواطفهم السياسية ، كان من السهل شرح عقلية الشيوعيين، وهى أنهم قد اتخذوا نظرية من شأنها أن تشجع الناس على رذيلة بالغة ، أو نقيصة مزرية ، وأعنى بها أن يعدوا قضيتهم حقيقية وأنصـارهم حقيقيين ، بينما يرون قضـية سواهم ومؤيديهم أمثلة عامة على اعتقادات « نظرية » عتيقة بالية .

وقد يقال إن « النظرية » ذاتها تبرر تلك النقيصة ، لأن الشيوعية تتوخى فى النهاية أن تنمى السعادة الإنسانية صفة وقدراً — أو كِماً وكيفاً — ولـكنى فى تلك السنوات استقر رأيى شيئاً فشيئاً على مخالفة هذا التعليل ، لأن اعتداد الذين يعتقدون أن اتجاههم من شأنه أن يحقق للبشرية السعادة ، ويطابق سير التاريخ حتى ليتلاشى كل إنسان يختلف معهم فيه ، أو لا يلبث أن يندمج فيهم بسبيله ، لا نتيجة له غير تجريد الشيوعيين أنفسهم من البشرية ، فان التاريخ البشرى قد صنعه الناس الذين عملوا وفقاً لمبادئ معينة ، لا على مبادئ بغير نظر إلى الناس وصفاتهم ، وإذا جردت المبادئ الناس من بشريتهم ، كان المجتمع الذى يتألف هؤلاء الناس منه مجرداً منها كذلك ، وأنا أبداً على خلاف فى الرأى مع الدوس هكسلى Aldous Huxley وأمثاله من القائلين بأن كل سلطة تُفْسِـد ، فان رأيى هو أنه لا سبيل إلى إنقاذها من الفساد إلا إذا هى جعلت بشرية بالإذلال ، إنسانية بالإخضاع ، واعتقادى أن السلطة بغير إذلال تتحول إلى اضطهاد وشنق وإعدام وأكاذيب عامة .

وقد تبين لى أنا وزملائى أن تشجيعنا للتفكير فى أن هناك قضية بشرية واحدة ، وجانباً بشرياً واحداً ، سيئ الأثر فى شخصياتنا ، مضر بنا الضرر كله ، لأنه يعلمنا أن نستغل التعذيب والآلام لتحقيق أغراضنا، وأن نتجاهلها إذا لم تخدم هذه الأغراض، وهو الذى شجعنا من قبل على تكوين صورة جزئية ناقصة للصراع، بل هو الذى صرفنا عن تصحيح هذه الصورة على ضوء التجربة إذا هى تعارضت مع أفكارنا النظرية .

وقد وجدتنى أمام الشيوعيين المستنيرين أواجه أبداً حقيقة ثابتة ، وهى أنهم وصلوا حين أصبحوا شيوعيين إلى استنتاج جعلهم يغيرون الحقيقة فى جملتها ، فلم يبق عندهم غير مجرد الأبيض والأسود ولاشىء سواهما ، كأنما قد أقاموا على حساب ثابت يعرفونه ، ولا يعرفون غيره ، وكل عامل من العوامل يواجههم فى سير الحياة اليومية لايؤثر بتاتاً فى ذلك الحساب الذى استقر فى عقولهم ، فالثورة هى عندهم البداية ، وهى النهاية ، وهى رقم الأرقام ، ومبلغ المبالغ ؛ وقد يأتى يوماً شىء فى أى مكان فيضاف إلى هذا المجموع «السعيد» الذى يمثل ديكتاتورية «البروليتاريا» والمجتمع الشيوعى .

وقد ألغى هذا النوع من التفكير كل الاعتراضات عليه القائمة على التجربة .

وهكذا رأينا الشيوعيين المستنيرين لا يعنيهم شىء غير «النظرية» . ولا يهمهم أمر قد يتعارض معها . فمثلا لم ألتق يوماً بأحد منهم يعنى أقل عناية بأى ناحية فى روسيا لا تتصل بالدعايات الرائجة حول ستالين و بطانته ، ولم يدهشنى عند نظر قضية كرافشنكو Kravchenco فى باريس أن أرى قوماً من أولئك الشيوعيين المستنيرين يتطوعون للادلاء بشهادات ضد كتابه «آثرت الحرية» . وإن لم يستطيعوا أن يزعموا أن لهم علماً بروسيا وخبرة بأحوالها . بل كل ما كان يعنيهم من الأمر هو أن كرافشنكو كان من المعارضين للنظام السوفيتى ، وما دام كذلك فلا بد من أن يكون مخطئاً ...!

وينطبق هذا الاستخفاف بكل شىء غير « النظرية » على السلوك أيضاً ، فإن الغاية تبرر الواسطة ؛ وقد رأيت مراسل الصحيفة الشيوعية يظهر السرور وهو يقول لى إنه لاغناء عن الكذب ، وسمعت الكاتب القوميسار يحدثنى بفخار وزهو كيف أرسل جندياً لم يكن موثوقاً به إلى موضع فى ميدان القتال لم يكن يخامره شك فى أنه سيقتل فيه ويذهب فى الهالكين . بل هكذا شهدنا هارى بوليت ينشر فى عام ١٩٣٩ ، بياناً يقول فيه إن الحرب العالمية إنما نشبت للنضال عن الديموقراطية إزاء الفاشية ، ثم يبادر إلى سحب هذا الكلام بمجرد الشعور بأنه لا يروق روسيا ، وينبرى يقول إن الحرب لم تكن إلا « شجاراً » بين الرأسماليين الاستعماريين فى كلا الجانبين ، وهكذا مضى أحد زعماء

الحزب الشيوعى البريطانى حين لقيته فى عام ١٩٤٦ يقول لى متهماً ، لماذا تضجون وتتصايحون لمصرع بضعة ألوف من البولونيين ، بينما ترون الاتحاد السوفييتى كله هدفاً للخطر ...؟؟

وعلى هذا النحو ترى أن الفكرة الثابتة فى الخاطر و إلغاءها لكل ما عداها من الاعتبارات الأخرى لا تزال قائمة صحيحة ، فإذا غير الحزب اتجاه سياسته ، وقرر أن ما كان بالأمس ديموقراطية ، صار اليوم فاشية ، فليس فى ذلك ما يسمى تحولاً ، أو تناقضاً ، لأن سياسة الحزب ليست إلا الموقف الذى يتخذه حيال غير الشيوعيين ، وهم جميعاً موضع أقوال و بيانات تحيلهم إلى نظريات مفترضة ، واستنتاجات مجردة .

وهكذا نجد دائماً أن اهتمام الشيوعيين مُنْصَبٌّ على تطبيق النظرية على الواقع لأن الشيوعى «السعيد» إنما يعيش فى عالم ذهنى، أو فى « سلطنة » ذهنية تدعه لا يرى يوماً أن الأشجار للخشب ، بدلا من أن يرى الخشب يوماً للأشجار ...!

ولم أر نفسى يوماً فى « سلطنة » ذهنية كهذه ، بل ظللت دهرى فى حيرة بالغة من هذا اليقين العجيب الذى يشعر الشيوعيون به فيما يتصل بالأشياء التى لا يكادون يعرفون عنها قليلا ولا كثيراً ، و إنما يطبقون عليها نظرياتهم .

وكان هناك شىء آخر استبهم على خاطرى ، واستغلق على تفكيرى، وهو كيف أن فريقاً من الشيوعيين الذين عرفوا الجواب عن كل شىء استطاعوا يوماً ترك الشيوعية ، وراحوا عقب تركها يعللون تحولهم بتلك الاعتراضات ذاتها التى كان غيرهم من قبل يتقدم إليهم بها ، فلا يرتضونها ، بل يفندونها تفنيداً ، و يقنعون قائلها بأنها حجج واهية ، وأسباب لا تستند إلى سبب وجيه .

ولعل خير مثل أضرب به على هذا النوع من الشيوعيين القدامى هى مسز شارلوت هلدين الروائية التى كانت يومئذ قرينة العلامة هلدين ، فقد كانت حين عرفتها فى أيام الحرب الأسبانية أحسن مثل يضرب على الشيوعيين الذين يعيشون فى « سلطنة » ذهنية ، وأذكر أننى كنت راكباً معها فى يوم من الأيام عقب بعض الاجتماعات ،

وقد مرقت السيارة بنا فى أحد شوارع لندن ، حيث كان خلق كثير من الناس وقوفاً فى الصفوف ينتظرون « الترام » ورذاذ المطر يساقط عليهم ندياً ، فلم تكد السيدة شارلوت تبصر بتلك الصفوف حتى صاحت قائلة « صفوف ! ياللعار ! إن هذه المشاهد لا يمكن قبولها فى روسيا » .

قلت محتجاً : ولكن لا بد من أن يكون فى روسيا صفوف كهذه .

وكنت قد قرأت من قبل عنها .

وإذا بمسز هلدين تنظر إلىّ نظرة ساخرة يمازجها رثاء مشفق ، كما تفعل الشيوعيات من النساء حين ينقلبن ساخرات .

وقد ذهبت السيدة شارلوت فى أعوام الحرب إلى روسيا ، كأشد العاطفين على ستالين ، ولكنها لم تكد تعود من رحلتها حتى تركت زوجها والحزب الشيوعى معاً ، وكتبت فيما بعد مقالاً فى الصحف كان جلياً من ناحية ، وغامضاً مستغلقاً من الأخرى ، فقد ذهبت فيه تقول « إن كل كلمة أو عمل يأتيه الروس مواطنين عاديين ، أو علماء باحثين على السواء ، لا يخلو من أدلة كثيرة على تغطيـة بالغة لا تنقطع ، للتجسس والترصد والتسجيل ، بل إن كل كلمة تقال أو تكتب أو تنشر عرضة لهـذا الفحص الدقيق ، وقد تقدم فى أى وقت ضد قائلها أو كاتبها كشاهد عليه » .

ولعل الشىء الوحيد الذى يحير الخاطر هو لماذا اضطرت مسز هلدين إلى السفر إلى روسيا لتكشف هذه الحقيقة ...؟؟ ألم يكن أولى بها أن تستخلص عشرات غيرها من عدة الكتب التى لا أحسبها غفلت عن قراءة واحد منها ، وهو كتاب أندريه جيد « عودتى من روسيا السوفيتية » وإذا هى لم تصدق ماجاء فيه من الشواهد على الاضطهاد الشيوعى فيها ، فلا أحسبها قد غاب عنها الهياج الشديد الذى قوبل به ذلك الكتاب عند ظهوره ، والتشنج العصبىّ الذى أحدثه فى نفوس الروس عقب نشره فإن هذا الحنق يبين بجلاء ماذا كان الروس صانعين بالكاتب لو أتيحت لهم الفرصة للنيل منه ، وتواتت لهم أذيته .

ولعل التعليل الوحيد لتحول قلبها أن ما كان يلوح لها غير منطقى قبل ذهابها إلى روسيا عاد فجأة فبدا لها متفقاً مع المنطق خلال زيارتها، وهى بلا شك أولى بأن تهنأ بهذه الأمانة التى غيرت رأيها.

وقد رأيتها فى ذلك المقال بعينه تثير بنظرة من فوق كتفيها إلى الأستاذ هلدين سؤالا أهم كثيراً من سؤالك لماذا ينبغى أن يكون الكتاب مشايعين لستالين، وهو لماذا ينبغى أن يكون العلماء كذلك، وقد حاولت الرد على هذا السؤال فى قولها « إن السر فى ذلك أنهم يرون من خلال زجاجة قاتمة، أو الأفضل من خلال منظار وردى اللون، بلداً « اشتراكياً » خصصت فيه الدولة أموالاً طائلة للبحث العلمى، بلداً يتقاضى فيه العلماء مرتبات عالية لامثيل لها فى سواه من البلاد، ولايعوق عملهم فيه خوف من أن يستغل كبار رجال الأعمال اكتشافاتهم لمنفعتهم الخاصة ... »

ولعل بعض مشاهداتى الشخصية لسلوك الأستاذين هلدين وبرنال اللذين راقبتهما عن كثب بضع سنين، توحى على الأقل بأن معاشر العلماء هم بشر ككل إنسان سواهم، وتدلل على ما أسلفت الإشارة إليه، وهو أننا لا نبدأ نثق بالناس، مهما يكن حظهم من الذكاء، إلا إذا أيقنا أن مبادئهم قد امتزجت بذلك الشعور بحدودهم وهو الشعور الذى أسميه الوداعة أو « الانضاع ».

وقد بدا لى مما شاهدته من العلامة هلدين أنه رجل أوتى صفات جليلة، لعل «الانضاع» أقلها بروزاً. فقد اشتهر حين كان يتولى التدريس فى جامعة كمبردج بأنه أستاذ غريب الأطوار إلى حد ما، وعالم مسرف فى إظهار بطولته، فقد أذيع عقب التجارب التى كان يقوم بها فى « مخبأ هولدين »، بعد نشوب الحرب الماضية أنه كان يصر على الجلوس فى أحد المخابىء بينما كانت القنابل الشديدة الانفجار تتساقط بقربه.

وكنت فى ذات مساء خلال الحرب الأسبانية مدعواً إلى حفلة عيد الميلاد عند شقيقته « ناوومى مانشيسون » وإذا به يحضر الحفل؛ وكان قد رجع لساعته من أسبانيا ولبث فى الحفلة واجماً مكتئباً، حتى فرغ الأطفال من ألغازهم وألعابهم، وإذا به

يتأنى يفاكه المدعوين بالحديث عن مشاهداته الرهيبة فى أسبانيا ، ولا تمازال أمثله إلى الساعة وهو يلوح ، تحت سمته كمعلم وبحاثة ، أشبه بغلام فى المدرسة أولع بالموضوعات العلمية، وكأنما كان يطرب بمظاهر العنف وصوره ، ولعل مسز هلدين كانت تعنى ناحية أخرى من خلقه وهى تلمح فى مقالها بقولها إن العلماء يرون أن فى روسيا السوفييتية ميداناً فسيحاً يشعر العلماء الكبار فيه بأنهم أحرار فى تجاربهم العلمية .

ولست أريد بهذا أن أنتقص من أقدار علماء كبار كهولدين وبرنال ومن لف لفهما ، وإنما كل ما أرمى إليه هو أن أبين أنه من الخطأ أن يعتقد أحد أن العلماء يبدون من صفات النزاهة والرعاية فى مجالسهم وعلاقاتهم الاجتماعية مثل مايبدون فى العمل، بل هم عرضة كأى أحد سواهم للتأثر بانفعالاتهم ، والاندفاع مع عواطفهم ، وأن فى المجتمع المنظم تنظيماً خاصاً من وسائل الإغراء والتشجيع ما يحملهم على الإمعان فى هذا السبيل .

وأكبر ظنى أن برنال أقل « صبيانيـة » وفظاظة من صاحبه « هولدين » أو لعله نوع آخر من الصبيان ، وإن كان بلا شك عبقرياً فى عمله العلمى ، ولكنه أيضاً قد ألهم عاطفة اجتماعية حادة باطشة ، فهو هائج الخاطر أبداً بأفكار وخواطر ، عن « البيت المثالى » الصالح للانسان فى مجتمع اشتراكى ، وعن وضع تصميم لبنائه يلغى جميع فنون العمارة الماضية ، ويذهب بطريقتها السابقة ، وهو كذلك المتهوس بمختلف الخطط لإصلاح أحوال البشر ، لأنه فى تفكيره الاجتماعى يبدى نزوعاً إلى كل مستطرف ومستغرب ، وإن كان لا ينزع هذا المنزع فى عمله العلمى وبحوثه .

ونحن فى المجتمع نضفى على العلماء من الفضل ما يكاد يبلغ بهم مرتبة الحكمة الخارقة للبشر . وقد يكون من الحق أن يقال إنهم كسواهم من الاخصائيين وأهل الفنون ليسوا إلى حد يسير بشريين، فقد تراهم متحمسين أشد الحماسة لمشروعات ترمى إلى تحويل المجتمع إلى ميدان فسيح للتجارب العلمية ، وإن كانوا من ناحية أخرى لم يفعلوا شيئاً لحماية المجتمع من استخدام مكتشفاتهم . وكلما قيـل إنهم مسئولون عن

المخترعات الهدامة ، راحوا يحتمون خلف دعواهم أنهم ليسوا إلا علماء ، ولا يهمهم التفكير فيما على المجتمع الموقوت من دين لتقاليد الماضى وتراثه وفضله ، ولا فيما قد نخسره مثلاً إذا قضى على فنون العمارة القديمة ، واستعيض عنها فى الحياة والعيش بأدق الآلات المستحدثة .

وقد رأينا العلماء فى ألمانيا الهتلرية يتوفرون على مشروعات ترمى إلى تعقيم غير الصالحين من الناحية العقلية للزواج والقضاء عليهم ، واستئصال مئات من الخلق لا لشىء سوى استخدام الناس فى تحقيق تجاربهم . وقد حدثنى صديق لى من العلماء ذهب إلى ألمانيا بعد الحرب لمشاهدة مدى نشاط زملائه الألمان ، فقال إن أشد ما راعنى من أمرهم أنهم يسرفون أحياناً فى تجربة نظرياتهم العلمية على الناس، حتى لا تأخذهم فيهم رحمة ، وقد لا تكون التجربة ضرورية . ولست أريد بقولى هذا أن أقترح على العلماء فى البلاد الأخرى أن يفعلوا كما يفعل هؤلاء ، ولكنى أريد أن أقول إن العلم لا يعارض فى إجراء تجارب كهذه إذا كان المراد منها استئصال غير الصالحين من الناحية العقلية ، وأن العلماء إذا اعترضوا عليها ، فلا يقوم اعتراضهم على أساس علمى إطلاقاً . ولم نر العلم الحديث يمنع الحكومات من توجيه العلم فى كل بلد إلى ما يحدث الهدم ، ويستعان به على التدمير ، بل شهدنا العلم مجرد أداة للخير والشر على السواء ، فلكى نوجهه الوجهة الخيِّرة الطيبة ، ينبغى أن يكون عند الذى يتولى التوجيه فكرة عن البشرية أوسع نطاقاً من مجرد خلق مجتمع علمى منظم ، إذ يجب أن يكون فى المجتمع هدف آخر بجانب التنظيم الحسن ، أما إخضاعه بغير قيام هدف كهذا لنظام « ديكتاتورى » فى سبيل إنشائه على نظام علمى أو نحوه ، فليس سوى استغلال العلم وإساءة استخدامه . وقد رأينا الساسة فى روسيا هم الذين يوجهون العلم وينظمون نشاطه ويرسمون خططه .

ولهذا رأيتنى حين أصبح علماء كبرنال وهلدين وجوليوت كورى شيوعيين متشككاً فى الدوافع التى دفعتهم الى اعتناق الشيوعية ، وأحسب أنهم فعلوا ذلك

لإيمانهم الأعمى بأداة العلم وسلاحه، ولكن هذه الأداة لا هدف لها يمكن أن يمت إلى الأخلاق، وكلما ناصر العلماء فكرة وضع العلم فى أيدى الساسة الذين يلقون بخصومهم فى غيابة السجون، ولا يتورعون أحياناً من اضطهاد العلماء الذين لا تتفق نتائج بحوثهم مع آرائهم السياسية وخطة الدولة واتجاهها، استطعنا أن نقول إن هؤلاء العلماء الشيوعيين هم ضحايا نوع من العمى الخلقى الذى طالما اتسم العلم بطابعه، واتصف من عهد طويل به.

وكنت فى عام ١٩٣٠ أراقب زملائى الشيوعيين فيتولانى الإعجاب بشجاعتهم، ولم أكن أتهمهم يومئذ بالأثرة والعمل لمآربهم الخاصة، فقد رأيتهم يضحون بشىء كثير، ولا يترددون فى احتمال مزيد من التضحية فى سبيل نصرة قضية يعتقدون صوابها أشد الاعتقاد، وإن كان الظاهر بغض النظر عن هذه الشجاعة، وتلك التضحية، أن أحسن ما فيهم من الصفات مضى فى خدمة أسوأ ما عندهم منها، وأن شخصياتهم دمرت تدميراً، من إمعانهم فى هذا السبيل؛ فقد آمنوا بوجوب جعل الفقير محارباً، لا بوجوب حمله على محبة جاره، وأضحى الحق عندهم خادماً يسعى فى خدمة حفنة صغيرة من الزعماء، وارتضوا «الكراهية» كدافع قوى إلى العمل، وشوهوا معانى الكلمات التى طبقوها على الشعوب، والأحزاب والأفراد، دون أن يفطنوا مطلقاً إلى أن تشويه الكلام، يحدث الفوضى، ويفسد النظام؛ فالسلام فى لغتهم يمكن أن تعنى «الحرب»، والحرب يصح أن يكون معناها «السلام»، وكلمة «الوحدة» قد تعنى «الخيانة من الداخل»، ولفظة «الفاشية» قد يكون المراد منها «الاشتراكية».

ولم يكن ثمة شىء يرغمهم على تنمية قوى الغرور وعوامل الحقد ومظاهر السلطة والخيانة والغدر فيما بينهم غير خدمة أغراض الحزب وتحقيق مآربه، ولو خدموها بهذه المناقص لبدت فضائل وحسنات.

وكثيراً ما تبين لى أن الشيوعى العطوف الحدب هو شيوعى «ردىء»، بقدر

ما فى نفسه من العطف وما أوتيه من الحدب ، وإنه العليم بذلك فى ذات نفسه الفطن إليه فى أعماقه . .

وقد أدركت فى تلك السنين أن الشيوعيين يكادون ينقسمون إلى أربع فرق ، الأول منها فريق « النظريين » الذين يعرفون بوجه عام ، وشكل نظرى ، حقيقة الوسائل والأساليب التى يتذرعون بها ، ولكنهم يرونها مجرد « ضرورة » لا مفر منها ، والثانى فريق المخدوعين فى حقيقة روسيا والوسائل التى يستخدمها رفاقهم ، ولا يزالون بهذه الخدعة سعداء مغتبطين راضين ، والثالث فريق العمال الذين لن يخسروا شيئاً غير الأصفاد التى يرسفون فيها ، والذين يحاربون الاستغلال الرأسمالى ، ولا يزال الخبز عندهم أهم من الحرية شأناً ، والرابع فريق رجال الشرطة والقوميسيريين والصنائع والجواسيس ومن إليهم ؛ ولعل الأخيرين منهم هم الشيوعيون الوحيدون الذين يعرفون جميع الحقائق المتصلة بمعسكرات الاعتقال والسجون والمحاكمات .

وكنت أرتقب حين انضممت إلى الحزب الشيوعى أن أعرف على الأيام ماذا يفعل الشيوعيون ، ويتيسر لى أن أوازن بين وسائلهم ، ووسائل الرأسمالية ، وأتعلم كيف أرتضى الصلة بين الوسيلة والغاية ، ولم أكن أتوقع أن أرى الشيوعيين أنفسهم ينكرون تصرفات رفاقهم فى روسيا وأسبانيا ، أو يجهلونها كل الجهل .

وقد أسلفت عليك كيف كان صديقى «شالمرز» يستخف بالمحاكمات التى تجرى فى روسيا ، وإصرار زملائى الأدباء فى أسبانيا على رفض الاستماع إلى الوقائع التى تحدث ارتباكاً فى الصور البسيطة التى ترسم فيها الحوادث لهم ، وتبدو واضحة سهلة فى الأخيلة والأخلاد .

وقد أتت علىّ أيام استطعت أن ألمس فيها مثالين آخرين لسلوك الشيوعيين ، وتصرفاتهم التى لا مفر من إلقاء تبعاتها عليهم ، وهما أولاً ، قصة حدثتنى بها كاتبة أمريكية معروفة كان زوجها من الروس ، فقد ذهبت تقول إن رجال الشرطة جاءوا إلى مسكنهما فى الثالثة من الصبح ، وهما فى موسكو ، فاستاقوا زوجها استياقاً ، ومن

ذلك العهد لم تره ولم تسمع بخبره ، ولا تعرف شيئاً عما قد جناه ، وكانت المرأة نفسها شيوعية ؛ وقد عرفت هذه القصة واشتهرت ، لأن معاشر المستنيرين من البريطانيين والأمريكيين قلقوا على الرجل ، وجزعوا لمصيره ، و بعثوا برسائل وكتب إلى « سكرتيرية » الكومنترن ، فكانت السكرتيرية فى بداية الأمر ترد عليهم منبئتهم أن كتبهم وصلت إليها ، وتعدهم بأنها ستحقق الأمر ، ثم لم تلبث أن لزمت الصمت ولم تعد ترد على الكتب التى ترسل إليها .

أما المثل الآخر فهو قصة صديق لى يدعى « ى » كان يعمل فى صفوف « الفرقة الدولية » وهو ابن أخت سياسى كبير النفوذ ، فخشيت عليه أمه الموت ، وطلبت إلى أخيها أن يتصل بقواد الفرقة و يرجو إليهم ألا يرسلوا ابنها إلى الميدان .

ولقيت «ى» فى أسبانيا ، فنبأته بحماقة منى وسوء تصرف عما فعله خاله ، وكان «ى» فتى شجاعاً فغضب واشتد الحنق به ، فترك الفرقة هار باً ، ولكنه لم يختف عن الأنظار ، بل تراءى للقوم ليأخذوه ، وقرروا عقاباً له على الفرار أن يوفد إلى الميدان ليشترك فى القتال ، وكان هذا هو ما أراده ، وقد حضر معركة « موراتا » وجال فيها وصال شجاعاً أخا كريهة .

وكان فى الأيام القليلة التى زج به فى السجن خلالها يقيم مع عدة آخرين من السجناء ، وكان المحبس الذى ألقى فيه ضيقاً «كالحاصل» ، وقد حدثنى يومئذ قائلا : ولكنه لم يكن على ضيقه ليذكر بالقياس إلى المحابس الأخرى ، فقد جىء بسجناء آخرين إلى محبسنا فقالوا إنه « نعمة » إذا قيس بالحصير الذى كانوا فيه ، لأنه لم يكن يزيد فى شىء عن « دولاب » أو قِمَطْر صغير . . . !

ولكن الفتى «ى» لم يرع من هول تلك الخطوب التى خاضها ، ولا استطاعت تلك الأهوال أن تغير من رأيه فى « الجمهورية » ، بل العجيب من أمره أنه راح يعد تلك الخطوب مسلية باعثة على الفكاهة والقسرية .

وقد قصصت هاتين الروايتين فى اجتماع عقدته فئة من الكتاب الشيوعيين

فى لندن ، وقلت لهم إن هناك سبباً يدعونى إلى قصهما على أسماعهم ، ومضيت أشرح لهم الباعث فقلت « إننى مدرك بالطبع أن ليس ثمة سبب يحملكم على تصديق هذين الحادثين خاصة ، ولكنى أعلم أنهما حادثان « نموذجيان » ، فإن أنتم لم تصدقوا ما أنا عليم بأنه مثل نموذجىّ ، فسأدرك أنكم تجهلون وقائع وحقائق كان أولى بكم فى نظرى أن تعرفوها ، لأن معرفتكم لها أو جهلكم بها ، أو تسليمكم بصحتها ، أو إنكارها ، أصبح يهمنى أشد الأهمية لأنكم إذا كنتم بها جهلاء ، أو كنتم تنكرونها فيما بينكم ، فسوف أعتقد أن الانتماء إلى حزب ليس لأعضائه علم بتصرفاته مسئولية لا قبل لى باحتمالها ، ولكن إذا سلمتم بها ، وقلتم إنه لا يصح الجهر بها فى المجامع ، فسوف أشعر أنكم تجدّون فيما تقولون ، وعندئذ قد أرتضى حجتكم وأتقبل وجهة نظركم ... » .

ولما فرغت من الكلام نهض كاتب منهم فقال : إن الرفيق سبندر قد ألف بعقليته « البورجوازية » أن يخترع قصصاً من هذا القبيل .

وانبرى آخر يقول : وإذا لم يكن هذا الذى سمعناه منه مخترعا ، كان كل المراد منه أن يسترعى الأنظار إلى حوادث تافهة لا خطر لها ولا شأن لكى يتحامى مواجهة الحقائق ويتهرب من القضية الأصلية ذاتها .

وقال ثالث وكان طيب الشعور نحوى « اصغ إلىّ ياستيفن ، لاتنس أن صديقك « ى » كان نفسه فى السجن الذى يزعم أن هذه الأحداث وقعت فيه ، فلعله إنما تحدث إليك عن حقد فى نفسه ، وكمد فى أعماقه ، ولهذا ينبغى ألا تضفى أهمية كبيرة على شهادته » .

ولم يجدِ نفعاً أن أؤكد لهم أن « ى » لم يكن فى نفسه شىء مما وصف ، وأن هذا هو ما جعلنى أختار قصته من عدة قصص كان فى وسعى أن أسردها أمامهم ، وما كان مجدياً أن أقول لهم إن حجتهم تلك تصلح كشاهد على وجوب تجاهل جميع الجرائم التى ارتكبتها « الفاشية » ، باعتبارها غير « متمشية » من حيث المنطق مع

تصرفات هتلر التاريخية ، أو بوصفها مبنية على أقوال أناس ضربوا وعذبوا وسيء إليهم فأمسوا حاقدين مضطغنين ، وهم على هذا النحو غير صالحين للشهادة .

وهكذا بدا لى أن أولئك الكتاب لا يريدون أن يكونوا مسئولين عن تصرفات الحزب الذى هم أنصاره ومظاهروه ؛ و بدأت أسائل نفسى عجباً وحيرة كم من الشيوعيين يعرفون كل ما يتصل بالشيوعية أو يدخل فى بابها ، ولا أزال من هذا الأمر فى عجب ، فإن غيرهم من الشيوعيين ، لا يقولون لهم إن فى روسيا معسكرات سخرة واستعباد ، بل لو أن شيوعياً أشار إلى شىء من ذلك ولو تلميحاً ، لاتهموه بأنه يشغل نفسه بالتوافه والكلام الذى لا طائل تحته ، إذا هم لم يتهموه بأنه من الضالعين مع « الفاشية » .

وليت شعرى متى خطر لأحد من الشيوعيين أن ينتحى بصاحبنا « هارى بوليت » الزعيم الشيوعى البريطانى الذى أسلفت عليكم حديثه ، ليقول له أشياء عن روسيا ، لا دخل للدعاية فيها .. ؟؟

وفى الحق إن أعضاء الحزب أقل علماً بما يجرى فى البلاد التى تسيطر الشيوعية عليها مما يتصوره غير الشيوعيين و يتخيلونه ، ولكنهم يعرفون بعض الحقائق عن « الدكتاتورية » لأنها جزء من المبادئ التى يؤمنون بها ، فلا عجب إذا كانت أول عبارة بادرنى بها مسيو « راكوزى » نائب رئيس الوزراء فى المجر ، وهو من الشيوعيين ، حين لقيته فى بلاده عام ١٩٤٧ هى قوله : إن الحكومة العمالية فى بريطانيا « فاشية » !

ولما سألته ماذا يعنى بهذا أجاب إن لما قلته سببين : أولاً — إنها لم تملأ الجيش البريطانى بقواد « اشتراكيين » ، وثانياً — أنها لم تتسلم إدارة الشرطة فى « سكوتلاند يارد » .

وقد استتبع هذا الرأى اتجاهات كثيرة أصبحت أكثر وضوحاً وجلاء مما كانت تبدو منذ اثنى عشر عاماً ، ورددها على سمعى الرئيس « بنيش » فى حديث دار بيننا

فى مدينة « براج » خلال شتاء عام ١٩٤٦ ، فقد ذهب يقول إنه يعتقد أن حكام روسيا لم يكونوا يستطيعون على الأرجح تحقيق « الثورة العمالية » بغير الوسائل الرهيبة التى لجأوا إليها ؛ ولكنه أردف يقول بحماسة إنه يحمد الله الحمد كله على أنه لم يطلب منه يوما أن يستخدم مثلها ويرجو الله ألا يضطر على الأيام إلى استخدامها .

ولم يفتنى وأنا أكتب هذا المقال أن انتقاد الشيوعيين لا يزيل الحجة القائمة على النظام « الرأسمالى » ، فقد علمتنى التجارب الأليمة طيلة تلك السنين أن كلا الجانبين عامل شر وظلم وجوْر وإهدار للحريات ومساوئ لا عداد لها ؛ وقد يقال عن « الرأسمالية » إنها قد تكفل لطول عهد الدنيا بقيامها متعة الحرية فى الفنون والآداب والمناقشات بين مختلف الأحزاب السياسية .

ولكن لا خفاء فى أن الرأسمالية كما نشهدها اليوم فى أمريكا التى تعد أكبر بلد رأسمالى فى العالم ، لا تقدم إلى الناس شيئاً غير الحرب والاستغلال ، وتدمير موارد العالم . أما الشيوعية فمن الجائز إذا استطاعت أن تحقق « الدولية » وتصبغ الإنتاج الصناعى بصبغة الاشتراكية ، أن تنشئ عالماً جديداً لن يكون مجموعة من المتناقضات الاقتصادية .

ولو فرضنا جدلاً جواز تحقيق انقلاب عالمى وقيام نظام شيوعى من الوجهتين السياسية والاقتصادية معاً لأصبحت رفاهية المجتمع الجديد المتخلص من النزاع الطبقى رهناً بفرض جدلى آخر ، وهو أن ديكتاتورية العمال الكادحين سوف تذوى من تلقاء ذاتها على الأيام .

وقد رأينا « الماركسيين » والكتاب الشيوعيين لا يفتأون يرددون القول بأنها « ستذبل » وتتلاشى رويداً ، ولكنهم لا يريدون أن يصفوا لنا كيف ستنتهى إلى « الذبول » ، وإنما يرون أن القضاء على الرأسمالية سيتحقق وفقاً لنواميس ناشئة من متناقضات فى داخل النظام الرأسمالى ذاته ، وأن استيلاء العمال الكادحين على زمام السلطة لا يزال يتبع أيضاً هذا التطور الميكانيكى ذاته ، وإن كان من بعض نواحيه

نتيجة الإرادة البشرية وغيرتها ، وحين تتحقق النتيجة الحتمية لهذا التطور ، لا تبقى ثمة ضرورة تقتضى فناء الرأسمالية بعملية ما، ولا تستوجب نهضة «البروليتاريا» بإجراء معين ، وإنما « تذبل» الدكتاتورية طبيعياً ، وتذوى تبعاً للموقف الذى يصبح العمال فيه على الأيام بغير خصوم ولا أعداء .

وإذا صح هذا كانت الاعتراضات التى تقوم فى وجه الشيوعية منصبة على متاعب موقوتة ، ومشاق قائمة إلى حين ، ولا ينكر أحد أن هذه المتاعب والمشاق عسيرة مرهقة لضحايا الثورة وفريساتها ، ولكنه ثمن يصح أن يدفع لقاء قيام عالم تعيش فيه الشعوب جميعاً على وفاق ووئام ... !

ولكن إذا لم يكن « ذبول » الدكتاتورية محققاً ، فان انتقاد تصرفات الشيوعيين وأساليبهم اليوم يصبح انتقاد الدكتاتورية غداً ، و بعد غد ، واليوم الذى بعد غد .

وكان من بين الدروس التى تعلمناها فى الثلاثين عاماً الأخيرة أن كل دكتاتورية قامت فى العالم الحديث ، بكل ما توافر لها فيه من القوى والأساليب ، كالبوليس السرى ، والدعاية ، والإرهاب ، لا تنتزع بسهولة ، ولاتخلع برفق ، ولم نر ستالين يوماً ولا هتلر ولا موسولينى ولا فرانكو مهدداً بخطر ثورة أو تمرد عليه من داخلية بلاده ؛ وما سقط « الطغاة » إلا نتيجة دمار جلبه على البلاد أمصار أخرى وشعوب ، فلا غرو إذا قلنا إن قيام « دكتاتورية » عالمية من شأنه أن يجعلها ثابتة مستقرة مكينة الجذور ، بل ستروح عندئذ أثبت الدكتاتوريات على الزمان ، وما أحسب أحداً بمصدق على ضوء ما تبين له فى روسيا أن الشيوعية أو أى حزب سواها سينشئ من الطغاة و « البيروقراطيات » والشرطة من يريد الذبول ، ويرتضى التلاشى والزوال باختياره .

ولا عجب إذا كانت دراسة خواص القوميسيرين والطغاة اليوم هى فى ذاتها دراسة شىء من القوانين القائمة فى الدولة الشيوعية التى قد تكسب السلطان غداً ، ولن تتخلى عنه إذا هى كسبته .

وقد لاحظت على المستنيرين الشيوعيين فى عام ١٩٣٠ سلوكاً أصبح فى شرق أوربا اليوم مشروعاً مقرراً من جانب نقابات الكتاب وأرباب الأقلام ، وهى النقابات التى أصبحت تملى على الروائيين والشعراء ما ينبغى لهم حصر أفكارهم ومشاعرهم فيه فلا يتجاوزنه ؛ وكان جل هم الكتاب الذين اجتمعوا للبحث فى مشكلة « الفن والمجتمع » أن ينتهوا إلى قرار يقضى بأن يتولى الأدب التدليل على صحة النظريات الماركسية القائلة « بسمو » البروليتاريا ورفعة مكانها، وضرورة الثورة وتنظيم أسبابها ؛ وليس من شك فى أن هذا الرأى يتجاوز حتما كل تجاريب الكتاب ومشاهداتهم ، ولكن المرء إنما يرجع إلى تجاريبه ليستعين بها على تصوير وجه من وجوه الرأى وصل إليه مستقلاً عن التجربة فى حد ذاتها .

ومهما يكن إخلاص أولئك الكتاب فى ماركسيتهم فان سيطرة النظريات على عقولهم ، وهى سيطرة تسبق التجربة ، لا تخلو من نتائج حتمية ، لأنه ما دام كل همهم أن يكونوا ماركسيين « نظريين » فلا غرو إذا رأينا أن « الخيرة » الماركسيين — وهم غالباً شر الكتاب — مزية ظاهرة على الذين يرجعون إلى تجاريبهم فى سبيل إنتاجهم الفنى ؛ ومعنى هذا أن معاشر النظريين أصبحوا اعتباطاً نقاداً أدبيين يحللون الأدب كله فى ماضيه وحاضره تبعا لمذاهبهم، وقد استمعت يوماً لشاعر شيوعى يشرح لجمعية أدبية فى « هامستيد » بمناسبة الاحتفال بذكرى الشاعر « كيتس » قائلا إن كيتس لم يكن « ماركسياً » ولكن من الجائز لنا أن نقول على الأقل إنه كان ابن سائس خيل ، ومريضاً بالسل لم تعن الدولة بعلاجه ، فهو إذن حقيق بأن يعد ضحية من ضحايا الرأسمالية .

وأصغيت أيضاً لهذا الكاتب وهو يقول إن كتاب « ليلة بجانب فراش ميت » الذى وضعه «جويس» Joyce يصور مبلغ الانحلال الفكرى واللغوى فى دنيا « البورجوازية » .

وكان هذا الكاتب هو نفسه الذى كتب فى عام ١٩٤١ حينما عمدت « فرجينيا

وولف » إلى الانتحار ، يقول إنه يهنئها باختيار هذه «الضرورة التاريخية» ، وإنه بات منتظراً أن يحذو حذوها كتاب بورجوازيون آخرون .

وقد أصغيت باشمئزاز إلى سفسطة كتاب من صغار العقول، وسممت إلى نظرياتهم، فبدا لى أن هناك شيئاً غير مستساغ فى دعواهم أن صاحب النظرية الاجتماعية يستطيع أن يحتل مكاناً يزرى بمكانة « العبقرية » ، إلا إذا كانت إلهامات العبقرية ، وخواطرها فى ذاتها ، تطبيقات لنظرية سياسية على مبادئ كمالية أو مادة من صميم الفنون وجوهرها .

وأحسست الاشمئزاز أيضاً من ذلك النقد الأدبى الذى يلجأ الماركسيون إليه ، لمحاولة التدليل على أن الأدب هو مجموعة « أساطير » وخزعبلات اخترعها الكتاب عمداً أو بغير عمد لخدمة أغراض بعض الطبقات العليا فى التاريخ ، فان رأيى فى شاعر كدانتى ، أو شكسبير ومن جاءوا على غرارهما أنهم كانوا بلا شك رجال عصورهم ومفكرين سياسيين فى أزمنتهم ، ولكنهم أصابوا أيضاً من التجارب والمشاهدات فى الحياة ما نقلهم إلى أسمى الآفاق ، وجاوز بهم حدود المصلحة الذاتية ، أو شئون الاجتماع ومشاكله ، وأنه من الجائز أن يتبعهم المجتمع إلى إلهامات مثيرة ، واكتشافات باهرة ، فيما يتصل بطبيعة الحياة ، وإلى خواطر تترامى وراء مشاغل الناس ، وهمام عيشهم فى أى عهد من العهود ، وهو ما يرفع المجتمع فوق ذاته ويسمو به مكاناً علياً ولكن هذه الإلهامات ليست من قبيل الأمانىّ التى تجول فى نفس جيلهم .

واعتقادى أن معتقدات الشعراء إلهامات قدسية ، وصور لحقائق عن طبيعة الحياة وأسرارها ، وقد لا أومن بها ، ولا أقاسمهم أحاسيسهم بسبيلها ، ولكنى لا أستطيع ولا أود أن أفندها أو أصفها بأنها « ظواهر اجتماعية » ، فإن كان للفن ما يزكينا ويعلمنا فهو بلا شك تلقيننا أن الإنسان ليس محتبساً بكليته فى مجتمعه ، بل قد يتعلم المجتمع من الفن كيف يتسنى له إلى حد ما الفرار من محتبسه .

أما رفض التصديق بأن الفن فى بعض معانيه هو أداة التعبير الوحيدة فى يد

الفنان فهو بمثابة الحكم على الفن بأنه مجرد التعبير عن حاجة الاجتماع ومطالبه .

وهذا هو رأى معاشر الشيوعيين فيه ، وموقفهم منه ، فكأنى بهم يريدون أن يقولوا إن الشعراء وأهل الفنون ليسوا بأحسن القضاة فى الحكم على النظريات والمذاهب الاجتماعية ، فلا معدى إذن للنظريين والمفكرين السياسيين من إملاء حاجة المجتمع عليهم ومطالبتهم بجعل فنونهم خاضعة لمقتضياته .

وأذكر أننى حضرت فى عام ١٩٣٠ اجتماعاً عقدته لجنة التنظيم فى مسرح « جروب » للبحث فى مسرحية شعرية لى تدعى « محاكمة قاض » كانت قد ظهرت من قبل على المسرح ، وإذا بامرأة أنيقة من الشيوعيات الشابات تنهض فى المجتمع فتحتج على الرواية قائلة إنها لم تسر من الرواية ولم ترتح إليها ، وإن زملاءها الشيوعيين أيضاً قد نكروها ، فقد كانوا يتوقعون من رواية كهذه أن تصور حادثة يبدو الفاشيون فيها رأسماليين ، والأحرار ضعفاء ، والشيوعيون هم وحدهم الذين على الحق ، كما هم مؤمنون كل الإيمان ، ولكنها لم تخرج عن مجرد قصة يميل فيها المؤلف إلى العطف على وجهة نظر الأحرار ومناصرتها ، بل أدهى من ذلك أن الفصل الأخير لا يزال يحوى شيئاً من « الصوفية » ، ونحن لا نريد أحراراً ، ولا متصوفين ، وإنما نريد من كتابنا أن يكونوا شيوعيين مكافحين .

ولعل هذا هو رأى « هارى بوليت » نفسه واتجاه تفكيره ، فقد كان دأبه كلما لقيته أن يقول لماذا لا تنظم أغانى وأناشيد للعمال كما فعل بيرون وشيللى وورد سورث ؟؟ وهو سؤال لا جواب عنه ، إلا إذا أردت أن أعرض الشعراء الإنجليز « الرومانتيكيين » للعار والنقيصة بعد مماتهم ، وأحسب أن الشابة الشيوعية التى سلف ذكرها وهارى بوليت مثلان « غشيمان » أو « خام » ، ولكن ستالين قد يكون أغشم منهما مثلا ، وإن كان أشد أثراً ، وكثيراً ما نرى هذه « الغشومية » تصور وترسم بشىء من الحذق ، ولون من ألوان الدهاء ، فقد حدث مثلا فى تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٤٧ أن معلم اللغة الروسية فى إحدى الجامعات الكبيرة ،

وهو شيوعى وأخو ذكاء وفتنة ، أراد أن يدافع عن اتحاد الكتاب السوفييت فى حملاتهم على باسترناك وزوشنكو وغيرهما ، بحجة أن روسيا ليست بحاجة إلى كتاب مجيدين ، فقال إن هؤلاء بالطبع هم خيرة كتابنا ، ولكننا لا نملك أن يكون لنا كتاب مجيدون ، وقد رأينا أحسن شعرائنا ينظمون قصائد محزنة للناس ، ميئسة لنفوسهم ، من ناحية تصويرهم تفاهة الحياة وخلائها من الهدف ، ونحن نريد من الناس أن يعملوا أشق مما عملوا يوماً فى حياتهم الماضية ، ولهذا نستطيع أن نسمح للشعراء بأن يقولوا إنهم محزونون غير سعداء ....

ودعنى أيها القارئ الكريم فى وسط هذه الحماقة التى أنا ماض فيها ، أعد إلى القضية الأصلية ، فأقول إن العنف ومعسكرات الاعتقال وسوء استغلال العلوم وإفساد الفنون، قد يكون لها ما يبررها إذا كانت على الأيام مؤدية إلى قيام المجتمع الخالى من الطبقات الذى ينشدونه ، وقد ظلت هذه الحجة ماثلة لخاطرى أبداً ، لأنها حجة من الخطر والقدر الكبير بحيث لو صحت لجعلت الاعتراض على قيام شيوعية تستطيع حقاً أن تنشىء مجتمعاً دولياً عادلا ، حجة تافهة ، ورأياً سخيفاً .

ولكن جملة الرأى الذى انتهيت إليه هى أن الأحزاب الشيوعية فى العالم ، كما هى قائمة اليوم ، لا تستطيع إقامة عالم أفضل ، بل قد تقيم عالماً شراً من هذا وأسوأ منقلباً ، وسر رأيى هذا وباعثه أن قدراً كبيراً من السلطة موضوع فى أيدى حفنة قليلة من الناس وهم فى مناعة من نقد تصرفاتهم ، فلا يستطيع أحد أن ينتقص من شأنهم ، اللهم إلا إذا وجهت شيئاً من الانتقاد إلى تصرفات الحزب نفسه وخططه وسياسته ، حتى بات هؤلاء القلائل بغير رقابة ، لا يجدون من يقومهم من أنفسهم ، أو يمنعونهم من الإسراف فى شر خصال البشر وصفاتهم ، وهى الوحشية والانتقام والتشفى والحسد والطمع وشهوة السلطان .

ولست أومن بأن الهيئات المركزية فى الشيوعية قادرة على إنشاء عالم خلو من نزاع الطبقات ، وليس فى مكنتها أن تقيم شيئاً أكثر من حكم بيروقراطى يمتاز

بالتشفى والغيرة والحسد ، وهذا هو ما يجعلنى لا أعتقـد أنه من المتعين على أن أسلم فى حكمى لمشيئتهم ، وأخضع عقلى لسلطانهم مهما يكن من القوة والأثر ، ومهما يكن رأيى من الضعف والعجز والهوان .

ولا يخفى أن الشيوعيين يمثلون حداً من « المركزية » المترامية لم يعرف مثيله فى يوم من الأيام ، فإن الحزب السياسى — وهو الحزب الأوحد — يقوم نفسه على المركزية ، ولـكنه يعتمد فى التوجيه على حفنة من النـاس ، كما أن جميع وظائف الدولة وفروعها الأخرى مركزة أيضاً معتمدة على التوجيه السياسى .

وليس معنى تركيز الفنون فى خدمة السياسة إلا الدمار للفن فى النهاية ، والخراب « المستعجل » لـكثير من الناس حتى ولو تعذر تعريض السلطة المركزية التى يحميها الشرطة للخطر . والواقع أن الفنون فى روسيا مدمَّرة فعلا مُخرَّبة ، وأن الشيوعيين أنفسهم أحياناً يعترفون بأنها كذلك حقاً ، وهو اعتراف يثير الدهشة ، ويستولى على النفس منه العجب ، وقد نبأنى أيليا إهرنبرج ونحن فى باريس عام ١٩٤٦ أن الروس لا يرتضون الاشتراك فى معرض رسم دولى إذ ليس لديهم رسامون مجيدون ، وأن القصة اليوم هى القصة « الأمريكية » ، بغير منازع ، وأن الروس لا يتفوقون إلا فى الموسيقى ، ولـكنى سمعت شيوعياً مجريا فى العالم ذاته يقول إن الروس دمروا الأدب فى روسيا وقضوا على الرسم ، وهم اليوم يقضون على الموسيقى .

ولا مراء فى أن «الفنان» هو فى الواقع أسمى الأفراد فى المجتمع شعوراً ، وأرقاهم وأنبلهم أحاسيس ، فليس له رأى عام أو فـكرة مشتركة فى حاجات البشر ومظاهر نشاطهم، ولـكن له بصيرة عميقة تتغلغل فى أغوار الجوانح وأعماق التجارب ورغد الناس وبأسائهم ، وأفراح الأفراد واتراحهم، والقول بأنه « فردى » فى تفكيره وإحساسه ، هو نقيض القول بأنه إنما يخلق من نفسه لأجل نفسه ، ولـكن الجدير بأن يقال عنه هو أنه يخلق من تجاربه ومشاهداته التى تتصل أوثق الصلات بتجاريب خلق كثير من الناس ومشاهداتهم ، وأن مايخلقه ليس مجرد تعبير عن مطالب المجتمع وحاجاته .

ومن هنا كان الأدب والفن « شاهدين » على ظروف البشر وأحوالهم فى ظروف خاصة ، وزمان معين ، ومكان بالذات ، وليس إخضاع التجارب الفردية للتعميم إلا احتجاز البشرية ومنعها من الشعور بذاتها كمجموعة أفراد يعيشون معاً فى حدود معايشهم الخاصة ، ووجودهم الشخصى ، وحياتهم المستقلة ؛ ومن الصعب أن يعتقد أحد أن السلطة المركزية فى الدولة ، التى تحرم الكتاب وأهل الفنون من حرية التعبير عن إلهامهم ومشاعرهم المستدفقة ، لمجرد أنها تتنافى مع سياستها ، تملك من الحيوية والقوى الأدبية ما يمكنها من إسعاد الناس وتوفير أسباب الرغد لهم ، لأن كل ما لديها هو أداة « ميكانيكية » ودولاب ، ونظام آلىّ يقوم مقام الحياة والروح ، فلا غرو إذا كان تدمير حرية الفنون ضرباً من الجنون كتدمير حرية الفرد ، فى أذنيه ، ليسمع من الأصوات ما يحسها بعقله ، ويستشعرها بروحه ، والاستعاضة عنهما بمكروفونيين مجهزين بحيث لا يسمعان إلا أوامر الدولة وتوجيهاتها ، ولا يصيخان إلا إلى ما تذيعه مجاهر الدولة وميكروفوناتها الضخمة الصاخبة .

ولكن تدمير هذا النوع من الحرية لا يزال يجد شفيعاً يبرره فى القول السائر وهو أن الحرية هى « اعتراف بالضرورة » ،وما حرية الضرورة السياسية إلا ضرورة الدولة من حيث جعل مطالب الحياة « جماعية » ، وإحالة الإنسان مخلوقا « جماعياً » فحسب ، ولكن حرية الفنون إنما تمثل « فردية » كل مخلوق بشرى ، وإذا لم يكن الفن كالسياسة ، فلا يزال سياسياً من حيث توسيعه نطاق فكرة الحرية البشرية وهى « عملية » من شأنها أن تغير رأينا فى الحياة جيلا بعد جيل ، وتؤثر على مر الزمن فى أهداف المجتمع السياسية .

ورب ناقد معترض يقول إن هذا المقال هو أقرب ما يكون إلى نقد موجه إلى شخص ، منه إلى نقد موجه إلى الشيوعية ذاتها ، فليت المعترض يقول هذا حقاً فيما أوردته عليك ، لأننى فى الواقع أردت أن أنتقد نفسى فى صلتها بالشيوعية ، لا نقد الشيوعية نفسها ، لأن ذلك عمل لا أمل فيه ، ومهمة لا رجاء منها ، فان الشيوعية

تعتقد أن المجتمع يمكن تغييره بتحويل الأفراد إلى أدوات أو « ما كينات » لتغيير المجتمع ، فإن أحس أحد بسخط من المجتمع فى شكله الحاضر ؛ كشأنى أنا اليوم ، فليس فى استطاعته أن ينتقد هذا الرأى ، وإنما يستطيع أن يربط نفسه به ، ويتخذ منه وسيلة لنقد نفسه واختبار معتقداته ، وهذا ما حاولته فى هذا البحث .

وكلما عدت بالخاطر إلى الماضى بدا لى أن انتقادى لنفسى بدأ عندى من أول حديث جرى بينى وبين هارى بوليت حين مضى يحدثنى عن ضرورة كراهية «الرأسمالية»،والواقع أننى لم أشعر بهذه الكراهية فى جوانحى، وإنما وجدتنى مدفوعاً بشعور اجتماعى وشخصى بأنى مخطىء مذنب ، وقد حملنى هذا الشعور أولا على أن أتحيز لناحيــة معينة ، وأشعرنى ثانياً بأنه فى إمكانى تطهير نفسى من « فردية » غير عادية من طريق التعاون مع الحركة العمالية .

وقد تبين اليوم لى أننى لم أكن بحاجة إلى الانضمام إلى الشيوعيين لأنى كنت قد ملت فعلا إلى ناحيــة ، وتحيزت إلى جانب ؛ وكانت تلك النـاحية ، أو ذلك الجانب ، هى ناحية كل من آمن بالعدالة الاجتماعيــة ، والحرية ، وقول الحق فى الوسائل التى لا غناء عن اتخاذها فى سبيل تحقيق هــذه الأهداف ، فاذا عجز معاشر الساسة عن جعل جانبهم صادقاً نزيهاً متفتحاً لا شبهة فيه ، فلا مندوحة للمستنيرين عن مناصرة أقل الساسة غشاً وخيانة ، من طريق معاونتهم وانتقادهم والتعريض بوسائلهم وأساليب العنف والكذب والمَين التى أبوا إلا استخدامها .

لقــد كان الصراع الذى انبرى له الأحرار الأطهـار فى عام ١٩٣٠ منحصراً فى مشكلة الوسائل والغايات ، وكانت حجتهم أنك إذا أردت الظفر بسلطان فليس أمامك غير التوسل بوسائل سيئة ، وإنكار ذلك ، والبراءة منه فى غضب ظاهر .

وكان واجبى ككاتب ومستنير أن أبين هذه الحالة وأصور هذا الموقف .

وقد فعلت إلى حد ما ، بعد خطئى الأول ، وغلطتى من البـداية ، وقد رحت أحمل على نفسى وألومها وأنتقدها ، لا لما أغلو بقيمته عندى فحسب ، بل لأنه واجبى ، فقد شعرت « بوجيعة » اجتماعية ، وأحسست أيضاً فى دخيلة نفسى بحقيقة شخصيتى

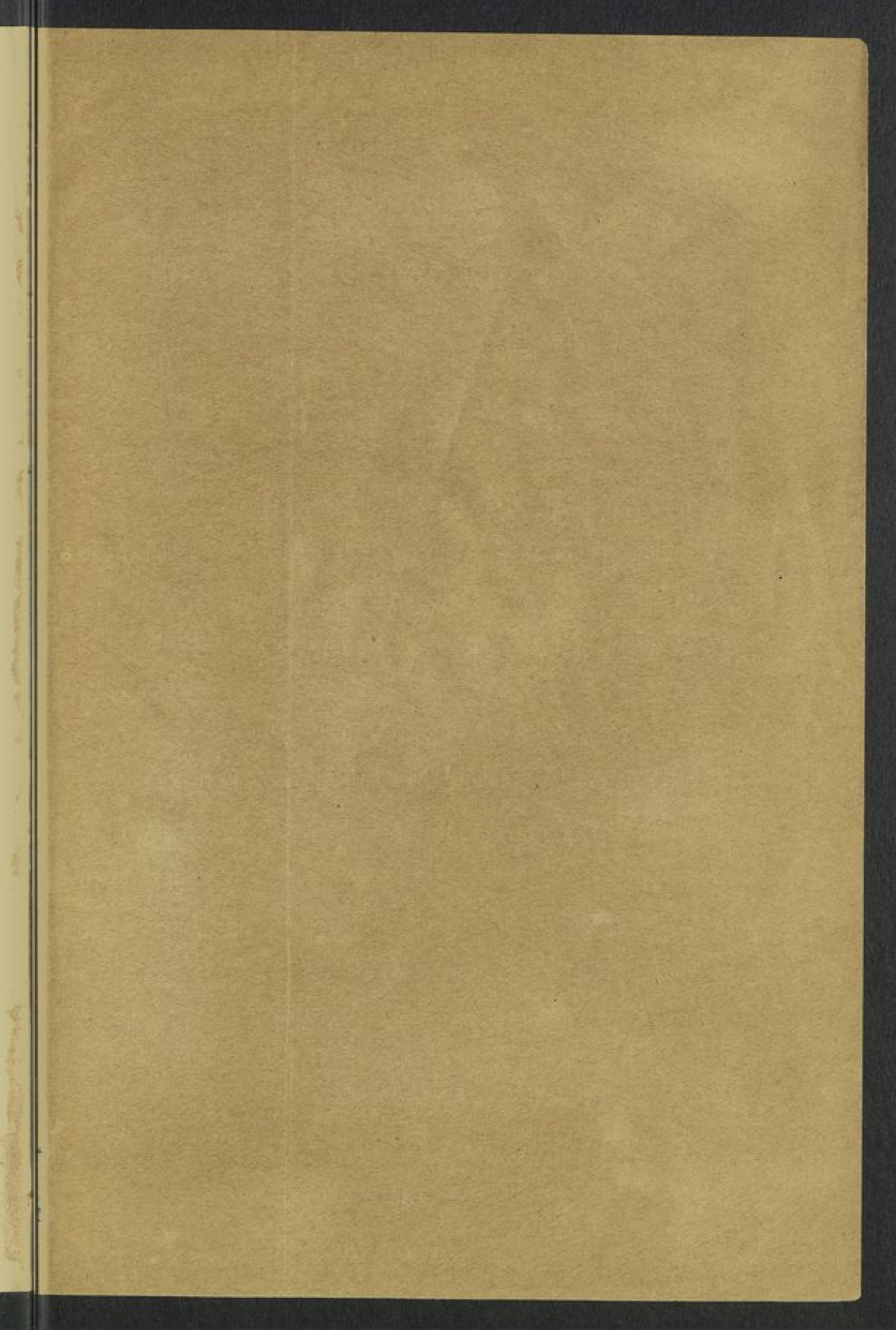
وطبيعتى ، وأدركت أنهما لا تلائمان هذه الحركة الاجتماعية ولا تتفقان معها .

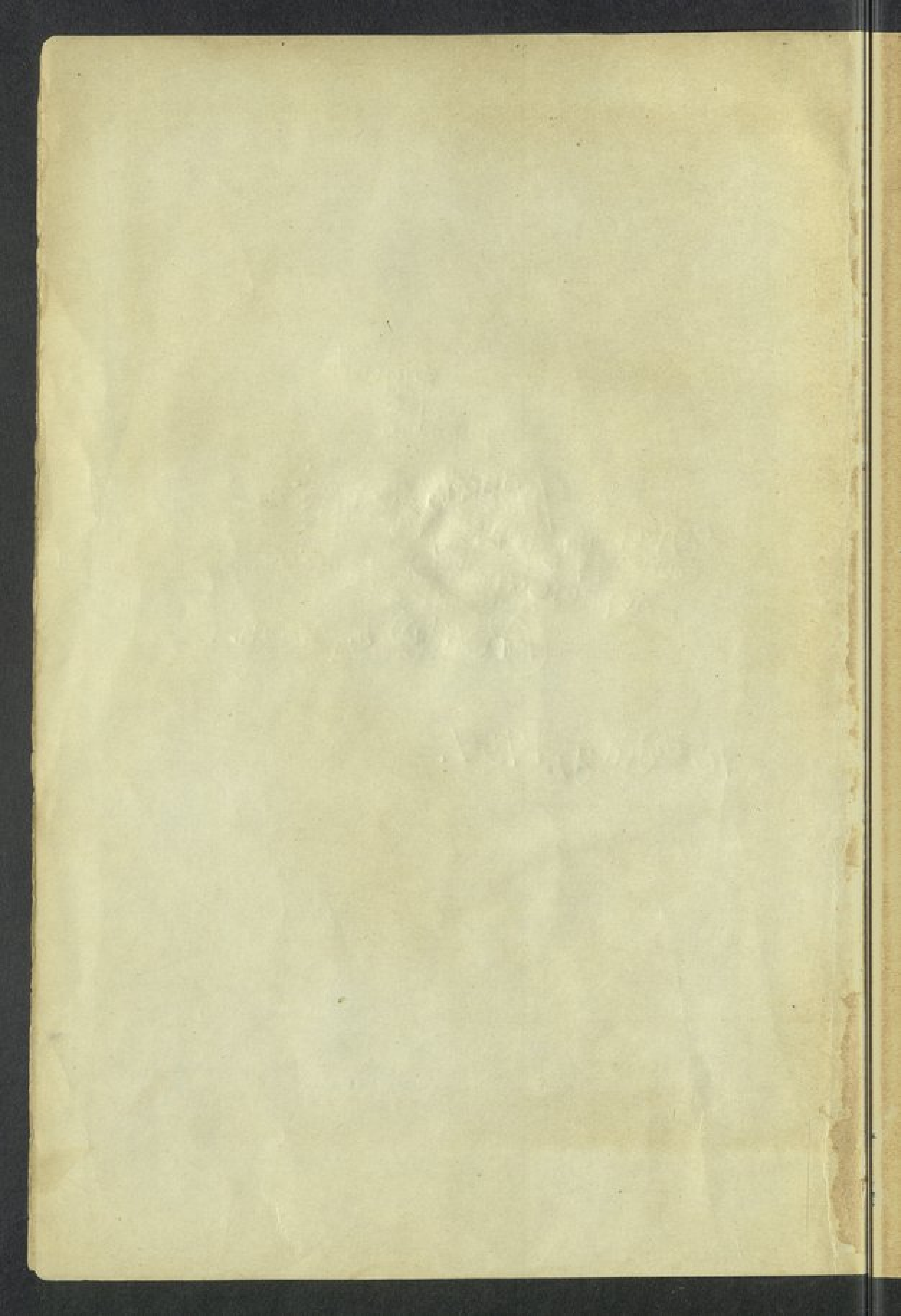
لقد تركت نفسى تندفع إلى الشعور بذنبى وخطيئتى ، لا من وجهة ترددى ، بل من وجهة الحب والرحمة والولوع بالحرية الفردية ، التى قربتنى من الشيوعية وأصحابها ؛ وقد رأيت الشيوعيين يقولون لى : إن هذه المشاعر « بورجوازية » ، وإن الشيوعى الذى انضم إلى الحزب لا بد من « إخصاء » عقله حتى لا يعود يفكر فى الأسباب التى جعلته شيوعياً .

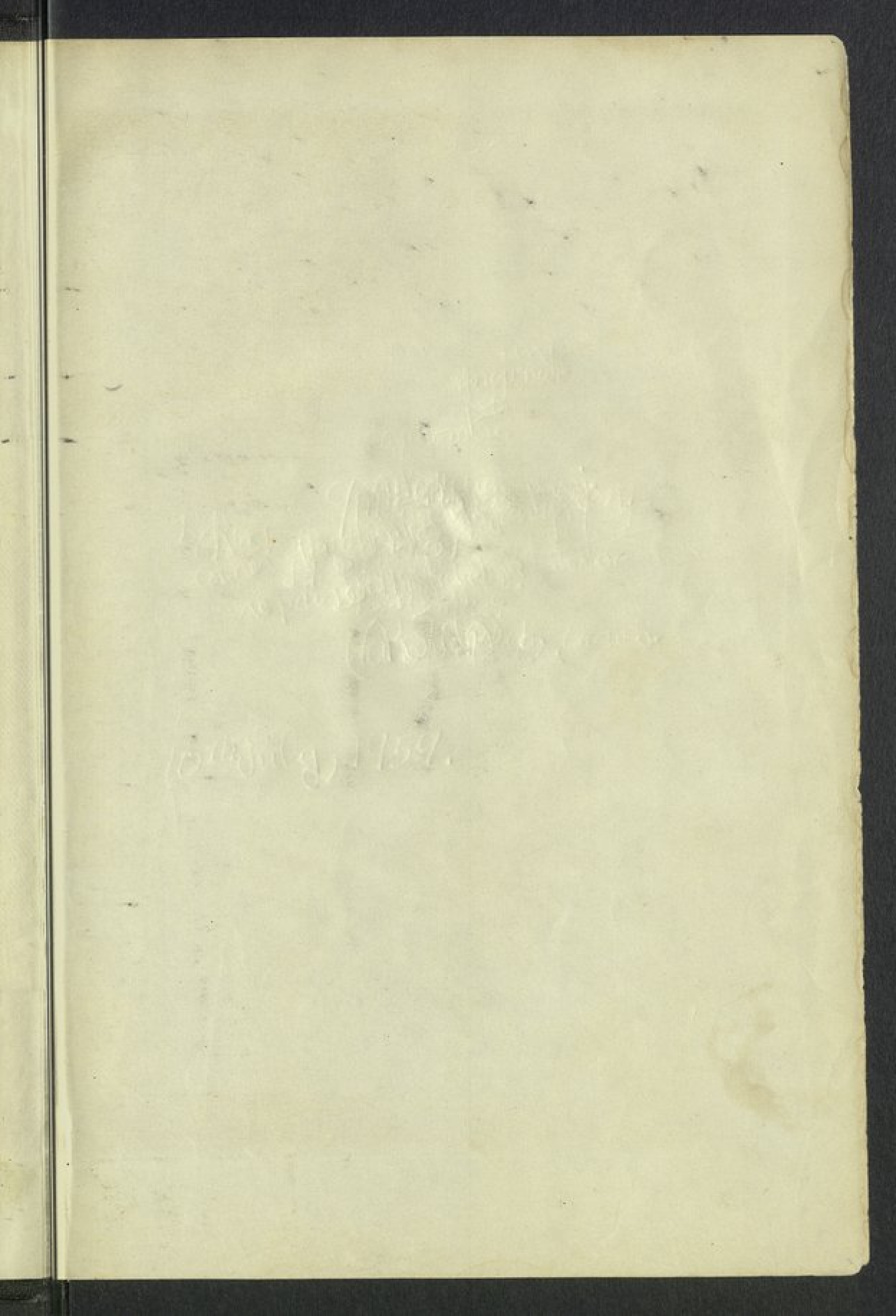
وقد بدا لى اليوم جلياً أن واجبى يقتضينى أن أبين الرأى الذى أؤيده دون تحيز إلى جانب ما .

وليس كلا الجانبين فى موقف العالم اليوم يمثل ما أعتقد أنه الحل الأوحد لمشاكله وما على الشعوب والأمم المحبة للحرية إلا أن تتزعم حركة عامة فى سبيل تحسين أحوال الملايين من البشر الذين يهتمون بالخبز أكثر من اهتمامهم بالحرية ، حتى يتسنى انتشالهم من وهدتهم إلى مستوى من العيش يحبب إليهم الاهتمام بالحرية والخبز معاً .

إن مصلحة القلائل الذين يُعْنَون بقيم الحرية ينبغى أن تتفق مع مصلحة الأكثرين الذين يحتاجون إلى الخبز ، وإلا توارت الحرية إلى الأبد ...!؟









335.4:K78mA
كوستلر ،آرثر
المعبود الذي هوى. دراسات في الشيوع
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01020130



AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866